

سيرة مدينة

حقوق الطبع محفوظة

المؤسسة العربية
للدراسات والنشر

المركز الرئيسي :

بيروت ، ساقية الخنزير ، بناية
بيج الكارلتون ، ص.ب. : ٥٤٦٠ - ١١
العنوان البرقي : موكتاب ، هـ ٨٠٧٩٠٠ / ١
تلكس : LE/DIRKAY ٤٠٦٧

التوزيع في الأردن :

داو الفارس للنشر والتوزيع : عمان
ص.ب. : ٩١٥٧ ، هاتف : ٦٠٥٤٣٤ ، فاكس
٦٨٥٥٠١ - تلكس ٦١٤٩٧

الطبعة الأولى

١٩٩٤

عبد الرحمن منيف

سيرة مدينة

عمان في الأربعينات



المؤسسة
العربية
للدراسات
والنشر

كلمات اولى

هذا الكتاب عبارة عن سيرة لمدينة ، هي عمان ، وليس سيرة ذاتية لكتابه ، وإن تقاطعت السيرتان ، بسرعة وجزئياً ، في بعض المحطات .

كما انه ليس رواية ، لأن الخيال فيه محدود ، وإن استعار من الرواية بعض ادواتها ، كطريقة العرض والبناء .

انه كتاب يحاول ان يستعيد ملامح مكان في زمن معين ، اعتماداً على الذاكرة والذاكرة ، مهما حاول الانسان الدقة والامانة ، خداعة ، شديدة المكر ، لأنها تقول الاشياء التي تعنيها ، ما تعتبره اكثر اهمية ، ضمن مقاييسها الخاصة لذلك فإن بعض الوقائع الواردة ربما لم تحصل بهذا الشكل تماماً ، لكن هكذا بدت لمن رآها ، او هكذا استقرت في الذاكرة ، دون ان تكون هناك اية نية او رغبة بتحويلها ، او اعادة تشكيلها ضمن نسق مختلف

هذا أولاً ، وثانياً: لا يدعي هذا الكتاب انه «تاريخ» لعمان بالوقائع والارقام، إذ لم يعتمد على المراجع والمصادر ، ليس استهانة بها ، وإنما ارتأى قراءة اخرى، موازية، من خلال عيني انسان عاش ذاك الزمن في ذلك المكان، وافترض، بالتالي ان من المفيد ان «يقول»: كيف رأى الاشياء، كيف عرفها او تعرف عليها ، دون مقارنتها مع المراجع والمصادر والارقام ، باعتبار ان هذه القراءة تتيح امكانية جديدة للكشف والاكتشاف ، ومن ثم لاعادة ترتيب الاحداث والوقائع بطريقة مختلفة، قد تساعد على رؤية اضافية.

ان المكان، في حالات كثيرة، ليس حيزاً جغرافياً فقط ، فهو ايضاً البشر، والبشر في زمن معين. وهكذا نكتشف علاقة جدلية بين عناصر متعددة، متشابكة ومتفاعلة . فالمكان يكتسب ملامحه من خلال البشر ، الذين عاشوا فيه . والبشر هم تلخيص للزمن الذي كان ، وفي مكان محدد بالذات، وبالتالي فقد اكتسب الناس ملامح وصفات ما كانوا ليكتسبوها لولا هذه الشروط . وحين اصبحت لهم هذه الصفات أثروا في المكان والزمان ، كما تأثروا بهما ، مما ينعكس ، في النتيجة ، في اعطاء الاماكن والازمنة ملامحها ، كما ان

تلك الامكنة ، وتلك الازمان ، ستؤثر بدورها في ان يكون ناسها بهذا الشكل، وحين يكون الناس هكذا، فإنهم يؤثرون فيما حولهم ويتأثرون.

وحديث الانسان عن المدينة التي تعني له شيئاً خاصاً، بمقدار ما يبدو ممكناً فإنه شديد الوعورة، وبعض الأحيان عصي، لأن السؤال الذي يطرح نفسه: أي شيء يمكن أن يقال، وأي شيء يترك؟ وهذا الذي قيل، وذلك الذي تم تجاوزه، أهو ما يجب أن يدون ويبقى، أم أن ما ترك كان الأجدر بالتدوين، ومن ثم البقاء؟

ليس ذلك فقط، إن الكتابة عن مدينة الماضي التي يحبها الانسان تحول هذه المدينة إلى كلمات، والكلمات ذاتها، مهما كانت بارعة، زلقة، خطرة، مأكرة، وغالباً لاتتعدى أن تكون ظلالاً باهتة لحياة، أو في أحسن الحالات ملامسة لها من الخارج، أو مجرد اقتراب، علماً بأن الحياة ذاتها كانت أغنى، أكثر كثافة، ومليئة بالتفاصيل التي يصعب استعادتها مرة أخرى.

ثم ماهو المقياس الذي يجب أن يعتمد في الاختيار؟ ماهي أهمية الأشياء التي تقال وتلك التي تم تجاوزها؟ ولن؟

والمدينة، أية مدينة، هل لها صورة واحدة يراها الجميع بنفس الطريقة؟

ثم.. هل إن المدينة مجرد أماكن وأشياء وأسماء، وحتى بشر؟ وكل هذه، هل هي في حالة ثبات أم تتغير في كل لحظة، كما يعاد تشكيلها في الذاكرة مرة بعد مرة، خاصة والزمن يمضي، وتتدخل أسباب وعوامل كثيرة ومؤثرة؟

وهل من حق الكاتب أن يجبر الآخرين على رؤية الأماكن والبشر كما رآهم هو، أو كما أحب أن يراهم؟ وهل كان هؤلاء هكذا فعلاً، أم أن العواطف والمسافات غيرت في الأشكال والأحجام، وغيرت في المواقع أيضاً، تبعاً لما يعتمل في العقل والقلب؟

والكتابة، خاصة من هذا النوع، عن الأماكن والبشر، ألا تعتبر بشكل ما، بنسبة ما، انحيازاً يبعدها عن الموضوعية؟ ألا يعتبر الكاتب صاحب هوى أو غرض، وربما حالماً أو واهماً، وهو ينتقي، وهو يعطي الصفات؟

وإذا كان من الممكن التسامح مع الأماكن، باعتبارها محايدة - هل هي كذلك فعلاً؟ وقد تشي بها أمور كثيرة، وربما يستطاع إعادة تصويرها أو تركيبها بأقل قدر من التحريف، فماذا عن البشر الذين لايتوقفون لحظة واحدة عن التغير؟

فلو افترضنا، جديلاً، أن من السهل وصف جبل أو نهر، قلعة أو جسر، فكيف

الحال بالنسبة للبشر، وهم في حركة دائمة وتغير مستمر؟ والحركة والتغير كيف ننظر إليهما، من أية زاوية، في أي وقت، وبأية عواطف ومن أية مسافة؟ وماذا إذا قلنا شيئاً اليوم وقلنا شيئاً آخر غداً عن هؤلاء الناس، هل فيما نقوله تجنٍ أو قسوة، باعتبار أن عواطفنا هي التي تملي وتتكلم؟

وما نسجله.. هل هو حكم قيمة أم تصوير لإنسان في لحظة معينة، في حالة معينة، وبالتالي لا يعني أن يكون غير ذلك، أو أكثر من ذلك، في حالات أخرى؟

حين تتداخل الصور وتتزاحم يصعب على الإنسان أن يختار، وأن يكون متأكداً، ويصعب أكثر من ذلك أن يكون بلا عواطف أو غير منحاز، لذلك لا بد لمن يقرأ أن يكون حذراً، وقد يكون مطلوب منه أن يعيد تشكيل المشهد ضمن قناعاته ومعرفته والتجارب التي عاشها !.

أغلب ماتقدم أسباب أحاول أن أقنع نفسي بها، قبل أن أقنع الآخرين، لكي ادفع هذه الصفحات وترى النور!

لقد ترددت كثيراً في التعامل مع مادة هذا الكتاب، لأن من أصعب المواقف أن يكون الإنسان شاهداً، وأن يكون مطمئناً.

ليس ذلك فقط، من الأمور الصعبة، أيضاً، لكاتب تعود كتابة الرواية ألا يترك مساحة للخيال، أو أن يتعامل مع الأشياء المكتملة الناجزة، لأن الكتابة، بالنسبة لي، وهكذا أمارسها، اكتشاف مستمر، وبحث لا يتحدد ولا يتجسد إلا بالكتابة ذاتها. أو بكلمات أخرى، لم الجأ، بعد، إلى كتابة شيء أعرفه معرفة تامة، أو وقع بالفعل، إذ بمقدار ما يبدو هذا ناجزاً، كاملاً، واضحاً، فإنه بالنسبة لي عصي وغير مغرٍ، ولذلك يجب ألا أكتبه، أو على الأقل يجب ألا أكتبه الآن.

هكذا اضطرت، مرة بعد أخرى، لتأجيل الكتابة عن عمان، على أمل أن يأتي وقت أكثر ملاءمة، لكن هذا الوقت قد لا يأتي، فالحياة الطائشة، الشديدة الغدر، تسرق الأشياء الجميلة، تسرق الأماكن والبشر، كما تقرض الوقت، هذا السلاح الذي نحاول بواسطته أن نقاوم، لكن هو ذاته يتسرب، يتفتت ويتلاشى، ولا يبقى سوى الذكرى، ذكرى الأيام التي مرت. والذكرى بمقدار ما هي حارس يحمي الروح، فإنها الداء الذي ينخرها، بما يخلفه من لوعة، والتي تزيد يوماً بعد آخر!

إذا استبدت الذكرى بالإنسان تخضع وتغيره، يصبح أسيراً لحالة لا يقوى على مقاومتها، ويصعب عليه الاستسلام لها، لأنها بمقدار ما تبدو، في لحظات

معينة، جميلة، فإنها موجعة، خاصة وهي تحمل معها هذا الكم الكبير من الشجن على أيام كانت ثم مضت إلى الأبد، كما تجرّ معها أشياء يفترض الانسان أنها انتهت، وأنه تجاوزها، لكن وهي تعود هكذا حاملة معها الأصوات والاشارات وروائح الأمكنة والأجساد والكلمات، يولد من جديد الحنين المجلول بالأسى والرغبة في أن تعود الأشياء كما كانت في يوم من الأيام.

إن الذكرى، مهما كانت الصفة التي نعطيهها لها، حالة تجعل الانسان، أي انسان، أقرب إلى الاستسلام، ومسكوناً بالماضي وناسه. فإذا كان فاعلاً في لحظة وقوع الحدث، وله موقف منه، أيّاً كان هذا الموقف، فإنه، وهو يستعيده، يصبح ضعيفاً، مسلوب القدرة، كما تصبح هذه الذكرى ماضياً، ولذلك فإن ثقل الزمن، ومراراته، يهبطان عليه من جديد كما يهبط الليل.

وإذا كانت الذكريات تعني صاحبها بالدرجة الأولى، وقد لاتعني الآخرين، فلماذا يراد الآن توريث هؤلاء الآخرين؟ لماذا يراد اعادة تمثيل المشهد بعد أن أسدل الستار وانفض المتفرجون؟

التاريخ؟ اعادة رسم الأمكنة والأزمان التي مرت؟ تعزيز ذاكرة الأجيال الجديدة؟

إن أية اجابة تحمل مقداراً من المبالغة. فالشيء العزيز، أو الهام، في إطار استعادة الماضي، نسبي، وفي بعض الحالات خداع. لأن العزيز أو الهام مرتبط بمجموعة من الشروط التي كونته، أو أعطته هذه المنزلة، كما أن تحريكه من موقعه، أو تغيير شروطه، ينتقص منه ولايضيف إليه، وبالتالي يصبح الكثير مما يقال تعبيراً عن رغبة أو عن وهم، وربما شكلاً من أشكال التواطؤ، خاصة حين ندعي أن «الحقيقة» أخذت هذه الصورة وحدها.

لذلك فإن معظم مافي هذا الكتاب مادة أولية، ومن حق الكثيرين أن تكون لهم وجهات نظر مختلفة كلياً أو جزئياً، وهذا ماجعلني أغامر بتدوين بعض مابقي في الذاكرة، ومحاولة تحريض الآخرين على أن يدلوا بشهاداتهم.

كلمات أخيرة يجب أن تقال:

بعد غياب دام سبعة وثلاثين عاماً عن عمان، عدت إليها، بدعوة من مؤسسة شومان عام ١٩٩٢، ولقد أصرّ الصديق الدكتور أسعد عبد الرحمن أن يكون موضوع حديثي إلى الجمهور: "عمان في الأربعينات"، باعتبار أنني عشت ذلك العقد في تلك المدينة.

كان هذا الحديث بداية "تورطي"، خاصة وإنني قطعت وعداً أن أكتب وفاءً لدين علي لهذه المدينة، ثم جاءت دعوة الجامعة الأردنية بالتعاون مع المركز الفرنسي للأبحاث Ceramoc، وطلب إليّ مدير هذا المركز، المسيو جان أنوييه، المشاركة في ندوة عن «عمان - المدينة والمجتمع»، فكانت ورقة «عمان مدينة المياه».

لقد حاولت، في هذا الكتاب، أن أختار، وأن أتوقف عند بعض الملامح والمحطات، وأعرف سلفاً أن ما تركته أكثر مما دونته، وهذا ما أستطيعه الآن! مع الإشارة إنني، وحدي، المسؤول عن الخطأ والسهو، وقد تتاح الفرصة مستقبلاً لاستدراك الكثير مما فات، خاصة إذا ساعد الآخرون في التنبيه وإسعاف الذاكرة.

دمشق أوائل نيسان ١٩٩٤

اول صورة تثب للذاكرة عن عمان البلدة - المدينة يوم مقتل الملك غازي .

قبل هذا اليوم لم تكن حدود البلدة ، كما يراها الاطفال ، تتعدى الاحياء التي يسكنون فيها ، فإذا تجاوزوها فالى امكنة قريبة ، وبصحبة الكبار .

والحياة قبل هذا اليوم ، عادية ، بطيئة ، كأن العالم يبدأ وينتهي داخل كل حيّ او عند تخومه .

أما في ذلك الضحى الربيعي فقد هبط ، بشكل مفاجيء ، صمت ثقیل اعقبه ترقب خائف بعد ان قيل : قُتل الملك غازي!

من الذي قتله ؟ كيف قتل ؟ لا احد يعرف ركض الناس بخوف يشوبه الحزن، تجاوزوا الحيّ دون تردد . وبهمس ، وبإشارات سريعة ، أقرب الى التواطؤ، اتجهوا الى امكنة بعيدة ، الى حيث يجب ان يكونوا .

حين خلا الشارع من الناس، وخيم الصمت، لم يجد الصغير سوى معاذ شقيير، الذي كان في مثل عمره، وكانا متجاورين. كان معاذ، أيضاً، مرتبكاً أقرب إلى الخوف، وكانت عيناه تتساءلان: لماذا ذهب الناس؟ أين ذهبوا؟

بطريقة غامضة اكتشفا، ربما لأول مرة، أن هناك عالماً يتجاوز الحيّ الذي يسكنان فيه، وأن الناس الذين يعرفونهم، والذين لا يعرفونهم، ذهبوا جميعاً إلى هناك، وكان لابد أن يفعلوا مثل الآخرين، فذهبوا .

إنّ الأمكنة الأخرى ليست بعيدة، والناس هناك ليسوا غريباء!

في وقت سابق افترض الصغير، بشكل سرّي، أن هناك أشياء تعنيه وحده، ولا تعني أطفال الحيّ. فأن تكون أمه من بغداد، وأن تتكلم جدته بلهجتها البغدادية دون حرج، بل وتستغرب ألا تكون مفهومة، وتعجب أكثر من ذلك أن لا يتكلم

الآخرون مثلها، في الوقت الذي تحاول أمه، وتجهد نفسها، لكي تتكلم بطريقة الجارات، فتتجح مرة، وتفشل مرة، وكان هذا مثار خوف الجدة واستغرابها وتساؤلاتها ... هذه الأمور، وأخرى غيرها، كانت تعنيه وحده، بما في ذلك بغداد والملك. أما الآن، والملك يموت أو يقتل، فيتبين أن الأمر يعني الآخرين بنفس المقدار

في الأيام الماضية، ولتأكيد الصلة ببغداد، خاصة أثناء مجيء النسوة لزيارة أمه، كان ابريق الشاي، الذي تزينه صورة الملك، يُنزل من خزانة الحائط، وكانت تردد الجدة كلمتين غريبتين: "الخرستانة" مشيرة إلى الخزانة، "والرسم" تعبيراً عن الصورة التي تزين االبريق. لم تكن تكتفي بذلك، كانت تؤكد أن هذا "الرسم" لغازي، ويختلف عن "رسم" فيصل، الذي كان مصوراً على االبريق القديم!

الآن، وبعد أن هبط الصمت الثقيل على الحي، بسبب مقتل غازي، يكتشف الصغير أنه لم يكن وحيداً، أو معزولاً عن الناس أو الأحياء الأخرى، وأن ماحصل يعني الكثيرين، يعني الجميع، رغم أنهم لا يملكون اأباريق تحمل رسم الملك القتل، ولا يتكلمون مثل جدته.

هذه هي المرة الأولى التي يعرف فيها امتداد الحي واتساعه، كمكان وكبشر، وأنه يتجاوز بيت أبو شام والحجة أنيسة، وبيوت الحي القائمة في ذلك المنحنى الموازي لشارع فيصل. وأن بغداد بمقدار بعدها كمكان ولهجة، فإنها شديدة القرب في نفس الوقت.

هذا هو إذن أول اكتشاف حقيقي للمدينة، وصدف أنه ترافق واصطدم بالموت!

بوجل الأرناب يتجاوز الصغيران الشارع غير المعبد، وينزلقان إلى شارع الملك فيصل، وخلال فترة قصيرة يجدان أنهما أصبحا وسط الجموع.

كان الناس يحملون نعشاً ملفوفاً بعلم، ويسيرونها في الشارع العريض. أصوات متداخلة لا يمكن تمييزها أو فرزها، وهي أقرب إلى المهمة القاسية المليئة بالحنن والغضب، مع موسيقى لا يُعرف من أين تأتي، وتختلف عن أية موسيقى أخرى، وتظل هكذا إلى أن يقطعها بكاء حاد موجوع يرتفع ويعلو فوق جميع الأصوات، فيستثير حزناً اضافياً لا يلبث أن يتحول إلى نحيب.

يتطلع الصغار إلى كل شيء بخوف. يستغريون أن يبكي الرجال. تتزاحم الأسئلة. وحين يُعرف أن النعش المحمول فارغ تتكاثر الاجابات: "جاءت الملائكة وحملت الميت إلى السماء" "الشهداء يُقتلون ولكنهم لا يموتون" "تحول الملك القتل

إلى طائر". وترتفع الرؤوس بحثاً عن الملائكة، أو عن ذلك الطائر، وحين لا يرى أيّاً منهما يتطلع الصغار إلى النعش البعيد. كان يبدو، فعلاً، كأنه طير كبير، أو مثل زورق، بحركته المتموجة المضطربة، وهو يتنقل على راحات الأيدي. وحين تتعالى أصوات النحيب والغضب من شرفات شارع الرضا، وكان النعش قد وصل إلى هناك، تسيطر الرهبة وينتشر البكاء عالياً، ولا يخفّفه إلا الصوت الحازم الرتيب الذي يعلو على جميع الأصوات: لا إله إلا الله والشهيد حبيب الله.

يندفع الناس بثقل، يترافق بحزن قهار. يمتلئ الجو بالرهبة أكثر من قبل، وتسيطر رائحة الموت فوق جميع الرؤوس. يبكي الصغار بخوف، وتبدو لهم استحالة العودة إلى بيوتهم سالمين. إنها المرة الأولى التي يذهبون إلى أمكنة بعيدة عن الحي، بمفردهم، لذلك تبدو هذه الأمكنة غريبة قاسية، ولا يعرفون إن كانوا رأوها سابقاً مع الكبار، وهل سيعودون أم سيتلقفهم الموت.

سوف يمرض الصغير بعد أيام، وستؤكد الجدة أن السبب الحقيقي لهذا المرض "إن الولد اخترع وحصر"، لكن الحاجة أنيسة تتدخل في الوقت المناسب وبحزم: "المسألة لاعلاقة لها بالخوف، الولد مريض بالحصبة". وسوف يدثر الصغير بأغطية صوفية ثقيلة، يغلب عليها اللون الأحمر، وسيغرق بالحمى والهذيان في ذلك الربيع الدبق العابق، والحزين أيضاً، وسيقال، لاحقاً، أن الصدفة وحدها، وتدخل الحاجة أنيسة، كانا السبب في إنقاذ الصغير من موت أكيد، وسوف يذبح ديك بمناسبة شفائه!

لم تكن الحاجة أنيسة قابلة الحي، وأحياء كثيرة في عمان، فقط، كانت تساهم بالتطبيب أيضاً، لكنها لاتفعل ذلك إلا في حدود ضيقة، وحين تكون متأكدة. أما إذا ساورها الشك، أو رأت أن الحالة دقيقة أو خطيرة، فتطلب أن يتدخل أحد طبيبين: الدكتور ملحس أو الدكتور سوران.

لقد ساهمت الحاجة أنيسة باستقبال المئات من أطفال عمان في فترة الثلاثينات وما بعدها. كانت امرأة رضية طيبة، وجهها مليء بالضحك، لها ولدان: معاوية ومعاذ - معاوية، الكبير، أخرس، شديد الرغبة بمساعدة الآخرين، مسالم، إلا حين يغضب، إذ يتحول إلى انسان شرس لا يتردد في أن يضرب ويكسر دون أن يقيم للنتائج أي حساب!

قبل أن تنتهي الأربعينات سوف يصبح معاوية خياطاً بارعاً. أما معاذ، وبعد انتقال الصغير من الحي، ثم من المدرسة العبدلية، فسوف تنقطع أخباره في خضم هذه الحياة التي لا تترك للكثيرين فرصة التقاط الأنفاس.

أم الطاهر، والدة الحاجة أنيسة، جدة الحيّ كله، هكذا يناديها الكثيرون، حتى الكبار. كانت تطيل الجلوس إلى جانب النافذة، في الطابق الثاني، ترقب كل شيء يجري في الحيّ، وكان يسمع صوته، بعض الأحيان، بلهجتها النابلسية الغميقة، محذراً طفلاً إذا قسا على آخر، أو إذا تلفظ بكلمة نابية!

كان الطبيبان اللذان توصي الحاجة أنيسة بمراجعتهما، في حالات الضرورة، يقيمان بعيدين، ورغم وجود طبيب في مكان قريب، إلا أن أحداً في الجوار لم يفكر باستشارته أو الاستعانة به.

ففي منتصف طلعة العموري، وفي بيت من طابقين، له شرفة دائرية واسعة، كانت عيادة الدكتور ثيودور زريقات وسكنه. في الطابق السفلي العيادة والقنصلية، وفوقهما دار السكن.

يقول الكثيرون أن الاسم الأول للطبيب لم يكن هكذا في وقت سابق، لكن حين عاد، بعد أن أنهى دراسته، ومعه زوجة أجنبية، عاد باسم جديد!

كان الدكتور ثيودور قنصلاً فخرياً لليونان، وربما لدولة أخرى في أميركا اللاتينية، وكان يستقبل الراغبين بالسفر أكثر مما يستقبل المرضى! معظم مرضاه من بدو الكرك ومادبا، وكان يصبر هؤلاء أن تكون الأبر جزءاً أساسياً من العلاج، ويرى أن بعضهم لم يكن يتردد في أن يستلقي على الأرض، ويرفع رجله إلى الأعلى، ليسري دواء الأبرة في الجسد بسرعة ويعجل بالشفاء!

أما لما هذه الجفوة أو المسافة، بين هذا الطبيب وسكان الحيّ، فكل إنسان يقدم الأسباب من الزاوية التي يراها: "متكبر: وجهه يقطع الرزق" يفهم بالشؤون القنصلية أكثر مما يفهم بالطب".

ومما يزيد في الجفوة بينه وبين سكان الحيّ الملابس الغربية التي يرتديها، إذ ما يكاد فصل الصيف يبدأ، ومثلما تتغير الطبيعة بتغير. يخلع الملابس القاتمة، والتي يغلب عليها اللون الرمادي أو الأسود، ويستبدلها بملابس بيضاء، شديدة الغرابة والترف: قبعة من الفلين تحجب رأسه وقسماً من الوجه والرقبة، وهي بيضاء، ناصعة البياض. بذلة بيضاء، حذاء أبيض، جوارب بيضاء، وفي أغلب العصاري، حين يخرج للتمشي مع زوجته، يلبس قفازات بيضاء أيضاً! قيل لكي لا يضطر لمصافحة أحد، وقيل أن القناصل هكذا يفعلون بناء لأوامر من حكوماتهم! أما الخبثاء، أو الذين لا يكونون له الود، فيؤكدون أنه يفعل ذلك بناء لتعليمات مشددة من زوجته!

الدكتور ثيودور بمقدار ما هو كثيف الوجود في تلك الطلعة، خاصة حين يرفع

العلم في المناسبات والأعياد، ويظل يذرع الشرفة الواسعة، ويتطلع، بطرف عينه، إلى المارة، لكي يتأكد أنهم رأوا العلم المرفوع، فإنه بنظر الكثيرين، خاصة من أهل الحي، غائب، أو شخص غير هام.

بالمقابل فإن الدكتور سوران، وكانت عيادته في مدخل سوق الخضار، لا يوجد أحد في عمان أو حوالها إلا ويعرفه ويكنّ له الود، كما أن عيادته مليئة بالبشر في كل الأوقات، وكانت الممرضة القصيرة السمينية، وهي توزع القطع الحديدية ذات الأرقام، توصي كل مريض أن يحفظ رقمه، لكي يدخل حين يأتي دوره، لكنها تجد صعوبة بالغة إذا خرج مريض من غرفة الفحص وحبان وقت دخول آخر، إذ يهب الجميع رافعين "حدايدهم"، وكل يدعي أنه صاحب الدور، فيطل الدكتور سوران بصلعته الكبيرة، طالباً الهدوء والنظام، وبعد أن يتأكد من صاحب الدور، يقول بلهجة أرمنية مرحة، مخاطباً الآخرين، ولكي يطمئنهم أيضاً:

— أنا ماعندي بك أو باشا، كل واحد بدوره!

أما الدكتور قاسم ملحس، وموقع عيادته في منتصف شارع الرضا، فكان صاحب رسالة تربوية بمقدار ما كان طبيباً، إذ لا يتردد في تأنيب المرضى بطريقة قاسية، لاتخلو من سخرية، خاصة وأن اللثغة في لسانه تخفف من تلك القسوة، إذ يبدو وكأنه يمزح. كان يفعل ذلك حين يكتشف إهمال المرضى أو قذارتهم.

علاقات الدكتور ملحس بالكثيرين ودية، وبعض الأحيان حميمية. لم يكن يتردد في أن يحمل حقيبته الطبية ويذهب إلى أفقر الأماكن وأبعدها. وفي تلك الزيارات يبدي ملاحظات حول نظافة البيوت، وضرورة اغتسال الأطفال، ويوصي، بالحاح، أن يُقلَّ من وضع السمن البلقاوي في الطعام، ولا ينسى أن يتكلم في السياسة مع الرجال!

إلى جانب هذين الطبيبين، كان في عمان، أوائل الأربعينات، الدكتور فرعون، بعيادته المطلة على ساحة المسجد الحسيني.

كانت العيادة، بالإضافة إلى استقبال المرضى، خاصة من أهل الشام، تستقبل شرفاتها قادة المتظاهرين الذين يبحثون عن مكان ملائم لمخاطبة الجماهير التي تتجمع في ساحة الجامع الكبير، بعد أن تنتهي صلاة الجمعة. كانت شرفة العيادة مكاناً نموذجياً، لسعتها ولقربها من أبواب الجامع، وأيضاً، لأنها تطل على الشارع الجانبي المؤدي إلى المخفر المركزي للشرطة، والذي يحدد مدى احتمالات المجابهة فيما لو تطورت الأمور!

بالإضافة إلى هؤلاء الأطباء، كان هناك، أيضاً، الدكتور ثيزيو الطلياني ومستشفاه.

ففي تجويف، كالحضن، وسط جبل الأشرفية، كانت تنزرع المستشفى الإيطالي. حين يسقط المطر تتألق المستشفى بحجارتها البيضاء، وبامتدادها العريض، وكأنها طائر ضخم فرد جناحيه، وسط حديقة كبيرة من أشجار الصنوبر والسرو، هذا عدا عن الزهور الجميلة في المقدمة والمداخل.

يشبه الدكتور الطلياني واحداً من الكهنة القدامى: طويل، مملوء، له لحية قصيرة، مشدبة، يرتدي باستمرار مريوله الأبيض، وتتدلى على صدره السماعة الطبية. لم يكن يرى وحيداً، فعالباً ماتكون حوله مجموعة من الراهبات الإيطاليات اللواتي يرفلن بثياب بيضاء طويلة، وكأنهن في معبد، أو إلى جانب أحد الكهنة. بعد أن يكمل فحوصاته، أو بعد أن يجري عملياته، وكان جراحاً بارعاً، تتولى الراهبات الباقي، إذ يشرح للمريض حالته، وما يجب أن يفعله أو أن يمتنع عنه. كانت طريقتهن في الشرح والتوضيح تثير المرح الذي يصل، بعض الأحيان، إلى حد الضحك، كل ذلك من خلال لغة عربية مكسرة، وحين لا تكفي، يلجأن إلى الوصف أو التمثيل. وكان ماينقل عن هاته الراهبات من الكلمات أو الحركات يملأ جزءاً من السهرات، الأمر الذي يُنسي المريض الألم بعض الشيء، ويخفف عن أهله في نفس الوقت!

يسكن الطبيب الإيطالي وعائلته إلى جانب المستشفى، في جناح ملحق بها، تماماً مثل مساكن الكهنة إلى جانب الأديرة. كان يحب الطب، ويحب الحياة، وكانت تُروى عنه قصص كثيرة، إلى أن كبرت ابنته، أواخر الأربعينات، فتفوقت عليه كثيراً وسرقت الأضواء منه، وقد استطاعت ذلك بجمالها، وروحها الرياضية، وهكذا شغلت وولعت عدداً من شباب عمان!

غير بعيد عن المستشفى الإيطالي، مستشفى الست العرجا. كانت للولادة، وربما للأطفال أيضاً. تديرها طبيبة انكليزية، وقد تكون أميركية، مع زوجها، ويتمان. ويبدو أنه كان للزوجين مهمات تتجاوز المعالجة، إذ كانا يعرضان شرائط سينمائية من نوع معين، وكان يوزعان الكتب المقدسة، خاصة العهد القديم، إلى جانب علب الحليب!

ولأن الناس لم يعرفوا إلا القليل عن هذه المستشفى، ومهامها، فقد أطلقوا عليها اسم مستشفى الست العرجا، باعتبار أن الطبيبة كانت عرجاء!

كانت مستشفى الطلياني، إذن، الوحيدة، تقريباً، في المدينة خلال فترة الأربعينات، قبل أن يشرع الدكتور ملحس بتأسيس مستشفى في جبل عمان.

أما دائرة الصحة، أو الصحية، كما كان يطلق عليها، وموقعها في نهاية شارع السلط، وكان فيها عدد من الأطباء الذين لم يفتحوا عيادات في المدينة، كشوكت المفتي، أو بعضهم لا يستقبل المرضى إلا بنطاق ضيق، مثل مصطفى خليفة، فقد كانت هذه المستشفى للفقراء أو للغرباء، وهي أقرب إلى المستوصف، حيث تتولى اللقاحات، ومعالجة الحالات الطارئة، وتؤدي الذين لا يعرفون، أو لا يستطيعون، الوصول إلى المستشفى الإيطالي.

وكان هناك الدكتور برنابا، لكن مكانه وصورته غامضة وبعيدة!

زيادة على ماتقدم، كان هناك مركز طبي مخيف وسيء السمعة: الكرنتينا.

كانت الكرنتينا، أو مركز الحجر الصحي، إلى جانب قيادة قوات البادية، مقابل سينما البتراء، وغير بعيدة عن السيل.

هذه المستشفى تظهر وتغيب تبعاً لظهور الأوبئة أو لغيابها، إذ رغم أنها موجودة، وفي نفس المكان، باستمرار، إلا أن احساس الناس بها، أو حتى معرفتهم بوجودها، يتوقف على الدور الذي تقوم به. ففي الأيام العادية تغرق، بطاقتها الوحيد والواطيء نسبياً، ضمن حديقة قديمة مغبرة، بحيث لا يفتن لها الكثيرون.

أما حين هجم التيفوس، ثم بعده الكوليرا، وأصبح يُجر من يُشك باصابته إليها، وتمنع عنهم، في نفس الوقت، الزيارة، وغالباً ما يقضون نحبهم، فقد أصبحت شديدة الرهبة، حتى أن بعض المتطيرين أخذوا يتجنبون المرور أو الاقتراب من هناك.

فعبيدان القحص، بعد أن سمع بوقوع التيفوس، رفض أن يلبي أية دعوة توجه إليه، وأخذ يمر بعيداً عن الكرنتينا. كما تجنب سلوك الشارع الرئيسي، من أجل الوصول إلى بيته، مفضلاً طريقاً طويلاً وملتبساً، لكي لا يمر في شارع المصاروة، خاصة أمام بيت أبي حاتم الطيان، بعد أن أصيبت ابنته بالتيفوس وأخذت إلى الكرنتينا. وزيادة في الحيلة أخذ عبيدان يلق على يديه كميات من الكالونيا عدة مرات في اليوم للتعقيم، كما امتنع عن مصافحة أحد، أو الأكل عند الآخرين، لكي لا يترك أية فرصة للعدوى. كما أخذ يلف غترته حول وجهه، ويمسك أنفه باصبعين لكي يتنفس بمقدار!

لكن القدر لا يأخذ هذه الاحتياطات بعين الاعتبار، أو كما ينوي أصحابها، إذ وقع عبيدان فريسة للتيفوس، وأخذ إلى الكرنتينا، وهناك حلق شعر رأسه، وحلقت لحيته وشارباه، وكان الشاريان "أعز" ما يملك، كما كان يقول ويؤكد، فبدأ بنظر

أحد الذين زاروه، وقد استطاع ذلك بصعوبة، أشبه مايكون بعجوز تركمانية، خاصة بعد أن لُفَّ رأسه بعصابة سوداء، بحيث أن الزائر أنكره، رغم أن الممرض دله عليه، ولم تمض أيام قليلة إلا وقضى هناك.

أما ابنة أبي حاتم الطيان فقد قدر لها أن تشفى، وربما لاتزال حية إلى الآن! هكذا كانت ملامح الصورة الطبية في عمان أوائل الأربعينات.

صحيح أن هناك أطباء آخرين، ولكن كانت لهم أوضاع خاصة. فالدكتور يوسف عز الدين، وكان بيته وعيادته مقابل المدرج الروماني، ليعالج إلا أمراضاً معينة، إضافة إلى الأصدقاء والمعارف. وكذلك الحال بالنسبة للدكتور جميل التوتونجي، إذ كان طبيباً خاصاً للقصر، عدا عن كونه سياسياً، وبالتالي ليعالج إلا أشخاصاً أو حالات محدودة جداً.

في فترة لاحقة، بعد منتصف الأربعينات، سوف تصل كوكبة من الأطباء المميزين، طبيباً وإنسانياً وسياسياً: عبد الرحمن شقير، منيف الرزاز، وبعد فترة، نبيه ارشيدات، جورج حبش ووديع حداد، وآخرون، وبوصولهم لم تتغير الصورة الطبية فقط، إذ أخذت الصورة السياسية ذاتها تتغير، نظراً لما رافق وصولهم من نشاط على أكثر من مستوى.

أما طبيب الأسنان، إبراهيم كاتبي، وموقع عيادته في شارع الملك فيصل، مقابل البنك العثماني، فكان يثير الخوف حين تهدر آتاه السوداء بذراعها الطويل، وهي تدخل إلى فم المريض، لتولد المأاً اضافياً فوق الألم الذي لم يكن يترك فرصة لنوم في ليالٍ كثيرة سابقة.

كان الكثيرون يحملون الألم الأسنان، أو يحتالون عليها، عن طريق الاسبرين أو الأدوية المسكّنة، ولا يتردد بعضهم في أن يستبقي دخان السجائر في فمه لفترة طويلة من أجل تخفيف الألم، على أن يسلم نفسه لتلك الآلة السوداء بذراعها الطويل! فإذا زاد الألم عن حد معين، ولم تجد معه العلاجات البدائية، فكان هناك أحد اثنين: البليخي أو أبو حسن الحلاق. فالبليخي الذي كان "مركباً" للأسنان ولم يكن طبيباً، يتولى معالجة بعض الحالات. أما أبو حسن الذي يقوم بمهام كثيرة، على رأسها تطهير الأولاد، وكانت إحدى مهماته الأساسية، فإنه يخلع الأسنان أيضاً ببراعة فائقة، إذ كان يفعل ذلك بخيطة، ولا يتردد، في أحيان كثيرة، وتجنباً للألم المضاعف، كما كان يقول، في أن يخلع بطريقه الأسنان التي يقدّر أنها ستمرض في وقت لاحق، وتلك التي لاتعجبه!

الأطباء "الشعبيون" في عمان، خلال تلك الفترة، كثيرون، وذوو اختصاصات متعددة، حتى أن بعضهم تجاوزت سمعته الحي الذي يسكن فيه، أو الفئة التي ينتمي إليها. صحيح أنه كان للشركس أطباؤهم، وللبدو أطباؤهم أيضاً، لكن في حالات كثيرة، أو نتيجة الضرورة، كان يتم انتقال بعض هؤلاء من حي إلى آخر. كان هؤلاء "الأطباء" يتفوقون في بعض الأحيان، لكنهم غالباً ما يختلفون في كيفية مواجهة الحالات المستعصية، الأمر الذي يخلق خصومات وتبادلاً للاتهامات، مما يؤدي إلى أن يرفع الجميع أيديهم، ولكن إلى حين، إلى أن يتم استرضاء أحدهم سراً!

فالكسور، أياً كانت صعوبتها، لا يُجأ في معالجتها إلى الأطباء، إلا فيما ندر، لأن "المجبرين" هم أصحاب الاختصاص المعترف بهم، وهؤلاء، في العادة، ليسوا "متفرغين" لهذا العمل، أو يعتاشون منه، وغالباً ما يمارسونه نتيجة ما اكتسبوه بالوراثة أو بالخبرة، وحين يقومون به يفعلون ذلك تبرعاً، أو "صدقة لوجه الله" كما يقولون، وأن وافق بعضهم على تلقي مقابل بطريقة غير مباشرة!

كان هؤلاء يبذلون براعة فائقة، وبعض الأحيان شديدة التحدي، خاصة حين يعالجون كسراً أخطأ الطلياني في معالجته!

ثم هناك "الحجامون"، وهؤلاء يعالجون الحصر وضيق النفس والضغط عن طريق الفصد وكاسات الهواء والعلق. وإذا كان العلاج "بكاسات الهواء" يقوم به عادة أحد من أهل البيت، خاصة النساء المسنات، فإن العلاج بالفصد أو بالعلق يتطلب خبرة ودقة مميزة، وغالباً ما يقوم به الرجال للرجال، والنساء المسنات للنسوة والأطفال.

أما الكي فكان من اختصاص البدو، وبعض الأحيان الفلاحين، وقلما نجا أحد من أطفال عمان خلال فترة الثلاثينات وأوائل الأربعينات من "كوية" أو أكثر لمعالجة أمراض معينة.

إلى جانب الاختصاصات السابقة، كان هناك أيضاً الأطباء الشعبيون في الاختصاصات النفسية، فالذين يتعرضون للخوف، خاصة أثناء اجتياز المقابر، أو الذين تخرج لهم الساكونة في أحد المتعطفات المظلمة؛ والأطفال الذين يتبولون في فراشهم ليلاً، أو الذين يتأخرون في المشي أو الكلام، وأولئك الذين يقعون "بالساعة"؛ إن هؤلاء وأمثالهم مصابون "بالعين"، ولذلك لابد أن يُجأ في معالجتهم إلى من يستطيع التغلب على العين الشريرة، وأخراج العفاريت من البدن، وليس أقدر من الشيوخ وأصحاب البركات، الأحياء منهم والأموات، على القيام بذلك.

الأسر النقية تفضل أصحاب المقامات، لأنهم مجربون وقادرون على الشفاعة! كان على رأس هؤلاء "الفقير". قبره ومقامه في جبل القلعة، وسط مغارة عارية فقيرة، أقرب إلى القذارة، وتخلو من أية مظاهر توحى بالأهمية أو المهابة.

إلى هناك كان يؤخذ الأطفال المرضى. وفي المغارة توقد الشموع، ويطاف بالمريض حول القبر مع الأدعية والابتهالات. وهناك كانت تقدم الأعطيات والنذور، مع وعود، أقرب إلى العلانية، أن "يذبح خروف عمره أكثر من سنة إذا من الله، ببركات الفقير وشفاعته، وشفي المريض المسكين". ويظل يطاف بالمريض حول القبر سبع مرات في كل جولة، على أن تتم الجولة الأخيرة والشموع لاتزال مشتعلة، والكلمات الأخيرة التي تردد: "الله ينور قبرك يا فقير، يامستجيب لكل دعوة ولكل محتاج، وأمانتي عند الله وعندك، فاستجب، يانصير المحتاجين".

كان هذا الطقس يتكرر في معظم أيام الأسبوع، ويزيد ويتضاعف يومي الاثنين والخميس، وكان لا يتردد بعض المسيحيين في زيارة قبر الفقير، وتقديم النذور له، إذا شفي مريضاً أو حقق أمنية.

حين أخذ أحد أطفال العائلة إلى هناك، نظراً لتأخره في المشي والكلام، رافقته الجدة، ولما رأت المغارة الفقيرة والقبر المتواضع، قالت بصوت عالٍ، وهي تهز يديها بسخرية وأسف:

– عاب هالفقير، لآباب ولاشباك، وينه ووين العباس!

وحين طُلب منها أن تخفض صوتها، وأن لاتتطاول عليه، لأنه يشور وصاحب بركات وشفاعات، ردت وهي تضحك:

– بيين .. شارته عالية مثل البيرق ...

وبعد قليل، وهي تلفت إلى الناحية الثانية، وتنتظر الى الطفل المريض:

– إذا هالمقروء حكى أو مشى أقصّ أيدي وأعطيتها للكلاب!

غضبت أم المريض، ولم تكلم الجدة لفترة طويلة، لأنها "فاولت" ولم تطلق يد "الفقير" الأمر الذي جعله يحد ولايستجيب!

ولم تخسر الجدة الرهان تماماً، فقد بدأ هذا الطفل يزحف بعد أن بلغ السابعة، ومشى ابن عشر، ولم يفارق الثقل لسانه أبداً!

من هؤلاء "الأطباء النفسيين" ثلاثة أبرز من غيرهم: أم عيسى، الشيخ صالح البيطار، والشيخ حافظ النوباني.

أول الثلاثة، وربما أهمهم: أم عيسى. امرأة تقية، قائمة البشارة، أقرب إلى السواد، يقال أنها لم تر رجلاً غريباً منذ أن مات زوجها، خاصة وأنها لم تغادر بيتها، ولاتفتح الباب إذا سمعت صوت رجل. البيت الذي تسكنه غير بعيد عن المفوضية البريطانية، في السفح الشمالي لجبل عمان.

كانت أم عيسى قبل أن تبدأ المعالجة تدرس الحالة المرضية بعناية، ليس للمريض وحده، بل ولذويه أيضاً! وقد تتطلب مثل هذه الدراسة عدة جلسات، يتخللها "تبييت خيرة" لعل الملائكة الصالحين يزورونها ويساعدونها في المعالجة. ويشترط في هذه الحالة أن تكون المريضة - وغالباً ما يكون مرضها العقم أو احتمال الطلاق أو "ضعف" الطرف الآخر - طاهرة الثوب والنية. فإذا لم تجد "الخيرة"، لأن الملائكة مشغولون بتسبيح الله أكثر من انشغالهم بأمور الحبل، كما تقول جارة لأم عيسى، تلجأ إلى الأعشاب والمساحيق، وتصر أن تشتريها صاحبة العلاقة بنفسها من أبو شام العطار، وأن يتم ذلك بمال حلال. وغالباً ما تضيف إليها أم عيسى أدوية من عندها، وتمزجها كلها، مع الدعاء والبخور، بالماء الذي بات تحت السماء لمدة ثلاثة أيام متواصلة، على أن يتخللها واحد من يومين: الاثنين أو الخميس، ويعد أن تمزج الدواء بكثير من المهارة والصبر، تعطي الجرعة للمريضة وهي تقول: "معافاة والمعافي الله".

المريضات اللواتي شفين يذكرن الكثير عن "قدرات" أم عيسى وبركاتها، فقد جاءهن أولاد بعد سنين من الانتظار! وعاد الرجال بعد هجر طويل، كما عادت "القوة" إلى الذين غادرتهم في أوقات سابقة! وبذلك بدت أم عيسى أقدر من الأطباء الذين عجزوا عن معالجة مثل تلك الحالات المستعصية! أما النساء اللواتي لم تفدهن أدوية أم عيسى، فكن يذكرن الكثير من السوء عن المرأة الساحرة!

لم تكن أم عيسى تتقاضى أجراً بشكل مباشر، وإذا وافقت فكانت تطلب أن يُنذر لها، مع عربون: حبة تمر، كما كانت تطلب من المريضة وذويها الدعاء لله لكي يرزق عيسى طفلاً، ولايهم أن يكون ذكراً أو أنثى!

الشيخ صالح، حذّاء الحمير والمسحر في رمضان، لم يكن "الطب": اختصاصه الأول أو الأهم، ولكن كان "يضطر" إلى ممارسته حين يعجز "الحكماء"، وبعد أن يياس أهل المريض، وتفشل جميع الوسائل.

كان الشيخ صالح، رغم الالاحاح، ورغم وجود المريض، يلجأ إلى تأجيل العلاج يوماً بعد آخر، نظراً لانشغالاته، أو لأن "الحالة تحتاج إلى صفة" كما

يقول! وخلال ذلك كان يراقب المريض وذويه بنظرات مكتشفة، ولا يتردد، بعض الأحيان، في أن يهجم بشكل مفاجيء على المريض، وأن يمسك برأسه وينظر بتحديد إلى عينيه، "لأن الرعدة تكوي، يأولاد الحلال" كما يقول.

حين يقرر الموافقة على المعالجة يأمر أهل المريض أن يأتوا به في اليوم التالي: بعد صلاة الصبح وقبل طلوع الشمس!

في اليوم المحدد، وفي الساعة التي حددها، وبعد أن يؤتى بالمريض، يكون الشيخ صالح في زيه الرسمي: قلبق أسود تزينه في الوسط خرقة خضراء، وعلى الخرقة مجموعة من الأوسمة والنياشين. ورغم أن الشيخ صالح البيطار لم يكن شركسياً، إلا أنه يصر على ارتداء القلبق الذي أهداه إليه معمر شركسي، قيل أنه حج عشر مرات وزار القدس مائة مرة!

بعد أن يستعرض الشيخ المريض وذويه، وكأنه يستعرض قطعة عسكرية، ويكون عادة في منتهى الحزم والجدية، يصدر أوامره:

- ابطحوه وامسكوا اليدين والرجلين ولا تتركوه يتحرك.

ومعنى ذلك أنه سيمتطي بغلته - ويصر على أنها فرس كريمة - ويمر فوق المريض، ويجب أن يكون المرور خلال المرات السبع من الشرق إلى الغرب.

لم تكن "العبرة" أو "الدوسة" العلاج الوحيد الذي يلجأ إليه الشيخ صالح، ففي حالات أخرى: "التكيس"، وحالات ثالثة: "تفلة البركة".

كان أهل المريض يسألونه مداورة:

- ها يا شيخنا: دوسة أو كبسة؟

وحين لا يجيب، يسألونه مرة أخرى، فيرد بغضب:

- اللي يريد الله يصير.

فإذا ألحوا أكثر يرد بسخرية وهو يهز رأسه:

- شحاد ومشارط ..

وبعد قليل:

- بعد ما خلص الرجال حاملينه وجايين عند الشيخ صالح ...

وتتغير اللهجة تماماً:

- شو شايفين الشيخ صالح صار عيسى ابن مريم، يحيي الموتى؟

بعد أن ينهي الشيخ صالح علاجه، يصرخ بأهل المريض:

- خذوه والشافى الله!

وغالباً مايلقى المريض مصيره فيموت خلال فترة قصيرة من الزمن، ويكون علاج الشيخ صالح هو الأخير.

يرفض الشيخ صالح، في معظم الحالات، أن يتقاضى أجراً، ويغضب إذا تحدث أحد عن ذلك، لكن لايمانع إذا أرسل أحد الميسورين من أهل المريض إلى بيته، أثناء غيابه، خروفاً أو تنكة سمن، وحين يبلغ بذلك يقول بلهجة ساخرة:

- إن الله يرزق الانسان من حيث لا يحتسب.

وفي جنازة المريض الذي عالجه، يحرص ذوو الميت أن يكون الشيخ صالح موجوداً، دلالة أنهم استنفذوا كل الوسائل.

كان الشيخ صالح يمشي في مقدمة المشيعين، وعلى مسافة من الآخرين، ويحرص أن يكون وحيداً، وقد ارتدى ملابس الرسمية، بما في ذلك الوشاح الأخضر، وكان صوته يعلو بالتكبير بين فترة وأخرى، خاصة عند المنعطفات أو الأماكن الهامة، فيعرف الجميع أهمية الميت وعراقة نسبه، والجهود التي بذلت من أجل إنقاذه!

أما الشيخ حافظ فلا يرقى الى هذا المستوى، كما لا يتعامل بالقضايا "الكبيرة"، إذ كانت مهمته مقصورة على كتابة الحجب، ومعالجة الأمراض البسيطة، خاصة مايتعلق منها بالكآبة والحزن والخوف، إضافة إلى قضايا البطالة الطويلة وسوء الطالع.

كان الشيخ حافظ يكتب أوراقاً تتضمن آيات وأدعية، ولاتخلو من أرقام ورموز. بعد أن ينتهي من كتابتها يضعها في غلاف جلدي يحسن صنعه، وكان أهل المريض، في أحيان كثيرة، يضيفون إلى الحجاب خرزة زرقاء وشبّة، وفي حالات معينة سن ذيب. لقاء ذلك كان الشيخ يتلقى مقابلاً بسيطاً، ولأمانع أن يكون عيناً، مثل كمية من القمح أو العدس أو الزيت.

ومتلماً كانت تفعل أم عيسى في مجال "الطب"، كان هناك درويش آخر في عمان يمارس الطب قليلاً، ولكن يمارس أكثر من الطب كشف السرقات والمؤامرات الغامضة.

كان ضعيف البصر، "لكن الله فتح قلبه وكشف له الأسرار"، كما يقال عنه. لم يكن يقدم نفسه كصاحب مهنة من هذا النوع، ولكن الذين يزكونه يذكرون الكثير من أعاجيبه!

حين يوافق على القيام بكشف المستور لابد أن تستغرق مهمته أياماً طويلة، وخلال هذه الأيام يجب أن يفرد له مكان خاص للإقامة، وأن يهيأ له طعام جيد، لأنه لا يأكل وحده، إذ "يعزم معه الملائكة الصالحين والعارفين"، وهؤلاء هم الذين يساعدونه في كشف المسروقات، ومعرفة السارقين، ويشاركونه الطعام أيضاً!

جاء ذات يوم، بعد وساطات كثيرة وانتظار، إلى بيت عبيدان، ليكشف اللصوص الذين سرقوا بعض الحلي الذهبية.

أفردت له زاوية فسيحة في قبو الدار، بعد أن نُظِّفَتْ وبُخِوَتْ وعطرت. وأخذت صواني الطعام تنزل إلى هناك أكثر من ثلاث مرات في اليوم الواحد، ومعها الفاكهة، وبين وجبة وأخرى كانت أباريق الشاي والقهوة، وحين تهدأ الحركة قليلاً كان يرتفع صوته طالباً الماء البارد!

أطل عليه الصغار ذات يوم، بعد أن فرغ من الطعام وبدأ "العمل". كان يضع أمامه طاسة مليئة بالماء، وكان يفرد غترته على رأسه وعلى جزء من الطاسة، وتخرج من فمه كلمات غامضة، يمكن أن يفهم منها، بصعوبة، أسئلة موجهة إلى مجهولين، يطلب منهم أن يدلوه على السارق، مع وعود يكررها بالراح: "... وراح أغرقكم بالعزائم". وحين سمع حركة الصغار عند باب القبو، وانتبه لوجودهم، اضطرب، ولم يتردد في أن يلتقط حجراً ويقذفهم به، مع مجموعة من السباب المقدعة!

في وقت لاحق سيوجه اللوم للصغار، لأن الشيخ كاد يصل إلى اللصوص "لولا أن الشياطين جاءوا في اللحظة الحاسمة وأفسدوا عليه كل شيء!"

ومدد الشيخ إقامته أسبوعاً آخر، وزادت طلبات الأكل والشراب، وفي نهاية ذلك الأسبوع تم "الكشف" ووصل إلى تحديد المجرمين. أما الأوصاف التي أعطاهها للصوص فكانت تنطبق على كثيرين من أهل الدار والجوار، الأمر الذي خلف بعد رحيله، وبعد أن تقاضى أجراً كبيراً، مشاكل وخصومات لم تنته، ولم تظهر الحلي أبداً!

كان اكتشاف عمان المدينة - البشر، من خلال صدمة الموت. وسوف يرتد الطفل إلى أيام سابقة ويتساءل عن بعض الذين "ذهبوا"، وايضاً لكي يستعيد الاجابات التي كان يتلقاها: "سافروا"، ولايقال أي شيء عن هذا السفر الطويل الغامض وامكانية العودة أو موعدها. وليتذكر اجابات أخرى: "انتقلوا الى السماء، ذهبوا إلى الجنة"، دون أية توضيحات عن كيفية الانتقال، أو الوسيلة التي ذهبوا بها. ثم ماهي الجنة، ولماذا لا تكون هنا ويراهها الجميع ويعيش فيها الجميع؟

تتوالد الأسئلة في العقل والقلب، ومعها المخاوف، وحين تبلغ اللسان، ولاتكفي الأجوبة التي تقال، وتعاود الأسئلة من جديد، لا يتردد الكبار في أن يصرخوا طالبين من الصغار الكف عن هذا الموضوع.

في وقت ما بدا الموت في صورة أخرى، وكانت تعكسه أم علي الشرشوحة.

فهذه المرأة التي لايعرف متى تستقر في بيتها، كانت تشاهد عدة مرات في اليوم الواحد تنتقل من مكان إلى آخر، مرتدية ملاءتها الزمّ الواسعة، الكالحة اللون، وعلى خصرها ولد عليل، كما كان فمها يدور "بالبانة" التي تطقّ برتابة والأخبار والقصص والاشاعات. لم تكن لتتوقف أكثر من الوقت الذي يحتاجه ابلاغ الأخبار الجديدة: " فلانة تخاصمت مع زوجها" " فلانة سيتزوج زوجها عليها، وستبقى عنده لتخدمه وتخدم زوجته الجديدة" "الحاج عمر يحضر عزيمة كبيرة للجمعة الأخيرة من رمضان" وماشابه من الأخبار.

ورغم أن لهذه المرأة عدة أوصاف أصبحت لها بمثابة أسماء اضافية تميزها، كأن يقال عنها: البيرق، أو البورزان، وسميت أيضاً الراديو، إلا أن أكثر الأسماء تداولاً، وانطباقاً عليها: الشرشوحة. كانت تعرف، وتسمع، بعض الأحيان، هذه التسمية، لكن تتظاهر أنها لاتعنيها، أما حين نادتها الجدة ذات يوم بهذا الاسم، وقد ظنته اسمها، فقد ردت عليها بغضب:

– الشرشوحة أنت وأمثالك اللي ماييعرفوا يقدروا الناس!

وغادرت دون أن تقدم نشرتها الاخبارية!

ولم تفهم الجدة سبباً لغضب أم علي إلا بعد فترة، وبعد أن شُرح لها معنى هذه التسمية! كانت أم علي لاتخفي فرحتها باقتراب العيد، بل وكانت تنتظره، كالأطفال، بلهفة، ليس باعتباره أيام فرح وراحة، وإنما لأنه الفرصة والمناسبة لزيارة المقابر!

تبدأ استعدادات أم علي الشرشوحة ليوم العيد في وقت مبكر، فما أن تدوي مدافع الانبثات، ويُسمع صوت أم كلثوم وهي تردد: ياليلة العيد، ومايكاد الليل ينتصف حتى تبدأ رحلتها باتجاه المقابر.

الذين يسكنون على السفوح الجنوبية الغربية من جبل عمان لا يترددون في المراهنة أن أول "لوكس" متوجه نحو المقابر هو لأم علي!

كانت، كما يروي الكثيرون، تبدأ بالبكاء والندب وهي تجتاز بوابة المقبرة، ثم ينفجر وسط الظلمة فجأة صوت عويلها، وكان يسمع إلى مسافات بعيدة، ويبالغ بعض ساكني جبل عمان فيؤكدون أنهم كانوا يسمعون هذا الصوت!

بعد أن تذرف أم علي الكمية الضرورية من الدموع على "المرحوم"، الذي غادرها باكراً وكسر ظهرها كما تقول، تنصرف بهمة كبيرة إلى تنظيف القبر ومحاوله، ثم ترشه بالماء وتطليه بماء الزهر، وتضع عليه قطعة الزرع الريانة التي حملتها، "لأن المرحوم كان يحب الخضرة والماء والوجه الحسن". وبعد أن تنتهي من هذه المهمات تطلب من مرافقيها أن يجلبوا كمية اضافية من الماء لاستعمالها في أغراض شتى، بما فيها صنع الشاي!

ويمر وقت طويل، بضع ساعات أغلب الأحيان، قبل أن تبدأ مواكب الأضواء بالتوجه نحو المقبرة، وتعرف أم علي القادمين واحداً واحداً، تسميهم بصوت عالٍ على ملائ من الذين حولها، محددة درجة قرابة الزائرين بالميت، وظروف الوفاة، ونوع

الجنائز التي أقيمت للمتوفي، وتفاصيل أخرى لاحقة عما حصل بعد الوفاة من اختلاف الورثة، والخصومات التي قامت بينهم، الأمر الذي جعل فلاناً يزور وفلاناً يتمتع عن الزيارة!

حين يتزايد عدد زوار القبور، ويصبح من غير المجدي الاستمرار بعدهم أو مراقبتهم، تحاول أم علي الشرشوحة أن "تثقل" نفسها، مفترضة أن على الآخرين واجب زيارتها وتعزيتها، فإن تباطؤوا، أو لم يقوموا بهذا الواجب، لاتلوم أحداً ولا تأخذ على خاطرها، "لأن المرحوم، أبو علي، صارت عظامه مكاحل، وياما مات بعده ناس". ولذلك تبادر هي إلى زيارة الآخرين ومواساتهم.

كان أغلب زوار المقبرة يعرفونها، أو على الأقل رأوها من قبل. وباعتبار أن الرجال يتأخرون بزيارة القبور، إذ لا يفعلون ذلك إلا بعد صلاة العيد، فلا بد أن تستغل أم علي هذه الفسحة من الوقت للمرور على أغلب القبور، ويعد أن تقرأ الفاتحة، بطريقتها الخاصة السريعة، لا بد أن "تذيع" بعض الأخبار، وتحاول أن تسمع، بالمقابل، أخباراً أو تستنتجها، لتقوم، بعد ذلك، بنقل الحصيلة كلها إلى القبور الأخرى!

هذه الصورة للموت، رغم خفتها، لاتفقد الموت رهبتها، باعتباره حدثاً استثنائياً يثير الخوف والتساؤل. فحين تتوجه جنازة لمسلم أو مسيحي، وكان التشييع يجري على الأقدام، ولم يلاحظ اشتراك سيارة إلا في حالات نادرة، ربما لنقل أحد أفراد الأسرة من المرضى أو المسنين الذين يصعب عليهم السير، وتبدأ الجنازة بالتوجه إلى جنوب المدينة، ويعد أن تسلك الطريق ذاته، وكأنها قافلة مسافرة نحو مأدبا، إلا أنها في مكان معين من طلعة المصدار تأخذ جنازات المسيحيين الجانب الأيسر، لتصعد التلة القاسية نحو الكنيسة الصغيرة في زاوية المقبرة، حيث تجري الطقوس الأخيرة، ثم يوارى الميت التراب، أما جنازات المسلمين فتواصل الطريق، وقبل أن يبلغ التل ذروته، ووراء سور متواضع، ناحية اليمين، تصل إلى مقبرة المسلمين.

لم تكن هذه الأمكنة، بالمواقع التي تحتلها، مجرد أراضٍ للدفن، أو لإعلان نهاية إنسان ما، كانت، أكثر من ذلك، خاصة لارتفاعها وإطلالها على أجزاء واسعة من المدينة، مساحة للتأمل والذكرى، لاعادة الأسئلة، وايضاً لكي تنبه كل إنسان إلى النهاية التي تنتظره، فلا يسرف بالثقة أو الوهم.

فالطريقة التي يعلن فيها الموت، ثم المراسيم الكثيرة المرافقة، وطريقة تصرف

الناس وردود أفعالهم حين يعرفون، ثم وهم يشاركون، وذلك الحزن الذي يظهر فجأة، وما يصدر من تصرفات أو أوامر، وغالباً من أناس لم يكن يُحس بوجودهم أو أهميتهم من قبل، يعطي الموت طابعاً خاصاً، احتفالياً أغلب الأحيان.

فما أن تُسمع، عند الضحى، الأجراس وهي تدق بتلك الطريقة الرتيبة، حتى تخلق احساساً بالحزن والنهاية، ليس عند ذوي الميت فقط، وليس لدى الطائفة التي ينتمي إليها، وإنما لدى الجميع، المسلمين والمسيحيين. بل أكثر من ذلك، ومن الذكريات المبكرة التي يحملها أطفال المسلمين، وهم يسمعون تلك الدقات، أن تبدأ الأسئلة: من مات؟ لماذا مات؟ وأين يذهب الموتى؟

أما حين تكتمل المراسيم، وتبدأ الأرجل المسنة المتعبة تنتقل ببطء لتصعد التلة اليسرى، مع الأطفال والشموع، وصوت جرس كنيسة المدفن الشاحب والضعيف، والخوري الذي يهتز حزناً أو نتيجة العادة، فإن لوحة الموت تتبدى ثقيلة قاسية، وتعني كل انسان في عمان، أيأ كان دينه.

ليس ذلك فقط، فأولاد المسلمين، نتيجة المراقبة الدقيقة، وذلك الحرص لمعرفة كل شيء، يكونون موجودين ومنفعلين كالآخرين، وربما أكثر من بعض المشيعين الكبار، حيث يراقبون الجنازة، ويراقبون كل حركة. حتى الأطفال الذين لا يشاركون، نتيجة الخوف، والذي يصل حد الرهبة، فإنهم يتابعون، عن بعد، الحركة البطيئة وهي تتسلق الجبل، ويسألون عن كل شيء، لكي يداروا خوفهم، ومع ذلك يحسون بالفقد والوحشة، إذ يعرفون أن شيئاً منهم قد غادرهم إلى الأبد.

بل أكثر من ذلك، وكان هذا مثار استغراب وتسأؤل، كيف يكون بعض الناس في موتهم أكثر أهمية مما كانوا وهم أحياء! فجأة يكبرون، يخلفون فراغاً وحزناً لم يكن يُحس بمثله عندما كانوا يدبون على هذه الأرض، فتنطبع أسماءهم وهيئاتهم في الذاكرة لاتبارحها لسنين طويلة لاحقة، أو تعود إليها كلما جد شيء يماثلها أو يذكر بها!

في الجهة الأخرى، عبر الشارع، مع ميل للأرض واضح نحو الغرب، تتمدد قبور المسلمين. كانت أكثر عدداً وأكثر تواضعاً، مع استثناءات قليلة. حين تصل الجنازة إلى هناك تصل بسرعة، وكأن حاملها يشعرون بضرورة الانتهاء من هذا الواجب في أسرع وقت ممكن، تماماً كمن يسلك أمانة ثقيلة لصاحبها، ورغم البساطة والسرعة، وكأن الموت أمر محتوم، بل وضروري، فإنه يولد خوفاً في قلوب الأطفال. وكان هذا الخوف، رغم التكتّم عليه، والتظاهر بعكسه، لا يختفي ولا يزول.

فالكوابيس التي تلاحق الأطفال في نومهم تجعل الكثيرين يهبون فزعين، وتلك الهلوسات التي تعبر عن نفسها بالصراخ والبكاء، تجعل الأمهات والجذات يخفن من هذه الحالة ويحسبن لها ألف حساب.

صحيح أن الأمهات والجذات كن يحملن الماء إلى الأطفال، وكن يقرأن على رؤوسهم الأدعية والآيات، ويطلبن بإلحاح أن يقرأ الطفل سورة من القرآن، فإن كان أصغر من أن يفعل ذلك، فلا أقل من أن يردد وراءهن بعض الأدعية، أو أن يكرر اسم الله حتى ينام!

وفي اليوم التالي لابد أن يؤتى بطاسة الرعبة، فبيدأ البحث عنها في بيوت الجوار، وغالباً مايعثر عليها في أحد البيوت الشامية؛ وبعد أن يسقى الطفل الماء بهذه الطاسة ثلاث مرات، لابد أن يزول رعب الليل الفائتة، وتعود الأمور إلى ماكانت عليه قبل الكابوس!

الجدة لم تقتنع بهذه الطريقة، ولاتعترف لهذه الطاسة بأية أهمية، ولذلك تلجأ إلى أسلوب أكثر فاعلية: تأتي بورقة بيضاء، بمساحة الكف، وبدبوس تحرق طرفه بعود ثقاب، تبدأ: مع كل شكة دبوس في الورقة تذكر اسماً، اسم أحد الحساد المحتملين، من الأقارب والجوار، تفعل ذلك وهي تردد: هذه عين فلان، وهذه عين فلانة، وهذه عين فلانة، وتحصر في ذهنها جميع الأسماء التي قد يكون أحدها أصاب الطفل بالحسد، وبعد أن تأتي على جميع الأسماء، وتعجز عن تذكر غيرها، تقول: "العين اللي شافته وما صلت على النبي تلقى حويته"، ثم تقوم بحرق الورقة، وتضع بقاياها في كأس ماء صغير، وتمسح جبهة الطفل ووجهه يديه. كانت تفعل ذلك قبل النوم، وفي الختام تتظاهر أنها تتفل عليه وهي تردد:

دلول يا الولد يا ابني دلول

عدوك عليل وساكن الجول

دلول يُمّ دلول

دنام والنومة عوافي .

وغالباً لاينام الطفل، إذ يطالب بمقابل اضافي: أن تحكي له الجدة حكاية، ويجب أن تكون طويلة، فتبدأ حكاية مريم الزنارية:

وإذا كانت عادة أهل عمان، خلال تلك الفترة، أن لايلجأوا للأطباء إلا في الحالات القصوى، وبعد أن يستنفدوا جميع الوسائل والأدوية الشعبية، فإن من

الأمر التي كانت تثير الاهتمام كيفية مواجهة المرض. فالناس إذا بخلوا، أو أبدوا حرصاً زائداً، فإنهم لا ييخلون بالدواء أبداً. أكثر من ذلك كان الكثيرون يتبرعون لاحضار أدوية متعددة، مع ذكر فوائدها، والحالات التي شفتها، بحيث تتوافر كميات من الأدوية لايحتاجها المريض، أو لايتطلبها المرض! لذلك تتوجد دائماً، في أغلب البيوت، أدوية بكميات كبيرة، خاصة من الأعشاب، كالإبرامية والبابونج واليانسون والزهورات اضافة إلى ماء الزهر، وأنواع أخرى من المواد المركبة والمساحيق. وكان الكثيرون، زيادة في الحيلة، خاصة في فصل الشتاء، يتناولون شراب هذه النباتات لتقوي أجسادهم، وتكون أقدر على مواجهة أمراض البرد.

ومثلما لاتعترف الجدة بطاسة الرعة، فإنها قليلة الثقة بالأدوية والنباتات التي لاتعرفها. ولذلك كانت تحرص في كل سفرة من سفراتها إلى بغداد على أن تحمل بالاضافة لأبريق الشاي ذي الرسم الجديد، والاستكانات، والتي لاتتناول الشاي بغيرها، كانت تحمل معها مجموعة من العقاقير والأعشاب، إذ تضعها في صرر أو في زجاجات صغيرة. ومن الكلمات التي كانت تتردد في البيت، بشكل مفاجئ، وفي حالات المرض، "وين الشيشة الفلانية" وتظل عيون الصغار مفتوحة بتساؤل، وبخوف أيضاً، لمعرفة هذه "الشيشة"، ماذا تعني وماذا تحوي، إلى أن يكتشف أنها زجاجة الدواء ، التي تبحث عنها!

ومثلما كان لأهل عمان، مسلمين ومسيحيين، مقابرهم، فقد كانت هناك مقابر صغيرة متناثرة هنا وهناك.

من تلك المقابر واحدة لأهل الجزيرة العربية، كانت غير بعيدة عن رأس العين، إلى جانب سوق الحلال. تحتل هذه المقبرة سفحي الوادي الضيق من الجهتين. قبورها شديدة التواضع، إذ لاتتعدى كومات صغيرة متوالية من التراب، مع حجارة غير مشذبة، متفاوتة الحجم، وهي التي تحدد القبور، ولابد أن يكون هناك حجر أكبر من الحجارة الأخرى فوق القبر، حيث يكون رأس الميت، وبمواجهة القبلة.

هكذا كانت أغلب القبور، إلى أن قامت قبور مشيدة، لها شواهد، وكانت في معظم الحالات لغير البدو، فإذا جرى الحديث عن الموت والقبور يردد البدو باختصار وبحزم: أكرم القبور ما ساوى التراب!

وإذا كان للموت في المدن طقوسه، ويرافقه الكثير من المظاهر، فإن موت هؤلاء الراحلين سريع وخالٍ من أي احتفال أو شكليات، إذ لا يكاد يُعرف بموت فلان حتى

تجري عمليات غسله وتكفينه، ثم الصلاة عليه في الجامع المتواضع القريب من سوق الحلال، أثناء ذلك يكون بعض المعارف والأقارب قد حفروا القبر، وخلال ساعة، وبعض الأحيان أقل من ذلك، تتم مواراة الميت التراب، ولا يرافق التشييع والدفن أي بكاء أو عويل، كما لا يُنتظر أحد، ولا يعقب ذلك سوى ذبيحة أو أكثر تذبح لروح المتوفي، ويعاود الناس حياتهم العادية.

ظلت هذه المقبرة قائمة في هذه الأرض العراء إلى أن طوقتها البيوت من ناحيتي الشرق والغرب، وكان الطريق الذي يصل هاتين الناحيتين يتخلل المقبرة، وكثيراً ما جرى الرهان بين الصبية، وحتى الكبار، على إمكانية اجتيازه بانفراد ليلاً، خاصة في وقت متأخر، وأثناء غياب القمر، لأن الذين يجتازونه نهراً بشكل طبيعي ودون تردد، يتجنبونه ليلاً، ولديهم ما يقولونه في تعليل ذلك! وكثيراً ما تسببت تلك الرهانات بخسائر فادحة، وعلى أكثر من مستوى، لأنه كان يتخللها الكمائن، والأصوات المرعبة، إضافة إلى تساقط حجارة لا يُدرى من أين، وهذه تؤدي إلى الفرع والصراخ، وبالتالي إلى خسارة الرهان، حيث يكون من جملة الشروط، الاتيان بخرقه مربوطة حول شاهدة قبر بعينه، أو وضع علامة على قبر محدد!

كان الذين يعجزون عن الوفاء بتلك الشروط، لا يخسرون الرهان فقط، بل ويخسرون أيضاً الاستقرار والشجاعة، وقد تصل الأمور إلى حد زيارة بعض الشيوخ من أجل المعالجة!

لكن مقبرة رأس العين لم تستمر طويلاً، إذ ما كاد القسم الثاني من الأربعينات يبدأ حتى طُلب من أقرباء الموتى نقل رفات موتاهم، ومن لم يفعل، لسبب أو لآخر، تولت البلدية هذا الأمر، ثم سُوّت أرض المقبرة مع ماحولها، وأصبحت، كما يقولون، أثراً بعد عين!

والكلمات الأخيرة حول صدمة الموت، والتي لا تزول من الذاكرة، ويشبه أولها الحلم، وتختلط بأشياء كثيرة، منها: عدم التصديق، الغرق في غابة خضراء بشكل مفاجئ، عدم القدرة على الفرح أو اللعب، وحين يعود الصغار من هذا المشوار الاجباري، يكتشفون أن الأب قد مات، وأنه شيع أثناء غيابهم، وحين يبدأون بالبكاء، يؤخذون مرة أخرى، إلى بيت أحد الأقرباء لكي يبقوا هناك بضعة أيام.

صورة هشة، مهزوزة، لا يمكن الجزم إن كانت قد وقعت بالفعل، وهكذا، أم أن الأحاديث اللاحقة، إضافة إلى الخيال كوّنتها، وأصبحت أول صلة بالموت الشخصي، ثم جاءت وفاة الملك غازي لتعطي للموت شكلاً حاداً وأكثر تجسيدا.

أما حدث الموت الثاني، والذي أثار تساؤلاً مشوباً بالخوف، فهو موت هاني الجقة.

كان هاني لاعب كرة لامعاً، وكانت له صورة تشع بالنضارة وتثير الخيال، وفجأة تسمع عمان أن هاني قد توفي نتيجة التهاب الزائدة الدودية.

كان يوماً شديداً الحزن والقسوة، إذ بالإضافة إلى الموكب المهيّب الذي شيع فيه، فإن لحظات اخراجه من البيت، وما رافقها من نواح وعويل، وركض الأم وراء النعش، وكانت منقوشة الشعر، مشقوقة الثياب، لم تترك أحداً ممن رأى المشهد، أو حتى سمع به، إلا وذرف الدموع على غياب هذا الشاب الذي كان يعد بالكثير.

الموت الآخر الذي أثار حزن الأطفال وخوفهم: موت أحمد اسماعيل.

كان أحمد صبياً صغيراً، ربما أصغر تلامذة الصف الثالث. لم يكن شديداً السمرة، لكن نتيجة الهزال، وبسبب الريح الباردة التي كانت تسفع وجهه في مشواره اليومي من نهاية المهاجرين إلى العبدلية، جعلته يبدو، وقد أصابته الحزازات، وتقشر وجهه في بعض المواضع، أكثر سمرة من الآخرين.

ذات صباح، وماكاد التلاميذ يدخلون الصف، دون أن يحس أحد بغياب أحمد اسماعيل، حتى دخل معلم الصف، الأستاذ داود، وبكلمات حزينة، لاتخلو من شفقة وحزم، أبلغ التلاميذ أن سيارة دهست زميلهم أحمد وقتلته، وطلب منهم أن يقفوا دقيقة حداد على روحه!

انقضت سنوات كثيرة على غياب أحمد اسماعيل، لكن صورته لاتزال ماثلة، قوية، وربما أقوى من صور أكثر تلامذة الصف الذين ظلوا أحياء!

وموت آخر يترجع كالصدي بين فترة وأخرى، رغم كونه متوقعاً، نتيجة المرض والانتظار: موت حمدي منكور.

فهذا الرجل الذي ارتبط اسمه بالغنى العريض، وكان مثلاً للتواضع والاستقامة، ظل يشاهد في الفترة الأخيرة من حياته يذرع الساحة السفلى من البيت الواسع، والذي كان طابقه الثاني بمستوى الشارع، كان المرض قد أرهقه، وتردد الحديث، همساً، أن أيامه في هذه الدنيا لن تطول.

ومثلما كان البيت هادئاً، مغلفاً بالصمت، عاد، بعد تلك الولاية الحادة الموجوعة التي مزقت الصباح، إلى صمته، رغم أن الموت قد هجم وانتزع ذلك الرجل. إذ ماعدا الحركة السريعة، الوجلة، والأعداد المتزايدة من الرجال الذين

أخذوا يتوافدون، ثم تلك الآلة المربعة التي حُمِلت وأدخلت، وكانت المرة الأولى التي تشاهد، من هذا القرب: طاولة غسل الموتى، فقد ظل كل شيء يجري بخفاء وحذر، ماعدا همسات وكلمات هنا وهناك، حتى إذا انتصف النهار، وحان وقت التشييع، فقد ضاق الشارع بالبشر. ولأول مرة يُرى الطربوش على الصندوق الذي كان فيه الجثمان، وبدأ الموكب يتحرك، لكن بصعوبة، حتى إذا خلا الشارع أحس الكثيرون بالفراغ الأقرب إلى الخواء، وأحسوا بالحزن الشديد.

قال أحد الرجال، وكان شديد التأثر:

- يمكن أن يؤرخ لعمان يوم كان حمدي منكو حياً، ثم لما غادر هذه الدنيا!

وموتاً آخر تتذكره عمان، وكان مفاجئاً، أقرب إلى عدم التصديق، موت ماجد العدوان، ليس لأهمية الرجل فقط، بل ولأنه ترافق مع دعوة كبرى كان يعدّها ذلك اليوم، وكان يفترض أن يحضرها أهم شخصيات البلد، خاصة السياسية.

فمثل عاداته في هذه الدعوات، هياً الرجل الكثير، عدد الخراف التي دُبِحت، عدد أفراد العشيرة الذين حضروا، ما يرافق هذا الحضور من صخب واستعداد، إضافة إلى الخيول، واحتمال أن يقام مهرجان لاستعراضها، وربما لسباقها، بعد الوليمة، كما نُصبت الخيام على أطراف الملعب المقابل للبيت، وفي حديقة الصنوبر، وأوقدت نيران القهوة في أمكنة عديدة، فبدا وكأن كل شيء يشير إلى أن هذه الدعوة ستكون أهم الدعوات وأكبرها في عمان.

يذكر الذين كانوا إلى جانب ماجد العدوان، أن الرجل لم يهدأ لحظة واحدة، إذ كان ينتقل بهمة وبسرعة من مكان إلى آخر لكي يطمئن أن الأمور تسير على أحسن وجه، وكما خطط لها، وفجأة، بين الضحى والظهر، غاب الرجل. وبمرور الوقت، واستمرار الغياب، أخذت التصرفات والحركات تشي بأن شيئاً ما وقع قبل الظهر بقليل بدا الأمر أكثر جدية، وربما خطورة، مما قدّر أي إنسان، وما أكد ذلك الحركة السريعة، والهمس الخائف الذي صدر من بعض الذين دخلوا إلى البيت وخرجوا. أما حين وصل الدكتور التوتونجي، وبدأ مسرعاً وهو يغادر السيارة ويدخل البيت، فقد وصل الاحساس إلى درجة الخطر، وأن الأمر يعني ماجد العدوان، ولا أحد غيره.

حين أعلنت الوفاة بعد الظهر بقليل، لم يستطع أحد أن يستوعب الأمر، حتى أن الكثيرين رفضوا التصديق، وقالوا ذلك بصوت عالٍ.

أما حين وصل الملك فلم يصدق الكثيرون أعينهم، فالعادة أن يكون الملك آخر من يصل إلى المآدب والاحتفالات، أما وأنه جاء في هذا الوقت، وبهذه الطريقة، فقد تأكد الجميع أن ما حصل يفوق أي توقع: إنه الموت!

قال الكثيرون أن أياً من الذين كانوا في البيت، أو حواليه، لم يذق لقمة واحدة طوال ذلك اليوم. وقال غيرهم أن الطعام الذي أعد للوليمة وزع على الفقراء. وقيل أن نساء البيت، لما وقعت المصيبة، صببن الماء على النار فأطفأنها، وقيل اهلن عليها التراب. وأكدت نورة البيشني، وهي من أصدقاء الأسرة، وقد رددت ذلك أمام الكثيرين، إن النار وحدها انطفأت لما علمت بموت ماجد العدوان!

شجرة اللوز تحمل لوزاً، وشجرة الجوز تعطي جوزاً، والكرمة تعطي العنب. قد يكون العنب أسود أو أخضر، مستديراً أو بيضاً، صغيراً أو كبيراً، لكنه يبقى في النهاية عنباً!

كل الأشجار والنباتات تفعل ذلك. أما أن تعطي شجرة ، بمفردها، اللوز والمشمش معاً، فأمر يصعب تخيله.

أخذ الطفل الذي لم يُقبل في المدرسة العبدلية، لصغر سنه، لكي يرى الشجرة العجيبة. هكذا قيل له في ذلك الصباح.

نزل الدرجات العشرين الحادة، العالية أكثر من درجات أخرى، فوجد الباب مفتوحاً، رأى أطفالاً يكتسون الباحة الفسيحة، واحداً يرش الماء واثنين يكتسان. قالت له أمه: انظرا! رأى الشجرة. رأى اللوز في جانب والمشمش في جانب آخر، تمنع بالأوراق فوجدها مختلفة من جهة لثانية. نظر بامعان إلى الساق ليتأكد أن ليس في الأمر خدعة أو خطأ: الساق واحد، ومنه تتفرع الأغصان، أما الثمر فنوعان مختلفان. فرح كثيراً في داخله لهذا الاكتشاف!

بعد أن سلمت أمه على الشيخ حافظ، ثم على أم أمين وأمينة، وكان الطفل مشغولاً بالشجرة العجيبة، ويعد أن تأكد وأطمأن، كاد يعتبر الزيارة انتهت، ويمكن أن يغادر كما جاء، لكن الشيخ حافظ طلب إليه بحزم، اقرب إلى الأمر، أن يدخل إلى الصف، أذهلته المفاجأة، فهو لم يأت لكي يصبح تلميذاً في هذا المكتب، لكنه لم يقر على الاعتراض بصوت عالٍ. نظر إلى أمه طالباً أن تقف إلى جانبه وتمنع هذه الكارثة، لكن أمه، لأول مرة، تبدو مختلفة، شعر أنها تتخلى عنه، تتركه وحيداً في مواجهة هذا الرجل الذي سمع عنه الكثير قبل أن يراه. كاد يقول شيئاً، كاد

يتمتع، لكن كلمات الشيخ، وكانت أوضح من المرة الأولى، لم تترك له أية فرصة.

قال له:

- امش قدامي!

حين نظر إلى أمه في محاولة أخيرة لأن تكون معه ، لأن تحميه قالت ،وهي تحاول الابتسام :

- سيدك الشيخ حافظ راح يعلمك القراءة والحساب، وراح تصير أشطر من اخوتك!

وبطريقة خفية، دون تهديد، اهتزت الخيزانة في يد الشيخ، وحين تحرك لم يجد الطفل مفرأ إلا أن يتحرك أمامه.

إنه اليوم الأول في الكُتّاب!

سوف تنقضي سنوات كثيرة على ذلك اليوم، لكنه لا يزال محفوراً في الذاكرة، كأنه وقع بالأمس ،بالأمس تماماً: رائحة المكان، عيون الأطفال التي تراقب القادم الجديد، كلمات الشيخ القاسية، نظراته الحادة، وأيضاً طريقته حين يمشي، بعد أن يكون قد جلس فترة طويلة على الكرسي في مواجهة التلاميذ!

لن ينتهي أبداً اليوم الأول في "المكتب"، لن يتوارى ، بل أكثر من ذلك، إنه يتجدد ويعاود الظهور في اللحظات الصعبة بعد كل تلك السنين، ويكتسب بعداً اضافياً، خاصة أيام العطل!

فالطفل الذي لم يمض وقت طويل على انتقاله إلى بيت جديد في جبل عمان، عاد حزيناً وغاضباً من "المكتب"، عاد وحيداً لأن البيت لم يكن بعيداً. شعر أنه مخدوع، وأن الجميع تخلوا عنه، كما شعر أن تلك الشجرة العجيبة لم تكن أكثر من مصيدة، وسيحاول أن يقاوم جميع الخدع والأشجار التي من هذا النوع فيما سيأتي من الأيام، وسيبقى يردد لنفسه:

شجرة اللوز تعطي لوزاً

شجرة الجوز تعطي جوزاً

وحتى الكرمة، مهما تعددت أنواعها، لاتعطي، في النهاية إلا العنب. أما ان تعطي الشجرة جوزاً ولوزاً، مشمشاً وعنباً، وأن يكون لها ساق واحدة، فليست أكثر من خدعة لصيد الأطفال..

ولا يتأخر الطفل لكي يعلن احتجاجه وتمرده، وأنه يصر على عدم الذهاب ثانية إلى المكتب. ولكي يؤكد تصميمه يرفض الأكل ويعلن الاضراب، فيسمع جدته تقول لأمه:

- حرام. زغير، وباچر خاف يحصر ويتوجع!

وحين تؤكد الأم أن لامفر من ذهابه ثانية، خاصة وأن المدرسة الحكومية لم تقبله لكي يذهب مع اخوته، ترد الجدة بغضب حزين:

- قبل سنة جرينا من حلق السبع، مات إلا شويه، فشرح تقولين لروحك باچر إذا توجع؟

ويستمر الاضراب عن الطعام إلى ما بعد العصر، وحين تذهب الأم لزيارة، وبنوع من التواطؤ بين الجدة والحفيد، يأكل الطفل، لكن مقابل ذلك على الجدة أن تقف إلى جانبه في مواجهة الضغوط التي سيتعرض لها، لاجباره على الذهاب ثانية إلى المكتب. تعده الجدة، لكن تسأله عن سر الشجرة العجيبة، فيرد بغضب:

- مثل ما الشيخ يضرب الأولاد يضرب الشجرة، ويقول لها لازم تعطي اللوز والمشمش، وهي مسكينة، وحدها، مامعها أحد، تخاف وتسوي مثل مايريدا!

لا يعرف الطفل من أين أتاه الجواب أو أين سمعه، لكنه سيعجب الجدة، وسيحملها على سؤال الأم حين تعود ما إذا كان الشيخ "سحر" الشجرة وجعلها هكذا، فلما تؤكد الأم أن ليس في الأمر سحر من أي نوع، وأن الشجرة "مطعمة"، والشيخ لا يضرب إلا الأولاد الكسالى، وعيب أن لا يتعلم الولد، ترد الجدة بطريقة لتؤكد تضامنها:

- خاف ناكل أصابعنا ندامة باچر إذا صار قد شي موبالبال ولا بالخاطر.

وتنهي الأم المناقشة طالبة أن يُقفل الموضوع. ويعلن الطفل أن اضرابه مستمر إلا إذا تم التراجع عن قرار ارساله إلى المكتب، وحين يخيم الصمت يواصل اضرابه، وتداهمه الكوابيس في تلك الليلة.

في اليوم التالي، في الصباح الباكر، سيأتي عبيدان، وباختصار شديد سيقول:

- يا الله

وذهباً معاً. كان عبيدان صامتاً طوال الوقت، وكان الطفل يسير وراءه، على مسافة خطوة، وكان صامتاً أيضاً. سوف ينزلان الدرج، الواحد وراء الآخر، ويستقبله الشيخ حافظ بتساؤل، ولأن ليس لدى عبيدان الكثير ليقوله، بعد التحيات والسؤال عن الصحة والأحوال، فقد سلّم الطفل بطريقة احتفالية:

- ياشيخنا: اللحم لك والعظم لنا، وهذا عندك أمانة!

وقبل أن ينصرف قال بطريقة صارمة، وهو ينظر إلى الطفل:

- وإنشاء الله اسمع أنك غلطت أو قصرت.

وبدأت الرحلة القاسية في مواجهة الحياة.

كان مكتب الشيخ حافظ هو السجن الأول الذي يتردد عليه الطفل. كان يقع في أول جبل عمان، على السفح الجنوبي، نهاية شارع خرفان، بين درج الكوربا ودرج جويبر. يُنزل إليه بدرجات حادة، تتوسط الباحة الخارجية الشجرة الملعونة. إلى يمين الداخل الدار التي يسكنها الشيخ وعائلته، يُرتقى إليها بدرجات ثلاث، لتبدأ عليه تظللها دالية عنب كبيرة، كانت هذه العلية، معظم أيام السنة، مكان استقبال الضيوف "والمراجعين"، والمكان الذي يقبل فيه الشيخ، وأيضاً حيث تجلس أم أمين لتقوم بمعظم الأعمال المنزلية، من تقميع البامية إلى تنقية الرز والعدس، إلى قراءة فناجين القهوة أو قراءة راحات الأيدي، لمعرفة شؤون الرزق والحب ووقائع الأيام الآتية!

المكتب في مواجهة الباب الخارجي تماماً، وهو عبارة عن غرفة فسيحة، لها شباك كبيران، الأول إلى يسار الباب، يطل على الباحة، وكثيراً ما أمال الشيخ كرسيه ليرقب الحركة من خلاله. والشباك الثاني وسط الحائط القبلي، يتيح رؤية مساحة كبيرة من جبل الأشرفية وأطرافاً من السيل. أما الشباك الثالث، الغربي، فهو عالٍ، يسمح فقط بانارة الغرفة، ولا تبين من خلاله إلا أجزاء من السماء، وحين تتسلل الشمس الغربية عبره يظهر موشور عريض مغبر، ويظل هذا الموشور يتحرك ويتغير تبعاً لمسقط الضوء.

أما طريقة جلوس التلاميذ، فالكبار، تلاميذ الصف العالي، كما يطلق عليهم، وعددهم بين الأربعة والخمسة، وهؤلاء هم الذين صمدوا وواصلوا، وأصبحوا الآن على وشك التخرج، إذ ستجري لهم الختمة في نهاية الموسم الدراسي، كان هؤلاء يجلسون في الوسط، مقابل الشيخ، وكانوا يدرسون الصغار أيضاً، وبعض الأحيان يؤدون خدمات يكلفهم بها الشيخ خارج المكتب.

الصفان الآخران، ويضم الأول الصغار، المبتدئين، على يسار طاولة الشيخ، والمتقدمون عليهم إلى يمين الطاولة.

تبدأ الدراسة في المكتب الساعة السابعة صباحاً أيام الصيف، والثامنة خلال فصل الشتاء. يبدأ فصل الصيف عندما تزهو شجرة اللوز والشمش، أي عندما تزهو الشجرة العجيبة، يقول الشيخ بطريقة فخمة لكي يعلن بداية الفصل الجديد:

- إذا كان في واحد بينكم أعمى وماشاف زهر اللوز خليه يحضر ايديه بكرة!
وإذا كانت العادة أن تبدأ الدراسة نشيطة متلاحقة: رؤية "المراحم" التي تبرر غياب أحد التلاميذ في يوم أو أيام سابقة، إلى تدقيق واجب الخط - الوظيفة، إلى تسميع بعض الآيات، فغالباً ما يتسلل صوت أم أمين عند الضحى معلناً مجيء زائر يريد أن يرى الشيخ، ولأمر لالعلاقة له بالدراسة، كان صوتها يأتي من العلية:

- يا أبو أمين ... ضيوف!

ويستغل الشيخ أول فرصة ليتوقف، مكلفاً العرفاء أن ينوبوا عنه.

كان سلامة يتولى "الادارة" لجميع الصفوف أثناء غياب الشيخ، لكن لايجزى على الجلوس وراء طاولته، أو استعمال العصا التي يتركها نيابة عنه! وكان آخر يتولى الاشراف على تلاميذ الصف الثاني، كما يتولى "المبرزين" من هذا الصف "التسميع" للتلاميذ الصغار.

العادة أن تبدأ الأمور جدية، أقرب إلى الصرامة، لكن لاتلبث أن تتراخى، ويتغاضى الشيخ عن هذا التراخي، إلا إذا زاد عن حد معين، عند ذاك يتنحج بصوت عالٍ ليشعر سلامة بالأمر، وما إن تصل هذه الإشارة حتى يضرب سلامة الطاولة بقبضة يده ليضع الجميع أمام مسؤولياتهم وهكذا تنتظم الأمور مؤقتاً، حتى إذا انتهى الشيخ من المهمات الطارئة، وبعد أن يودع ضيوفه، ويصبح احتمال دخوله متوقفاً بين لحظة وأخرى، تعود الصفوف إلى انتظامها بطريقة مبالغ فيها، ويتبارى التلاميذ في اظهار الانضباط والجدية، فالذين "يسمعون" يرفعون أصواتهم بطريقة تمثيلية، والعرفاء يبدون حرصاً زائداً في التصحيح وطلب الاعادة، لكن هذه الحيل لاتفوت الشيخ، فما أن يدخل، وهو يهز رأسه عارفاً بما جرى خلال غيابه حتى يخرج صوته متوقداً:

- تيوس، الواحد منكم مايسوى الخبز اللي ياكله

وبعد أن يجلس وراء طاولته، ويقبض على العصا، يقول بعد أن يتنحى:

- الإنسانية لاتنفع معكم، لكن والله لاخلّي العصا تهري جنباكم!

وويل الذي يقع في يد الشيخ غير حافظٍ لدرسه، أو غير كاتبٍ واجبه، إذ يتلقى في هذه الحالة عقاباً مضاعفاً.

للشيخ حافظ قاموس خاص من الكلمات والتعابير، وله طقوسه في التصرف أيضاً. من الكلمات التي يرددها: تيس، حمار، بزوك. أما كلمة خنزير إذا أطلقها على أحد التلاميذ فلا بد أن تعقبها عصا أو اثنتان. ومن التعابير الأثيرة، والتي أصبحت مثل لازمة: "داهية تسمك" "موت ياخذك" "طلميس"، الله عامي عينك وقلبك وياريت أهلك يحطوا على ظهرك جلال حتى تجيب حق علفك".

هذه الصفات يحاول أن يطلقها على الأفراد، والتصرفات تبعاً لما يتسم به الشخص أو الحالة، لكن في أحيان كثيرة يتجاوز ذلك، كما حصل يوم هرب الديك: ففي صباح أحد الأيام صاحت أم أمين أن الديك قفز عن الحائط وهرب، وطلبت النجدة والمساعدة.

أرسل الشيخ اثنين من الصف الأعلى للقبض على الديك. بعد أن طارده طويلاً، وبصعوبة قبضا عليه وجاء به مخفوراً إلى الشيخ، ما إن رآه حتى انهال عليه:

- يقصف عمرك. داهية تسمك، الله ياخذك

وبعد قليل، وقد هدأ غضبه قليلاً:

- ولك أنت ماتساوي العلف اللي تاكله، وفوق هذا متعبنا؟

كان الديك، وهو مقبوض عليه أثناء الفترة الأولى، يسمع ويتلفت، وفي لحظة مناسبة استطاع أن يفلت ويطير إلى ظهر الطابون. حتى ذلك الوقت كانت شتائم الشيخ تتوالى، أما حين صار الديك بعيداً وأماناً، فأخذ يصيح، وكأنه يرد على شتائم الشيخ أو يسخر منه، الأمر الذي جعل كل من رأى المشهد يغرق في الضحك، حتى الشيخ أخذ يضحك وهو يضيف:

- والله لاحبسك، يا ابن الحرام، حتى تتخ عظامك!

سلامة، أحد اللذين كُفّا بالقبض على الديك، قال بصوت عالٍ، بعد أن تلفت، وقد أصبح التلاميذ في الشارع، وكان الجميع يتحدثون عن الديك:

– موته من الجوع فراح المسكين يتسبب!

سيظل مكتب الشيخ حافظ هكذا إلى أن يبني طابقاً ثانياً، وتكون أرضية هذا الطابق مرتفعة قليلاً عن مستوى الشارع، وسوف يتم إقامة درج يصل بين الطابقين، ثم لايلبث الطابق الأعلى أن يستقل، خاصة بعد أن تزوج أمين.

وإذا كان للمكتب في وقت سابق باب واحد، وظل هكذا بالنسبة للتلاميذ، فإن الشيخ لم يعد مقيداً أن يسلك هذا الطريق في الدخول أو الخروج، أكثر من ذلك أصبح يلجأ إلى التمويه، إذ يخرج من باب ويأتي من آخر، لكنه يفعل ذلك بشكل مباغت وسريع، لكي يعرف كيف تجري الأمور أثناء غيابه! ونتيجة هذه المداهمات كانت توقع عقوبات استثنائية، خاصة على العرفاء. كان، وهو يشمر عن ساعديه ليبدأ، وبعد أن يكز العريف في صدره بالعصا، وبعض الأحيان بقبضة اليد، يطلب منه أن يفتح يده، ويهدر بصوت مخنوق:

– من أمّك لاتخونه ولو كنت خاين ...

وتعلو نبرة صوته مع سقوط العصا على اليد الممدودة ...

– واحنا امّك، ياخنزير، لكن طلعت النّم واحدا!

لكن العريف لايتترك الأمر يمر هكذا، ففي لحظة مناسبة، وبطريقة لاتخلو من براعة:

– الحق عليّ، ياسيدي، بس قبل الضرب اسمع.

ولابد أن يسمع الشيخ، وهنا تبدأ قصة تपाल أحد التلاميذ الذين لهم حظوة لدى الشيخ، كأن يكون هو المتسبب بهذه الفوضى، أو أن تنقل عنه قصة حدثت خارج المكتب، أو تنقل ألفاظ أو أوصاف قالها بحق الشيخ. ولأن القصة تُروى أمام الجميع، بمن فيهم صاحب الحظوة، لابد أن يحصل رد أو اتهام مقابل، الأمر الذي يعقد المشكلة ويدخلها في طور جديد، مما يجعل الشيخ يوقف الضرب ويطلب من الجميع أن يخرجوا إلى الباحة، ليبدأ بعد ذلك تحقيقاً يعتمد على سؤال بعض الذين يثق بهم، إلى أن ينتهي إلى حل من نوع ما، وغالباً مايكون ضرب الاثنين: العريف والمتهم الآخر، وقد يتجاوز الأمر هذا الحد ليطال غيرهما أيضاً.

براعة سلامة، ونوع المساعدة التي يقدمها، تجعل الشيخ يستبقه بعد انصراف التلاميذ وإلى مراضاته أيضاً، ويبدأ اليوم التالي وكأن شيئاً لم يحصل، سوى أن صاحب الحظوة قد تراجعت منزلته كثيراً!

تمضي الايام ثقيلة قاسية، لكن في نهايتها ضوء، إذ لابد أن يُقبل الطفل في المدرسة، ويكون مع اخوته، الذين أخذوا يعكرون، بشكل متعمد، أيامه في المكتب، إذ أخذوا يكررون قصصاً مخيفة عن المرات التي غضب فيها الشيخ، وكيف كسر عصاه وهو يضرب، لم يكتف بذلك انتزع من شجرة الرمان المزروعة في الزاوية قضبناً وانهاled مجدداً على التلاميذ. كانوا يرددون مثل هذه القصص، ويروون، بالمقابل، مقاطع من التمثيلية التي يهيئونها لتعرض في نهاية العام الدراسي، كما يتحدثون عن المباريات التي جرت بين مدرستهم ومدرسة أخرى، أو التي ستجري في الاسبوع القادم؛ الاناشيد التي تردد في بداية كل يوم، وتلك التي تحفظ خلال الاسبوع. ولابد أن يكون نتيجة المقارنة المزيد من الغم والانتظار.

ذات يوم جاء أحد الأقرباء، وكان يعمل في التجارة، ولما عرف أن الطفل أرسل إلى مكتب الشيخ حافظ ضرب كفاً بكف أسفاً، ويعد أن هز رأسه عدة مرات، وليثبت خطأ هذا القرار، أجرى امتحاناً للطفل:

- صار لك شهر في المكتب، وتعلمت الكثير، وأريدك الآن أن تقول لي: أيهما أثقل: كيلو الصوف أم كيلو الحديد!

أجاب الطفل، بارتباك، أن كيلو الحديد أثقل. ويعاود هذا القريب السؤال بالصيغة ذاتها، لكن ببطء، لكي يتيح فرصة أطول للتفكير والمقارنة، ويصر الطفل، لايعرف لماذا، إن كيلو الحديد أثقل.

ويعاود القريب السؤال، ولكن لا يتوجه هذه المرة إلى الطفل، وإنما يتوجه إلى الآخرين، وحين تبدو الحيرة على أكثر من وجه، يقول هذا القريب:

- يامسترخص اللحم عند المرق تندم!

ويشرح للطفل، للحاضرين، أن الكيلو هو الكيلو، سواء أكان حديداً أم صوفاً، ذهباً أم تراباً. ويستغرب أكثر الحاضرين، لكنهم يصمتون!

وفي نهاية الزيارة يصرّ هذا القريب على ضرورة انتقال الطفل إلى مكتب الشيخ سليم. لا يكتفي بهذا الاصرار، يتعهد أن يتولى الأمر بنفسه، وهكذا تبدأ الرحلة الثانية، السجن الثاني، والذي لا يمكن مقارنته بأي سجن آخر.

فمكتب الشيخ سليم لم يكن له وحده، إذ كان معه فيه الشيخ زكي، ولفرط التداخل أصبح الاثنان واحداً، رغم اختلاف الهيئة، واختلاف المهمات.

كان هذا المكتب وسط السوق، في الجهة الغربية من الجامع الحسيني، ولأن

للشيخين مهمات اضافية، عدا تدريس القرآن، وتعليم الأولاد القراءة والحساب، فإن الصورة التي ارتسمت بالأذهان، وفاقت أية صورة أخرى، ارتبطت بالشيخ سليم

الشيخ زكي قصير، شديد السمعة، يطفح وجهه بالنضارة والحمرة، خاصة بعد أن ينتهي من مهمته الأساسية: الأذان. كان عند ذلك يبدو شديد الرضا عن نفسه، نظراً للجهد الذي بذله في الصعود والنزول من أجل الأذان، وأيضاً لأن صوته كان قوياً صافياً ورخيماً. عدا عن ذلك فإنه المسؤول الأول عن التعليم!

أما الشيخ سليم، الطويل الضامر، فكانت تغطي إحدى عينيه "لقطة"، فتبدو هذه العين غائمة، مختلطة، أقرب إلى البياض. كانت مهماته، إضافة إلى تعليم التلاميذ التجويد، أن يؤم المصلين، وأيضاً، وهذه أخطر المهمات، وأكثرها رعباً: تغسيل الموتى.

كان تجار السوق، وأغلبهم من الشام، يفضلون أن يكون أولادهم في هذا المكتب، لقربه من متاجرهم، بحيث يمر الأولاد، بعد انصرافهم، على متاجر الآباء ليتعلموا المبادئ الأولى للمهنة وأسرارها من خلال المراقبة، ومتابعة المفاوضات أثناء البيع والشراء. كان الآباء، في مثل هذه الحالات، يبدون براعة اضافية، لكي تكون دروساً للأبناء، خاصة حين يكتشفون الأسرار، من حيث الأسعار التي اشترى بها السلعة، والأسعار التي وافقوا على أن يبيعوا بها؛ كانوا يفعلون ذلك بعد أن تتم الصفقة، وبعد أن يغادر المشتري، الفلاح أو البدوي، والذي يتظاهر بأشكال متعددة، إنه كان غالباً ولم يكن مغلوباً، وإنه أرغم البائع على الامتثال لشروطه!

ولا ينسى الآباء أن يبعثوا مع الأطفال الحاجات التي تم شراؤها خلال النهار، وهم بهذه الطريقة يضمنون شيئين اثنين: نقل الحاجات، وقد يكون بعضها ثقيلاً، دون يتكلفوا أجراً لنقلها، والشيء الآخر: يطمنون أن الأطفال سيذهبون إلى البيت مباشرة، دون تأخير، وبذلك يتأكدون أن ملابس الأطفال لن تتعرض للوساخة أو التمزيق وهم يجرون وراء بعضهم، بعد أن شعروا بالحرية في أعقاب يوم طويل في المكتب!

ليس ذلك فقط، إن معرفة الآباء بالشيخين، نتيجة التردد على الجامع، لسبب أو آخر، يحكم المراقبة، ويضمن بالتالي حسن التربية!

مجرد أن تكون للشيخ سليم علاقة بالموتى يقوم حاجز رهيب بينه وبين الآخرين، خاصة الأطفال. فإذا أضيفت الكثرة، والعين الغائمة، والتي يحار

الأطفال هل ينظرون إليها أو لا ينظرون، وما يتولد نتيجة ذلك من رضا الشيخ أو استيائه، ثم تلك الحركة السريعة العصبية التي تميزه دائماً، ويزيدها نحول جسده وغرقه في تلك الجبة الرمادية، فيبدو وكأنه بنيان قديم على وشك أن يتفكك ويتداعى، لكنه وهو يفعل ذلك لا بد أن يسقط على الآخرين أيضاً. كل هذه الأمور تجعل الشيخ سليم انساناً يوكد مشاعر كثيرة، لعل أبرزها الخوف والنفور في أن واحد.

حين أخذ ذلك القريب الطفل إلى مكتب الشيخين، وقد استقبله الشيخ زكي، سمع سؤالاً حيرته: "أهذه هي البضاعة؟" وحين تلقى الاجابة هزة رأس، لم يتوقف الشيخ عن الابتسام، وكانت يده السمينية، وقد وضعها على كتف الطفل، تشكل ثقلاً هائلاً، أكثر من ذلك تقيم سداً بينه وبين العالم الخارجي، حتى ليبدو كل شيء، قبل هذه اللحظة، أكثر رافة، بما في ذلك مكتب الشيخ حافظ!

إن المعلومات حول "المكاتب" والشيخو تنقل بين الأطفال بسرعة خارقة، تماماً كما ينتقل البرق، فالصورة عن هذا "المكتب"، وعن الشيخ سليم بالذات، تشبه حد السكين: قاسية، لثيمة، وملينة برعب غامض.

لا يقتصر الأمر على هذا، فرغم اختلاف الشيخين من حيث الهيئة، وأيضاً المهمات، إلا أنهما يبدوان شيخاً واحداً، اندمجا بطريقة عجيبة!

قال الشيخ زكي لكي يطمئن قريب العائلة:

- الله راضي عليكم، يا حاج، وخلصكم من الساحر، كاتب الحجب، لو ظل، هذا المسكين، عنده كان طلع مزمر بالدنيا مطبل في الآخرة ...

وبعد قليل، وبلهجة ودية تحمل الكثير من الاطراء:

- لكن الله سبحانه وتعالى الهمكم ونور قلوبكم!

ابتسم هذا القريب أكثر مما تعود لهذا الثناء يأتيه من شامي، خاصة وأن تقديره للشوام فيه الكثير من الاحتفاء، "لأن كل ما يفعلونه يدل على العقل والشاطرة". بانت أسنانه الكبيرة وهو يبتسم، وردد كلمات غامضة.

تابع الشيخ زكي بحفاوة زائدة:

- لا يكون لك فكر، يا حاج، البضاعة وصلت، وإنشاء الله ماتكونوا إلا راضين!

وبعد قليل، وزادت ابتسامة الرجلين، تابع الشيخ زكي:

- ومن هون للعيد، الله يعيده علينا وعليكم بالصحة والسلامة، راح تشوفوا الفرق، وراح تقدروا تعبنا!

كان مكتب الشيوخ في الجهة الغربية للجامع، له باب يقود إلى الصحن مباشرة. يتألف من غرفتين فسيحتين، تبدو كل واحدة منهما أكثر اتساعاً حين تكون فارغة، أما إذا اكتظت فإنها أشبه بحظيرة للغنم.

الغرفة الداخلية للصغار والثانية للكبار.

حين لايشغل الموت الشيخ سليم يتولى صفأً من الاثنين، بينما يتولى الشيخ زكي الآخر. ورغم انفصال الغرفتين إلا أن الدوي الصادر من أحدهما لا يلبث أن يسري إلى الأخرى، ولذلك يبدو الجو مشحوناً، دائماً، بأصوات كثيرة متداخلة، وغالباً ما تكون صماء لاتصل بوضوح أو لاتفهم، ولذلك يكون انتقال الكلمات داخل الصف ثقيلأً ملتوياً، تماماً كمن ينظر للأشياء من وراء زجاج محجّر، أو كمن ينظر في الماء. فليست الكلمات التي تقال في الصف وحدها التي تسمع، وإنما تختلط مع تلك الآتية من الصف الآخر، من السوق، من أمكنة بعيدة، والتي تصل عبر النافذة، عبر صحن المسجد، الأمر الذي يجعل "الحفظ" شديد الصعوبة، مما يثير الشيخ زكي، فيعتمد على الفلقة لكي تكون أداة توصيل لهؤلاء الذين لا يريدون أن "يحفظوا" وغالباً ما كانت ترفع الفلقة كل يوم!

إذا انشغل الشيخ سليم لابد أن يتولى أحد مكانه، وغالباً يكون أحد الكبار من الصف الآخر، وبعض الأحيان عريف الصف. والشيخ زكي يتحرج، مرة بعد أخرى، بين الصنفين، لكي يتأكد أن الأمور تسير بشكل طبيعي. كان، وهو يتحرك، يشبه البطة السميكة، أو كما يرتج الماء في وعاء كبير. كان كل عضو فيه يتحرك بمفرده، ولولا ذلك الثوب الذي يحكمه حزام قوي من القماش المائل إلى الصفرة لتبعثر، لما أمكن لهذه الكتلة الهائلة من اللحم أن تبقى واحدة أو متماسكة!

الطربوش الأحمر، القاتم في الشتاء، الأقل قتاماً في الصيف، لا يغادر رأس الشيخ زكي. كان يعتمد أن يرتديه باستمرار لكي يبدو أكثر طولاً، فإذا اضطر إلى خلع، خاصة في بعض أيام الصيف، فكان يفعل ذلك لفترة قصيرة، ريثما يمسح صلعته من العرق، أو ليثبت منديلاً تحت الطربوش. إذا ثبت المنديل يبدو انساناً مضحكاً، وقد تدلت زوايا المنديل الأربع من كل النواحي، الأمر الذي كان يضطره لأن يرفع المنديل بعض الأحيان، خاصة إذا لمح ابتسامات من نوع معين.

صلاة الأطفال في الجامع الزامية، خاصة وقتي الظهر والعصر، وإذا كانت

مثل هذه الصلوات تؤدي بطريقة آلية، لأنها أقرب إلى الواجب، فإن صلوات أخرى كانت تؤدي بطريقة عصبية، وتثير الكثير من الرهبة، كانت مثل هذه الصلوات تتكرر بين فترة وأخرى، إنها الصلاة على الموتى! وكانت تتفاوت من حيث العناية والاهتمام، تبعاً لأهمية الميت، ومدى حرص الشيخ سليم على ذلك!

أكثر من مرة أخرج التلاميذ من الصفوف، وطلب إليهم أن يحضروا جميعاً، بطريقة احتفالية، "لأن الميت عزيز" أو "لأن الميت رجل صالح، والصلاة عليه تكسب المؤمن ثواباً إضافياً" وصلاة من هذا النوع تؤكد في قلوب الأطفال خوفاً لا ينتهي، وهذا الخوف يلاحقهم في الليل والنهار.

قالت الجدة، بعد أن عرفت بعض التفاصيل التي أسرلها بها الحفيد:

- أخذتوه لمكتب السحار، أبو شجرة الزقزم، قلنا هذا اللي الله قسمه، ضمينا همنّا ودردرنا، وقلنا ما يخالف ...

تستريح قليلاً ثم تتابع بلهجة جديدة، وكأنها تخاطب نفسها:

- شلون مصيبة هذي؟ شلون بلوى ابتلينا بيها؟

وتعود إلى اللهجة السابقة:

- شوفوا ... شلون صار المسكين، صار جلد وعظم. راح يموت، وما كفاكم،

صار يصلي على الموتى...

وتغيرت اللهجة، أصبحت غاضبة تماماً:

- قولوا لي، شنو تريدون يصير: حفار قبور؟

واختلفت اللهجة مرة أخرى، أصبحت ساخرة:

- وين القراية؟ وين النشيد؟

ولم تجد الاحتجاجات ولا الكوايس أو سخرية الاخوة، إلى أن حدثت تلك الواقعة: فذات يوم، كان الشيخ سليم يعلم الأولاد الصغار سورة "إنا أعطيناك الكوثر". كان يتلوها مجوداً، ويطلب أن يُردّد وراءه بنفس الطريقة وبنفس الغنة، ومن أجل الوصول إلى الإقادة والإيقاع الصحيح أخذ يهتز اهتزازاً رتيباً، ويطلب من التلاميذ أن يفعلوا مثله، ولأن "الحال" أخذه "الدور" سيطر عليه كان يغمض عينيه، أو بالأحرى يغمض عينه الصحيحة. وفجأة دب صوت الفرغ. كان في البداية

صوتاً واحداً ، ثم أصبح أصواتاً كثيرة. لم يقتصر الأمر على الأصوات وحدها إنما رافقها الهرب ورفع الأرجل والتدافع.

ماكاد الشيخ يفتح عينه حتى رأى عدداً كبيراً من الضفادع يتقافز في كل مكان!

وبسبب الفوضى والصراخ واخراج التلاميذ من الصف الأول ثم من الصف الثاني، لم يُعرف بدقة من الذي أتى بالضفادع، أو من الذي أطلقها!

إنه يوم مشهود من أيام مكتب الشيخين، فقد انتهى ذلك اليوم بالكلمات التالية التي أطلقها الشيخ سليم:

– معكم من اليوم لبكرة، إما تعترفوا من قام بالعملية، أو حضروا حاكم لعقاب ماشفتم مثله!

وانتشرت أخبار، أخذت تتأكد لحظة بعد أخرى، أن العقاب الذي سيوقعه الشيخ سليم بالتلاميذ أن يحبسهم في غرفة الموتى، الغرفة التي تعود الأطفال ألا ينظروا إليها، وكانت في مدخل الجامع، ناحية اليسار، إذ كان يجري فيها غسل الموتى الفقراء، أو الغرباء الذين لا بيوت لهم، وكان الأطفال يتعمدون عدم الاقتراب من تلك الغرفة، ويلجأون ، أغلب الأحيان، إلى الدخول والخروج من الباب الشمالي.

تراجع الشعور بالفرح الداخلي الذي تولد نتيجة الانتقام من الشيخ، خاصة بعد أن زال الفزع المفاجيء الذي أعقب إطلاق الضفادع، وحل مكانه الشعور بالندم ثم بالخوف، أما حين تأكد أن العقاب سيكون الحبس في تلك الغرفة، فقد سيطرت حالة من الرهبة أقرب إلى الرعب.

أما كيف نقل الطفل إلى أمه وجدته ما حصل فقد كان يتكلم وهو يبكي، وكان بكائه أقرب إلى الغيظ، ثم أعلن أنه لن يذهب إلى المكتب مهما حصل، وإنه يفضل أن يموت هنا لا في تلك الغرفة المرعبة.

وبكثير من الجهد أمكن الوصول إلى تسوية مؤقتة: "لاتروح للمكتب بكرة، وبعدها نشوف".

ولم يعد الطفل نهائياً إلى مكتب الشيخ سليم.

ولأنه من غير اللائق، أو المناسب، إعادته إلى مكتب الشيخ حافظ، فقد تم

الاتفاق، بعد أيام طويلة من المناقشة والافتناع والمحاولات، أن يلحق بمكتب الشيخ عبد، ولفترة محدودة، ريثما يُرتب أمر قبوله في المدرسة الحكومية.

يقع مكتب الشيخ عبد في الشابسوغ، غير بعيد عن المدرج الروماني. كان الشيخ رجلاً مسناً أقرب إلى العجز، إذ لا يستطيع النهوض إلا بصعوبة، وإذا مشى لابد أن يستند على أحد أو إلى الجدار.

أما المكتب فهو عبارة عن غرفة واحدة في زقاق طويل مغلق، على جانبي الزقاق بيوت من طابق واحد أو طابقين. لم تكن تمديدات المياه قد وصلت إلى معظم هذه البيوت، ولذلك كانت إحدى مهمات التلاميذ جلب الماء للشيخ، ولرش الزقاق، وأيضاً للذين يستعينون به طالبين مساعدته "لأن الطبخة احترقت يا شيخنا" أو "لأن الضيوف سيصلون بين لحظة وأخرى". كان الشيخ عبد لا يتردد في تلبية مثل هذه الطلبات، لأن النتائج التي تترتب، كمقابل، لهذه المساعدة، لن تتأخر، خاصة وأن الشيخ كان وحيداً دون عائلة، وكان يقبل أن يتقاضى أجوره لقاء تدريس التلاميذ مواد عينية كالبيض والزيت والعسل، كما يقبل أن تدفع الأجرة أسبوعياً بدل أن تكون شهرية.

يجلس الشيخ في صدر الغرفة، والجلوس في هذا المكتب على الأرض، بعد أن ينزع الأطفال أحذيتهم في المدخل ناحية اليسار، لأن الزير الكبير، المملوء دائماً، كان يحتل الناحية اليمنى للمدخل. ولأحاجة للحديث عن رائحة المكان، خاصة وأن الهواء لا يدخل إلا من الباب فقط، إذ تخلو الغرفة من أي نوع من الشبابيك.

لدى الشيخ عصا طويلة تكاد تصل إلى جميع الأطفال، وكانت، أغلب الأحيان، مرفوعة فوق الرؤوس، لاستعمالها عند الضرورة، أو للإشارة إلى بعض الحروف والكلمات المرسومة على اللوح!

معظم تلاميذ المكتب في "صف" واحد، لأن مستواهم متقارب، ولذلك فإن الدرس، أي درس، للجميع، وغالباً ما تقتصر الدروس على قراءة القرآن، وبطريقة منمّعة قليلاً، خلافاً لطريقة الشيخ سليم الفخمة.

إذا نظر الإنسان إلى الغرفة أثناء الدروس يشهد كتلاً صغيرة تهتز كالنوابض، كانت تهتز إلى الأمام وإلى الخلف، تماماً كما يفعل الشيخ. أما الأصوات فإنها أقرب إلى النشاز، ولذلك تتحول الكلمات إلى ضجة صماء يصعب تمييزها، حين يلاحظ الشيخ سهواً من أحد التلاميذ، وأكثر ما يتبدى ذلك من غياب

حركة الشفاه أو الجسد، فلا بد أن يستعمل عصاه، ويعاود الجسد نواسه متناغماً مع الحركة العامة.

وهكذا تنقضي الساعة في هذه الرياضة الاجبارية، حتى إذا انتهت كلف الشيخ بعض التلاميذ الكبار لجلب الماء، وطلب من المتقدمين أن ينسخوا آية أو صفحة من كتاب القراءة، والتفت إلى الصغار المبتدئين.

كان يطلب من أحد التلاميذ الكبار أن يخط على اللوح عدداً من الحروف يملئها عليه ويبدأ، يردد والصغار وراءه:

الألف لاشين عليها

والباء نقطة تحتيها

والتاء نقطتين فوقيهما

وتظل هذه الأنغام تتردد بشكل بدائي، وبطريقة ببغائية إلى أن يتعب الشيخ أو يمل، فيكلف أحد التلاميذ الكبار أن يحل مكانه في ترديد العبارات السابقة، إلى أن تتحول إلى شيء أقرب إلى الغناء، عند ذاك ينهي الشيخ الدرس، خاصة وأن هناك ضرورة لكي يؤمن غداً، ولأن يستريح

قبل أن ينقضي شهران تم قبول الطفل في المدرسة العبدلية، وانتهت الرحلة الأولى في الكتاتيب، عدا بعض العطل الصيفية.

قالت الجدة بعد أن أعلن عن نهاية الرحلة الأولى، وهي تتطلع إلى الطفل بمودة:

- شوفوا شلون صار المسكين: جلد وعظم، وكان راح يموت . .

وبعد قليل كأنها تخاطب نفسها :

- وين القراية .. وين النشيد؟

وخفضت صوتها أكثر من قبل وهي تصيف:

- ظلّام، ما يخافون من الله، كانوا يريدونه يغسل الموتى أو يصير حفار قبور!

عند تلاقي الطريق النازل من جبل عمان، من ناحية الشمال الغربي، بطريق وادي السير، وعلى بعد أمتار من قيادة الجيش، مقر كلوب باشا، وغير بعيد عن المفوضية الانكليزية، ثم السفارة بعد ذلك، كانت المدرسة العبدلية.

والعبدلية واحدة من المدارس الابتدائية الثلاث الحكومية في عمان أوائل الأربعينات. ولكونها في غرب المدينة فقد التحق بها عدد كبير من التلاميذ الذين يسكنون في تلك البقعة الواسعة، بدءاً من رأس العين والمصدر، مروراً بالمهاجرين، ثم سفحي الجبل الجنوبي والشمالي، حتى السوق، خاصة في الجهة الغربية منه إلى طريق وادي السير.

أما المدرسة الثانية فهي العسبلية، وتقع شرقي المدينة، بالقرب من المدرج الروماني. ثم مدرسة العجلوني في جبل اللويدية، وكان عدد التلاميذ في هذه المدرسة أقل من المدرستين السابقتين.

ثم هناك مدرسة التجهيز أو الثانوية، وكانت تضم بعض الصفوف الابتدائية، إضافة إلى خريجي المدارس الثلاث السابقة الذين يريدون مواصلة الدراسة الثانوية حتى الصف العاشر، إذ يفترض بعد ذلك أن يلتحق الناجحون والقادرون بمدرسة السلط لكي ينهوا الدراسة الثانوية هناك.

تقع مدرسة التجهيز في منتصف السوق، ولا تبعد إلا مسافة قليلة عن الجامع الحسيني وقهوة المنشية. فيها باحة واسعة مليئة بالأشجار والأدوات الرياضية، وربما كانت في فترة سابقة ثكنة عسكرية.

وإذا كان لمعظم المدارس باب واحد يدخل ويخرج منه التلاميذ، فإن للعبدلية بابين الأول نظامي ويستعمل في الصباح وعند الانصراف، والآخر يتسلل منه

التلاميذ المتأخرون، أو الذين يودون الهرب عندما تتاح لهم الفرصة! كان هذا "الباب" عبارة عن فتحة في الجهة الخلفية من السور، نهاية السفح الحاد، حيث توضع المدرسة في ذلك التجويف بين شارعين، الأول من الأعلى، ويطل مباشرة على المدرسة، والثاني يقود إلى السوق وطريق وادي السير من جهة، وإلى جبل عمان من الجهة الثانية

عدد الصفوف في العبدلية خمسة، وهي موزعة على طابقين، في الطابق الأول الادارة، أو بالأحرى المدير، وغرفة المعلمين، وفي الجهة المقابلة الصفان الرابع والخامس. أما في الطابق الثاني فالصفوف الثلاثة الأولى، اضافة إلى باحتين صغيرتين، واحدة جنوبية، والأخرى شمالية.

العادة أن يصطف التلاميذ كل صباح في الباحة الجنوبية لأداء نشيد "عاش الأمير" بعد أن يكون المدير، يوسف الجيوسي، قد استعرضهم، ليتأكد من اللياقة والنظافة، وكانت العصا، أغلب الأحيان، لاتفارق يده، إذ يمر ببطء، ورأسه يرتفع وينخفض بطريقة آلية، وهو يتفحص الوجوه والملابس، وحالما ينتهي من الاستعراض يصرخ فيخرج صوته حاداً:

- استرح

تتحرك الأجساد المشدودة، ترتخي قليلاً، لكن الإيعاز الثاني لايلبث أن يشدها مرة أخرى:

- استعد

وبعد الاستعداد:

- إلى اليمين در.

ثم بعد قليل:

- سر بالتتابع

ويبدأ الصف الخامس بالتحرك، أما الصفوف الأخرى فتبدأ بالتحرك الساكن، حيث ترتفع الأرجل وتنخفض بانتظام إلى أن ينتهي الصف الخامس فيتبعه الرابع، وهكذا حتى الصف الأخير.

وإذا كانت صفوف الصباح تأخذ هذا النسق، فإن للانصراف نسقاً آخر، إذ يصطف التلاميذ في طابورين كبيرين، حسب مكان السكن. يتجه الطابور الأول

نحو جبل عمان والآخر نحو السوق، ولا بد أن يخرج التلاميذ بانتظام إلى مسافة معينة، وهذه المسافة، رغم التشديدات المستمرة، لا يمكن أو لا يجري التقيد بها في أغلب الأحيان، إذ تتضاءل سلطة العرفاء أو تنعدم مع كل خطوة يبتعد بها الطابور عن المدرسة.

الباحة الشمالية، وهي سطح الإدارة وصفوف الطابق السفلي، يتجنبها التلاميذ في معظم الأحيان، لأن لا أحد يجرؤ على الركض أو الصخب هناك، خوفاً من العقاب، إضافة إلى أن المعلمين، في حالات معينة، يفضلون التمشي والتدخين في هذه الباحة.

اليوم الأول في المدرسة يوم خاص، لا ينسى. ففيه يبدو كل فرد وكأنه إنسان آخر. المدير والمعلمون والتلاميذ. حتى الآن، أبو حلمي، يبدو في اليوم الأول انساناً مختلفاً: يقف في نهاية الساحة، عند قمة الدرج، وقد ارتدى ملابس أنيقة لا تختلف عن ملابس المعلمين، حركته سريعة تنم عن قلق، ونظراته موزعة بين الطوابير وبين نقطة في الأعلى، وكأنه ينتظر شيئاً أو أحداً، الأمر الذي جعل أغلب التلاميذ يتساءلون ويتطلعون، ولم تعرف أجابة لهذا التساؤل إلا بعد فترة من الزمن، إذ عرف الجميع أن خوف الآن ناجم من خوف المدير، لأن بيت عبد القادر التنير، المفتش، يطل على المدرسة مباشرة، وهذا بالإضافة إلى المراقبة، يعني احتمال زيارة المفتش للمدرسة في أي وقت، خاصة وأن مثل هذه الزيارة تحدث دوماً يستمر وقتاً غير قصير، وتختلف نتائج تنعكس على الجميع. لذلك كانت وقفة الآن تحكي خوفاً لا يمكن كتمانها أو تمويهها، وكانت "عيناه عشرة على عشرة" كما طلب منه المدير، لكي لاتقع زيارة مفاجئة من المفتش.

ومن أجل تجنب هذا النوع من المفاجآت عقد أبو حلمي، في وقت لاحق، حلفاً ضمناً بينه وبين سمير التنير، ابن عبد القادر، إذ ما يكاد يراه حتى يحبيه ببشاشة، ثم يسأله عن صحة البابا "ومتى سيشرفنا بزيارته"، ولأن أجابات الطفل لاتكفي، وأغلب الأحيان سلبية، خاصة حول موعد الزيارة، فقد كان أبو حلمي لا يرتاح ولا يهدأ إلا بعد أن يتأكد بنفسه من تجاوز المفتش للمدرسة وتوجهه نحو وزارة المعارف.

في اليوم الأول، وبطريقة مأكرة، لاتخلو من براعة، مثل كل إنسان في المدرسة دوراً، فالمدير بدا أكثر صرامة، والمعلمون، خاصة الجدد، بدوا أكثر ارتباكاً، أما التلاميذ فكانوا أكثر نظافة وتهذيباً مما هم عليه في العادة. حتى

خيزرانة يوسف الجيوسي التي اهتزت تهديداً في الصباح، لم تلبث أن استعملت عدة مرات أثناء اصطفاف التلاميذ في طوابير الانصراف، خاصة مع الصغار الذين أخطأوا في اختيار الطابور الذي يجب أن يلتحقوا به.

ولأن سمير التنير طالب مستجد، وفي الصف الأول، فقد افترض المدير أن زيارة المفتش لابد أن تكون متوقعة بين يوم وآخر، وفي وقت أقرب مما تعود عليه في السنوات السابقة، ولذلك بذل جهداً خاصاً، بالتعاون مع معلم الصف، لكي يتقن التلاميذ نشيد: "أنا القهوة".

لقد مضى على تعلم ذلك النشيد ما يزيد على الخمسين سنة، لكن صداه لا يزال يتردد:

أنا المحبوبة السمر
أجلى بالفناجيــــن
وعود الهند لي عطر
وذكرى شاع في الصين

كان المدير يقف في الزاوية البعيدة عن الباب، وقد استبدل عصا الخيزران بمسطرة، وأخذ يردد النشيد، وهو يوقع بالمسطرة على راحة يده الممدودة، كان يفعل ذلك، لكي يخلق نغماً يساعد التلاميذ على حسن وسرعة تعلمه، بعد أن يعيد النشيد مرتين أو ثلاث مرات يطلب من كل تلميذ أن يرده على انفراد. ورغم قصر المسطرة، إلا أن لدغة ضرباتها لتندس حين تقع بحرفها على يد الذي يخطئ أو لا يجيد النغم!

وإذا كان يوسف الجيوسي حازماً أقرب إلى الصرامة، فإن حجمه الصغير يعطي انطباعاً مغايراً، خاصة إذا ترافق مع الصوت الحاد الذي يشبه الاستغاثة. ولقد تأكد هذا الانطباع بعد أيام من بدء الدراسة، حين جاء بملابس الكشافة.

كان يرتدي بنطالاً قصيراً وقد علق مجموعة من الأوسمة، إضافة إلى القياطين التي تتدلى من الكتفين، أما السدارة فوق رأسه فقد بدت شديدة الغرابة، إذ لم يتعود التلاميذ رؤيته إلا بالطريوش. بدا بهذه الملابس أصغر سناً وحجماً، ولا يختلف عن تلاميذ الصف الخامس. أما حين رافق التلاميذ برحلة إلى عين غزال، بعد عدة شهور، وكان بملابس الكشافة أيضاً، فقد كان مرحاً، وراه الكثيرون يضحك بطريقة أقرب إلى القهقهة!

وسوف تتأكد هذه الصورة للأستاذ الجيوسي حين استبداله، بعد فترة، بمدير العسبلية: سليمان عطور.

فالمدير الجديد، والذي كان يسكن غير بعيد عن المدرسة العبدلية، في الطابق السفلي لبنت عصفور، أقرب إلى هيئة ضابط، خاصة ضابط تركي، بشكله وسلوكه وطريقته في الكلام!

كان يرتدي، أغلب الأحيان، السواري، وهو البنطال الذي يرتديه الخيالة، إضافة إلى الحذاء عالي الرقبة، ويضع على رأسه القلبيق القوقازي في الأيام غير الماطرة. أما حين تمطر السماء فيستبدل القلبيق بفترة، فيبدو وكأنه متنكر، إذ بعد أن كان شكله أقرب إلى شكل كمال أتاتورك، يظهر في الفترة وكأنه أحد الأفندية في الثورة السورية وقد ارتدى الملابس الأفرنجية وجاء ليتخفى بين البدو!

مشية سليمان عطور، في الذهاب إلى المدرسة أو العودة منها، عسكرية، شديدة الانتظام والصرامة. أما في المدرسة فلا يتغير في المشية سوى سرعتها، تصبح أكثر بطناً وثقة، وأقرب ما تكون لخطوات قائد يستعرض قواته ويفكر بأمر خطير في نفس الوقت، وما يزيد انتظام الخطوات الصوت الذي يخلفه الحذاء، إضافة إلى اهتزاز العصا!

ومثلما كانت للأستاذ عطور مشية خاصة، كانت له مجموعة من العصي.

الأولى للشارع: قصيرة، غليظة، فيها نتوءات صغيرة، خاصة في القسم العلوي، وهي من النوع الذي يستعمله كبار الضباط، وربما كان لديه أكثر من واحدة رغم تشابه الألوان. أما الثانية، وكان يستخدمها في المدرسة، وخارج الإدارة، فهي من الخيزران الغليظ، لها رقبة، وأطول من العصي العادية، وأشبه ما تكون بالعكاز. كان يقتصر استعمال هذه العصا على التركيز والشدة، فإذا رأى تلميذاً في وضع يخل بانتظام الصف وكزه في صدره لكي يصبح بسوية الآخرين. أما إذا أراد معاقبة أحد المذنبين فيقلب العصا، وبخفة يعلق رقبة ذلك التلميذ بعقفة العصا ويجره، وبصوت يخرج من بين الأسنان يطلب منه الانتظار عند باب الإدارة.

وفي الإدارة يبدأ دور العصا الثالثة، وهي خيزرانة ليست طويلة وليست قصيرة، ليست غليظة وليست رفيعة، وتستعمل للضرب فقط.

يندر أن يكون تلميذ مرّاً بالعبدلية، وربما بالعسيلية، خلال إدارة سليمان عطور، ولم تنله واحدة من العصوين الثانية أو الثالثة. كان يعتبر العصا أفضل معلم، خاصة للكسالى والمذنبين، وكان رغم قسوته، عادلاً، لا يفرق بين غني وفقير،

بين كبير وصغير، لأنه كان يعاقب الشيطان، كما قال ذات مرة في حفلة نهاية السنة، داخل التلميذ، هذا الشيطان الذي يلهي عن الدراسة أو يحرض على التدخين والهرب من المدرسة!

في حالات الخطأ، وبعض الأحيان، الإهمال: "لابد من كم عصا لمن عصي" وكان عدد العصي يتناسب مع حجم الخطأ أو الإهمال، وأغلب الأحيان على اليدين، أما في حالة الخطأ الجسيم، كالهرب من المدرسة أو التدخين، فلا بد أن يجلس المخطئ على الأرض مائلاً رجله، بعد أن يكون قد تلقى الأمر الذي لا يحتمل أية مناقشة: "أخلع". وبطريقة بارعة يدوس سليمان عطور على قصبتي الساقين، ليثبت القدمين، ويبدأ الضرب والعد معاً، دون أن يوجه نصائح، دون أن يصرخ أو يشتم، وبعد أن ينتهي، ويكون التلميذ قد أوشك على التلف، تخرج الكلمات القليلة، وتكون شديدة الوضوح:

- إذا هربت مرة ثانية ... إذا دخنت مرة ثانية .. راح تموت بين يدي!

وبعد قليل وبصوت مليء بالقسوة:

- فهمت؟

ويكون الجواب هزات رأس متواصلة، فيصرخ :

- يا الله .. انقلع من وجهي.

وبطريقة المرعوب يهرول التلميذ، وهو يحمل حذاءه، غير شاعر أو غير عابئ بالألم، فقط يريد أن ينجو!

ومن "رأس روس" الدرس الأول الذي يتعلمه التلاميذ في الأيام الأولى، إلى "في أول تشرين الأول تفتح المدارس أبوابها ويعود التلاميذ إلى مدارسهم بعد العطلة الصيفية" بداية قراءة الصف الثالث، يجد التلاميذ أن الكلمات التي خطوها على الألواح في نهاية السنة الدراسية الماضية لاتزال موجودة. من تلك الكلمات: "الوداع يامدرستي الحنونة، الوداع إلى لقاء قريب"، ويجدون أن العطلة الصيفية، رغم طولها، قصيرة، لكن مع ذلك فهناك علاقات وصداقات لا يمكن أن تكون إلا في المدرسة، ويكتشفون أن كل شيء تغير، وأنهم تغيروا أيضاً، يعرفون ذلك وهم ينظرون إلى بعضهم، وحين ينظرون إلى معلمهم والمدير، فيتذكرون أشياء كثيرة عزيزة.

فالأستاذ داود لم يعد ذاك الذي يصرخ ويضرب فقط، بل الصورة الأوضح له، وهم يلتقونه من جديد، ذاك الذي يضحك مثل طفل تكرر أمه، وهو يرى أحد التلاميذ يقلد حركاته وطريقته في الكلام أثناء الحفلة في نهاية السنة الدراسية. كما يتذكرون أنه ذاك الذي أوقف الدرس فجأة حين سمع العصفور تزقزق بطريقة غير مألوفة، وكيف التقط الحية التي ابتلعت عصفوراً، بعد أن أدركها وهي تدخل شقاً في الجدار، إذ أمسك بذيلها، وبعد أن راوغها بأشعارها أنه يتركها، جرها بقوة ولاحها في الهواء مرتين أو ثلاث مرات ثم ضربها بالارض والحائط فسقطت تتلوى فداًس رأسها وقتلها، وكان العصفور الذي ابتلعه لم يزل يتلوى في بطنها.

وفي الدرس الأول، والتلاميذ ينظرون إلى الأستاذ داود ليكتشفوا أية تغيرات حصلت خلال ذلك الصيف، يتذكرون كيف وقف السنة الماضية بحزن بالغ ومؤثر، وهو يبلغهم بوفاة زميلهم أحمد اسماعيل، الذي داسته سيارة، وكيف طلب منهم أن يقفوا بضع دقائق حداداً على روحه. ومما قاله في ذلك اليوم، أن أحمد اسماعيل، لو قدر له أن يبقى حياً، وأن يواصل دراسته، لربما أصبح ذات يوم رجلاً كبيراً وخطيراً، وأن كل واحد منهم يمكن أن يكون هكذا في المستقبل إذا اجتهد، فشعروا بالاعتزاز والحزن معاً وشعروا بالهم أيضاً.

لم يكن الأستاذ داود وحده الذي يثير فضول التلاميذ وتساؤلاتهم، كان الأساتذة الآخرون كذلك.

فالأستاذ مولود، بروحه الساخرة، وخطه الشديد الجمال والأناقة، وجسده الرياضي القوي، رغم قصره، وتلك البراعة التي يتميز بها وهو ينقف قطع الطباشير على أولئك الذين يشاغبون أو يتكلمون أثناء درسه ... الأستاذ مولود يثير الفضول لتعدد مواهبه ونشاطاته، فقد تعود أن يراه التلاميذ، بعد الانصراف من المدرسة وأيام العطلة، وهو يعلف البقر، أو يساعد في حمل أكياس الحنطة، وهو ينضح الماء من البئر. وراؤه ذات صباح يجرف الثلج عن سطح البيت، فتجروا ورشقه بكرات من الثلج، ضحك كثيراً وهو يستند إلى "الكريك"، وأشار إليهم، بجمع يده: أن انتظروا، فظنوا أنه سينتقم منهم في أحد دروسه، لكن ماكادوا يستديرون إلى الناحية الثانية من المنعطف حتى انهالت عليهم كتل من الثلج المندوف، فلما رفعوا رؤوسهم رأوا الأستاذ مولود!

لقد تعلم أكثر تلاميذ العبدلية، خلال تلك الفترة، الخط الجميل، أو حب الخط، من الأستاذ مولود، ولم يكن الشركسي الوحيد الذي يتمتع بهذه الموهبة، كان شوكت، زميل الصف، لا يقل عنه موهبة، إذ يخط نهاية كل سنة كلمات جميلة وسط

يدين تتصافحان بقوة، دلالة الصداقة والمودة، ويهديها إلى رفاقه. كما كان هؤلاء الرفاق يستعينون به لكي يخط لهم أسماءهم على دفاترهم. أما الكلمات التي تُخط على اللوح في وداع سنة مدرسية وانتظار التي تليها، فكان شوكت يتفنن في خطها وتزيينها.

لا يقتصر عمل الأستاذ مولود على التدريس فقط، إذ كان يتولى التدريبات الرياضية، والإشراف على تمثيلية نهاية السنة.

تطلع، ذات يوم، بدهشة، إلى أحد التلاميذ، وكان يردد النشيد، وقبل أن ينتهي، قال له بانفعال، ويكثر من الحزم: تعال.

وهذه الكلمة الصغيرة تثير فزعاً في قلب أكثر التلاميذ جراً، لأن الجميع يعرفون الصفعة القوية، والتي تترك أثراً ليس على الخد، بل وفي الأذنين أيضاً، وقد تستمر أياماً، حين يصفع الأستاذ مولود أحد التلاميذ نتيجة خطأ ارتكبه. صحيح أنه لم يلجأ إلى هذه الطريقة إلا مرات قليلة، لكنه جعل الجميع يخشونه ويحاولون عدم ارتكاب خطأ يشيره.

ماكاد التلميذ يصل إلى الطاولة التي يقف قربها الأستاذ مولود، وكان خائفاً مرتبكاً، حتى قال له:

– ردد معي: يا طير الحمام ابكي على فرقتي

يا طير الحمام احلم مدرستي

ضح التلاميذ في ضحك متواصل، لأن الأستاذ مولود لم يكن يلقي كلمات، كان يغني، وكان يريد من التلميذ أن يفعل مثله، والتلميذ الذي فوجئ، وأخذ ينقل نظراته بين الأستاذ ورفاقه، لا يعرف كيف يتصرف أو كيف يستجيب. بعد أن هدأ الضحك، وقد شارك فيه الأستاذ مولود أيضاً، قال:

– أريد واحداً مناسباً لكي يغني هذه الأغنية في تمثيلية نهاية السنة...

وبعد قليل وهو يتمعن بوجه التلميذ:

– أنت الذي سيغني هذه الأغنية.

وهذا ما حصل بالفعل، لم يقتصر الأمر على أن يؤدي ذلك التلميذ تلك الأغنية، أصبح اسمه، منذ ذلك اليوم: يا طير الحمام!

والأستاذ زغلول، وكان يسكن في جبل اللوييدة، مقابل العبدلية، صدف مرات كثيرة أن راقبه التلاميذ وهو يغادر بيته في طريقه إلى المدرسة وتراهنوا، وكيف أن الذين يربحون الرهان يتسمون ويتغامزون، وحين لا يفهم الأستاذ زغلول سبباً للابتسام أو الحركات يصبح عصبياً، ولأنه لم يتعود الضرب كان يصرخ بأعلى صوته:

- يا أبو حلمي ... يا أبو حلمي

وما إن يظهر الأذن حتى يطلب منه أن يأخذ اثنين أو ثلاثة إلى الإدارة، ويشير إلى آخر من ابتسم، إلى من نظر إليه بطريقة لم ترقه، ويوقع المدير العقوبات على هؤلاء، وتكون غالباً خفيفة، دون أن يعرف الجرم الذي ارتكبه!

والأستاذ أبو كلام، رغم أن سبابه يده اليمنى مقطوعة، كان يحسن استعمال القلم والطباشير، والمسطرة أيضاً، ببراعة، اعتماداً على الإبهام والأصبع الوسطى. كان يخط على دفاتر الواجب كلمات لفرط مآكرها، أصبحت مألوفة وذات دلالة محددة: يكتب للكسول أو المخطئ: "الكسل طريق الفشل"، "العقل للعمل لا للهبل"، ويكتب للمجد: "ربي زدني علماً" أو "من طلب العلاء سهر الليالي". وكان يخط على اللوح، بحروف كبيرة وواضحة، وإن لم تكن بجمال خط الأستاذ مولود، كلمات اذ يطلب من التلاميذ استعمالها في جمل مفيدة وذات معانٍ هامة، ويول لمن تكون جملة ركيكة أو ليست ذات معنى كبير، ثم يصبح ليس فقط موضع سخرية الأستاذ، بل وسخرية التلاميذ أيضاً. فإذا لم تكف السخرية فلا بد عندئذ من استعمال المسطرة. كان الأستاذ أبو كلام شديد البراعة وهو ينقر اصبع التلميذ بمسطرته، إذ تنزل المسطرة بخفة وقوة، خاصة على ظاهر اليد والأصابع. كان يقول للتلميذ: "ضع اصبعك على الكلمة" فما يكاد يشير إليها حتى يحس بالنفرة وكأنها المسمار ينغرز في الظفر، فيخرج وهج من العينين قبل أن تتوقد اليد من الألم.

وإذا كان الذي درسهم الأستاذ أبو كلام قد استفادوا منه، وتعلموا الكثير، فإن الشيء الذي لم يتعلموه أبداً طريقته في استعمال المسطرة حتى الرهانات التي كان يجريها التلاميذ فيما بينهم، بأخفاء السبابه ثم باستعمال المسطرة، كانت تبوء بالفشل.

حين أبلغ الصغير جدته عن براعة الأستاذ في ضرب التلاميذ الكسالى على

أيديهم وأصابعهم، رغم عدم وجود السبابة في يده، تطلعت إلى سبابة يدها اليمنى، حركتها أكثر من مرة، ثم قالت:

- كل ذي عاهة جبار ...

وبعد قليل وبصوت حنون:

- وأنت، يابعد عيني، شاطر وماشاء الله عنك.

أما حين جاء ذكر الموضوع مرة أخرى فقد قالت الجدة بهمس، وكانت تريد أن يسمع الصغير:

- يغار من أصابعهم، يريد يكسرها، حتى كلهم يصيرون مثله!

ولما جرى الحديث بين الجدة وأم الطاهر، وهذا مانقل وأصبح موضوعاً للتندر به، فكان السؤال الذي حيرَ المرأتين ولم تجدا له جواباً:

- هذا ... إذا صلى شلون راح يتشاهد؟

مع أول أمطار الخريف اختل نظام الاصطفاف، لأن المطر الذي كان ينهمر على عمان في تلك السنين كان يأتي مبكراً وغزيراً. وحين يأتي المطر تغرق الساحة الجنوبية، وتصبح امكانية انزلاق الأحجار والأتربة متوقعة وخطرة، الأمر الذي دفع المدير إلى ادخال التلاميذ فوراً إلى صفوفهم. أما الخروج بطواير، وكان الهدف منه اظهار الانتظام وتعليم الآخرين الدقة والنظام، فكان مستحيلاً، لأن الفوضى التي تترافق مع سقوط المطر، لعدم القدرة على السيطرة، ثم ذلك الهوس الذي كان ينتاب التلاميذ وهم يعرضون أنفسهم للمزاريب، وتفأخرهم أيهم أكثر بلائاً، جعل الادارة تصرف النظر عن ضرورة الخروج في وقت واحد أو بشكل نظامي، إذ تركت للأساتذة فسحة يتصرفون خلالها حول أنسب توقيت لخروج كل صف.

ويتقدم أيام الخريف، ثم دخول الشتاء، ومع تزايد قصر النهارات، أصبح الانتظام أقل من السابق، وكانت هناك أسباب وحجج لاتنتهي: "أخذت العجنة للفرن، أستاذ" "زحمة التموين، أستاذ" "ماعدننا ساعة، أستاذ" "راحت علي نومة ودوخة بسبب الفحم، أستاذ".

ولأن الناس، تلك الأيام، فقراء أو أقرب إلى الفقر، ولأن تلك الفترة كانت شديدة الصعوبة، يفترض أن يعمل الجميع، أن يساهم كل فرد في الأسرة بجهد من نوع ما لكي تستمر الحياة، وبالتالي لكي يستطيع التلاميذ أن يواصلوا دراستهم.

كانت الأعذار التي يقدمها التلاميذ مفهومة من قبل الأساتذة، وإن لم تكن مقبولة دائماً من الإدارة. ليس ذلك فقط، أصبح الباب الخلفي للمدرسة باباً رئيسياً للكثيرين، خاصة للذين يسكنون في جبل عمان، نظراً لقربه، ولأنه يجنبهم المرور قرب الإدارة، وبالتالي لايتعرضون لعين يوسف الجيوسي أو خيزرانة سليمان عطور. حتى أبو حلمي، الذي يجلس على كرسي قرب باب المدير، وكان مكلفاً بتوقيف التلاميذ المتأخرين، أصبح لا "يراهم" وهم يتسللون، أو يلجأ إلى استعمال يده وحدها للكلام، حيث يحركها مشيراً إلى فمه بالتزام الحذر والهدوء، وضرورة الاسراع قبل أن ينتبه أو يحس المدير! عملية تواطؤ واسعة ومستمرة بين الجميع، وكان كل واحد يقوم بدوره باتقان شديد!

الاساتذة كانوا أكثر تسامحاً ورغبة بالمساعدة، خاصة وهم يرون الوحل يغطي ملابس الصغار أثناء انزلاقهم من الباب الخلفي، أو يرون بقعة الماء تتجمع بعد أن يتكوم التلميذ في مقعده، أو حين يفرك يديه لمقاومة البرد الذي تسلسل إلى العظام.

كانت تلك الفترة بالغة الصعوبة على الجميع، فالحرب العالمية التي انفجرت قبل فترة، وكانت تبدو بعيدة أول الأمر، لم تلبث أثارها أن أخذت بالظهور، فالصفوف الطويلة التي أصبحت تملأ شارع السلط، من أجل الحصول على التموين من البلدية، اضطرت الكثير من العائلات لأن تستعين بأولادها للحصول على البطاقات أو لحمل الأرزاق. والعائلات التي كانت تعتمد على السقائين في جلب الماء أصبحت تعتمد على الأولاد لهذا الغرض، وكذلك الأمر بالنسبة لحمل العجين إلى الفرن، وماشابه ذلك من أعمال يستطيع الأطفال والصبية القيام بها.

ثم إن "الساعة" التي يحصل عليها الأطفال الآن بسهولة، والتي منها عدد في كل بيت، كانت في تلك الفترة نادرة. حتى الأساتذة لم يكن أكثرهم يملك واحدة منها، كان الاعتماد على الجرس، وبعض الأحيان الأذان، في تحديد المواقيت!

أما الساعة التي يحملها الأستاذ مولود، وكان لا يخفى اعتزازه بها، وربما لأكثر من سبب! فإن صوت اغلاق غطائها، وسط صمت التلاميذ، كان يحرض مخيلة ورغبة كل تلميذ لو أنه يستطيع امتلاك واحدة مثلها، رغم أنها ساعة جيب كبيرة وقديمة، وكان لها سلسلة مربوطة بأحكام في عروة السترة!

ولذلك فإن عذر بعض التلاميذ عدم وجود ساعة في بيوتهم مفهوم، خاصة في الايام التي تحجب الغيوم الشمس، وبالتالي عدم امكانية معرفة الوقت!

إذا تعذر وصول أو مجيء عدد من التلاميذ، خاصة أولئك الذين يسكنون في الضفة الأخرى من السيل، لأن المياه ارتفعت في المجرى، وغيببت الأحجار التي كانت تشكل جسراً للانتقال، وتعذر عليهم بالتالي أن "يقطعوا"، فلا بد أن يقدموا عذراً، ويجب أن يكون خطياً، لأن الإدارة لاكتفي بالأعذار الشفوية. وغالباً ماتقدم أوراق، انتزعت على عجل من دفتر مدرسي، وكان بعض الطلبة متخصصاً بكتابتها لأنفسهم ولغيرهم، وتتضمن صيغة واحدة أو متشابهة. كانت الصيغة كما يلي:

"عطوفة مدير المدرسة العبدلية المحترم أدامه الله

نرفع إلى عطوفتكم أسمى آيات الاحترام والتبجيل، راجين من الله أن يديم عليكم الصحة والعافية، أما بعد.

نرجوا (أ) غض النظر عن غياب ولدنا (فلان) نظراً لانحراف صحته؛ (أو) نظراً لغيابه لأسباب قاهرة)، ولكم جزيل الشكر وعظيم الامتنان. ولي امر الطالب.

والإدارة تقبل هذا العذر أغلب الأحيان، لكنها تعرف أن السبب الحقيقي للغياب مختلف، كأن يكون حذاء التلميذ مثقوباً، أو أن لديه صندوقاً ولايمك حذاء، وربما لايمك معطفاً يقيه المطر والبرد. ورغم هذه المعرفة فإن تهديباً من نوع نبيل يمنع البحث أو التقصي عن سبب الغياب، إلا إذا تكرر كثيراً، أو في أوقات متقاربة.

المرات التي كان "يحد" فيها السيل عديدة تلك الأيام، ومعنى ذلك أن ينقطع عدد كبير من التلاميذ، ومعناه أيضاً أن تأخذ الدروس نسقاً مختلفاً، كأن يؤجل أخذ درس جديد، أو تكون مناسبة لأن يتحدث الأستاذ في أمور خارج المقرر، وغالباً ما يكون مثل هذا الحديث من القلب وهاماً، وربما أكثر تأثيراً من الدروس المقررة، حتى ليبدو الأستاذ شخصاً مختلفاً عما عرفه التلاميذ من قبل، أو سيكونه حين تطلع الشمس في يوم جديد لاحق!

أما أيام الثلج في عمان فإنها لا تشبه غيرها من الأيام. فحين يهجم البرد الشديد، ورغم تحذيرات الكبار بضرورة ملازمة الصغار للبيوت، وعدم التعرض للبرد، وما قد يلحقه من أذى أو مرض، فإن الصغار حين يسمعون أو يقدرّون احتمال سقوط الثلج، يصبح نومهم في تلك الليالي قلقاً متقطعاً. أكثر من ذلك يستيقظون ويتطلعون من النوافذ لكي يتبينوا ما إذا سقط الثلج أم لا، وحين يتأكدون من سقوطه يتسارعون ما إذا "علم" واستقر، لأن الثلج إذا علم له معنيان كبيران

واستثنائيان: لامدرسة في اليوم التالي؛ "وكم" من اللعب والمرح لا يتاح إلا في حالات نادرة، بما في ذلك رشق الكبار والصغار، الرجال والنساء، بالثلج، دون خشية أو حذر، وبعض الأحيان، وبحجة اللعب، الانتقام من الخصوم!

وبين النوم واليقظة بانتظار اليوم التالي، تكون الجدة، التي قامت للصلاة، أول من يبشر الصغار بسقوط الثلج، وإنه علم!

تقول الجدة، وهي توقظهم بحنان قاس:

- قوموا ... قوموا، شوفوا شنو صاير بالدنيا.

وحين يهبون بسرعة، على غير عادتهم، وينظرون إلى الجدة ثم إلى ماحولهم، يعرفون إنه الثلج، ومع ذلك يتراخضون للنوافذ، لفتح الباب، لكي يتأكدوا، وبعد أن يلمسوا الثلج بأيديهم، ويقدرُوا سماكته، تندفع الأصوات دون نغم ودون انتظام:

- بيضة ... بيضة ... سنة بيضة!

والجدة التي لم تألف الثلج، رغم أنها رآته بعينها، لاتزال تستغرب وتتساءل من أين يأتي أو كيف يسقط، ولاتزال تردد بصوت مسموع:

- سبحان الله، القادر. أي نعم القادر على كل شيء!

وفي وقت لاحق، في الليل، وهم حول المنقل، يستعرضون وقائع اليوم، تقول الجدة لنفسها، ولايهما أن سمع الآخرون أو لم يسمعوا، بعد أن تبرع الصغار لاعادة ماتعلموه في درس "الأشياء". تقول:

- هذي السما مثل القاع ما ينحز عليها، ومايندري شنو ببطنها!

وبعد قليل، بصوت منخفض:

- سبحان الله، القادر!

أما كيف مضى ذلك اليوم، وماذا وقعت خلاله من أحداث، فإن إعادتها أو تلخيصها أمر يكاد يكون مستحيلاً، إذ لم تكن هناك فسحة للتوقف، للتأمل، منذ الصباح الباكر وحتى اضطر الصغار للعودة إلى البيت، بعد أن لاحظ الكبار أنوفهم المحمرة، وأذانهم التي تقلصت، ويعد أن ثلجت الأيدي والأقدام.

كان الصغار يلعبون بالثلج، وكانوا يحرسون، في البداية، على ألا يبددوه، إذ

يجب أن يبقى لكي لا يذهبوا إلى المدرسة؛ سيصلون مدرستهم ومدارس أخرى بكل تأكيد، لكن ليس مثل باقي الأيام. سيذهبون في الوقت الذي يشاؤون، وبالطريقة التي تروقهم.

وعمان التي تستفيق على البياض يغمرها طويلاً رضىاً تشعر بالفرح الأقرب الى الزهو، فالثلج هو "مونة الأرض" كما يقول الكبار ويؤكدون، وهو أحد المؤشرات أن هذه السنة ستكون من سنوات الخير، خاصة وقد ضاقت الأرواح بالمصاعب التي تزداد يوماً بعد آخر.

ما إن يتأكد التلاميذ أن لا دراسة في ذلك اليوم، وهذا التأكيد هم الذين افترضوه، ثم اعتبروه حقيقة ثابتة لاتقبل الاختلاف أو الجدل، حتى يندفعوا كالذئاب الضالة في كل اتجاه بحثاً عن "ضحايا". يفعلون ذلك براحة ضمير وقناعة، وأهل الذين لا يخفون فرحهم بالثلج، لا يستسلمون بسهولة، لكن لا يتشددون، حتى إذا مضت ساعة من الوقت، ولا يعرف أين أصبح الأطفال، يبدأ الكبار بتهينة ما يتطلبه الوضع الجديد. صحيح أنهم يمازحون بعضهم بكرات هشة من الثلج يرمونها بود، ودون اتقان، لكنهم يلتفتون أكثر من ذلك إلى ما ينبغي عمله. يعتمد الرجال إلى جرف أسطح المنازل، لأن الثلج سيؤدي الأسطح الطينية التي دُحلت جيداً أوائل الخريف، إما لثقله أو لأن ذوبانه البطيء سيخلف أثراً لاتلبث أن تظهر يوماً بعد آخر، أما النسوة، يكن أقرب إلى الفرح والمزاح، فلا يلبثن أن يستخرجن، من مخابئ لم يظن إليها أحد من قبل، أغذية حفظت لمثل تلك الأيام!

والذئاب الصغيرة التي خرجت بحثاً عن الصيد، ويعد أن اشتبكت فيما بينها مرات عديدة، لا يخلو بعضها من مكر وبراعة، وخطط أيضاً، لاتلبث أن تتحول إلى مجموعات صغيرة، كل مجموعة تذهب في اتجاه أو مكان مفترضة أنه الأفضل.

كانت مدرسة المطران أحد الأهداف الأساسية التي يقصدها تلاميذ العبدلية، لتصفية حسابات كثيرة وقديمة! إذ بالإضافة إلى وجود طرف آخر بالتأكيد، باعتبار أن في مدرسة المطران قسماً داخلياً، فإن اتساع المكان، بما يحيطه من ملاعب وأرض خلاء، يوفر كميات كبيرة من الثلج للمعركة، ويتيح مجالاً واسعاً للمناورة، إذ يمكن التقدم والتراجع تبعاً لقوة الخصم! هذا عدا عن الغيرة، وربما الحسد، الذي يشعر بهما تلاميذ العبدلية وهم يقارنون أنفسهم بتلاميذ المطران!

معارك الثلج، في بعض الأحيان، لاتخلو من غدر وقسوة، إذ يلجأ بعض التلاميذ إلى وضع الحصى في كرات الثلج، أو الى تصليبها بحيث تصبح أقرب

إلى الحجر، ويتم ذلك من خلال رصها المستمر، ومن خلال ترطيبها بالماء. كما يلجأ البعض إلى قذف الكرات من أماكن قريبة جداً، أو على مواضع حساسة في الوجوه. ويلجأ آخرون إلى التعامل مع "الخصوم" بقسوة مبالغ فيها، كأن يستفرد بأحد الخصوم ويجتمع عليه الكثيرون.

العادة أن لاتطول المعارك، إذ يتعب المتقاتلون أو يملّون، ولذلك يجري الانتقال من مكان إلى آخر، وفي هذا الانتقال تقع المفاجآت، كأن يلتقي تلاميذ العبدلية بالأمير طلال، وكثيراً ما حصل ذلك، إذ كان يتمشى على رجله، وأغلب الأحيان بمفرده، وحين يلمحون الابتسامة على وجهه لايترددون في أن يرشقوه بكرات خفيفة، فيرد عليهم بالمثل، ويستمر الأمر بعض الوقت إلى أن يقول "كفى"، ويمضي، ويمضون.

وقد تقع، أيام الثلج، أمور محزنة وأخرى مضحكة، كأن ينزلق بعض المسنين، أو يتلقون ضربات أقسى أو أكثر مما يحتملون؛ أو أن يقع الأستاذ بين أيدي تلامذته، أو يلبس أحدهم ملابس لا تتلاءم مع هذا الطقس، وعند ذاك يتفنن التلاميذ في اظهار براعاتهم، والتي لاتخلو من قسوة، لكنهم يعرفون أيضاً متى يتوقفون.

وبينات المدارس اللواتي يجازفن في مثل هذا اليوم بالذهاب إلى المدرسة، وكانت للاناث مدرستان حكوميتان في عمان، الأولى في شارع خرفان، والثانية في شارع وادي السير، للتأكد من وجود دراسة أو عدم وجودها، كثيراً ما أصبح عرضة لقسوة مضاعفة، فالست ميسر، مديرة مدرسة شارع خرفان، التي تقف عند الباب، لاتكتفي بارجاع البنات، بعد أن توجه لهن لوماً قاسياً لأنهن جازفن بالمجيء في هذا اليوم، تشير إلى مجموعة من المتربصين، واصفة اياهن بأولاد الشوارع، والذين يستغلون الثلج ليتحرشوا، وبعد أن تصرخ بقسوة طالبة منهم أن ينصرفوا، ترسل الآذنة لمرافقة التلميذات لبعض الطريق.

وفي الشارع، وبعد أن تتلقى التلميذات كرات الثلج من هنا وهناك، يقابلنهما بالصراخ والضحك، لاتلبث النخوة أن تدب في صدور أكبر الشباب سنأً فيصبحون هم الحماة، إذ يصرخون طالبين من الآخرين أن يكفوا ويتأدبوا، وهكذا تتوالى لعبة التوقف والاستمرار إلى حين عودة التلميذات إلى بيوتهن، وقد أصبح كالقطط المبللة بشعور مسبلة، ولكن أصبح أيضاً في حالة من الاشرار والوجوه المحمرة والضحكات التي تشبه الصهيل!

من الوجبات الخاصة التي تُصنع في مثل هذه الأيام "السويق" وهي عبارة عن مزج الثلج بالدبس وتقديمه بعد الفطور أو بعد الغداء. وإذا فات التلاميذ الوجبة الصباحية، لأنهم بدأوا غزواتهم مبكرين، وتاهوا في أنحاء متعددة من المدينة، فلا بد أن تحرص الأمهات والجداات على اختيار ثلج نقي لم يقره أحد لكي يصنعن هذه الوجبة بعد الغداء، ويقبل عليها الصغار بنهم للذتها، ولأنها تمدهم بطاقة جديدة لما تبقى من النهار.

اللعب بالثلج بعد الظهر يصبح ثقيلًا، ولا يقابل بالتسامح، كما هو الحال في أول النهار، نظراً لذوبان الثلج ولامتزاجه بالوحول، وإيضاً لأن حالة من الاشباع سيطرت على الكثيرين، وهذا مايدفع بعض الفتیان لصنع أشكال فنية، يختارون لها أمكنة عالية أو فسيحة، لكي يظهروا براعتهم، وكثيراً مابرزت البراعة أو المبالغة في التماثيل، والتي تصبح في وقت لاحق أهدافاً، أو مجالاً لتحالفات أو خصومات من نوع أو آخر!

عند الغياب تهدأ الحركة، ويأوي الناس إلى منازلهم مبكرين، ولأن الفحم والحطب فاكهة الشتاء، كما يقال، فإن الكثيرين يبالغون، خلافاً للأيام الأخرى، في تحضير المواعد، واختيار الحطب الجاف أو الفحم الكبير، وحول المواعد تبدأ الأحاديث وذكريات الأيام المشابهة ورواية ما حصل من أحداث ومفارقات خلال ذلك اليوم. وإذا كانت مثل هذه الأحاديث تروق للصغار، فإن الكبار يفكرون بالأيام الآتية، وما يجب أن يفعلوه أو أن يستعدوا له.

الأيام التالية إما أن تكون أصعب وأشد قسوة، أو تنفرج. فإذا هجم البرد، ومعه الريح، فلا بد أن يتجلد ماتخلف من الماء أو ماتبقى من الثلج، ولذلك يصبح المشي، خاصة في المنحدرات، خطراً وشاقاً، وتصبح الانزلاقات متوقعة، مع ماتخلفه من كسور وأذى، وفي مثل هذه الأيام ينشط المجهرون والعطارون والمشايع!

مواصلة الدراسة بعد يوم أو أيام الثلج ليست سهلة، فإذا لم يحد السيل، نتيجة ذوبان الثلوج، أو يسبب أمطار جديدة، فإن الشعور بالبرد يفوق الأيام الأخرى، خاصة وأن المدفأة الوحيدة في المدرسة في غرفة المدير، كما أن البرودة التي تعشتت الجدران والسقوف خلال فترة الغياب، والريح التي تهب من كل الأنحاء، نتيجة الفراغات بين البيوت وبين الأحياء في عمان، تلك الفترة تجعل العبدلية مستودعاً للبرد، والذي ينبع من كل مكان، ويصل إلى كل عضو من أعضاء الجسد!

كانت أصابع وليم فهمي تتلجج، ليس فقط حين يسقط الثلج، وإنما معظم أيام الشتاء. وكانت، وهو يمدّها لكي يراها زملاؤه التلاميذ، تبدو محتقنة غليظة وتميل قليلاً إلى الزرقة، رغم القفزات التي يرتديها منذ أيام البرد الأولى. أما صالح الكباريتي، ابن مدينة العقبة الدافئة، فكانت شفاته تزرقان أيام البرد الشديد، وبعض الأحيان ترتجفان. أما نبيه عماري، ومن أجل الدفء، فلم يكن يمانع أن يتلقى بعض العصي من الأستاذ عطور، وأن يبقى في غرفته بعض الوقت لكي يتدفأ!

الملابس التي يرتديها معظم التلاميذ ترد البرد قليلاً لكن لاتمنعه، وفي الأيام التي تظهر خلالها الشمس، كان الأستاذ مولود يطلب من التلاميذ أن يركضوا حول الباحة عدة مرات، لكي يسري الدفء في عروقهم، قبل أن يبدأوا الدراسة. أخيراً، في أوائل أيام الربيع، وعلى غير توقع، جاء المفتش عبد القادر التنير.

جاءت الزيارة بعد أن تأكد أبو حلمي أن البيك تجاوز المدرسة في طريقه إلى الوزارة، لقد أبلغ المدير بذلك، وكان يعتقد أن اليوم سيكون مثل الأيام الأخرى، لكن ماكاد التلاميذ ينهون الفرصة ويعودون إلى صفوفهم، حتى وصل المفتش.

كان عبد القادر التنير مربوعاً أقرب إلى الطول، أو هكذا بدا للتلاميذ، وهم يرونه عن قرب، خاصة حين قارنوه بالأستاذ الجيوسي، الذي رافقه، وكان إلى جانبه طوال الوقت، وهو ينتقل من صف إلى آخر. كان يرتدي بدلة رمادية شديدة الأناقة. أما طربوشه فأكثر ثباتاً على رأسه، إضافة إلى أنه يميل للحمرة الداكنة مقارنة بطربوش المدير. أما حين بدأ التلاميذ بتلاوة نشيد "أنا القهوة" فقد كانوا في أسوأ حالاتهم وأكثرها ارتباكاً، بدا ذلك ليس من ملاحظات المفتش، وإنما من شكل وحركات المدير، إذا تجهّم وارتجف، ومع ذلك فإن هزات رأسه، للتشجيع أو اللوم، لم تتوقف! ورغم أن معلم الصف والمدير كانا يريدان لو تتاح لهما الفرصة ليشاركا في اختيار من يقرأ النشيد ومن لا يقرأه، وكانا يودان لو أن سميّر التنير بين القارئ، إلا أن اختيار المفتش العشوائي، وتجاوزه لابنه، خلفا في نفس المدير حالة من الخيبة أقرب إلى الاحباط، ولقد تأكد هذا بعد الزيارة وقبل الانصراف، إذ جاء أبو حلمي يحمل ورقة صغيرة للمعلم، وحين رأى التلاميذ وجه الآذن الشاحب، ثم ارتباك المعلم بعد أن قرأ تلك الورقة، تأكدوا أن الأمر أسوأ مما قدروا.

قبل أن ينتصف الربيع حدث أمر غير متوقع.

وإذ استبد الحزن بالجدة، وكان حزناً أقرب إلى الغضب. وإذ بدا غامضاً أول الأمر، ولا يحكى عنه بوضوح أو بشكل كامل، إلا أن الكلمات المتناثرة والحركة غير العادية أشارت إليه، وإن لم تحدده. لقد عُرف أن شيئاً غير عادي يجري في بغداد، ويجب أن تذهب الجدة.

أما حين طلب منها أن تنتظر وقتاً إضافياً، لعل الأمور تصبح أكثر وضوحاً، فقد ردت:

- شنو تريدون مني: إن أسمع خبر موتهم حتى أروح؟

وحين لم تتلق جواباً تابعت، وكانت القصة تخنق صوتها:

- انهجمت بغداد، ويعلم الله أن ماظلت فيها طابوقة فوق أختها، هجموها أولاد الحرام.

ولم تتأخر الجدة، سافرت بعد بضعة أيام.

وأصبحت عمان، في هذه الفترة، مدينة الصمت المدوي، فالكبار أصبحوا أكثر سرية فيما يقولون أو يفعلون، خلافاً للأيام السابقة حين كانوا يتحدثون عن هتار والمحور، إذ كانوا يفعلون ذلك دون حرج، وكانوا يشتمون الانكليز دون خوف. الآن أصبحوا أكثر حذراً، وأخذ اسم بغداد يتكرر ويتردد أكثر من أية فترة سابقة. لم تمض أيام إلا وحدث شيء انحفر في ذاكرة التلاميذ إلى الأبد: المظاهرة.

طُلب إلى الصغار، تلاميذ الصفوف الثلاثة الأولى، أن يعودوا إلى بيوتهم. وبسرعة وبراعة، وباتفاق بين داخل المدرسة وخارجها، توجه تلاميذ الصفوف العليا، مع الآخرين الذين جاءوا، لتبدأ أول مظاهرة يراها الصغار.

في الليل سيجري حديث كثير حول الأسواق التي أغلقت، والجموع التي شاركت، وما قيل في المظاهرة وما قيل لها، وكيف أن الأمير، استقبل زعماء المتظاهرين بعد أن اعترض الخيالة طريقهم، ثم افسحوا لهم بالمرور.

وماحصل بعد ذلك دونّه التاريخ.

حين أوشكت السنة الدراسية على الانتهاء، وبعد أن قدمت الامتحانات وظهرت النتائج، أقيمت حفلة في الباحة الجنوبية، حضرها المدير والمعلمون وجميع التلاميذ، إضافة إلى عدد من الضيوف.

يتذكر التلاميذ الصغار أن التمثيلية التي قدمت في هذه الحفلة، كانت خفيفة، قصيرة، لاتتعدى الشخصين.

الأول تلميذ يريد أن يواصل دراسته ليصبح طبيباً، والثاني ترك الدراسة والتحق بالعسكرية، وحين يسأل التلميذ صديقه السابق هل ارتقى وتقدم فيرد هذا بالإيجاب والتأكيد، فيسأله التلميذ من جديد، هل أصبح عريقاً أو شاويشاً فيرد الآخر أنه أصبح أكبر وأكبر، فيسأله هل أصبح رئيساً فيجيب أنه أصبح أكبر وأكبر، وهكذا إلى أن يستنفذ التلميذ أسماء الرتب التي قد يرقى لها أي عسكري، فيطلب منه أن يحدد المرتبة التي وصل إليها، فيهن هذا رأسه عدة مرات ويقول:

ـ أصبحت مساعد طباح، ومهمتي تقشير البصل في المطبخ!

وتضح الباحة بضحك متواصل، ويتوارى المثلان، وبعد أن يهدأ الجو يوزع المدير، الأستاذ يوسف الجبوسي، جوائز على المتفوقين، وتنتهي السنة الدراسية.

فجأة بدأ "تزريق" الشبابيك، وأخذت الدوريات تجوب عمان ليلاً لكي تتأكد أن الأضواء لا تتسرب إلى الخارج، وأن الجميع ملتزمون بالأنظمة الجديدة التي أوجبتها ظروف الحرب!

قبل ذلك كان الحديث قد بدأ همساً، وبشكل اقرب إلى الغموض، أن الحرب قد وقعت. أية حرب؟ أين؟ لماذا؟ من يحارب من؟ أسئلة لم يكن الكبار يجيبون عنها بوضوح، أو بطريقة ترضي فضول الصغار. والصغار الذين اندفعوا بحماس للمشاركة في عمليات "التزريق"، ثم أصبحوا كل شيء في هذه العمليات، إذ كانوا يذيبون "النيلة" في الماء ثم يطلون الشبابيك ومناور الأبواب، مالبثوا أن شعروا بخيبة الأمل: أين هي الحرب؟ لماذا لم تصل؟

وإذا كانت العادة الأيـجاب عن أسئلة الصغار، فإن أسئلة المسنين لا يمكن أن تمر دون جواب. فالجدة حين رأت الحركة النشيطة حولها، ورأت الحذر، الأقرب إلى الخوف، في الكلام والتصرفات، سألت في إحدى الليالي، وبطريقة لا تخلو من غضب:

– شنو صاير بالدنيا؟

وحين تطلعت إليها العيون باستغراب لا يخلو من لوم، تابعت:

– الأتراك وخلصنا منهم ومن مصايبيهم، هساً منو بعد؟ وعلى ويش يتحاربون؟

وتبرع أكثر من واحد ليشرح للجدة عن الحرب التي وقعت منذ فترة، وعن احتمال امتدادها ووصولها إلى هنا، وبالتالي لا بد من الحيطة، بما في ذلك الالتزام بالتعليم وعدم الحديث بصوت عالٍ...

قاطعت الجدة، وهي تسأل بسخرية:

- خير.. ليش يابا... يريدون يسدوا حلوقنا؟

وأوضحوا لها من جديد المخاطر التي قد تقع فيما لو رأت الطائرات المعادية الأنوار أو سمع الجواسيس الأخبار. قالوا ذلك بطريقة لا تخلو من مبالغة أو سخرية، وكأنهم يريدون ماسمعوا أو ماقيل لهم، وهم غير مقتنعين، لكن لأبد لهم من الامتثال لما تطلبه الحكومة!

كانت الجدة تسمع لكن دون اهتمام، وكانت تهز رأسها بسخرية، فلما خيم الصمت لحظة قالت:

- شلون عقل، شلون حجي، كُنْ ماكو بالدنيا غير هالسراج اللي مايضوي روحه وخايفين منه

وبعد قليل وبسخرية أشد:

- هذول الانكليز شياطين، يريدون يخوفوا كل الناس، يريدونهم ينشبوا، لأن الحرامي مايجي إلا بالظلمة ويسكوت.

ولأن المسنين يتحدثون لأنفسهم، لبعضهم، فحديثهم، أغلب الأحيان يضيع، لا يسمعه الكبار، أما الصغار فيسمعون بطريقتهم الخاصة. أكثر من ذلك، السراج نمره ٣ الذي نزع مراته، لكي يقل ضوؤه فلا يتسرب إلى الخارج، ثم ذلك اللون الأزرق الداكن الذي طليت به الشبابيك، وكاد أن يستعمل في طلاء زجاجة السراج أيضاً، مالبث الصغار أن خففوه إلى أقصى درجة، حتى إذا طليت به الزجاج بدت غريبة جميلة ومختلفة عما ألفوه من قبل، لكن ذلك لم يستمر إلا أياماً.

وحين عجز الصغار عن معرفة مايجري بالفعل، لجأوا إلى الجدة يسألونها، فأخذت تحكي لهم ليلة بعد أخرى عن السفر برك، ولكي ترضي ضميرها، وحتى تبدو عارفة بكل مايجري، كانت تقول بين قصة وأخرى، بين فترة وأخرى:

- كل حرب سفر برك، كل حرب قتل ومقتول، كلها هجمان بيوت!

لم يكن الآخرون، معظم الآخرين، يعرفون أكثر من الجدة، في ذلك الوقت، وإذا عرفوا فبعض الأسماء التي لم تسمع بها الجدة، وحتى لو سمعتها لاتستطيع اعاتتها لصعوبتها، أو لأنها تبدو لها غير مألوفة أو لاتحبها.

كان عدد الراديوات في عمان، ذلك الوقت محدوداً، وفي بيوت الأغنياء فقط. وهذه الأجهزة، بالإضافة إلى قلة عددها، ورغم حجمها الكبير، لا "تسحب" إلا محطات قليلة، كانت محطة الشرق الأدنى إحداها. ولأن ميل معظم الناس لالتوافق مع هذه المحطة فلم يكونوا يسمعونها أو يعوكون على أخبارها. بالمقابل كان الكثيرون يريدون سماع محطة برلين، وهذه المحطة ليس من السهل التقاطها، إضافة إلى كونها ممنوعة، ولذلك كانت تتخذ الاحتياطات الكثيرة أثناء سماعها، إذ يجب أن يوضع الراديو في غرفة داخلية، وليس في غرفة الضيوف، كما هي العادة، ويجب أن تُراقب بدقة الشوارع والدخلات التي تؤدي إلى البيت. كان الصغار هم الذين يتولون المراقبة، إذ يحتمل أن تتم عمليات المداهمة في أية لحظة، ومن شأن ذلك التعرض لعقوبات قد تكون قاسية، بما في ذلك مصادرة "الجهاز".

من التعابير المألوفة، والتي كانت تستعمل للإبلاغ عن وصول دورية الشرطة، أن يصرخ الصغار، حين يلمحون الدورية: "لعت"، فقد كانت تزين قبعات رجال الشرطة، ذلك الوقت، قطع معدنية لامعة، وكانت هذه القطع، بالإضافة إلى أنها لافتة للنظر، شديدة البريق، ويمكن أن تُرى من بعيد. هذه الصرخة كفيلة أن تنتقل بسرعة إلى فوج المراقبة الثاني في البيت أو حواليه، وبالتالي يمكن أن يُغلق الراديو، ويُسدل عليه الغطاء المزركش المشغول بعناية، والذي هيأته نسوة البيت في الأيام الأولى لوصول الراديو، وكان يغطي به أثناء فترات عدم البث.

إن صرخة من هذا النوع تثير الدورية، وتجعلها تتحرى بدقة أكبر، وقد تؤدي هذه التحريات بعض الأحيان إلى اشكالات، كأن تُلقى على الدورية، من مكان خفي، وفي الظلمة، "توزيعة" والتوزيعة عبارة عن كمية من التراب الناعم أو الرمل توضع في كيس صغير من الورق غير محكم الاغلاق، بحيث تنتشر محتوياته بسرعة على "الهدف"، ومن شأن ذلك تعقيد الموقف، وربما فتح تحقيق أو استدعاء المختار، وقد تحصل أشياء أخرى أيضاً.

لقد كان الراديو الوسيلة الأساسية لمتابعة أخبار الحرب. كان صوت يونس بحري من راديو برلين يثير الطرب وهو يقول "حي العرب"، وكان هناك متخصصون في سماعه ونقل مايقوله إلى الآخرين، مع اضافات وتعديلات يرونها مناسبة، أو تلائم الذين تلقى عليهم. فهتلر حين يُنقل اسمه إلى الآخرين يصبح أبو علي، ويصبح اسم ستالين أبو يعقوب. أما أخبار الحرب فتتلخص بكلمات قليلة: "قوات المحور تتقدم، تكتسح، تتوغل" "رومل يزحف، يسيطر، وقوات الحلفاء تتراجع، تنهزم" وهكذا.

ورغم أن الأردن، رسمياً، كان إلى جانب الحلفاء، وأعلن دخوله الحرب، إلا أن عواطف الناس، بصورة عامة، كانت إلى جانب ألمانيا، ويمكن فهم وتفسير هذه العواطف بسهولة، فالموقف تجاه اليهود أبرزها، يضاف إلى ذلك أن النظرة نحو الانكليز، وإلى الفرنسيين، لم تكن ودية، بل معادية، نظراً لكونهما المستعمرين المباشرين. ثم إن مجيء عدد اضافي من الانكليز في هذه الفترة، وتعزيز بعض الوحدات، خاصة قوات البادية، والتي كانت الزرقاء مقرأ لها، جعل الناس يتخوفون ويتحسبون أكثر من قبل.

كان الراديو اذن الوسيلة الأولى والأهم في متابعة أخبار الحرب، ومع أن بدير وتجاراً آخرين أقاموا، منذ وقت مبكر، مولدات كهربائية، إلا أن الكهرباء لم تصل إلى الكثير من البيوت، نظراً للكلفة العالية لقاء "الساعة" والتمديدات، لذلك فإن البيت الذي تنيره الكهرباء وفيه راديو لابد أن يقصده كثيرون من الأقارب والجوار، ومعنى ذلك أعباء ومصاريف قد تحتل في الظروف العادية، لكن في زمن الحرب، ومع تزايد المصاعب، تصبح مرهقة، وهذا ما بدأ يشعر به الناس يوماً بعد آخر.

فالسكر الأحمر، الذي لم يكن معروفاً في عمان من قبل، أصبح السكر الوحيد، تقريباً، فقد اختفى، أو شح إلى أقصى حد، السكر الأبيض بأنواعه المتعددة: الناعم والكعاب وذلك الذي يشبه الاكواز الكبيرة، والملفوف بورق أزرق داكن. والشاي الذي كان يعدّه الكثيرون على السماور، بطريقة لاتخلو من ترف، إذ كانوا يلقمون الابريق الصغير مرات عديدة، ماامتدت السهرة، وما إن يجيء ضيوف جدد، أصبح لايقدم إلا بمقدار، وبعض الأحيان لايقدم.

إن طريقة استعمال السماور، التي كانت تبرع بها الجدة، تم التخلي عنها تماماً، "لأن الوقت وقت حرب" كما قيل حين جرى التساؤل، فقد أصبح الشاي يقدم على طريقة الفلاحين، أي بابريق واحد، لذلك امتنعت الجدة عن تناوله لبضعة أيام، إذ كانت تقول أنه مرّ، وأن مرارته زادت بعد أن احترق! وحين أخذ رأسها يؤلها، وأن لاشيء يشفيه ويعديلها سوى الشاي الذي كانت تشربه بكثرة من قبل، تم الوصول إلى تسوية: أن يُعطى لها ماتستحقه من الشاي تحضره بنفسها وبطريقتها الخاصة، وقد تم العمل بهذا الاتفاق لبعض الوقت، لكن ما مرت أسابيع حتى قالت باحتجاج، وهي تعيد كمية الشاي المخصصة لها:

- يحرم عليّ اشرب الشاي أو احط الحنة بايدي مادامت الناس جوعا والدنيا قتل ومقتول.

وهكذا توقفت الجدة عن تناول الشاي وعن الشكوى، ولكي لا يكسر القسم الذي اخذته على نفسها، تم الالتفاف عليه بطريقة لا تخلو من مكر، إذا وافقت أن تشرب "الكونداغ" أي أن تملأ الاستكان إلى ثلثيه تقريباً بالماء الساخن، ثم تضيف إليه قطرات من الشاي حتى يتكحل، فإذا اقترح عليها أن تزداد كمية الشاي المضافة، لكي يتكحل بالفعل، كانت ترد بإباء:

- زيادة الكحل بالعين تعمي!

أكثر من ذلك كانت تروي للصغار قصصاً عن "الحرب العمومي" كما تسميها مرة، وعن السفر برك كما تسميها مرة أخرى، وهم يحاولون أن يتجرعوا الشاي الأقرب إلى المرارة الذي يُقدم لهم، كانت تقول:

- احمدا ريكم واشكروه الف مرة ، لأن اكو شاي تشربونه ...

و تتوقف قليلاً، تنظر إليهم بامعان، ثم تضيف:

- بذيك الحرب، بالسفر برك، ماكننا نلقى كسرة خبز ناكلها، كنا ننام على الطوى...

تتذكر أشياء كثيرة، فتتابع بحدة:

- والشاي، إذا صدف وشرينا، صبر، علقم، مايشرب، وإذا الله فتح على ابن آدم يشربه "نظراً".

ويسألها الصغار عن معنى هذه الكلمة العجيبة، والتي يسمعونها لأول مرة، فتتهللل أسارير الجدة، تشعر لنفسها بنوع من الميزة، فتشرح للصغار أن بعض العائلات التي استطاعت أن توفر لنفسها الشاي أيام الحرب العمومي، كانت تعجز عن توفير السكر الضروري، ولذلك لجأت تلك العائلات إلى الاكتفاء بالنظر إلى السكر الموضوع في مكان عالٍ أو بعيد، واستمرت في تناول الشاي، وتختم الجدة هذه القصة بأن تقول:

- وسبحان الله .. يصير الشاي المرّ بحلوهم حلو، يصير مثل العسل!

وبعد قليل وقد تغيرت لهجتها، أصبحت واثقة أكثر من قبل:

- وهذا موقيل عن قال، هذا مجرب، وهذا اللي جان يصير ...

ولكي لا يقطع أحد عليها الطريق ويجادلها حول صحة هذا الكلام تتابع:

- شرط أن تكون نية الواحد سليمة ويحس مع الآخرين.

لم يكن السكر وحده، تلك الأيام، عزيزاً وتتناقص كمياته يوماً بعد آخر أو يتغير لونه، كانت معظم المواد كذلك. فالخبز الذي كان من القمح الصافي، وكان أقرب إلى البياض، مالبث أن دخله الشعير، ليس من قبيل الغش، وإنما نتيجة اضطراب الناس إلى خلطه، بنسب، لمواجهة الصعوبات التي تتزايد بسبب ارتفاع الأسعار، بعد أن أصبحت كميات كبيرة ومتزايدة منه تذهب إلى فلسطين ومصر، وربما إلى أماكن أخرى من أجل إطعام الجنود.

كانت المطاحن، أو بالأحرى المطحنتان الرئيسيتان، مطحنة المفتى ومطحنة ملحس، على طرف السيل عند الجسر. وكان يوم توصيل "الطحنة إلى البابور" يوماً حافلاً، إذ بالإضافة إلى ضرورة استئجار حمار، وكانت لدى عائلة الصبيحي، في جبل عمان، حمير للنقل، من المناسب، بل من الضروري، أن يرافق الطحنة عدد كاف من الشباب الأقوياء، من العائلة أو الأصدقاء، لتحميل الشوال أولاً، ثم لتنزيله، وأيضاً لمشاركة الطحان في العمل، أو على الأقل للمراقبة، وغالباً ما يستغرق ذلك وقتاً غير قصير، بحيث يرجع الذين رافقوا الطحنة معفرين، وكان الواحد منهم خرج لتوه من كيس الطحين!

أما ما يدفع لقاء الطحن فيكون غالباً عيناً، وهذا يقتضي الكثير من الانتباه في تحديد الكميات، ثم استلامها، وما يستحق عليها من مقابل. وكذلك الحال بالنسبة لحفظ الدور، إذ كان يصادف، في أحيان كثيرة، وجود أعداد كبيرة من الناس والدواب في ساحة المطحنة.

كانت العائلات في عمان تهيئ العجين في البيوت، وهذا يقتضي أن يتم إعداده في ساعات مبكرة خلال فصل الشتاء، ولابد أن يُغطى العجين جيداً خلال هذا الفصل لكي "يتخمر"، أما في فصل الصيف فكانت العملية تجري في الليل المتأخر. فإذا أصبح العجين جاهزاً يخبز في البيت أو يحمل إلى الفرن.

لدى معظم عائلات الشركس الطابون، وهو عبارة عن فرن من الخزف يعدون فيه الخبز وأنواعاً أخرى من الأطعمة، ولايستسيغون الخبز إلا إذا أعد بهذه الطريقة. أما بالنسبة لمن هم من أصول فلاحية أو بدوية فكانوا يستعملون الصاج، وكانت ربة البيت تقوم بهذا العمل، وفي حالات قليلة هناك امرأة بدوية، يطلق عليها اسم الخبازة، تتولى المهمة، ثم إلى جانب الصاج غالباً ما يوجد فرن بدائي يحضر فيه الخبز الكماج، إضافة إلى أنواع مختلفة من الأطعمة.

الذين لا يملكون مثل هذه الأفران، أو يفضلون خبزاً من نوع آخر، يلجأون إلى

فرن السوق، كما كان يطلق على أي فرن، أياً كان موقعه. والغالب أن يكون لدى صاحب الفرن صبي، لكن معظم العائلات تستعين بأولادها لايصال العجينة على الأقل، لكي تتم مراقبة "تقريص" العجين وعد الأرغفة، على أن يتولى صبي الخبز اعادتها إلى البيت. والعادة أن تخبز العائلة لعدة أيام، خاصة في فصل الشتاء، وكان الخبز يوضع في معجن، وقد زاد التنبيه على الأطفال، في هذه الفترة، للاقتصاد، وأن يأكلوا كسرات الخبز قبل أن يقسموا رغيفاً جديداً.

لم تكن الأفران، خاصة بين الأحياء، تباع الخبز، لأن لا أحد تعود شراءه، أما تلك التي تباعه فقليلة ومحصورة وسط السوق، ومن الكلمات التي كانت تتردد كثيراً في تلك الفترة: خبز السوق مافيه بركة، ولم يكن يشتريه إلا الغرياء أو المضطرون، وكان الذين يقولون مثل هذا الكلام يدللون على صحته بأن خبز السوق إذا بات لايعود صالحاً للأكل.

خلال فترة الحرب موّل عبيدان القمح فرنًا في حي المصاروة، فلاقى نجاحاً كبيراً، رغم وجود أفران عديدة قبله: فرن عارف بالمصدر، وفرن الحوراني بالقرب من اللاسلكي في جبل عمان، وآخر مقابل بيت السعودي، ورابع غير بعيد عن مطبعة السمان، إضافة إلى أفران أخرى متفرقة. بعد أن نجح الفرن الجديد، واستقطب زبائن كثيرين، جاء من همس في أذن عبيدان: "عمان بحاجة إلى خبز أفرنجي" إذ لم يكن معروفاً ذلك الوقت إلا المشروح وخبز التنور والكماج، ولذلك تحمس للفكرة ولم يتأخر في تنفيذها، ومن أجل الترويج لهذا النوع من الخبز، كان عدد من الأطفال، وعند المنعطقات، يحملونه وينادون عليه. وكان الذين يشترونه لايترددون، في حالات معينة، أن يجعلوه "غماساً" إذ يلفونه بالخبز المشروح ويأكلونه، لأن الطحين الذي استعمل لصناعة هذا الخبز كان الزيرو - الأبيض. لكن لم يكتب لهذا النوع من الخبز مستقبل مشرف، لأنه إذا صدق مايقال عن خبز السوق أنه إذا بات لا يؤكل، فيصدق أكثر ما يكون على هذا النوع من الخبز!

وإذا ظل الناس يدبرون أمر القمح، بشكل أو آخر، عن طريق ما يزرعونه، أو عن طريق المبادلة، فإن مواد أخرى كانت أكثر مشقة وأصعب منالاً. فالرز والشاي والزبدة والسكر أصبحت غالية الثمن وشديدة الندرة، ولم تنقض فترة على بداية الحرب حتى تم اللجوء إلى بطاقات التموين.

كان الناس يتجمعون بالمئات في شارع السلط، مقابل البلدية، لساعات طويلة، من أجل الحصول على المواد التموينية. ويعد الزحام والانتظار، كانوا يستلمون

مايستحق لهم، حسب عدد أفراد الأسرة. وهذه المواد القليلة في الغالب، لم تكن دائماً جيدة، أو في أوعية مناسبة، الأمر الذي يؤدي إلى تلف أو هدر قسم منها. كما كان البعض يلجأ إلى بيع مايستحق له، خاصة من المركبين، وكان هناك من يشتري سواء من المحتاجين أو من التجار.

وتزداد المصاعب التي تواجه الناس، ويزداد فقرهم، عدا فئة من التجار. فالتسبيون والذين يقومون بخدمات، خاصة للبدو وللرعايا التي كانت تتوافد من أمكنة كثيرة سابقاً، وأولئك الذين كانوا يسافرون إلى الأقطار المجاورة في تجارات صغيرة، هؤلاء وغيرهم كثيرون، ضاقت بهم السبل، وأصبحت معاناتهم كبيرة ومتزايدة. ومن الذكريات الموجهة عن تلك الفترة أن الكثيرين باعوا أعز مايملكون!

فبعد أن باع الكثيرون مايملكون من الذهب والفضة، لم يترددوا في بيع أشياء أخرى كانت ضرورية.

باعوا أول الأمر النحاس، واستبدلوا الأدوات النحاسية بأخرى من الألمنيوم، ثم باعوا الصوف.

كان الصوف ينزع من الفراش والوسائد، وبعد أن يُغسل ويجفف، كان يأتي من يشتريه، ويحل مكانه القطن، الأمر الذي لم يكن مألوفاً في عمان قبل ذلك الوقت.

وفي هذه الفترة كثر الذين يشترون الأشياء القديمة في كل مجال، إذا أصبح من المشاهد المألوفة أولئك الذين يمرون بين الأحياء، وأصواتهم تدوي: "أشياء قديمة للبيع، اللي عنده أوعي قديمة للبيع، اللي عنده نحاس للبيع، اللي عنده قزايين فاضية للبيع". وأغلب هؤلاء لا يدفعون نقداً لما يشترون، إذ كانوا يجرون تبادلاً يبدو مرضياً للطرفين، كأن يُستبدل قدر النحاس بعدد من الصحن الخزفية والكاسات، أو كيلو الصوف بعدد من كيلو غرامات القطن وهكذا.

عمليات التفاوض والمساومة قد تتطلب وقتاً طويلاً، وفي حالات معينة تستغرق أكثر من يوم، ريثما يتم التفكير، وتأمين المقابل، وأيضاً مشاورة رجل البيت. وفي محاولة لجعل الأمر جدياً وغير قابل للتراجع، يلجأ المشتري إلى تقديم العربون، وغالباً مايمتنع البائع عن أخذه إلا إذا كان مقتنعاً أو مضطراً.

لم يقتصر الأمر على أولئك الوسطاء البائسين، فقد عرفت عمان، وربما لأول مرة، خلال هذه الفترة: تجارة البالة، وقد بدأت بعد عام ١٩٤٢، أي بعد دخول أميركا الحرب، فقد أخذت تصل إلى أسواق عمان، فترة بعد أخرى، أعداد متزايدة من بالات الملابس القديمة.

بدأت المسألة، أول الأمر، شديدة الغرابة، فالملابس التي تصل في حالة جيدة، نسبياً - رغم أنها واسعة - ورخيصة، الأمر الذي أثار الاستغراب والتساؤل، فالعادة أن لا يتم التخلي عن الملابس إلا إذا تلفت تماماً. أكثر من ذلك كانت تنتقل ملابس الكبار إلى الصغار، بعد أن تجري عليها التعديلات الضرورية، التجميلية أغلب الأحيان، لكي لا يعترض الصغار على استعمالها.

كانت هذه البالات تصل إلى السبتية، إلى أبي فؤاد ومتري، وكان متجرهم مقابل سوق السكر، وغير بعيد عن سوق الخضرة. إن وصول البالات، أو فتحها، حدث هام في السوق، إذ يجري التكتّم على الأمر، ريثما يتم التأكد من مواد البالة، من حيث النوع، نسائية أو رجالية، ثم مدى جودتها، وقيل أنه كان يجري تفتيش الجيوب أيضاً، وقد أسرّ بذلك بولس، الابن الأصغر لمتري، إذ قال لأحد أصدقائه ذات يوم إنه وجد في أحد الجيوب كنزاً، ولم يحدد ماهية الكنز، وعندما سئل في اليوم التالي، وقد سأله الصديق ذاته، وربما بدفع من أهله، نفى بولس وأنكر ذلك بصورة مطلقة!

نظر الناس في عمان إلى الملابس القديمة بارتياح، لأن جودتها لا تتناسب مع سعرها الرخيص. ووجد من قال، في البداية، إنها ملابس الموتى، أو مخلفات المستشفيات، ولذلك خاف الناس وترددوا بشرائها أو ارتدائها، لكن مثل هذه الحجج لم تصمد طويلاً، نظراً للحاجة، ثم لأن عدداً من التجار الآخرين أخذوا باستيرادها، فقد استورد الشنانة وجمعان عدداً كبيراً من البالات، لكن صدف أن كان أغلب ما فيها من القمصان دون ياقات، أو من القمصان الملونة غير المألوفة. واستورد الخليلي بالات كثيرة أيضاً، ووجد في بعضها سترات، وُضع عند الكوع من كل سترة قطعة من الجلد، فقال أحد رجال السوق، وكان معارضاً لهذه التجارة: "هذه إشارة أن من يلبس هذه السترة شحاذ أو يقيم"، ولقد تسببت هذه الكلمة بخصوصية بين الخليلي وذلك التاجر!

لم تتوقف تجارة البالة ولم تتراجع، بل العكس ما حصل، خاصة وأن البالة، بتوالي الزمن، أصبحت تنتقل من مكان إلى آخر، إذ لم تعد متاجر السبتية المكان الوحيد الذي تباع فيه، فقد نشأ، أثناء الحرب، أو حواليه، سوق اليمانية، وكان سوق الفقراء المكتفين، إذ يمكن في هذا السوق، أو منه، أن يشتري الإنسان ما يشاء. وهكذا أخذت تنتقل البالة، أو ما تبقى منها، إلى هذا السوق، وهناك تباع الملابس بأسعار لا يمكن مناقشتها أو رفضها، وأصبح الذين يترددون في شراء الملابس من السبتية، أو يخافون من التردد على متاجرهم، نظراً للاغراء الذي لا يستطيعون مقاومته هناك، أخذوا بالتردد على هذا السوق، والتأكد مما يشترون.

ترافق مع البالة، ولدى السبئية أيضاً، الفانوس السحري، ووجود المبشرين الأمريكيين الذين أخذوا بالوصول بأعداد متزايدة.

ففي جبل عمان، قرب اللاسلكي، أقيمت كنيسة للسبئية، وفي هذه الكنيسة، خلال أيام معينة، كانت تجري عروض للفانوس السحري، يرافقها بعض الشروح مع الترجمة، إضافة إلى تلميح زائد من قبل المبشرين، الذين يكونون موجودين دائماً، وكانوا يتكلمون بلغة انكليزية مبسطة، مع ابتسامات كثيرة، في محاولة لإقامة علاقة مع الموجودين من أتباع هذه الطائفة أو الزائرين.

لقد جرت في هذه الكنيسة أشياء كثيرة، لكن في جو من الغموض والتسائل، فصموئيل الذي كان يفوق حجماً كل الذين يماثلونه في السن، والذي يفترض أنه تم تعميده منذ سنوات، جرى تعميده، مرة أخرى، في الكنيسة الجديدة، ولقد أقيم الاحتفال في عصر أحد الأيام، وربما لم يكن يوم أحد، وقد أثار تعميده تساؤلات واستغراباً ليس فقط بين المسلمين، بل وبين المسيحيين بالدرجة الأولى.

لم يقتصر الأمر على ذلك، فبولس الذي كان وحده يمتلك منفاخاً للكرة في جبل عمان، ذلك الوقت، كان يرفض أن يلعب أو أن يساهم في أي نشاط يوم السبت، حتى المرة الوحيدة التي احتاج فيها الصبية إلى نفخ الكرة، وبعد الحاح من أصدقاء بولس، وافق بصعوبة، شرط أن يفعل الآخرون كل شيء: أن يذهب معه من سيتولى نفخ الكرة، أن يستخرج المنفاخ بنفسه من الدرج، الذي سيحده بولس، أن يقوم بالعمل بمفرده، وبعد أن ينتهي يعيد المنفاخ إلى مكانه، وأن يطلق الدرج أيضاً. لقد تم ذلك كله وفقاً لما طلبه بولس، الأمر جعل كل إنسان يتساءل!

البالة، الفانوس السحري، المبشرون، ثم الدعوة لزيارة أميركا، أو الإقامة فيها، كانت هذه الأمور جديدة في عمان، فلما جاءت بعض الأمراض، في وقت لاحق، قال الكثيرون: إنها نتيجة تلك الملابس وربما بسبب السحر أيضاً.. خاصة وأن عدداً من هؤلاء أخذ في الهجرة إلى أميركا!

بعد ثورة رشيد عالي الكيلاني في العراق، مايس ١٩٤١، تغيرت الأمور في عمان أكثر من قبل: شحت المواد وارتفعت الأسعار من جديد، كما أن الحركة وتصرفات الناس أخذت نسقاً متحفظاً ومختلفاً، إذ كثر الهمس والزيارات بين الرجال، كما ظهرت علامات الحيرة والقلق على وجوه النساء، ورغم التكتّم فإن حالة من الانتظار سيطرت على الجميع، خاصة وأن إذاعة برلين، خلال هذه الفترة، لم تعد تتكلم عن المعارك قدر ماتتكم عن العراق، أو هذا ما أصبح الرواة يرددونه في المجالس.

وفي هذه الفترة بالذات سافرت الجدة إلى بغداد لتعرف مايدور هناك، ولتشهد كل شيء بنفسها!

أما تلاميذ العبدلية الذين كانوا يصادفون كلوب باشا مغادراً بيته في الصباح، وكان يسكن جبل عمان، أو يرويه داخلاً إلى القيادة قرب مدرستهم، في أحيان كثيرة، فقد شعروا أن شيئاً جديداً حصل. وقد تأكدوا من خلال أعداد البدو المتزايدة عند البيت، أو قرب القيادة، ومن تصرفات مبرد، مرافق كلوب، إضافة إلى تشديد الحراسات. أما جمعة، أبو محيي الدين، طبّاخ الباشا، فقد أصبح في حالة من الغضب الدائم، كما ذكر ابنه الصغير، محمد، لزملائه تلاميذ العبدلية، إذ لم تعد حياة الباشا كما كانت من قبل، فيوماً يتناول الطعام في البيت وإياماً كثيرة يغيب، دون أن يُشعر جمعة بذلك، كما كانت الحال من قبل، وأصبح ضيوف الباشا كثيرين ومتنوعين، من الانكليز ورجال البادية، وغالباً مايدعون فجأة دون أن يكون جمعة قد استعد.

وإذا كان أبو محي الدين يعرف الكثيرين من زملاء أولاده، وكان لايتردد في ممانحتهم، وبعض الأحيان يدندن بأغانٍ سودانية. وهو يعرف أنهم يسمعون، فقد بدا في هذه الفترة انساناً نزعاً.

جرت كثير من الأمور دون أن يحس بها الناس في البداية، أو لم يقيموا لها وزناً، لكن تزايد أعداد البدو عند دار كلوب، ثم مجيء عريف واثنين من جنود البادية، ومرابطتهم عند الدار، وتسجيل أسماء "الراجعين"، وإعطاءهم بعض السلف المالية، إضافة إلى الحركة النشيطة في القيادة وحواليها، ومانقله بعض الهاربين أو المتأخرين من تلاميذ العبدلية، من أن سيارات الجيش كانت تنقل أعداداً من البدو، وكان هؤلاء لايكفون عن الغناء والصخب، هذه الأمور، وأخرى غيرها، جعلت الناس يتسائلون ويتشائمون.

أحد تلاميذ العبدلية الذي زار أقارب له في الزرقاء، قال إنه وعائلته لم يستطيعوا ركوب القطار في الذهاب، لأنهم لم يجدوا مكاناً حتى للموقوف، أما في طريق العودة فكان القطار فارغاً، وقال مأمور القطار، وهو ينظر إلى التذاكر بعدم اهتمام:

- القطار كله على حسابكم وأنتم أخذينه سكارسا!

بدت الكلمة الأخيرة غريبة وجميلة في أذان التلاميذ، وهم يستمعون إلى صديقهم يروي أخبار الرحلة، وماكاد ينتهي حتى أصبح اسمه، منذ ذلك الوقت،

سكارسا . اما لماذا الزرقاء بالذات فلأن فيها مقر قيادة قوات الحدود، وفيها المعسكرات التي كان يجري التدريب وتحشيد القوات لما سيأتي من الأيام.

ترافق هذا مع تصرف بدا أول الأمر صغيراً أو عادياً، فالجدة حين ذهبت لتسافر، وبعد أن تم ترتيب حوائج المسافرين في السيارة، وكادت تمضي، جاء اثنان: أحد جنود البادية وآخر معه، أنزلا شاباً كان مع المسافرين، واقتاداه مع حقييته إلى حيث لا يعرف أحد، وحين سئل صاحب الكراج رد وهو يدير وجهه الى الناحية الثانية:

- هذا ماهو الأول ولا راح يكون الأخير، ومحل ما اخذوا اللي قبله اخذوه...

وحين التفت، وكانت العيون لاتزال تتساعل، رد بحزن:

- والله يا جماعة الخير علمي علمكم...

وبعد قليل:

- صار لهم فترة... كل زلة، تحت الخمسين، رايح للعراق، يا إما برجعوه يا إما بياخذوه لبيت خالته.

اما بعد فترة فقد أصبح الموقف أكثر وضوحاً وإذا دلالة لاتخفى.. فالسياسيون - وهو تعبير يطلق على المعارضين بشكل خاص، سواء اكانوا من اهل البلد ذاته أو من الذين جاؤا لاجئين - لم يعودوا بوضع مناسب. والقصص التي تروى في هذا المجال كثيرة وشديدة التباين، حسب الراوي وعلاقته، سلباً أو ايجاباً، بمن يروي عنه، وبالتالي كان يحدد موقفاً ويعطي حكماً أكثر مما يروي حوادث وقعت أو يمكن أن تقع، لكن من جملة الكلمات التي كان لها وقع مميز، وتأثير سيمتد لسنوات كثيرة لاحقة، كلمة تختلف عن الكثير من الكلمات الأخرى: سرقنوا فلان.

ففي هذه الفترة "غادر" بعض السياسيين الضيوف؛ لايعرف ما إذا غادروا نتيجة الرغبة أو نتيجة الضغط، ولم يعرف بمغادرتهم إلا بعد فترة من الزمن. لكن كثر الحديث في هذه الآونة عن أمور جرت وأخرى تتلوه، الأمر الذي دفع بعض السياسيين في عمان لأن يرفعوا أصواتهم، لأن يحتجوا، مما أدى إلى سرقة بعضهم.. أيضاً.

ليس ذلك فقط، عاد لكلوب باشا الاسم الذي كان له من قبل، أبو حنيك، وكان هذا الاسم لايتردد إلا همساً أو تحفظ وبين الأصدقاء، لكن نتيجة تزايد المعلومات عن دوره، والقوات التي يعدّها لاجتياح العراق، فقد بلغ الغضب بالناس حدّاً

جعلهم لايسمونه إلا بهذا الاسم، كطريقة في الاحتجاج أو الشتمية! أكثر من ذلك، أصبح نشيد: بلاد العرب أوطاني، الذي كان يُردد مرة في الاسبوع، النشيد الذي يتردد أكثر من مرة في اليوم الواحد، كان ذلك يجري بنوع من التواطؤ الضمني بين التلاميذ والادارة، أو ربما بتحريض منها، كتعبير عن موقف التضامن مع بغداد. كما أصبحت الأناشيد الوطنية الأخرى تتردد أكثر من قبل، وصدف عدة مرات وطابور السوق يصل إلى وسط المدينة، بالقرب من مكتبة الصفدي، أن يبدأ نشيد "بلاد العرب أوطاني من الشام إلى بغداد"، وكان يشارك فيه الجميع، التلاميذ والناس الموجودون في السوق.

قبل أن ينتصف الربيع وصلت قوات انكليزية من فلسطين، رأى الناس بعضها يمر في المدينة، وقال الكثيرون أن القوات التي مرت في الظلام تفوق تلك التي راوها، وأنها اتجهت شرقاً، لكن لا يعرفون إلى أين.

وفي هذه الفترة تم شراء أشياء كثيرة من السوق. الطحين، العدس، الغنم، البغال حتى الصبيحي الذي كان يعتز بحميره الصلبة والقبرصية، الكبيرة الحجم والقوية، باعها واشترى غيرها، وقيل إنه اشترى حميراً من النور، كانت صغيرة الحجم وشديدة السواد، وبفارق السعر بين البيع والشراء زوّج ابنه إبراهيم ووسع بيته!

كما أن عدداً من الناس الذين كانوا من معارف كلوب، ولا يمكن القول أنهم من أصدقائه، وبعض أقارب مبرد وأصدقائه، أصبحوا لايفادرون سوق الحلال والاسواق الأخرى، كانوا مستعدين لشراء كل شيء، من رعايا الأبل إلى التمر والقمر الدين، وكانوا يدفعون الكثير، دون تردد، فقتشام الناس وقالوا: "أبو حنيك ولّع السوق، وبأكر أو اللي بعده راح يحرقه".

وجاء عدد من أهل الزرقاء يبحثون عن أقارب أو معارف لكي يعاونوهم من أجل تأمين بعض مشتريات قوات البادية، من الأرزاق إلى الحطاط والعقل، إلى الصابون، إلى أشياء أخرى لاتخطر بالبال، بما في ذلك المرايا والأمشاط والعطور والساكرا!

أما الذين كلفوا بتموين قوات البادية من الطعام فقد أصبحوا خلال فترة قصيرة مضرب المثل في الثراء، ثم بعد ذلك في الرقاه، وكان بعضهم غير معروف، أو لا يستطيع أن يؤمن رزق يومه، فقال الناس وهم يرون كل ذلك أو يسمعون: اللهم نجنا من الآتي، اللهم رد كيدهم إلى نحركم.

لو لم يكن الربيع قد أتى، وتوجه الكثيرون إلى البرية، لمات خلق كثير، كما قال المسنون. وقال المسنون أيضاً: إذا انسد باب يفتح الله ألف باب. هكذا بدأ سؤال الأرض عن خيراتها، تلك الخيرات التي كونتها الطبيعة، وسخت بتقديمها للناس، إذ أصبحت تصل إلى عمان كميات وفيرة من الكما والعكوب والخيزن وأنواع أخرى من خضرة الربيع، كما أن الزروع حول عمان كانت توحى بمواسم لايجوع فيها الناس.

ولأن اللحوم، وأغلب مشتقات الحيوان، أصبحت مرتفعة الأثمان، غالية وعزيزة، فقد لجأ الناس إلى عملية استبدال سريعة، فوديع اللحام، المتخصص ببيع لحم البقر والجمال، وكان محله قرب الحمام، غير بعيد عن المدرسة الثانوية، أصبح أكثر اللحامين نشاطاً وبيعاً. كما أن الذين لم يتعودوا الوقوف عنده إلا لنظرة سريعة يلقونها على الذبيحة، وكانت تبدو خارقة الحجم، ويميل لونها إلى الدكنة قليلاً، أصبح هؤلاء يقفون ويطلون الوقوف، لعلهم يستطيعون الحصول على قطعة من سنام الجمال، باعتبارها اللحمة التي يمكن أن تلوكها أسنانهم وتقوى على التعامل معها، أو أن يحصلوا على قطعة من لحم الظهر للبقرة المسنة المذبوحة.

في وقت سابق كان معظم زبائن وديع من البدو والفقراء، أما في هذه الفترة فلم يعد أحد في عمان إلا ويعرفه، ويقصده إذا أراد شراء اللحم. وكانت تصل إلى وديع أيضاً شتائم اللحامين الآخرين، وبعض الأحيان تعريضهم!

وبدأت تصل عمان في هذه الفترة أيضاً أكياس متزايدة من الجراد، كانت تذهب مباشرة إلى سوق الحلال بالقرب من رأس العين، كانت تصل على شكل هدايا يحملها بعض الذين يأتون من الجزيرة العربية. وإذا كانت عادة البدو أن يتناولوا الجراد ويأكلونه بلذة ورغبة، تماماً، كما يتعامل أهل الحضر بالبنز والقضامة، فإن أهل عمان لم يستسيغوا هذه الوجبة.

حتى عبيدان الفحص، وهو يعقد مجلسه كل ليلة، تقريباً، ليتداول مع الجيران والمعارف في شؤون الحرب والسلام! وكانت الجريدة تقرأ بعض الأحيان في مجلسه، لتكون الأمور أكثر وضوحاً ودقة! لم يستطع عبيدان أن يقنع ضيوفه بتناول الجراد، عدا أولئك البدو الذين يتقدمون دون دعوة، كان يفعل ذلك لتأكيد أصوله البدوية من ناحية، ولكي يقدم بعض نظرياته في شؤون الصحة والمرض من ناحية ثانية!

بكمات قليلة: أصبحت عمان في هذه الفترة مرجلاً يغلي، إذ كانت هناك اسباب كثيرة للغضب والحقد، وكان لدى كل انسان مايقوله. أما عندما جاء بعض

الضباط الانكليز للاقامة، واستأجروا بيوتاً من أجل ذلك، ثم جاؤوا بأولادهم وكلابهم، فقد لاقوا الكثير من العنت والمضايقات!

فمايكل، ابن ذلك الضابط الذي سكن في شارع منكو، على الزاوية، مقابل بيت سعيد المفتي، لم يقبل في حلقة الأطفال، ولم يشرك في لعبة الكرة إلا في وقت متأخر جداً، ويعد أن قدم تنازلات كثيرة! أما كلب الضابط فلم يبق حجر في ذلك الشارع يصلح لأن يرمى إلا ورُمي به، الأمر الذي كان يخرج أبا مايكل عن طوره، ويجعله يصيح، ويطارد الأطفال بعض الأحيان.

أما الاعتداء على الجنود الانكليز، خاصة السكاري، في السوق، فقد تكرر مرات، وكان لدى الناس مايقولونه لتبرير ذلك!

وحين بدأت مفارز الشرطة بقيادة حكمت مهيار تجتاز السوق مستعرضة، أو لتبديل الحراسات، لم تكن تقابل بالود، رغم أن الشاويش مهيار يبدو في منتهى القوة والنظام، والحزم أيضاً، وهو يعطي الايعاز بالسير أو التوقف.

أكثر من ذلك بدأت تقام احتفالات لموسيقى الجيش في ساحة الجامع الحسيني وعند المدرج الروماني، لكن الناس لم يكونوا بوارد سماعها أو الالتفات إليها.

كان ذلك يجري كستار لما يحضر، وكان أبو حنك كل شيء.

أما حين وقعت هزيمة مايس، وهرب رشيد عالي ورفاقه، وعرف الناس أكثر فأكثر ما فعله كلوب، فقد أحسوا بالاهانة والغضب، خاصة بعد أن القي القبض على قادة مايس وسيقوا من إيران إلى بغداد ليعدموا فيها، إذ لم يبق أحد خارج دائرة الحزن الأسود والمرارة القاتلة، وأصبحت شتيمة أبو حنك على كل لسان.

بعد ذلك، وإلى أن يطرد كلوب من عمان عام ١٩٥٦، ورغم المحاولات التي بذلها، وكانت زوجته تشاركه، لاقامة علاقات، أو لتحسين صورته، ظل ذلك القاتل المخادع والمكروه، وظل يزيد الحراسات حوله ويقويها، لكي يفلت وينتهي كما خطط وكما يشاء، لكن الفرع الذي عبر عنه الناس حين طرد، حين لم يُمهّل من أجل ايجاد مأوى لعصافير الحب التي ملأت الركن الشرقي من حديقة منزله، كمحاولة لشراء عطف مخلوقات من نوع ما، بعد أن فقد عطف الناس، فتحكى قصة عمان في مرحلة من الزمن!

ولأن الزمن لاينتهي ولايتوقف، فالحكايات تستمر وتتزايد، خاصة في زمن الحرب.

لم تحضر الجدة، هذه المرة، حين عادت من بغداد بعد زيارتها التي استمرت عدة شهور، اباريق عليها رسوم جديدة، أحضرت مجموعة من السدارات.

كانت ألوان هذه السدارات تتراوح بين الأسود والرمادي، بين البني الداكن والبھاري. حين فردتها بدت وكأنها سفن مقلوبة. نظرت إلى كل الوجوه ونظرت إلى السدارات عدة مرات لعلها تختار لكل رأس ما يناسبه، أما حين جرى التوزيع فقد حصل كل واحد على السدارة الخطأ!

كان حظ قريبين يدرسان معاً في العبدلية أن حصل أحدهما على سدارة رمادية، والآخر على واحدة شديدة السواد. كانت الرمادية، للرأس الذي اختير لها، كبيرة إلى درجة يمكن أن تضم رأساً آخر، لذلك عولج الأمر بإضافة خرقه كُورِت بشكل مناسب لكي تسند السدارة من الخلف فلا تغطس في الرأس. أما السدارة السوداء، فكانت شديدة الصرامة، رسمية جداً، إلى درجة لاتناسب ابن تسع سنين!

تلاميذ العبدلية لم يألَوا هذا النوع من أغطية الرأس، ولم يكونوا معها رحيمين أو متسامحين، إذ ما إن راوا السدارات، باستغراب أقرب إلى الدهشة، أول الأمر لم يترددوا في أن يحوموا حولها، وبخفة لاتخلو من براعة انتزعوا الرمادية، كان انتزعها سهلاً، وبعد أن قلبوها، دارت من يد إلى أخرى، مالبت أن طارت في الهواء، فقد "ورها" أحدهم كطريقة من طرق الاختبار. طارت، ونزلت. التقطتها يد أخرى، ورتها، ارتفعت أكثر من المرة السابقة، لكنها نزلت أيضاً، حاول صاحب السدارة أن يمسك بها، لكن غيره كان أسرع منه، وهكذا ظلت السدارة الرمادية تصعد وتهبط، بعناية أول الأمر، إلى أن وقعت في يد غير حكيمة ولاتعرف الرحمة، فلاحتها، وبهذه اللوحة عبرت الحائط، إلى الجهة الثانية، وغابت!

السدارة السوداء كانت أكثر ثباتاً على الرأس، وقد أعطت لصاحبها هيبة

مبكرة، ولذلك كان التعامل معها أشق، كما أن صاحب السدارة، وقد رأى السدارة الأخرى تطير، تعامل مع سدارته كما يتعامل مع الحطة والعقال، إذ وضع يديه فوقها بحيث تعذر انتزاعها، إلى أن حسم الأمر كله الجرس.

بعد أن تحرك التلاميذ نحو الساحة الجنوبية تمهيداً للصطفاف، ظهر المدير يوسف الجيوسي، فلما رأى التلميذ عاري الرأس قال له:

- اطلع.

خرج التلميذ من الصف، وكان خائفاً ومحرجاً، ولما اكتشف المدير "الثور الأسود" أخرجه أيضاً!

قبل أن يبدأ النشيد، وتعطى الايعازات للدخول إلى الصفوف، كان التلميذان ينتظران عند الادارة.

قال أبو حلمي، وهو يسألها قبل وصول المدير:

- اليوم السبت، ياجماعة الخير، والكشافة واللعيبة لعبوا مبارح وأول امبارح حتى شعبوا، فليش واحدكم اليوم مفرع والثاني كشاف؟

حاولا التوضيح، لكن دون شروح طويلة، خاصة وأن الذي يسأل لا يُعتبر "جهة مسؤولة" أما حين سألها المدير وأجابا، فإنه فهم لكنه لم يقتنع، إذ بعد مناقشة قصيرة أمرهما بالعودة إلى البيت.

قالت الجدة، وقد رأت أحدهما يحمل سدارته بيده، والآخر عاري الرأس ولا يحمل شيئاً:

- قلت لروحي: السدارة موسهلة، ينراد لها رجال!

شعرت بالندم لهذه القسوة، أضافت وهي تحاول الابتسام:

- كان يلزم أجيب ويأي ملاعب بدل هذي البلاوي.

وبعد أن استوضحت عما حصل، قالت، كأنها تخاطب نفسها:

- إي نعم، اللي مايعرف السدارة مايقدرها، مثل اللي مايعرف الطير يشويه!

في الليل، وحين لاحظت الجدة صفنة صاحب السدارة الضائعة، قالت، بطريقة أقرب إلى الأمر:

- لازم تطفر التغية وتدور عليها حتى تلاقيها، لأنها غالية، هذي موقشمة، هذي توصاية!

طبيعي لم يعثر على السدارة، ضاعت، كما ستضيع أشياء أخرى كثيرة في

وقت لاحق، لكن التلميذ الذي ضاعت سدارته كبر في لحظة، تعلم كثيراً، قال:

- عندي حطتين، وما أريد أصير مسخرة!

أما الجدة، وهي تتذكر، فقد قالت:

- يتراد أيام وسنين حتى عمان تتعلم على السدارة!

لكن عمان تعلمت أسرع مما قدرت الجدة!

فمكتب عنبر الذي كان جامعة كبرى للكثيرين في بلاد الشام، مطلع هذا القرن وحتى نهاية العشرينات، كان يمنح خريجيه، بالإضافة إلى الشهادة والمنصب، كان يمنحهم الطربوش، ولذلك فإن معظم الذين تخرجوا من هذا المكتب، وأولئك الذين تقلدوا مناصب في دمشق وبغروت وعمان وفلسطين، كانوا يرتدون الطرابيش.

صحيح أن للطربوش تاريخاً أسبق من مكتب عنبر، وأنه يعود إلى فترة عثمانية مبكرة، لكن دلالاته "الغنية"، خاصة في هذه المرحلة، وبقدر تعلق الأمر بالوظيفة الرسمية، فقد أصبح أحد العناصر التي يجب توفرها، قدر الامكان فيمن يشغل وظيفة رسمية عالية، فرؤساء الوزارات والوزراء وكبار الموظفين، أيأ كانت اصولهم، اعتمدوا الطربوش زياً وحرصوا على ارتدائه.

ولاتزال عمان تتذكر وتبتسم حين تستعيد صور بعض رجالاتها قبل الطربوش ثم بعد أن ارتدوه، فأحمد الطروانة يبدو بالطربوش خائفاً، وأحمد اللوزي يبدو أكبر من عمره بسنوات عديدة. أما حين ارتدى رياض المفلح وفلاح المداح الطرابيش فلم يصدق أحد، حتى من رأى الصور، الى ان شاهدهم الناس حقيقة بالطرابيش.

وقد يكون من الطريف، وربما من المفيد أيضاً، لو أن أحداً يستطيع الالتفات إلى دراسة هذا الموضوع من خلال الصور الفوتوغرافية.

لا يقتصر الطربوش على ذوي الوظائف الرسمية الكبيرة وحدهم، فالكثيرون من الشوام والنوابسة، ثم غيرهم بعد ذلك، كانوا يعتنقون الطرابيش، للدلالة على الموقع الاجتماعي، وللتعبير عن الأهمية أو الطموح.

وإذا كانت طرابيش المسؤولين داكنة قليلاً، في الغالب، ووازنة على الرأس، لاتتحرك إلا بمقدار، والشراشيب فيها دائماً إلى الخلف، فإن وضعية الطرابيش الأخرى متعددة.

أبو حسن الحلاق، المطهر، الذي يعرج قليلاً، يعتمد أن يكون طربوشه

مستريحاً، أي يميله قليلاً أو كثيراً إلى الخلف، ويجعل شراشيبه عند الأذن اليمنى، وهذا يدل على الرضى وخلو البال وحب الطرب. أما طربوش روكس بن زائد العزيزي، القوي الصارم، وهو في طريقه إلى مدرسة تراسنطة، فيدل على الجدية البالغة وانشغال البال، بحيث لا ينتبه إلى ماحوله، تماماً كالسفينة المسرعة التي لاتحفل بالموانيء الصغيرة! وعبد الرؤف منكوي يعتبر طربوشه عبئاً زائداً، لكن لابد من ارتدائه، ولذلك حين يرتديه تنكره مسترخياً شديد الميلان على رأسه، وهذا تعبير عن موقف، إن لم يكن فلسفة كاملة في الحياة!

أما صبري الطباع فإنه يعتمد أن يميل طربوشه، لكن بمقدار، وبشكل مدروس، لكي لايجعل من ينظر اليه يركز على طوله أو يكتشف قصره! ومحمد الجمعان لبس الطربوش خطأ، إذ بعد أن زار القدس وصلى في الأقصى، وفي لحظة وجد، قرر أن يعود إلى عمان بالطربوش الموسوم بقطعة صفراء، وحين راه جماعته، العقيل، أنكروه، فعزّ عليه الأمر، مما اضطره إلى خلع الطربوش والعودة مرة أخرى إلى الحطة والعقال.

حين يتغير وضع الطربوش على الرأس يشير إلى: المزاج النفسي أو أهمية الطرف المقابل، وربما نوعية القضايا التي يجري بحثها.

فالطربوش إن كان مستقيماً وثابتاً له معنى، أما إذا كان مائلاً إلى الخلف فيدل على المزاج الرائق، ولايخلو من الرغبة في التوجيه أو السخرية.

بشير الصباغ، مدير الكلية الاسلامية، بعد أن يشرف على تحية العلم، ويدخل الطلاب، يستقبل بعض التلاميذ المتأخرين في الادارة، فإن أزاح طربوشه إلى الخلف فمعنى ذلك أنه يريد أن يقدم النصيح، وأن يكتفي باللوم والتنبيه، دون اللجوء إلى الضرب. أما إذا كان طربوشه بوضع "الاستعداد"، فلا بد عندئذٍ من توقع أقصى الاحتمالات!

أما محمد أبو غربية المدير اللاحق للكلية الاسلامية، والذي ارتدى الطربوش متأخراً، فحين يخلع طربوشه ليتحدث إلى التلاميذ المخالفين، فمعنى ذلك الزهق ونفاد الصبر، وعدم الرغبة أو القدرة على توقيع العقوبات. أما إذا ثبت الطربوش بقوة فيكون قد استكمل عدته، ويمكن أن يستعمل كل الوسائل للتأديب، بما فيها الملاكمة والشلاليت!

علي سيدو الكردي، مدير الثانوية، وهو في طريقة إلى منصة الخطابة، يثبت طربوشه ويتأكد من وضعيته تماماً، ثم يحكم اغلاق السترة، ليبداً بعد ذلك توجيه خطابه السنوي إلى الطلاب والمعلمين.

ويعقوب هاشم، رغم أنه قليل العناية بملابسه وشعره، كان يعتبر الطربوش

عائقاً في حل المسائل الرياضية المعقدة، ولذلك لا يتردد في أن ينزعه، وعند ذاك يبدو غريب الشكل، أقرب الى الذهول، لكن تصبح المسائل قابلة للحل السريع!

أما الأستاذ محمود العابدي حين يصف معركة اليرموك، ويكون في منتهى الانفعال والتألق، فلا بد أن يزيح الطربوش قليلاً إلى الوراء، لكي لا يعيقه شيء عن الاسترسال واستعادة التفاصيل. أما إذا تحدث عن موقعة الجمل فيكون الطربوش عندئذ مائلاً، لكي يضفي على الوجه مسحة من الحزن تتناسب مع الموضوع، ولاستخلاص العبر أيضاً.

والأستاذ محمد حمدي الطاهر يفترض نفسه دائماً خطيباً في مسجد كبير، أيأ كان المكان الذي يتحدث فيه، ويفترض أن التلاميذ حقل تجارب. لذلك لابد أن يجري "بروفة" خطبة الجمعة على التلاميذ قبل أيام ليرى تأثيرها على المصلين، والطربوش في هذه الحالة يلعب دوراً مركزياً، فإذا زاد الانفعال عن حد معين لابد أن يخلعه ويخرج منديلاً لكي يجفف العرق. وإذا "حبكت" معه لابد من نكتة تناسب الحال والطربوش في يده، وهذه من جملة النصائح التي يشير إليها بعض المؤلفين الأميركيين لكسر الرتابة، ولترطيب الجو، والسيطرة على المستمعين!

ولابد من التأكيد هنا على فرق بين الطربوش "الأصلي" والطربوش الجديد. فالأول الذي يرتديه صاحبه منذ وقت طويل، وأصبح جزءاً من شخصيته، لا يمكن التخلي عنه في أغلب الأوقات، صيفاً وشتاءً. أما الجديد فهو المستدرك، الذي فرضته اعتبارات معينة، والذي تم ارتداؤه في وقت متأخر، الأمر الذي يجعل التخلي عنه وارداً في المناسبات الكبيرة أو الحزينة، في حالات الموت أو تقديم العزاء، وفي أيام الشتاء، أو أثناء زيارة الأهل في القرى البعيدة.

ومثلما لوضعية الطربوش على الرأس دلالة لاتخفى، فإن نوع الطربوش يحدد الانتماء والمستوى الاجتماعي. فطربوش نابلس يختلف عن طربوش الشام. الأول أكثر دكنة، أطول، إضافة إلى أن نهايته أدق. أما الطربوش الشامي فأقصر من حيث الارتفاع، وأكثر توهجاً، إذ يبدو كالبطيخة الناضجة، كما أن موقعه قابل للتغيير و"إعادة النظر" مرات عديدة في اليوم الواحد، تبعاً للحظة ونوع الحديث والشخص المقابل. وقد لا يكون من المبالغة القول أن الطرابيش الشامية فرحة، تتكلم، وإن كلامها مفهوم أغلب الأحيان، ليس فيما بين الشوام وحدهم، وإنما مع الآخرين أيضاً!

ما يلبس من زي مرافق للطربوش يختلف تبعاً للوظيفة والموقع الاجتماعي.

فالموظف، مهما كان موقعه، لابد أن يلبس السترة والبنطال، وهذا هو الزي الرسمي، عدا الشيوخ الذين يمكن أن يلبسوا الطربوش مع القفطان. أما الملاكون وأصحاب المصالح فإن الهامش أمامهم واسع. فالتجار الشوام الكبار، كالطباع وبيدر والبيطار وشقير، وآخرين، حسمو أمرهم بأن اختاروا الزي الافرنجي - زي الأفندية - أي السترة والبنطال، وبلون واحد. أما من هم أقل ثراء، أو لا يحركهم طموح كبير، فإنهم لا يأنهون لما بعد الطربوش. كانوا يلبسون القمباز، وكانوا يلبسون السترة والبنطال، بلون واحد أو بأكثر من لون، ولكنهم في كل الحالات يصرون على الطربوش. حتى البقال الصغير، بعد أن يخلع ملابس "الطلعة" ويرتدي ملابس العمل في بقاليته، يستبقي الطربوش على رأسه، لأنه لا يقوى أن يكون "عارياً" أمام الآخرين! أكثر من ذلك، في أيام الصيف الحارة، حين يكون التاجر في مكانه عاري الرأس، ما إن يدخل متجر أو زائر، فإن أول ما يفعله أن يضع الطربوش!

وإذا كان لصاحب الدخل المحدود طربوش واحد، وفي أحسن الحالات اثنان، فبلغني طرايبشه الكثيرة، والتي تتفاوت من حيث اللون والمقاييس وأوقات الاستعمال. ومعنى ذلك أن صناعة الطرايبش كانت مزدهرة ولها أربابها، ولعل أبرز هؤلاء كان الطرابلسي، في شارع فيصل، بالقرب من مكتب عبدالله أبو قورة.

كان كي الطرايبش وتنظيفها وإعادة شدها، أو صناعة الجديد منها، تستهوي الأطفال، إذ يقفون لفترة طويلة أمام محلات الطرابلسي، يرقبون القوالب، يتابعون البخار، ينظرون بدهشة إلى طريقة ربط الشراشيب. ولا يحسون بمرور الوقت، كما لا يتحركون إلى أن تأتيهم أوامر صاحب المحل:

- يا الله أنت وهو، خيلنا نترزق، خيلنا نشوف وجه ربنا!

يتحرك الأطفال، ويتذكر الذين كانوا منهم في مكتب الشيخ سليم الأخوة الثلاثة أصحاب الطرايبش.

فرغم أنه لا يشترط رداء خاص للرأس في المكتب، إلا أن هؤلاء الأخوة الثلاثة كانوا شديدي الحرص على ارتداء الطرايبش، فإذا ساروا في الشارع، بترتيب يتناسب مع أعمارهم، بدوا مضحكين، رغم الجدية التي كانت تسم وجوههم! أما إذا وقف الكبير إلى جانب الشيخ زكي، فكان يبدو أطول منه، لكنه يبدو أيضاً شديد النحافة مقارنة به، ولذلك كثيراً ما سألته التلاميذ ساخرين: من منكما، أنت أم الشيخ زكي، يأكل من زيت الجامع؟ وحين يغضب الصبي تكون مناسبة لأن يصبح

طربوشه، أو طربوشا أخويه هدفاً، الأمر الذي اضطر الشيخ زكي، بعد أن كثرت الشكاوي المتعلقة بالطرايبش، لأن يطلب منهم خلع طرايبشهم ووضعها في الشباك، إلى جانب تنكة الريحان، فقال الخبثاء "لايحتمل الشيخ زكي أن يرى أحداً أطول منه!"

قد يكون حديث الطربوش طال أكثر مما يستحق، لكنه يبقى، مع ذلك، أحد المؤشرات في قراءة مجتمع، وما طرأ عليه من تغيرات، لأن الانتقال من زي إلى آخر تمليه اعتبارات كثيرة، من ضمنها الحاجة والضرورة ونوعية العمل، إضافة إلى ما يمثله الزي من معنى أو طموح، وإيضاً ما يواجهه من حضارات وتحديات.

فإن تكون عمان أحد أهم مواطن الشركس، وأن يكونوا فيها كثيرين وأقوياء، بما في ذلك عاداتهم وطريقتهم في اللباس والتصرف والزواج، لابد أن يترك أثراً مهماً، فمشكلة سفور المرأة، مثلاً، وهي إحدى مشكلات المجتمعات العربية والإسلامية، وجدت في عمان حلاً أيسر من مجتمعات أخرى، لأن المرأة الشركسية لاتعرف الحجاب، إضافة إلى أنها موجودة في العمل والحياة الاجتماعية، ولكونها مسلمة، فقد سهل هذا الأمر، خاصة حين التقى التسامح الشركسي بالتسامح البدوي، حيث للمرأة في هاتين البيئتين دور ولا تعرف الحجاب في نفس الوقت، مما جعل الانتقال من الحجاب إلى السفور ميسوراً دون قيود المجتمع المديني المتعصب الكثير العقد والمحرمات، كما هو الحال في عدة مجتمعات عربية أخرى.

كما أن المجتمع الاسلامي المسيحي، الواسع والغني والمتفاعل، في عمان، حيث كان المسلمون والمسيحيون يعيشون في نفس الأحياء، وتجمع بينهم روابط الجوار والعمل، جعل الكثير من التحديات والمشكلات تجد حلولها دون عقد أو تعصب، ودون "ميراث" مثقل بالعداوات والاختلاف.

ففي شارع منكو، على سبيل المثال، كما في شوارع أخرى كثيرة في عمان، كان المسيحيون والمسلمون، العرب والشركس، الذين ولدوا هنا والذين جاؤا من أماكن أخرى، يعيشون معاً وبتآخٍ. ولأن المجتمع في بداية تكوينه، وليس لأحد ميزة أو أفضلية، فإن التفاعل كان أكثر سلامة وقوة، خاصة وأن الجميع يواجهون الصعوبات ذاتها، ويريدون أن يصلوا الى حلول لها، أكثر مما يريدون مزايا لدين أو جنس، وهكذا بدأت عملية تفاعل وتداخل وتعاون لا تحدث إلا في حالات خاصة.

لايعني ذلك أن حالة من التماثل كانت هي السائدة، إذ ربما العكس هو الصحيح، وإنما حالة من التعدد والتنوع إلى درجة كبيرة، لكن ضمن سياق من الانسجام والتكامل، وبهدف التقارب والوصول إلى المشترك أو الموحد.

قلو مرّ سائح في عمان خلال فترة الأربعينات - ولاشك أن مرّ الكثيرون - فإن الانطباع الأول الذي يخرج به أن المدينة تعيش في كرتفال دائم من حيث الملابس واللهجات والعادات، لأن التعدد الموجود يفوق أي مكان آخر.

ففي أحد تفرعات شارع منكو، مثلاً، كانت نساء الفحيص المسنات ينصبن الغلايين الطويلة مرتين على الأقل في اليوم، مرة عند الضحى والأخرى قبل المغيب. وبعد أن تعمّر هذه الغلايين، والتي يزيد طول الواحد منها عن المتر، بالدخان الهيشي، يبدآن بالحديث ومراقبة الطريق ونقف الدجاج، حين يقترب أكثر مما ينبغي، بالحصى، ويتلمسن، بنفس الوقت، بين فترة وأخرى، المارّ ق السوداء الطويلة المنشورة على حبال الغسيل، هذه المدارق التي يتساعل الانسان عن عدد طياتها حين تلبس، خاصة وهو يراها تحتل هذه المساحة الكبيرة.

وفي التفرع ذاته مدرسة صغيرة تديرها أختان مس اليس ومس مارغو، ملابس كل منهما تنتمي إلى أحدث الأزياء الأوربية، واللغة السائدة في المدرسة هي الانكليزية. وغير بعيد عن المدرسة وعن الغلايين، وفي الاتجاهين، قلابق الشركس وقاماتهم الحادة، اضافة إلى مجموعة من اللهجات: النابلسية والشامية والنجدية، عدا عن اللهجة العربية الأرمنية التي كانت قليلة نسبياً، ولكنها موجودة في هذا الشارع، كما في الشوارع الأخرى، وتتمثل هنا بالمصور الأرمني روبيان.

فإذا ذهب الانسان في هذا الاتجاه أو ذاك يقابل عدداً من المظاهر والأشياء تتزايد وتختلف، ومع ذلك فإن الأسواق، وخاصة سوق الخضرة، مكان اللقاء. ولأن عمان صغيرة وقليلة السكان في ذلك الوقت، فإن الكثيرين، الجميع، تقريباً، يعرفون بعضهم، أو على الأقل صدف أن التقوا، وفي أماكن متعددة، مرات.

الحطة والعقال غطاء الرأس الأكثر انتشاراً، وهو الزامي بالنسبة للتلاميذ في المدارس الحكومية، والحلاقة يجب أن تكون "صفر"، فإذا جرى التساهل، خاصة في فصل الشتاء، فيجب أن يكون الشعر قصيراً. كان الأستاذ حسيب (ربما الخطيب) في المدرسة الثانوية، وقبل أن يبدأ الدرس، يفتش الشعر والأظافر، وويل لمن يكون مخالفاً. أكثر من ذلك كان، ومعه الأستاذ وهيب، لايترددان في أن يستعملا المسطرة لا للضرب فقط، بل وللتأكد أيضاً ما إذا كان في الشعر حشرات غريبة! ولقد بلغ التشدد أقصاه حين اجتاح التيفوس عمان عام ١٩٤٦.

مدرسة المطران - ومدرسة تراسنطة في وقت لاحق، وأيضاً الكلية الاسلامية - لم تشترط ولم تلتزم بغطاء محدد للرأس، وكان هذا أحد مظاهر غيرة الآخرين من

المطران، ففي نهاية الصيف، وبعد أن يكون الكثيرون من تلاميذ المدارس الحكومية أطلالوا شعورهم ويدأوا باستعمال "البريل كريم"، وبعد أن أخذوا يحسّون بأولى خفقات القلوب، والاعتراف بوجود الجنس الآخر تبدأ السنة الدراسية بأن يقص هؤلاء شعورهم ويرتدوا الحطات!

وإذا كان هناك عدد محدد، نسبياً، من التنوع في ملابس الرجال، فإنه في ملابس النساء بلا حدود.

حتى الملاية الشامية فإنها عديدة وليست واحدة. فأُم علي الشرشوحة، مثلاً، تلبس بطريقة مختلفة تماماً عن زوجة مأمور البلدية، إذ كانت الأخيرة تضع "البرنجنك" الشفاف، لكي تبرز ما تتمتع به من جمال وإغراء، بحيث تقف أُم علي ذاتها لتتنظر إليها، بعد أن ترفع طاقاً واحداً من المنديل الذي تضعه على وجهها، وتبالغ بعض الأحيان فترفع الطاقين، لكن بميل معين، لكي لا يتمكن رجل من أن يرى وجهها كاملاً أو بوضوح!

كانت أُم علي تردد دائماً كلمة محددة، وهي تهز رأسها وتتابعها:

- لِكْ، لِكْ المقصوفة ... لِكْ المقصوفة ... سبحان الله !

ولأيعرف على وجه التحديد إن كانت تذمها أو تمدحها، لكن لاتخفي في كل الحالات، أنها تقدّر صنيع الله وقدرته غير المحدودة!

ولو تجاوز الانسان الملاية الشامية على تنوعها، فسوف يجد كمّاً من التنوع أيضاً داخل كل مجموعة، فالمرأة الفحيصية أو السلطية المسنة تختلف عن الشابة، والمتعلمة تختلف عن التي لم تتعلم، وتختلف المقيمة في عمان منذ فترة طويلة عن تلك التي وصلت حديثاً. بل كان يصادف في أحيان معينة، وفي شارع منكوب بالذات أن يصبح الشارع مهرجاناً من الألوان وتعدد الأزياء واللهجات.

حتى الجدة، حين تصل بعباءتها العراقية، وكان الوجه مكشوفاً تقريباً، لايعرف من يراها أين يصنفها، خاصة وأن العباءة العراقية لم تكن مألوفة إلا في نطاق ضيق، وحين تلحّ عليها عيون النسوة، في محاولة "لاكتشافها"، كانت تتضايق رغم أنها تقدّر ما وراء هذه النظرات، كانت تقول، دون أن يسألها أحد، بلهجة جادة، لاتخلو من تحدّ:

- اي عيني عراقية، من بغداد، من صوب الكرخ من الدهدوانة، عرفتني، لو تريدن فد شي بعد؟

فإذا كان رد النظرات أو الكلمات مسالماً وينطوي على حسن النية والرغبة في المعرفة فقط، كانت الجدة تتابع، لكن بلمحة أنيسة ولا تخلو من ود:

- كلنا، عيني، فدّ دين، فدّ جنس، كلنا خلقنا الله!

أما الذي لم يخلقه الله، أو لم يخلقه بهذا الشكل على الأقل، فهو أبو حنيك، إذ حين يلبس الحطة البدوية الحمراء، ويلفها حول وجهه، ليخفي الاصابة التي لحقت بحنكه، وربما ليخفي ملامحه أيضاً، وكانت حين تراه الجدة هكذا تقول وتريد من الآخرين أن يسمعوها:

- هذا أكيد مو خلقه الله، هذا خلقه ابليس.

ولكي لاتأثم ولايساء فهم ماتقول، تتابع:

- شوفوا شلون شكول، شلون جهرة، مثل البريعصي، أشقر ولابس غترة! كانت الجدة تقول هذا بعد أن عادت من بغداد، وعرفت ماجرى هناك، وكانت بذلك تعبر عن موقف وتدلي بشهادة!

أما حين رويت لها قصة ذلك البدوي الذي ظل ينتظر أياماً متوالية عند بيت كلوب لكي يراه، وكان يفترض أنه ينتظر شخصاً غير الذي يشاهده يأتي ويذهب كل يوم، ولما سأل وقيل له أن كلوب ذاك الذي خرج قبل قليل، فقد هز رأسه بسخرية وأسف وقال: "حسبت الباشا باشا، أثاري الباشا زلة... واجقم". حين رويت القصة للجدة علقت بسخرية:

- اي نعم.. القمر ما يخفى، لكن اللي الله ماسخه ما يبين رأسه من رجليه!

إذا واصل الانسان تتبعه لمعرفة كيف تلبس كل مجموعة، الغني منها والفقير، في الأيام العادية وأثناء المناسبات، الرجال والنساء، فسوف يجد أن كل شيء متحرك، متغير، رغم وجود بعض الثوابت، خاصة لدى المسنين أو المحافظين، ورغم أن تلك الفترة شديدة الصعوبة، لأنها أيام حرب، فإنها أيضاً أيام البحث والسؤال، وأيام تدبير الحياة والرزق.

هل لعبت "البالة" دوراً في تكوين أذواق الناس أو في تلبية حاجاتهم؟

إذا كان الجواب عن السؤال الثاني بالإيجاب في قطاعات واسعة، نظراً للصعوبات التي كانت تتزايد يوماً بعد آخر، فإن الحالة السائدة، في تلك الفترة، كانت أقرب إلى الحيرة، وفي مثل تلك الحالة يبرز التحدي، ويسهل

التجريب، ويصبح المجتمع في حالة بحثٍ وتحدٍ، خاصة وأن الصيغة السابقة، أيًا كان الانتماء، أو قوة العادات، لم تعد تكفي لتلبية الحاجات الكثيرة المستجدة، كما أن حالة الرفض، وعلى كل مستوى، أصبحت هي الغالبة.

فغزني، أو غاندي، حسب التسمية السائدة، ابن سعيد المفتي، رغم أن جميع الشباب يطيلون شعورهم، فقد حلق على الصفر، وكان يفاخر بذلك، بل بلغ به الأمر أنه مستعد أن يخوض معركة فيما لو اعترض أحد أو سخر منه.

نبيه ارشيدات يصبح شيوعياً، في الوقت الذي يكون أبوه أحد أعضاء مجلس الوصاية على العرش، حين يغيب الملك عن البلاد، ولا يخفي أو يموه انتماءه، بل يحاول أن يجعل الأردن جزءاً من الكتلة الاشتراكية.

عبد الحميد شرف يذهب بعيداً في التحدي، فيصبح مبشراً بأفكار لم تكن مألوفة أو ممكنة في وقت سابق، وغير مستعد للمهادنة أو المصالحة.

سعاد أبو الهدى تريد أن تحب وأن تتزوج بطريقتها الخاصة، غير عابئة بالمقاييس أو القيم السائدة، ومستعدة أيضاً لأن تدفع الثمن.

فمنذ مطلع الأربعينات، أخذ عدد الذين يتخرجون في جامعات دمشق وبيروت والقاهرة، ويعودون إلى عمان، يتزايد ويتضاعف سنة بعد أخرى، وأصبح هؤلاء، بحكم المؤهلات والكفاءة، والموقع الاجتماعي لعائلات بعضهم، يلعبون دوراً متزايد التأثير في المجتمع، من خلال المناصب التي احتلوها، ومن خلال الأفكار الجديدة التي حملوها وأخذوا يبشرون بها.

ترافق هذا مع انتظام أكثر من السابق لوصول المجلات والصحف المصرية، ففي يومي الاثنين والخميس، كان عدد من الصبية يقف في شارع فيصل لانتظار وصول سيارة بيروت حاملة الصحف والمجلات إلى مكتبة يوسف فهمي، وتوزع على الصبية، فما تكاد تصل إلى أيديهم حتى ينطلقوا في كل الاتجاهات وأصواتهم تلتلعج: "الاثنين" "المصور". "المصور والأهرام".

كان ليوم وصول الجرائد والمجلات إلى عمان نكهة خاصة، وكان يشتريها بالإضافة إلى المتعلمين والسياسيين، عدد من التجار والوجهاء! ولأن بعض هؤلاء لا يعرف القراءة والكتابة، كانت تقرأ لهم، يقرأها أجد الأبناء، أو واحد من المتعلمين، وتظل أخبارها مجالاً للتداول والتفسير المتعدد، وبعض الأحيان المختلف، إلى أن تأتي جرائد أخرى، أو إلى حين التأكد من صحتها بالمقارنة مع إذاعة برلين، ومايقوله يونس بحري!

وفي فترة الحرب بدأت تصل مجلات كبيرة ملونة، وتحتوي كما من المواضيع والمعلومات المتنوعة، بما فيها أخبار الحرب وانتصارات الحلفاء. كانت هذه المجلات متعددة ومتنوعة من حيث المواضيع والألوان ومواعيد الصدور، وبعضها يصدر بأوقات متباعدة نسبياً، وكان تلاميذ العبدلية "يفازلون" هذه المجلات من وراء الزجاج في مكتبة الصفدي، إلى أن يتجمع "القرش والنص" لغامر منهم فيشتري واحدة.

كانت الجدة تقلب واحدة من هذه المجلات لترى الصور، وبعد أن سألت عن الثمن الذي دفع لقاء شرائها قالت:

- يعلم الله أن كل هذه الكتيبة قشمرة، يضحكون بيها على الناس، عبالهم الناس ماتفتهم.

وحين يقال للجدة عن عدد صفحات المجلة، وأنها أرخص من "السفينة" قياساً لعدد صفحاتها، إضافة إلى ما فيها من قصص ومعلومات، ترد بسخرية:

- الحجارة مومثل الذهب حتى يبيعوها بالمثلقال.

وتحس أن سخريتها لم تصل، تتابع وهي تمسك المجلة وتهزها:

- لوبيها خير ما دزوها النا، ماباعوها رخيصة، لكن لأن نيتهم مو سليمة، مو خوش نية، قالوا خذوا.

وتلاحظ أن أحداً لم يقتنع بكلامها فتقول كأنها تخاطب نفسها:

- هذول الكفار، القواويد، مايسون شي لله، وياجر تشوفون!

في ظل هذا المناخ، لعل أبرز مظاهر الرفض تتمثل في مجالات رئيسية ثلاثة: السياسة واللباس والتحدي الطريقي، بحثاً عن مواقع جديدة، أو صورة جديدة.

فما كان يقنع المسنين، أو مايعتبرونه قدوة لم يعد كذلك بالنسبة للشباب، حتى في إطار الزني. وماكان يكفي الأمهات أو يرضين به أصبح مرفوضاً من البنات ومستعادت لتحديه وتجاوززه، خاصة وقد دخل عنصران جديداً: التعليم والاحتكاك. أكثر من ذلك، أصبح يعيش تحت السقف الواحد عقلان، ونموذجان من الأفكار والقيم، وإيضاً تعبيراتهما العملية. وإذا كان هذان العقلان أو النموذجان قد حافظا على نمط من التعايش، وربما التفاعل في فترة سابقة، فإن طبيعة المرحلة الجديدة لم تسمح بذلك، خاصة وأن الشروط أخذت بالتغير، وبعض الأحيان أسرع مما يريد المسنون أو يستطيعون التحكم به أو السيطرة عليه.

فالطربوش الذي كان نموذجاً وطموحاً في بداية الأربعينات، تحول إلى سؤال، ثم إلى عبء، ليصبح في نهاية ذلك العقد مرفوضاً إلا بالنسبة للمسنين. كذلك القلب الشراكسي، الذي كان مظهراً للجمال والهوية معاً في مرحلة معينة، أصبح في وقت لاحق مظهراً فلكلورياً. حتى الحرس الأميري، بالملابس الشراكسية على الخيول، وكان أحد المظاهر المميزة لصلاة الجمعة والاحتفالات وصلاة العيدين، أخذ يتحول شيئاً فشيئاً إلى جزء من تراث الماضي الذي لا يمكن الحفاظ عليه إلا كذكرى.

لم يقتصر الأمر على ذلك، فالمشوار الذي قطعته البنات، في إطار الصيغة الجديدة للزني وتصفيف الشعر، وما يعتبره قيمة جمالية أكثر ملاءمة للمرحلة، أردن أن يوصلن الأمهات والمسنات إليه أيضاً. وليس من دواعي الاستغراب أن تكون بعض مظاهر الزينة القديمة، كالوشم على الوجه واليدين؛ وأنواع من الأصباغ والمساحيق، وأيضاً نماذج من الحلبي القديمة، كل هذه مترافقة مع الزني الجديد الذي أصبحت المرأة المسنة تلبسه بناء "لأوامر" البنات وزوجات الأبناء؛ قد لا تخلو المسألة من طرافة، ومن غرابة بعض الأحيان، لكنها من الظواهر التي يصادفها الانسان في عمان أكثر من أماكن أخرى. حتى الحجاب وأغطية الرأس اللذان كانا جزءاً من شكل المرأة ما لبثا أن تغيرا، أو تم الاستغناء عنهما نهائياً، في كثير من الحالات.

ولأن المجتمع والمرحلة يتميزان بتنوع بالغ، فقد كانت الأجيال والعادات والأعراق المختلفة تعيش متجاورة، وأن لم تصل إلى درجة الانصهار والتفاعل في كثير من الحالات، ولعل البدواة أيضاً من جملة مظاهر عمان.

فالببدو الذين كانوا يتمددون عند مطبعة السمان لساعات طويلة، كل يوم، وكانوا يقيلون هناك أيضاً، لم يعد منظرهم مريحاً أو زيهماً مألوفاً في مكان يعج بالحركة السريعة وسط السوق. أكثر من ذلك، أصبح هؤلاء البدو "هدفاً" لتلاميذ المدارس، في الذهاب إلى المدرسة أو العودة منها. فبعد أن يتكلموا على الرصيف، لا يفعلون شيئاً أكثر من المراقبة وتمسيد اللحي وتفريك الأصابع. أصبح لايمانع الكبار، خاصة أصحاب المحلات، إذا تعرضوا للأنذى أو للسخرية، فأخذ هؤلاء البدو بالانسحاب تدريجياً إلى سوق الحلال الصغير عند الحمام أولاً، ثم إلى السوق الكبير في رأس العين، وخلال الانسحاب، وكان اجبارياً تحت ضغط الظروف الجديدة، لم يترددوا في أن يطووا جزءاً من راياتهم، كالعباءات على سبيل

المثال، لأن شدة تلك العباءات لم يعد هواية الصغار بل أن بعض الكبار كان يشاركونهم فيها!

حتى نوري السمان، صاحب المطبعة، الذي لم يكن يمانع في السابق أن يتمدد البدو على الرصيف العريض أمام المطبعة، أصبح عماله، بأوامر منه، لا يطلبون منهم أن يغادروا، كانوا يتركونهم ليتجمعوا، وبعد أن يرتب هؤلاء البؤساء "قعدتهم" تتدفق المياه، كانت تتدفق بكميات وفيرة ومن أكثر من ناحية لتغرقهم، فينهضوا مذعورين. حصل ذلك مرة بعد أخرى إلى أن انسحبوا إلى أمكنة أكثر أمناً!

إن الملابس والأطعمة، وأموراً أخرى مشابهة، تقررها وتحددها طبيعة الحياة التي يعيشها الناس. لذلك فإن الملابس المعقدة، الغالية الثمن، وتلك التي لا تتصف بالصفة العملية، لم تعد تظهر إلا في الأعياد والمناسبات، وحتى في مثل هذه الحالات كانت تبدو غريبة وتدعو إلى الدهشة والتساؤل.

وكذلك الحال بالنسبة للألوان، للرجال والنساء، فقد تغيرت الأذواق كثيراً، وربما يكون تأثير البالة هنا أوضح، فلو تعقف البعض عن شراء ملابس البالة، لسبب أو آخر، إلا أنهم أخذوا يرون ألوان الملابس التي يرتديها الرجال هناك، ولذلك لا مانع أن يلبس الرجال مثلها، أو على الأقل يتسامحون تجاه من يلبسها، خلافاً لأوقات سابقة حيث كانت القيود والموانع أشد قسوة.

حين عاد قريب للجدة من الحج جلب معه حطات أقرب إلى اللون الأصفر، والجدة التي فرحت كثيراً بعودته وبهداياها، وبعد أن تأكدت من سماكة تلك الحطات وحسن صنعها، وأنها ذات لون واحد ومقياس واحد، وبالتالي ليس هناك احتمال لخلاف حين توزيعها، فقد قالت وهي تسلم كل واحد هديته:

— إذا كانت ذيك السدارات ماتهنيتم بيها وراحت حرامات، فهذي الغتر من عند النبي، مباركة، راح تلبسوها، وراح تظل لولد الولد.

وأخذوا الهدايا، لكن لم يلبسوها، [لأن التلاميذ في عمان لم يعودوا ملزمين بأي نوع من أغطية الرأس] وحين تساءلت الجدة عن الأمر بعد أيام سمعت صوت آخرهم، وكانوا ذاهبين إلى المدرسة مكشوفى الرؤوس:

— مافي لزوم... يبيبي!

إذا كانت العادة، وقت الرخاء، أن يشتري الأهل لأولادهم الألعاب وأدوات الرياضة والتسلية، فإن زمن الحرب جعل أولاد عمان يعتمدون على أنفسهم لاختراع الألعاب أو لصناعتها، بما يتناسب مع كل فترة، مع كل عمر، وأيضاً مع كل مستوى.

فحين يتعذر شراء الكرة، أيأ كان نوعها، لابد من اختراع كرة. وحين يتعذر وجود ملعب نظامي، لابد أن يهيا أو يُكتشف ملعب مناسب. لذلك، وخلال فترة قصيرة، تكون كرة الخرق، المتقنة الصنع، تتطير بدل كرة المطاط، ويكون الشارع، أو أي أرض خلاء، الملعب الذي يملؤه الأطفال بالأصوات والضجة، وبالخصومات أيضاً!

أما إذا كان العمر أو المستوى يحول، أحدهما أو كلاهما، دون ركوب دراجة أو حصان، فعندئذ تكون القسبة دراجة أو حصاناً، ويمكن أن تكون الاثنين معاً، وهذا ليس عن وهم، وإنما قناعة أكيدة، لأن الطفل حين صنعها بمقاييس معينة، وبشكل معين، "يعرف" كيف يجعلها حصاناً أو دراجة، ومتى يستعملها بهذه الطريقة، ومتى يستعملها بالطريقة الأخرى!

ومثلما يعرف الفلاحون الفصول والمواسم، وما يلائمها من زرع، فقد برع أولاد عمان في معرفة ما يناسب كل فترة.

فبعد أن يكبر الطفل قليلاً، ويعثر على سلك مناسب، يقضي وقتاً، بعض الأحيان طويلاً، من أجل انجاز أول اختراع له: "السلك والكركر".

فما أن يطمئن لاستقامة السلك، بعد أن عالجه لفترة وبصعوبة، حتى يدخل فيه كركراً ويثني جانبه، فإذا تأكد أن الحركة أصبحت سهلة، لينه، يدخل، في الجانب الآخر من السلك، كركراً ثانياً، وربما ثالثاً، وحين يدور الاثنان معاً، كل باتجاه، يبدأ

رحلته ذهاباً وإياباً، في البيت أول الأمر، ثم في أمكنة قريبة، وهو يستعرض أمام الآخرين اختراعه الأول!

أما "الدحرجة" فعادة تكون الاختراع الثاني. فحين يحصل الطفل على اطار مناسب، والنوع الأفضل هو الجزء الداخلي لاطار سيارة بعد أن يكون الاسكافي قد جرده من كل ماحوله من الكاوتشوك الذي يصلح لصناعة الأحذية، يشذب الطفل هذا الاطار، ثم يصنع من سلك مقوداً على شكل ذراع له نصف حلقة، ويبدأ يدرج الاطار بالسلك، ولا بد أن يستعمل المنبه في المنعطفات وعند تقاطع الطرق، وأيضاً في حال وجود تجمعات أمامه، تجنباً للاصطدام أو وقوع الضحايا! وكانت تجري في هذا النوع من اللعب مسابقات تتحدد نتائجها بالسرعة والقدرة على التحكم، ثم في الوقوف!

ومع انقضاء كل شهر يكبر الأطفال وتكبر طموحاتهم لنوع الألعاب التي يجب أن يمارسوها.

وإذا كانت الأعمار تحدد أنواع الألعاب فإن المواسم تفرض مايناسبها.

فجأة، وعلى غير توقع، ويدون ايعاز من أحد، تمتلئ عمان بلعبة تطفئ على كل ماعداها من الألعاب. صحيح أن الألعاب الأخرى تبقى، لكن في أمكنة خلفية، بعيدة. حين يبدأ موسم البلابل، مثلاً، لا بد أن يطفئ ويعم خلال فترة قصيرة. قد يبدأ من شارع خرفان، لكن بسرعة يجد صدى في الشابسوغ والمهاجرين وطريق وادي السير، ثم الأماكن الأخرى. وإذا بدأ هذا الموسم استعراضياً أول الأمر، بحيث يُكتفى ببراعة الدوران، فما يلبث في الاسبوع التالي أن يحرز تقدماً، ثم تفوقاً، ليصبح في الاسبوع الثالث تحدياً، وأخيراً لا بد أن تجري المباريات الحاسمة، حيث يعتبر الدوران والسرعة شيئين مألوفين لا يتحدد بنتيجتهما التفوق، إذ يجب أن يكون البلبل الأقوى، الأكثر كفاءة، هو ذاك الذي يستطيع أن يحطم البلابل الأخرى، أو على الأقل يخرجها من الدائرة!

نوعية الخشب الذي يصنع منه البلبل، ونوعية المحور الحديدي وسطه، تعطي مؤشرات أولية عن النتائج المحتملة، لأن طريقة لف الخيط، ثم طريقة توجيه الضربة، أو الميل الذي يتم اختياره، إضافة إلى براعة اللاعب، وبعض الأحيان مكره، تحدد النتائج. فكم من مرة أحسن فيها اختيار النوعية أو الحجم، وكم من مرة ظهرت البراعة أثناء الاستعراض، ثم ما لبث من جهد لتلوين البلابل، وتشميع الخيوط، ولكن تنتهي الأمور ببلبل مجهول، غير ملون، وربما أصغر من بلابل أخرى، لأن يتفوق، حين يكسر باقي البلابل، أو حين يخرجها من الدائرة.

كانت تنقضي ساعات بعد الظهر، أثناء موسم البلابل، والنزال مستمر، لا يتوقف ولا يهدأ، إلا حين تخيم العتمة. وكان النزال، أغلب الأحيان، ينتهي بأن تتجمع البلابل المهزومة عند القليلين، انتظاراً لمعارك أخرى مع منافسين من حارات مجاورة أو لموسم جديد!

وبقدر الهرج الذي يخيم على بعض الألعاب، وكان هذا الهرج يتناسب مع عدد المشاركين، فإن الهدوء، وأحياناً الصمت، يخيم على "الدائرة" التي تدور فيها البلابل الأخيرة.

وبطريقة غامضة، لاتخلو من سر، وربما يفسر جزءاً منه كثرة عدد المهزومين، يتراجع موسم البلابل فجأة ليبدأ موسم آخر!

وإذا كانت براعة عدد من لاعبي البلابل تظهر في بعض الأحياء أو المواسم، فإن هذه البراعة لاتبقى في الذاكرة، ولاتستمر طويلاً، خلافاً لأنواع أخرى من الألعاب.

فحين يبدأ موسم "الطيارات"، وغالباً ما يكون في بداية فصل الصيف، حيث تكون الريح مواتية، فإن الذاكرة تتيقظ وتستعيد أسماء طيارات وطيارى السنة السابقة.

إن موسم الطيارات الورقية في عمان حافل إلى أقصى درجة، كما أنه يستمر وقتاً أطول من مواسم الألعاب الأخرى، إذ تظهر فيه البراعة وقوة الاحتمال وحجم الاستعداد، إضافة إلى أن التفوق في هذا المجال علني وشديد الظهور، فما أن تنتهي لعبة "القبعة" الصغيرة، وهي عبارة عن المشروع الأولى للطيارة، ويمارسها الأطفال، وتشبه، إلى حد بعيد، من حيث توقيت ظهورها، طائر السنونو الذي يبشر بالربيع، حتى تظهر الطيارات.

خلال فترة قصيرة تمتلئ عمان بالطيارات الورقية، تبدأ كثيرة، صغيرة، يطيرها، في الغالب، طيارون هواة، يطيرونها من على أسطح المنازل، أو في بعض المساحات الخاوية. كانت هذه الطيارات تقابل بحماسة لاتخلو من مبالغة، خاصة من الأهل والجوار، ومع الحماسة، ولقلة الخبرة بالدرجة الأولى، يتدخل الكثيرون في الارشاد والتوجيه وابداء الملاحظات، ومن شأن ذلك أن يوقع الخسائر، إذ تبدأ هذه الطيارات بالتساقط بدل أن ترتفع وتحلق. كانت تصطدم بأسطح المنازل المجاورة، بالأشجار، بالأسلاك، كان ذلك يحصل أثناء انطلاقها،

حيث لا يكون "القائد" والمساعدون على نفس السوية من الحركة والسرعة، أو حين يُمد لها الحبل أكثر من اللازم؛ ويحصل أيضاً أثناء انزالها، وفي لحظات الهبوط الأخيرة. لقد كانت تقع الخسائر، معظم الأحيان، خلال فترتي الاقلاع والهبوط، إذ ماتكاد الطائرة تميل بزاوية حادة، ويدل أن يُعطى لها الخيط لترتفع قليلاً من أجل أن تستعيد توازنها، يُرعى الخيط فتجنح ثم تهوي، ولا يبقى منها سوى أوراق ممزقة على سلك أو شجرة.

هذا النوع من الطيارات، التي يصنعها ويطيّرها الهواة وقليلو الخبرة، لا تنظر إليها عمان باهتمام، لأنها على موعد مع نوع آخر من الطيارات: طيارات الاستعراض الكبير، وطيارات التحدي.

فبعد أن تسقط أعداد كبيرة من طيارات الهواة، وينسحب الطارئون، تبدأ بالتحليق، ومن أمكنة قريبة، طيارات تختلف عن التي سبقتها: أكبر حجماً، وتصل إلى ارتفاعات عالية. وهاتان الصفتان ليستا أبرز ما يميزها، فالبراعة تتبدى أكثر من ذلك، بالإضافة إلى الارتفاع، ثم تلك الخيلاء والطيارة تتمطى في الهواء، تتبدى البراعة في طريقة انزالها دون أن يلحق بها أي أذى.

حين تظهر هذه الطيارات في الجو يقول العارفون: جاء أصحاب الكار وأصدقاء الريح، وهم الشيوخ!

يظل الأمر هكذا لبضعة أيام، وكأنها فترة اختبار، مع زيادة في الارتفاع التدريجي والاستعراض، وأيضاً إسقاط بعض الطيارات المتافسة. لكن مع كل يوم يمر تتقدم الطيارات نحو أماكن أعلى وفضاءات أوسع، إذ تنتقل من الملعب الصغير قرب اللاسلكي إلى نهاية مدرسة المطران، وقد تصل إلى الحاووز الكبير. وخلال هذا التقدم لا بد من حذف عدد متزايد من الطيارات المعترضة أو المعيقة، وهكذا تسقط أو تغلق طيارات كثيرة. كان ذلك يتم دون اشتباك، بل من خلال المناورة، ومن خلال بعض الاشارات التي يسهل قراءتها، وبالتالي معرفة دلالاتها. وبذلك يخلو الجو تدريجياً، حيث لا يبقى إلا بضع طيارات.

كانت طائرة العبويني رقيقة، لكن قوية، ومجال تحليقها السفح الجنوبي الغربي من جبل عمان، بدءاً من مدرسة المطران؛ وغير بعيد عنها طائرة الأخوين الحنيطي، راشد ومحمد، أو حنو كما يسميه بعض الأصدقاء، وكانت تحت الحاووز؛ أما على السفح المقابل، مع ميل نحو الشرق، فكانت طائرة علي منيف؛ وكانت هناك،

في الجهة الشمالية الغربية من الجبل، طائرة قعوار - قاقيش؛ تقابلها على جبل اللوييدة طائرة الحديدي.

ومثلما تحصل تصفيات كثيرة في جبل عمان، كانت تقع مثلها في الشابسوغ، ثم جبل القلعة، وكذلك في رأس العين، إلى جبل النظيف، حيث لا تبقى في النظيف إلا طائرة واحدة، طائرة ابن كلمات، التي تحتل الفضاء الواسع في الجنوب من عمان.

وإذا كان الطابع الغالب على فترة الطيران الصراع، وبعض الأحيان العداوة، داخل كل حي، وبين الأحياء المتقاربة، وكان هذا يستمر طوال الفترة الأولى، وإلى أن يعترف بتفوق عدد محدود من الطيارات، فإن الفترة الأخيرة من هذا الموسم يغلب عليها الاستعراض لانتزاع اعتراف الآخرين في مواجهة طيارات اللوييدة والقلعة وجبل النظيف.

كان يتم، في أغلب الأحيان، بحشد امكانيات كبيرة من أجل تصميم طائرة من طراز متقدم لتدخل الاستعراض، إذ كانت تلتقي كفاءات وجهود عدد من المتنافسين السابقين، وكان يجري توظيف المكتسبات التي تم احرازها سابقاً لهذا الغرض. فخيوط المصيص التي امكن وضع اليد عليها، كمخلفات لطيارات ساقطة، وما تبقى من اوراق ملونة، اضافة الى شمع العسل والشمع العادي، كلها توظف لخدمة الطائرة الجديدة التي ستدخل الاستعراض في مواجهة طيارات اللوييدة والقلعة وجبل النظيف.

وفي يومي الخميس والجمعة الأخيرين من موسم الطيران، تبدأ الطيارات استعراضها. كان القادة يتفنون في مد الخيوط، في جرها، وأيضاً بالقيام بعدد من الألعاب الجديدة المثيرة، للدلالة على المهارة والفن، كان ذلك يجري وسط جمهور واسع، شديد الحماس، يعرف كيف يتابع ويقارن، دون تقديم سوى ملاحظات قليلة، وبصوت أقرب إلى الهمس، لأن هناك رباين اثنين ماهرين يقودان الطائرة، واحد يمسك بالخيوط، والآخر، على بعد بضعة أمتار، يمسك بكبوكية الخيوط الملفوفة باتقان بالغ على قضيب قوي. وإذا كانت مهمة الأول توجيه الطائرة، فإن الثاني يعطي الخيط، يلفه، بمقدار ما تتطلبه الضرورة. يفعل ذلك دون أمر، دون ايعاز، اعتماداً على حركة الآخر، وعلى مراقبة الطيارات المنافسة. كان ذلك يستمر حتى الغروب.

اليوم الأخير يوم حافل، فبعد أن تبلغ البراعة ذروتها في ارتفاع الطائرة، وفي

تهاديهها ورقصها في الهواء، وسط المراقبة التي لاتهدأ لحظة واحدة، وبعد أن يفترض كل جبل أن طائرته كانت الأعلى، وكانت الأهم، في هذا الاستعراض، وقبل أن تغيب الشمس، كان يطلق سراح هذه الطيارات، كلها أو معظمها.

كانت لحظة انطلاق الطائرة حافلة، خاصة، تختلف عن أية لحظة غيرها. فما أن يتعزى القضيب من الخيوط، وينكشف عن عقدة في وسطه، مربوطة باتقان وقوة، ويراه الجميع، كدلالة أخيرة أن لم تبق خيوط اضافية، حتى يتقدم الكثيرون للامساك بالقضيب، للمشاركة في توجيه الطائرة، وكأنهم يمنحونها أسرارهم الخاصة، وبعد أن ينظر الجميع إلى وجهه بعض، إلى الطائرة، وفي لحظة مناسبة يصرخ أحد القائدين، وبعض الأحيان، الاثنان معاً: واحد.. اثنين.. ثلاثة.. ويفلتان القضيب.

مايكاد القضيب يفلت من الأيدي حتى يميل قليلاً وهو يرتفع، وهو يصعد. يكون أول الأمر رخواً، متدلياً، لكن ما إن يرتفع أكثر حتى يعتدل، يأخذ شكل الخيط، وقد أحس بالحرية والقوة بعد طول اعتقال. وهو يرتفع هكذا ترافقه الصرخات والتصفيق تشجيعاً، تأييداً، تحية وداع.

لقد بدأت الطائرة مشوارها الخاص، إذ بعد أن كانت تدوم وتحوم في مكان واحد، مع ميل صغير في هذا الاتجاه أو ذاك، لاتبث أن تحس بالمدى، فتبدأ رحلتها الجديدة، يتم ذلك بتوافق شديد الانسجام مع الريح.

ولحظة بعد أخرى ترتفع الطائرة، تغيم، إلى أن تبدأ بالتلاشي ثم بالغياب. تغيب تماماً.

مع غيابها، وأثناء عودة الأولاد إلى بيوتهم يكون الرهان الوحيد بينهم: هل واصلت الطائرة تحليقها إلى السبع بيار أم تجاوزتها إلى سحاب ... أو ربما تابعت إلى مادبا أو أكثر ؟!

قبل أن تبدأ الطيارات الورقية تحليقها في عمان، أو بعد أن تواصل طيرانها في رحلاتها المجهولة إلى الأماكن البعيدة، كانت هناك ألعاب قد بدأت وأخرى تنتظر دورها.

فالكلول الكثيرة المخزونة من السنين السابقة، وتلك التي ظهرت فجأة، ولم ير الأطفال مثلها من قبل، تقرض نفسها.

كانت الكلول، بتنوعها وكثرتها، وأيضاً بالأصوات التي تحدثها، وهي

تخشخس في الجيوب أول الأمر ثم في الأكياس، لاتترك طفلاً من شرها، رغم أن الأهل، في أحيان معينة، خاصة حين يواصل الأطفال اللعب داخل البيوت، يلجأون إلى رميها أو إلى سحبها من التداول، إلا أن عودتها من الأمور السهلة، خاصة وأن لدى اللاعبين بها هامشاً غير محدود لاختفائها أولاً، أو لاختراع ألعاب جديدة بعد ذلك.

إذا انتهى "المور"، وهو الدائرة التي تُحدّد بخط على الأرض، ويضع فيها كل لاعب كلاً، يبدأ كل واحد من المتنافسين الاقتراب من الدائرة ثم اخراج الكلول منها.

إذا انتهى "المور" تبدأ لعبة الجورة، وهي الحفرة التي يحاول اللاعبون الوصول إليها، الواحد قبل الآخر، تمهيداً لاختراج ما فيها من "خميرة"، حيث كل واحد يضع فيها جزءاً من هذه الخميرة... عملية صعبة، لكنها ممكنة، والفوز بها ليس سهلاً!

ثم لعبة الخط، وهي أن توضع كلول، على مسافات متساوية، بقدر عدد اللاعبين، وكل واحد يحاول أن "يصيب" الهدف قبل الآخرين مع فرصة الوصول إلى الهدف الآخر، وهكذا.

إذا بدا الضجر من لعبة معينة، أو إذا لحقت خسائر للاعب أو لمجموعة من هذه اللعبة، يمكن الانتقال إلى أخرى ببساطة، خاصة وأن الهدف الحصول الى أكبر عدد من الكلول.

في وقت معين، وحين لاتكفي البراعة أو اغراءات لعبة معينة، يبدأ "التبديل" وذلك بأن يُعتبر جل أفضل أو أهم من غيره، ويتم استبداله بعدد من الكلول، تماماً كما تجري عملية تبديل النقود. فإذا لم تكف تبدأ المراهنة والتحزير، وهذه تعتمد على المغامرة أكثر من المهارة أو البراعة.

بإيجاز.. لعبة الكلول تحتل خيارات كثيرة، وغالباً ما يتم اختراع ألعاب جديدة، فقط لكي يسهل الاستيلاء على الكلول من أيدي الضعفاء وقليلي الخبرة والاغنياء، وأيضاً من صغيري السن، الذين يحاولون الدخول إلى هذا المجال دون مؤهلات كافية!

كان موسم الكلول طويلاً في عمان، ولكنه يظل موسماً مغلقاً بعض الشيء.. فالذين لا يعرفون بعضهم لا يغامرون في أن يلعبوا معاً. والذين يخسرون في البداية، وبشكل متعمد، لكي يغروا الآخرين، لا يكونون موضع ثقة. وأولئك الذين

يطالبون بضمانات مبكرة، كالامتناع عن "التبطل"، أو ضرورة وضع الكلول عند طرف ثالث، وهذا الطرف هو الذي يتصرف في حال الريح والخسارة، ثم الذين يطالبون بمحكمين معترف بهم، وينزاهتهم وحيادهم، كل هذه الصيغ، يدل أن تشجيع على اللعب والمغامرة، تجعل اللعب أكثر صعوبة وإيضاً أدعى للشك ثم للخلافات!

كانت الجدة تقول إذا دخلت الكلول إلى البيت:

- جت دعاييل ابليس...

تمسك أحد الكلول، أو مجموعة منها، تنظر إليها بامعان وهي تقلبها، وتقول:

- إذا ظلت هذي الدعاييل تسرح وتمرح بهالبيت راح تدوخنا وتكسر رجلينا.

تنظر إلى العيون بحثاً عن مؤيد، وحين لاتجد، تتابع:

- اقول لروحي وين راحت الفلوس، وشلون صارت القراية لعب بخرز ابليس!

كانت الجدة تكره الكلول أكثر من أية لعبة أخرى، إذ بعد أن تزحلق بواحد منها، فقد فرك تحت قدمها، عند الفجر، وكانت قائمة للصلاة في العتمة، وتاذت، أصبحت لاتطبق وجودها في البيت، إضافة إلى العجب التي تولدها الوانها الكثيرة المتداخلة، كانت الجدة عاجزة عن فهم أو معرفة كيف تم توليدها. كانت تتأملها بعض المرات، تهز رأسها بدهشة وتقول:

- إذا ابليس طلع آدم من الجنة يقدر يطلع من اللون ألف ...

تفكر قليلاً ثم تضيف:

- بدل ماتصير حبات بسبحة تسبح الله صارت تخرز مثل عيون البزازين.

ولكي تنتهي هذه التقاسيم التي لاتتعجب الجدة من تردادها، كان أحدهم يخطف الكل من يدها، وهو يصرخ:

- بببي ... بببي شوفي العصفور!

ومايكاد الكل يصل إلى يده، أو إلى يد أخرى، حتى ينتهي الموضوع!

مع الكلول، وبشكل مواز، كانت لعبة الأزرار، وهي تشبه لعبة الكلول، لكن أكثر تواضعاً، وعادة يلعبها الصغار، وأولئك الذين خسروا وفقدوا ما لديهم من الكلول.

إذا غابت هذه اللعبة، وليس للجدة أي دور في ذلك، تظهر ألعاب أخرى.

كانت الجدة تحدث نفسها بعض الأحيان والآخرون يسمعون:

- شياطين، اي نعم شياطين، وأكبرهم ابليسهم اللي علمهم السحر...

وبعد قليل، وتبدو لهجتها أكثر حزناً:

- مانخلص من قضية إلا وتجي أنجس منها.

كان الأطفال، في أحيان كثيرة، وكطريقة للمراقبة على وقف العاب معينة، يلجأون إلى استبدالها بأخرى. فعكازة الشيطان تحل مكان الكلول. وهذه العكازة عبارة عن أرجل خشبية طويلة يمكن استعمالها في مساحة واسعة نسبياً، وشرطها الأساسي حفظ التوازن. أما إذا كانت المساحة محدودة، أو اعترضها عائق، فلا بد أن يختل التوازن، ويؤدي ذلك إلى الوقوع، وما يخلف من نتائج على اللاعب أو غيره.

فبعد أن تطوى لعبة الكلول، بتغيب خرزات ابليس، حسب تسمية الجدة، تظهر العكازات الخشبية، والتي تم صنعها بمشقة ودون اتقان، وحين يبدأ تجريبها داخل البيوت، تصرخ الجدة:

- راحت خرزات ابليس قلنا خلصنا، هسه جت قباقيب جهنم؟

تتأمل الحركات البهلوانية، تهز رأسها، وتتابع:

- شلون طرقة مال الله هذي، شلون بلوى جديدة ابتلينا بيها؟

ولأن لا أحد يجيب، يناقش، تضرب يداً بيد، تتبسم بسخرية وهي تضيف:

- عبالك مقرمين، كل واحد داير بعوجيه ولا عوجية موسى.

وتنتظر أول فرصة مناسبة، وغالباً ما يكون البرد قد أتى، حتى تكسر الجدة هذه العكاكيز وتجعلها وقوداً، ولا يحس الأطفال بغياها، لأن لعبة أخرى قد بدأت وانشغلوا بها!

ولأن المهارة لا تنفصل عن القوة بالنسبة للأطفال والصبية، ومن الضروري اكتساب خبرات متعددة، وباعتبار أن عمان مدينة الحجارة والأمكنة الخاوية، فلا بد أن يكون جزءاً مما يتعلمه الأطفال في وقت مبكر: إجادة تصويب الحجارة.

من الألعاب التي لا تغيب، ويمارسها الكثيرون، حتى الكبار، لعبة "القرد وشارة"، إذ تنصب ثلاثة أحجار على استقامة واحدة، وتكون هذه الأحجار رقيقة

نسبياً، وتقف على حرفها، بحيث إذا وُجِئت إلى الواحد منها ضربة صائبة وقوية توقعه. بعد أن تنصب الشارات، يوضع في المقدمة، وعلى مسافة منها، حجر صغير يطلق عليه القرد، حين يبدأ اللعب، يشترط أولاً، إسقاط القرد قبل أن توجه الضربات إلى الشارات.

على ضوء المهارة تتحدد المسافات، ويتحدد حجم الحجارة المنصوبة. قد يجري، مرة بعد أخرى، توسيع المسافة أو تضيقها، تغيير القرد أو الشارات إلى الأصغر أو الأكبر، تبعاً للنتائج والمستوى. ولأن هذه اللعبة تستقطب جمهوراً واسعاً من المتفرجين، لذلك يلجأ اللاعبون إلى اظهار براعاتهم وهم ينتقون الحجارة التي تقذف، وهم يصوبون، وقد يلجأ بعضهم إلى قياس المسافة من جديد، إلى دك اليد بالتراب، إلى التفل باليد، وكثيراً ما تقابل الضربات بالاستحسان أو الاستهجان من المتفرجين، وتتوالى التعليقات المشجعة أو الساخرة لهذا اللاعب أو لذلك، لهذه الضربة أو لتلك، الأمر الذي يجعل الجو مشحوناً باستمرار، وقد يؤدي إلى خصومات، وغالباً ما يبدأ بها الخاسرون أو المرشحون للخسارة، لكن تنتهي الأمور دائماً بتحديات جديدة!

إذا كانت لهذه اللعبة حجارتها، فإن الحجارة التي تستعمل في المقلع مختلفة، من حيث الحجم أو المواصفات، إذ يجب أن تكون صغيرة نسبياً، وأن تكون مصقولة بمقدار.

استعمال المقلع يتطلب مهارة عالية، ولأن ضرباته مؤذية، وربما خطيرة، لقوتها، فإن الكبار يتشددون في منعه وتحريمه، خاصة بين البيوت والأحياء. أما الذين يصرون على استعماله، وعلى أن يبرعوا فيه، فعليهم أن يذهبوا بعيداً عن الأماكن المأهولة، وأن يصادقوا الرعيان ليكتسبوا منهم الخبرة. كانت مهارة بعض الرعاة حول عمان كبيرة، ويضرب بها المثل، إذ يستطيعون إعادة التيس الشارد بضربة واحدة، لا باصابته مباشرة، ولكن بامرار الحجر قريباً منه، كان الحجر وهو يأز ويصفر يخيف التيس.. ويعيده!

بمقدار ما يتشدد الكبار في منع المقلع، فإنهم يتسامحون، دون اعلان صريح تجاه "المغيطه" خاصة في تلك الفترة الصعبة.

كانت "المغيطه" في مواسم معينة، لاتفارق جيوب الفتيان أو اعبابهم. كانوا يختارون لها "الشعبه" بعناية فائقة، لأن الضلعين إذا كانا بزاوية واحدة يمكن التصويب بها بشكل أفضل، وإذا لم يكن المطاط شديداً ولا رخواً، والجلدة التي

يوضع فيها الحجر ليست لينة ولاصلبة،وأخيراً إذا كان الصياد بارعاً،فعندئذٍ لابد أن تكون حصيلة الصيد وفيرة.

عند حوام جواد بك،عند بستان القبيسي أو بستان الغريب،بالقرب من الحاووز الكبير،أو في بستان أبو قورة أو بستان أبو شام،كان الصياد الماهر يرجع بعدد كبير من عصافير التين والصفري والدوري.

وإذا كانت حصيلة الكثيرين من الصيد مرضية،ويمكن لأي منهم أن يتباهى،فلا أحد يستطيع أن يبلغ مستوى طلال حكمت،فتحت شجرة التوت الكبيرة التي تمت أغصانها لتغطي مدخل البيت كله،كان طلال يلبد بهدوء،ويكل ضربة يسقط عصفوراً جديداً. كان يفعل ذلك دون ضجة،دون مباهاة،وكان أغلب الأحيان لا يغادر مكانه.

كان أولاد عمان،وهم يتصيدون العصافير ذلك الوقت،قساة أكثر مما ينبغي،كانوا يتصيدون العصافير الصغيرة والعصافير الكبيرة،التي تؤكل والتي لاتؤكل،في مواسم الصيد وفي غير مواسمه. وكانوا لا يرون من أية شجرة سوى العصفور الذي يتنقل بين أغصانها أو "الشعبة" المناسبة لمغيطه الجديدة!

قال الأستاذ داود لتلاميذ صفه في العبدلية،ذات يوم،وهو يسحب المغيطه من جيب تلميذ:

— الفرق بين الحية وهذا الحنش...

وأشار إلى التلميذ الذي سحب المغيطه من جيبه،وقد راه مرة يضرب السنونو،وكان تلميذاً كسولاً:

— ... إن الحية تاكل العصفور لكي تعيش،الكي تملأ بطنها،أما هذا فيقتل ليتسلى.

ولأن كلماته أثرت على التلاميذ فقد تابع بثقة:

— والآن،من معه مغيطه ليضعها على الطاولة...

وبعد قليل،ولكي يشجع من كان متردداً:

— من يضع المغيطه بنفسه لا أعاقبه،أما إذا فتشت ولقيت،فيا ويل من أجدها معه!

خرجت من الجيوب،من أمكنة خفية،ثلاث مغيطات،ووضعت على الطاولة. قال الأستاذ داود،وهو ينظر إلى الوجوه:

- كلامي واضح: من معه مغيطة يحطها على الطاولة.

ولأن أحداً لم يتقدم نحو الطاولة، ولم تخرج أية مغيطة جديدة، وربما لأنه لاحظ حركة لم تعجبه، وبعد أن انتظر وقتاً اعتبره كافياً، قال:

- عماوي تعال

لما خرج احمد العماوي من بين التلاميذ ووقف امام الأستاذ داود، سأل:

- معك مغيطة يا عماوي؟

- أبداً ... أستاذ.

- متأكد؟

- نعم... متأكد.. أستاذ

وحين فتشه الأستاذ داود وجد المغيطة وقد وضعها العماوي تحت جوريه، هزها في الهواء أمام عينيه وأمام التلاميذ وسأل:

- وتكذب .. يا عماوي؟

وقبل أن يجيب التلميذ كانت صفعه قوية قد وصلت إلى خده، فادارته، دار دورة كاملة، كاد يقع، لكن تماسك في اللحظة الأخيرة. تابع الأستاذ داود:

- المدير راح يعاقبك على المغيطة اما أنا فراح أعاقبك على الكذب...

وقبل أن ينتهي صفعه صفعه ثانية، كانت بقوة الأولى أو أشد، فدار العماوي، وقبل أن تكتمل الدورة وقع. قال له الأستاذ داود، وكان لا يزال على الأرض:

- الكذب أب لكل المعاصي، ومن يكذب يفعل كل شيء!

بعد ذلك أصبح الذين استحكمت بهم عادة الصيد، ولا يستطيعون التخلي عن المغيطة، يضطرون إلى دفنها في كومة تراب، إلى وضعها في عرق سلسلة أو وراء حجر، كانوا يفعلون ذلك قبل أن يدخلوا إلى المدرسة. ولأن هناك من يراقب، من يعرف الأمكنة التي تخبأ فيها، فقد كانت تجري عمليات استيلاء مبكرة، ولأن مثل هذه "السرقاات" تختلف عن سرقة قلم أو مسطرة، كانت لاتصل إلى الإدارة، وتجري تسويتها بين الذي سُرِق ومن يفترضهم غرامه بطريقة مباشرة، وكثيراً ما أدت إلى نزاع وخصومات، وقد تتطور الى شيء أوسع في بعض الأحيان!



بالإضافة إلى العصافير وبعض الطيور، كانت هناك أنواع من الطرائد تستهوي الأولاد، خاصة الكسالى، والذين يريدون الهرب من المدرسة: صيد الحرادين.

فنتيجة قناعة راسخة عند هؤلاء، وكانوا يروجون لها: "إن دم الحردون إذا وضع على اليدين والقدمين يجعل عصي الأستاذ عطور مثل شربة المي: لا تؤثر ولا يحس بها"، ولذلك لم يكونوا يترددون في ملاحقة الحرادين وصيدها. أكثر من ذلك، والدعابة، كان بعضهم يفلت حردوناً جلبه معه داخل الصف، الأمر الذي يخلق هرجاً، لكن باعتبار أن العبدلية تحيطها أراضٍ خلاء من أكثر من جانب، وفي مثل تلك الأراضي تتوجد الحرادين بكثرة، كان الجميع، بمن فيهم الأستاذ، يعتبرون أن هذا "الزائر" دخل من الشباك أو هبط من السقف، خاصة وأن الحردون يبحث بسرعة عن مخرج لكي يفلت، وهكذا تنتهي هذه الدعابة دون نتائج

حين تلاحق العصافير بهذه القسوة، وتصبح الحرادين هدفاً، يملكها الحذر فتطفش إلى أمكنة بعيدة أو عصية، وفي مثل هذه الحالات تُقدّم فتوى: لقد حللنا لكم صيد البر والبحر، وهكذا يتحول عدد من الأولاد إلى السيل.

فعند حوام جواد بك، في المنعطف الذي يشكله المجرى هناك، تصبح المياه عميقة، وأوسع من الأماكن الأخرى، وكذلك الحال عند جسر العسيلية. في هذين الحوامين، واللذين كانا من أوائل المسابح في عمان، تكثر الأسماك، ولذلك، وحين تخلو من الرواد، لبرودة الطقس، أو لتأخر الوقت، أو كونه مبكراً، كان بعض الصيادين يفردون شباكهم، أو يدلون بالسنانير، لعلهم يظفرون بكم فرخ من السمك. والأولاد الذين يرقبون الصيادين الكبار، وحالما ينتهي هؤلاء، يبدأون بتمشيط السيل. كانوا يفعلون ذلك في أمكنة عديدة، وكانوا يستعملون بدل الشباك أكياس الخيش، ويدل السنانير عصياً. وغالباً ماتكون الحصى قليلة أو لاشي، لكن الأولاد لا يكفون.

ومثلما كانوا يطاردون العصافير والحرادين والسمك، وكانوا يضجرون بسرعة، فلا بد من البحث عن وسائل للتسلية جديدة.

كانت الدبابير، رغم خطورتها، هدفاً. فما أن يُكتشف عش لها في شق جدار أو في تجويف من الأرض، حتى يتجند عدد من الأولاد للتعامل معها. كانوا يصنعون من الخشب والتلك مضارب، ويبدأون. إذ يتقدم أحدهم "ليفيع" الدبابير، ويأخذ الآخرون مواقع مناسبة لكي يتلقوها بالمضارب.

تبدأ المعركة، أغلب الأحيان، ساخرة، ولاتخلو من الدعابة والخفة، إذ تتساقط الدبابير في طريقها من العش أو إليه، لكن ما إن تستثار وتحس بالخطر حتى تنهيج، فتندفع بأعداد كبيرة وتتجه إلى أي هدف حي أو متحرك، وكثيراً ما تسببت بلدغ الكثيرين، خاصة ممن ليست لهم علاقة من الأطفال والمارة، وبعض الأحيان بأعة الخضار ودوايهم! أما الذين فيعوا الدبابير، الذين يحملون المضارب، وحالما يكتشفون الأخطار التي تسببها بها فإنهم يتوارون عن الأنظار!

قالت الجدة، وهي ترى الحفيد، وقد تورم وجهه من لدغ الدبابير:

– نزول عليّ، لو الموت أخذني وما شفت هالشوفة...

تتفقد، تسأله إن كان يتألم، تنظر حواليتها باضطراب، تصرخ:

– مالحقنا نترحم على السوالف اللي صارت، حتى جتنا هالبلوى، حتى جتنا هالطرقاعة...

وبعد قليل، وكأنها تفكر بما يجب عمله:

– انبش قبره اللي يقول الصبر طيب، اللي يقول ما يخالف.

تنهض بسرعة وهي تشتم:

– أريد اشوف هالمقموع ابن المقموعة اللي سوى بيك هالسواية.

تذهب الجدة لتسوية الأمر مع الذين تسببوا بهذا الأذى، في الوقت الذي يبدأ علاج الحفيد بالثوم وأدوية أخرى.

قالت الجدة في الليل:

– هذول، جهال عمان، ما ينحملون، يؤذون أرواحهم ويؤذون غيرهم...

وبعد قليل، بصوت مختلف:

- وأولها وتالياها الحق علينا، اللي خيلنا جهالنا بالداريين!

وتحكم الرقابة لكي لايتقدم أحد نحو عش الدبابير، ويتولى الكبار، في هذه الحالة، معالجة العش، وأغلب الأحيان بحرقه ليلاً.

ويجد الأولاد شيئاً جديداً يفعلونه في الأيام اللاحقة. فالمضارب التي أعدت للدبابير لا بد أن تستعمل، وفجأة يكشف الشقاة أن أحداً لم يلتفت، بعد، للوطاويط. فهذه المخلوقات التي تخرج من أعشاشها عند الغروب بحثاً عن غذاء، وكانت تقطع الشارع، فوق الرؤوس بحرية، بدون خوف، تصبح أهدافاً للمضارب تتلقاها في الذهاب والعودة.

وحين ترتفع قليلاً، وقد أحسست ببداية الخطر، يطيل الأولاد أيدي المضارب لتصلها، لتطالها. فإذا ارتفعت أكثر من ذلك، أو أخذت تتجنب مرراتها السابقة، ينزع الأولاد صحاف التنك ويبدؤون "بورها" باتجاه هذه المخلوقات البائسة. كانت الصحاف، أغلب الأحيان، تخطؤها، إذ ماتكاد تحس الوطاويط بخفقات الهواء تتجه نحوها حتى تغير اتجاهها، ترتفع أو تنخفض، في محاولة لأن تنجو. رغم الحذر، كان عدد منها يتساقط. يظل الأمر هكذا إلى أن تخيم الظلمة، فتتوارى الوطاويط أو لا يعود من الممكن رؤيتها، فيسلكم الأولاد، على أمل أن يلقوها في يوم لاحق!

في اليوم التالي، وهم في طريقهم إلى المدرسة، وباعتبار أن الوقت قصير، ومع ذلك يجب أن يجدوا لعبة أو تسلية، لا بد أن يقفوا في مواجهة بعض بيوت الشركس لمعاكسة ديوك الحبش، وهي عادة موجودة ويبدؤون بالغناء:

ديك الحبش مات مات ديك الحبش ماخلف إلا بنات

وبمجرد أن تسمع الديوك هذه الأصوات تعرف أن الأولاد يناكدونها، يغيطونها، فتندفع إلى الوقوفة رداً عليهم، لكن استمرار غناء الأولاد يستفزها أكثر، فترتفع فوققتها بصوت أعلى، وتكون أقرب إلى الصخب والشتيمة، رداً عليهم، وتبدأ بالتجمع والاستعداد، وكثيراً ما كانت تندفع للهجوم، فإذا لم تخرج صاحبة الديوك في الوقت المناسب لطرد الأولاد، أو لم يهربوا، لا بد أن تهجم هذه الديوك، وقد تسبب الأذى!

وإذا كان الوقت ضيقاً أثناء الذهاب إلى المدرسة، ولا يكفي لأكثر من التحرش بديوك الحبش، فإن وقت العودة طويل فسيح، لذلك يمكن أن تتم فيه أشياء كثيرة، وهذه الأشياء تتحدد على ضوء الطريق الذي يتم سلوكه.

فطريق السوق حافل بأشياء كثيرة:

الوقوف عند مجلخي الأمواس والسكاكين والمقصات، وغالباً ما يكون هؤلاء بخاريين لا يعرفون من العربية إلا القليل، ويقومون بأعمالهم، على تلك الآلات البدائية، بصمت، كما لا يمانعون في أن يظهروا براعتهم أمام الأطفال!

إلى الوقوف أمام مكتبة الصفدي واستعراض الكتب التي لا تتغير أبداً!

إلى مراقبة مضخة البنزين الوحيدة، في منتصف شارع فيصل، مقابل البنك العثماني، وكانت لهذه المضخة أسطوانتان زجاجيتان، تمتلئ الواحدة وتفرغ الأخرى، عندما تدار باليد لملء خزان سيارة من السيارات القليلة في عمان.

إلى الوقوف أمام تجمع يمازح شيتته، المجنونة الفقيرة التي لا تتعب من قياس شوارع المدينة، وهي متدثرة بكم هائل من الملابس المزقة....

إلى الوقوف أمام محلات عزيزة لتنشق رائحة القهوة والمببس، وايضاً للتأكد من سعر قلم الحبر، القابر.

إلى المرور في سوق البخارية، مقابل الجامع الحسيني، والنظر إلى الأرض بحثاً عن أشياء ضائعة...

فإذا وصل التلاميذ إلى مطبعة السمان، واستفردوا بأحد البدو، فلا بد أن يغافلوه ويجروا عباءته ثم يركضون هاريين....

يأخذون الدرج العريض الصاعد نحو الجبل، وفي طريقهم إلى البيت يصادفون عربات الشراكس الصاعدة أو العائدة فيتعلقون بها، لكن عليهم أن يصلوا إلى البيوت قبل المغيب.

الذين يسكنون طريق الجبل لديهم أشياء أخرى يفعلونها. فما أن يجتازون "بيت الساكونة" التسمية التي أطلقت على بيت طبارة، القريب من العبدلية، لأنه رغم غياب ساكنيه لفترات طويلة كانت تصدر منه أصوات غامضة.. وما إن يجتازون المرتفع بعده، وحين تستوي الأرض بالقرب من بيت الشريف زيد، حتى تبدأ "لعبة الاسكندراني"، والتي تشبه الحصان الخشبي، وهي أن ينحني الواحد لكي يقفز زملاؤه عن ظهره، ويكون عدد القفزات المتاحة لكل واحد بقدر عدد المجموعة، إذ على الذي يقفز أولاً أن يأخذ دوره في بداية المجموعة لكي يقفز الآخرون.

إذا وصلت المجموعة إلى نهاية سور بستان الغرب، من ناحية الشرق، يمكنها أن تجتاز البستان إذا لم يكن الوقت أواخر الربيع، أي موسم اللوز. إذا كان الموسم فعندئذٍ تصبح الحراسة مشددة والتسامح غير معترف به، الأمر الذي يضطر

المجموعة إلى سلوك الطريق الطويل، ويعني ذلك المرور بالقرب من بيت المدير سليمان عطور، وما يمكن أن يسببه ذلك من حرج واحتمالات خطيرة، كأن يراهم المدير متأخرين، أو يكتشف أن ملابسهم متسخة أو وجوههم شقية.

كانوا وهم يمرون من هناك يصمتون، يرتبون ملابسهم، يرسمون على وجوههم ظلال البراءة، وكانوا يهيئون أيضاً أجابات مناسبة فيما لو صدف والتقى بهم المدير، لكن غالباً يمرون دون أن يتم هذا اللقاء!

وكما كان للعبدلية بابان، واحد شرعي والآخر للتسلل، فإن الطرق الموصلة إلى المدرسة كثيرة، لكن ليست كلها سالكة على مدار السنة، وليست كلها سالكة بنفس المقدار. فإذا كان قول: أطول الطرق أسلمها.. صحيحاً، وأغلب التلاميذ يسلكونه، فهناك دروب يسلكها الذين أسرفوا في وضع دم الحرادين على أيديهم، وقد يشاركونهم آخرون أيضاً، في بعض الأوقات، نتيجة اغراء لا يستطيعون مقاومتها، ويسورغ هؤلاء لأنفسهم سلوك هذا الطريق أنه "مقاطعة" أو بأن يقولوا: "كل الدروب على الطاحون".

وأم محيي الدين الغريب التي تتسامح بمرور بعض الأولاد من البستان، حين ينتهي قطاف اللوز، حيث تتظاهر أنها لم ترهم، خاصة إذا كان محيي الدين غائباً، فالأمر يصبح مختلفاً تماماً أثناء الموسم.

فزاوية البستان الشرقية، المحاذية لبيت سعيد المفتي، والمقابلة لدار نفاع، حيث توجد فجوة في السور، كان يمر منها عدد من التلاميذ المتأخرين وهم في طريقهم إلى المدرسة.. هذه الزاوية تصبح موضع رقابة مشددة من أم محيي الدين، لأنها أضعف النقاط، واحتمال دخول البستان عبرها أقوى من أي احتمال آخر، فالأسلاك الشائكة في ذلك الموقع نزع، والتحصيلات التي أجريت عدة مرات لم تصمد طويلاً، ولذلك فإن عيني أم محيي الدين تتركزان على هذه الزاوية، خاصة أثناء ذهاب التلاميذ إلى مدارسهم وأثناء عودتهم.

ولأن الذين يريدون سرقة اللوز مصممون، ووضعوا أكثر من خطة، وقدروا أكثر من احتمال، يعرفون، ويقولون بمباهاة: "محيي الدين واحد وما هو مائة"، لذلك لا بد أن يجدوا طريقة من نوع ما تمكنهم من تحقيق كل أو بعض ما يريدون.

يعبر عدد من هؤلاء إلى البستان من هذه الفجوة، إذا رآتهم أم محيي الدين تدب الصوت، وتكون عادة قرب البيت، وسط البستان. هذا الصوت المبحر لا يخيف كثيراً، إذ يحتمل أن يكون محيي الدين غائباً، أو بعيداً، ولذلك يترثون قليلاً. فإذا

صاحت مرة أخرى، يحاولون قراءة الصوت، فإن وجدوه مطمئناً غير خائف لابد أن ينسحبوا، وبأسرع وقت ممكن، لأنه بمقدار ما يحذرهم يُشعر محيي الدين بضرورة التحرك السريع. وعمان إن عرفت عداءً مُراً يسبق الريح فهو محيي الدين. أما إذا قرأوا في الصوت صخباً وتحدياً فإنه دليل أكيد على غياب محيي الدين، لذلك يكونون أكثر اطمئناناً وهم يملأون جيوبهم باللوز قبل أن ينسحبوا، رغم التهديدات التي تصلهم من بعيد، والتي تقترب قليلاً قليلاً، وفقاً لخطوات أم محيي الدين البطيئة المتعثرة، وهي تتجه نحوهم.

في وقت لاحق أصبح الذين يقومون "بالغزو"، كما يطلق على مثل هذه العمليات، ينقسمون إلى مجموعتين أو أكثر، واحدة للمشاغلة، وماعداها للوصول إلى أكثر من مكان، حيث "لا يستطيع محيي الدين أن يكون في مكانين مختلفين في وقت واحد"، كما يقول الغزاة.

ومحیی الدين حين لا يظفر بالذين يطاردتهم، لأنهم انسحبوا في الوقت المناسب، يعرج على الملعب الصغير بالقرب من بيت الشريف زيد، حيث الأولاد يتجمعون ويلعبون، لعله يكتشف، من خلال الملابس من خلال التصرفات، أحداً منهم، لكن تنتهي هذه المحاولة معظم المرات دون نتائج!

وإذا كان "الغزو" لا يستهوي الكثيرين، لخطورته، ولما قد يترتب عليه من نتائج، خاصة إذا انكشف، بما في ذلك معرفة الأهل أو إدارة المدرسة، فإن الذين يقومون به يتخفون، يتظاهرون بالبراءة، يحتاطون أثناء الغزو، وحين يقبلون انضمام عنصر جديد!

كانت في عمان بستان شديدة الاغراء، لكن لكل واحد منها صعوباته وتحدياته. ففي بستان الغريب محيي الدين، وفي بستان منك، خاصة بعد أن انضم إليه بستان العنبتاوي، سيف وبدر الحارسان اليمانيان الشرسان؛ وبستان البليسي له سور عال يصعب اجتيازه. أما بستان جواد بك فالسيل يحده من الشمال، والزقاق من الشرق والشارع من الجنوب، مما يجعل الخروج منه، وليس الدخول إليه، بالغ الصعوبة. وبستان أبو شام على طرف المدينة، تحيط به الأسلاك الشائكة، إضافة إلى السور العالي، مما يجعل الوصول إليه مغامرة غير مأمونة النتائج.

قالت الجدة، حين رأت حبات الاجاص الناضجة:

- عفية وليدي، عفية يا بعد عيني..

استراحت قليلاً ثم أضافت بحنان:

- سويت مثل ماقلت لك: اشترِ تفاحة، عرموطة، حتى تبرد قلبك أحسن
ماشتري مجلات الحرب والضرب اللي يدزها الانكليز الكفار.

وحين رأت الالبسامات على الوجوه، و الأيدي تقلّب الاجاصات تساءلت:

- موصدق اللي أقوله أم تقولون ماتفتهم؟

وخرج أكثر من صوت:

- بيبي.. هذي مو شرابة، هذي غزو.

ولما تاكدت من الكلمات التي سمعتها، بعد أن استفسرت، هجمت على حبات
الاجاص بخلطتها بقوة بشراسة، وكأن الجنون أصابها، وخرجت الكلمات من بين
أسنانها:

- هذي اللي عايزة.. فرهود؟ صرتم نهايين تفرهوا الناس؟ والله لاشعل
أمواتكم.

وضعت العبادة على رأسها، ووضعت حبات الاجاص في طرف العبادة،
وصرخت:

- ياالله قوم وياي، انهجم بيتك، أريدك تقولي منين نهبتها.. ياالله قوم.

بصعوبة بالغة، وبعد أن تدخل الكثيرون، أمكن اقناع الجدة تأجيل الأمر إلى
الغد. وافقت بعد تردد، قالت، وكانت الدموع تملأ عينيها، وتركت عباءتها ترتخي على
كتفيها:

- هذي العايزة.. بدل القراية، بدل العلم، تصيرون حرامية... تفو .

وبعد قليل:

- الحلال يفوت بحلو قنا مثل الزقوم، ظل علينا، هسه، الحرام ؟

انفعلت من جديد، عبرت رأسها أفكار كثيرة، قالت بتحد:

- يحرم علينا نحطه بحلو قنا...

وبعصبية قامت، وبقدميها أخذت تدوس الاجاصات، وكانت تبكي!

في الأيام التالية، قيل أن الجدة بذلت جهداً كبيراً لمعرفة صاحب البستان من
أجل أن تدفع له مقابلاً لما سرقة الحفيد، وايضاً لكي تطلب منه الصفع. وحين لم

تصل إلى نتيجة تصدقت بما اعتبرته مبلغاً كافياً، وصامت ثلاثة أيام متوالية، وصامت يومي الاثنين والخميس من الأسبوع اللاحق، لعل الله يغفر للصغير.

وانشغل الكبار بهموم الحياة، خاصة في تلك الفترة الصعبة، وعاد الصغار إلى عالمهم. لكن ظلت عمان، رغم الهموم والمصاعب، كباراً وصغاراً، تنتظر مباريات كرة القدم.

فالكرة التي تتقاذفها الأرجل، حتى لو كانت من الخرق، جزء من تاريخ هذه المدينة، فهي موجودة في كل مكان: في الشوارع، في الساحات، وبعض الأحيان في الأزقة الضيقة، خاصة وأن أي مكان يصلح لأن يكون ملعباً، إذا توافرت الكرة وتوافر عدد من اللاعبين. يضاف إلى ذلك أن السيارات في تلك الفترة كانت قليلة جداً، إلى درجة لا يمكن أن تفسد استمرار مباراة بين فريقين تجري في الشارع!

أي حجرين يصلحان لكي يحددا "الكل"، وأي عدد يكفي لأن تبدأ الكرة تطير من جانب إلى آخر، وأي ضربة يمكن أن تكون هدفاً أو لا تكون، خاصة وأنه لا حاجة إلى محكمين أو مراقبي خطوط، إلا إذا كان عدد المرشحين للعب أكثر من طاقة اللاعب على الاستيعاب!

كانت تتاح الفرصة للكثيرين لكي ينزلوا إلى الملعب، لكن بسرعة، ودون عناء أو مكابرة، ومن خلال الانتخاب الطبيعي، ينتهي أمرهم بأن يتحولوا من لاعبين إلى متفرجين متحمسين.

وإذا كانت الكرة قد بدأت في الأزقة والشوارع، فلا بد أن تصل ببعض اللاعبين إلى الملاعب الواسعة، ولأن يتحولوا إلى لاعبين مرموقين. فاین كانت ملاعب عمان تلك الفترة؟

مباريات الأحياء كانت تجري في المساحات الفارغة، إذ بالإضافة إلى الشوارع، هناك ساحات أصبحت معروفة وفرضت نفسها، واعتبرت، بشكل ما، ملاعب شبه رسمية. ففي رحاب المدرج الروماني، حيث كانت تجري الاحتفالات في العصور الماضية، وحيث يجري "العید" في الوقت الحاضر، أصبحت الساحة الملعب الذي تجري فيه مباريات شرق عمان. أما في غرب المدينة فكانت هناك ملاعب كثيرة: الملعب الصغير، هكذا كان يطلق على الساحة قرب اللاسلكي، مقابل بيت العدوان. ففي هذا الملعب تجري المباريات بين الأحياء، وكان يجري فيه، بعض الأحيان، استعراض الخيول، إضافة إلى كونه مكاناً للنزهة، حيث يقع الحاووز

الصغير، وليس بعيداً عن البيوت، وبالتالي كان يحضر إليه متفرجون كثيرون، حتى يقال أنه لم يترك رجلاً إلا وجرها إليه، لسبب أو لآخر، بحيث أصبح الملعب الشعبي لكرة القدم داخل المدينة.

ليست لهذا الملعب عوارض خشبية، وهو أصغر قليلاً، من الملاعب الرسمية، لكنه مستوٍ ومحصور، إضافة إلى أن الدخول إليه مجاناً!

الملعب الآخر ملعب الشريف زيد، ويمثل، تقريباً، من حيث المساحة والمواصفات الملعب الصغير، لكنه موسمي، إذ إن "رزيق" مرافق الشريف، يمنع اللعب فيه بعض الأحيان، لئلا تنتهج الخيل، ويحصل ذلك خاصة حين يكون الشريف في الاسكندرية! وهذا يجعل الفرق المدعوة لاجراء مباريات عليه تتردد، لأنها ليست متأكدة ما إذا كانت المباراة ستجري أم لا!

ثم هناك الملعب قرب الحاووز، وكان عبارة عن كول واحد، إذ كانت في الأرض كم "صفاء" تجعل اللعب خطراً، الأمر الذي اضطر النادي الفيصلي للاكتفاء بكول واحد، ويستخدم للتدريب فقط.

ثم ملعب مدرسة المطران، وكان هذا ملعباً نظامياً من حيث المساحة ووجود العوارض الخشبية التي تحدد الهدف، وايضاً وجود السور، خاصة من الناحية الشمالية، حيث يستطيع المتفرجون الجلوس، إلا أن الدخول إلى الملعب صعب، خاصة أثناء ادارة المستر ساتن الذي لم يكن يرحب بالضيوف الصغار، ويفرض في حالات معينة رسماً للدخول!

العيب الوحيد في ملعب المطران أن الجهة الجنوبية الغربية منه شديدة الانحدار، الأمر الذي يجعل استعادة الكرة، إذا خرجت من هذه الجهة، تتطلب وقتاً طويلاً!

وأخيراً هناك ملعب كويان، وهو في أقصى غرب المدينة، وكان خلال فترات طويلة جزءاً من بيارد الشركس، إلا أنه تحول، بشكل أو آخر، إلى ملعب، وكانت تجري على أرضه بعض المباريات الهامة، وأن تكن بين الفرق المحلية.

لم تكن الملعب كويان عوارض للهدف خلال فترة طويلة، كما أن أطرافه ليست واضحة دائماً، الأمر الذي يتطلب، قبل اجراء اية مباراة، أن تُحدد هذه الأطراف، خاصة الزوايا، وكان يتم ذلك بالرمل الأبيض أو بالكس، وكان يجري ايضاً قياس المسافة بين حجري الكول للاطمئنان والتأكد، مع الإشارة أن هذه الأحجار كانت تتغير تبعاً لمستوى الفرق المتنافسة، وبعض الأحيان نتيجة التواطؤ!

هكذا كانت الملاعب في عمان المدينة. حتى بعد انشاء الكلية الاسلامية، في الجزء الثاني من عقد الأربعينات، فقد ظل كويان ملعباً لهذه الكلية، وكثيراً ما خرج تلاميذها، وأستاذ الرياضة، هلال، من أجل إعادة تخطيط الملعب، قبل وصول الضيوف واجراء المباراة.

لعل الملعب الحقيقي، والرسمي أيضاً في تلك الفترة، وهو للمدينة، وإن كان خارجها، ملعب المحطة، ففي هذا الملعب تجري المباريات الكبيرة والهامة، وعلى أرضه يجري سباق الخيل، وتقام بعض الأحيان الاحتفالات التي تذكروها عمان أكثر من غيرها.

فهذا المكان، المحطة، له معان كثيرة في أذهان الناس: سكة الحديد، وما ترمز إليه من التواصل والسفر، وأيضاً وصول المسافرين والبضائع والأخبار؛ ثم السجن، والذي لا يبعد عن الملعب إلا مسافة قليلة، وما يولد في الذاكرة والخيال، خاصة بالنسبة للصغار؛ ثم الباصات الأولى النظامية بين مكانين في عمان، وربما تكون هي أولى السيارات التي يركبها الأطفال تلك الفترة؛ ثم السيران على طول الطريق، بين الأشجار وإلى جانب المياه التي تتدفق بغزارة، وأيضاً الملعب.

قلما يمر يوم جمعة في فصلي الربيع والخريف دون أن تكون هناك لعبة كرة قدم. قد تتفاوت الفرق المتبارية، وبالتالي يتفاوت الحضور، لكن يوم الجمعة يعني الكثير للصغار والكبار، فإذا كانت المباراة بين فريقين رئيسيين، كالأردن والفيصلي، أو حين تأتي فرق زائرة، فإن الاستعداد لحضور تلك المباريات يبدأ مبكراً، لأن باصات عبدالله أبو قورة، وكانت تنطلق من شارع فيصل، ورغم أنها تعمل بأقصى طاقتها، خلافاً للأيام العادية من حيث الاستيعاب والمواعيد، إلا أنها لا تقوى على نقل إلا قسم محدود من الذين سيحضرون المباراة، وهذا يعني أن الكثيرين سيقطعون المسافة بين عمان والمحطة، ومقدارها أربعة كيلو مترات، سيراً على الأقدام.

تبدأ الرحلة نحو المحطة باكراً، ويحرص الأصدقاء والأقرباء أن يكونوا معاً، سواء في الذهاب، أو في احتلال مكان مناسب على أطراف الملعب، لتشجيع من يعتبرونه فريقهم، ولواجهة أية تحديات قد تطرأ.

خلال الطريق الذي يستغرق أكثر من ساعة: الطبول والمزامير، سواء من الأفواج السائرة، أو تلك التي تستريح على طرف النهر.

كان باعة الخس، في مثل هذا اليوم، يبيعون أكثر من أي يوم آخر، وكانت

اسعارهم في الذهاب تختلف عن الأسعار في العودة! وكذلك الحال بالنسبة لباعة الذرة والفول والفلفل، والذين يكونون قد وصلوا قبل الجميع، واحتلو أماكن مناسبة، سواء على الطريق أو إلى جانب الملعب.

نتائج المباراة تحدد، أغلب الأحيان، طريقة العودة. ففي حالات الفوز يستقل من يعتبرون أنفسهم أنصار الفريق الفائز سيارات شاحنة، كانت تقف لهذا الغرض، وتتقاضى نصف أجرة الباص، لا لتتنقل هؤلاء فقط بل وللقيام بجولة في شوارع عمان، لكي تعلن النتائج من خلال الأغاني والأهازيج.

الذين اعتبروا أنفسهم مهزومين يعودون، في الغالب، سيراً على الأقدام، وتكون الرحلة في هذه الحالة حزينة، مملوءة بالصمت، وهذه الطريقة في العودة تتضمن شيئاً من معاقبة النفس. كان يصل هؤلاء إلى عمان متأخرين، ويكونون، في العادة، غير راغبين بأية مناقشة، ويتمنون لو أنهم لئیسألون عن النتائج!

مباريات مدرسة المطران تجري في أحد يومين: الخميس أو السبت، لكي لا "تضارب" على مباراة الجمعة، وبالتالي لكي تكسب حضوراً، خاصة إذا كان الدخول بمقابل، وأيضاً للاستفادة من يوم العطلة في اليوم التالي. غالباً ماتكون هذه المباريات ودية أقرب إلى الأناقة، حيث تظهر البراعة الفردية والمهارة، وتوزع في نهاية الشوط زجاجات الكازون على اللاعبين وبعض الضيوف!

وإذا كانت الطيارات الورقية تتحدد بالمناطق والأسماء، فإن نجوم الكرة يتميزون على غيرهم بشكل كبير، لأنهم لا يتحددون بموسم، ولا يقتصر تقديرهم ومحبتهم على مجموعة، كما أنهم يعنون لكل انسان شيئاً. فحين يكون فريدون حكمت حارساً للمرمى لا يشك أحد في حصانة المرمى واستحالة اختراقه؛ وحين يكون معه أخوه طلال في الدفاع تكون الثقة بالفريق أكبر؛ فإذا انضم إليهما ينال في الهجوم فلا بد أن يتسلل بشكل ما لكي يحقق إصابة، أما حين ينزل أحمد الحميد إلى الملعب فيقابل بعاصفة من التصفيق، ولا يتردد الكثيرون في القول أنه أمهر أخوته رغم أنه أصغرهم. وإذا كان شما في فريق فإن حظوظ هذا الفريق بالفوز تكون أكبر بما لا يقاس، كذلك الحال بالنسبة لأحمد التلي. أما ضربات مجلي أو ضافي الجمعاني فيمكن أن تصل من بداية الملعب إلى نهايته، وهذا دليل على القوة. ومحاورات مازن العجلوني ممتعة وتثير الكثير من الحماس. وسليمان الطبل يظل يختال في الملعب، رغم قصره، ورغم الحصار الذي يفرض عليه. أما شحادة حين يصاب في اللعب ويضطر للخروج فيشعر كل متفرج أنه أصيب، وقد يشعر بعضهم بالألم فعلاً.

بعد كل مباراة تنشغل عمان أياماً، وربما أكثر، في تقييم اللعبة واللاعبين، وتحديد نقاط القوة والضعف، مع افتراضات لاحدود لها حول امكانية تغيير النتائج أو تحسين المواقع، فيما لو حصل هذا الشيء أو ذاك، وكان هذا يثير خلافات لاتنتهي إلا إذ حصلت مباراة جديدة.

في الخريف، ومع سقوط الأمطار، ينتهي موسم كرة القدم، لأن أكثر عمان لا يعود صالحاً، نظراً لتجمع برك الماء نتيجة الأمطار، خاصة وأن معظم هذه الشوارع غير معبد، حتى شارع منك، حيث يسكن في نهايته أبو حنيك، لم يعبد إلا في منتصف الأربعينات.

بترجع ثم انتهاء موسم الكرة تظهر العاب وهوايات أخرى، وهذه تتفاوت تبعاً للسن والمستوى، فالصيادون الذين استراحوا طوال فصل الصيف، لعدم وجود الطرائد، ولانشغالهم أيضاً، يستخرجون بنادقهم استعداداً للموسم الجديد، وهكذا يبدأ أبو شحادة، وعدد آخر من الصيادين الشراكسة، مع كلابهم، بمطاردة الترغل في مرعاه وفي المبات، ثم يتحولون إلى السمان، وهي من الطيور المهاجرة، فإذا واصلت هذه رحلتها إلى أماكن أكثر دفئاً، التفتوا إلى الحجل والأرانب. كان هؤلاء الصيادون يشاهدون عائدين عند الغروب أو بعده بقليل، وقد علقوا الطرائد على جنوبهم.

حتى الصيادون غير المحترفين، كانوا لا يترددون أيام العطل في تجريب حظوظهم، إذ يستعدون لمثل هذه الرحلة، ويهيئون لها الكثير، وكان على رأس هؤلاء الهواة عزمي المفتي، غاندي. فقد صادف مرات عديدة أن تبدأ الرحلة عند الفجر وتستمر طوال اليوم، وتكون الحصيلة، مع ذلك متواضعة!

بنادق الصيد تتفاوت كثيراً تبعاً للعمر والامكانيات، إذ مقابل "الجفوت" المزخرفة غالية الثمن، كانت هناك البنادق القديمة، بعين واحدة، وكانت هناك أيضاً "جفوت الدك" وحصيلة الصيد تتوقف على الصياد أكثر مما تتوقف على البندقية!

ولأن معظم أولاد عمان فقراء، ولا يتطلعون إلى امتلاك حتى جفت دك، فإنهم كانوا يكتفون بالأفخاخ والمغيطات... ثم يلتفتون إلى العاب وهوايات أخرى!

في النصف الثاني من عقد الأربعينات كثرت الدراجات الهوائية، وكانت هناك محلات لتأجيرها، وغالباً ماتؤجر بالساعة وأجزائها، ولقد شغلت هذه الدراجات الكثيرين، وكانت إلى جانبها الزحافات، وهي عبارة عن قطعة مستطيلة من الخشب مثبتة على عجلات، وكانت تستعمل في بداية الأمر، كعربات لجلب الماء من العين، أو

لحمل بعض الأثقال، إذ توضع عليها تنكات الماء أو أشياء أخرى، وتجر، لكن ما لبثت أن أصبحت لعبة للأطفال، حيث يركبها واحد ويجرها أو يدفعها آخر، وفي المنحدرات تندفع وحدها، ولذلك تصبح خطرة، نتيجة التسارع، لمن لا يحسن التحكم بها.

ولأن القوة، وأحد مظاهرها العضلات، تعني الكثير، فإن رفع الأثقال والمكاسرة وبعض الأحيان الملاكمة، من جملة الأمور التي تشغل الصبية، خاصة وأن المشريش افتتح، في تلك الفترة، نادياً لكمال الأجسام، بالقرب من جسر المهاجرين، وكجزء من الاعلان والدعاية للنادي، تعمد المشريش نفسه أن يقوم بأكثر من جولة يومياً في شوارع عمان، كان يفعل ذلك وهو يختال بجسده الرياضي، الأقرب إلى الاسطورة، مما يثير الإعجاب والدهشة.. وبعض النفور، خاصة وأن الملابس التي يرتديها من شأنها أن تظهر العضلات، وقوة الرقبة، ومما يزيد في إبرازها طريقته في المشي!

ثم هناك الألعاب التي يتم اختراعها في التو واللحظة، كسباقات الركض والخشبة الطائرة، إلى القفز العالي والعريض، وغير هذه من الألعاب، والتي تنفتق عنها عقول الصغار.

مع تقدم الخريف تقصر النهارات ويبرد الجو، كما أن الواجبات الدراسية تتزايد، ويصبح امتحان نصف السنة على الأبواب، ولذلك تتغير وتيرة الحياة، إذ يقل اللعب، ويضطر التلاميذ للعودة إلى البيوت مبكرين.

تقول الجدة حين تراهم خائفين لقرب الامتحانات، وهم يحاولون استدراك ما فاتهم:

— جاك الموت يا تارك الصلاة...

تتطلع إليهم بحنان وتتابع:

— لاحقين على اللعب، عندكم الصيف كله؛ لكن خلوا ببالكم: ما يعرف يلعب زين إلا الناجح. أما ذاك اللي عنده اكمال يصير مثل معايد القريتين، لا يعرف يقرأ ولا يعرف يلعب...

تستريح قليلاً، وتفرح لأنهم مستمرين بالدراسة، تقول، وهي لاتخفي هذا الفرح:

— عفية ولدي، اقروا زين، لأن هذي الدنيا غدارة وما يقدر عليها إلا اللي يتعلم ويحصل شهادة!

غابة كثيفة من أشجار الحور والصفصاف والكيثا، وغير بعيد عنها أشجار الصنوبر، تطوقها كلها أسلاك شائكة، ووسط هذه الأسلاك بوابة حديدية، كانت خضراء في فترة سابقة، تظل مغلقة طوال أيام الأسبوع، عدا نهار الجمعة. ما إن يدور المفتاح في هذه البوابة حتى ترتج وهي تستدير لتتفتح ببطء. إذا فتحت، وتنحى الحارس جانباً وأذن للناس بالدخول، تهب الرطوبة ورائحة المياه، ومع كل خطوة إلى الأمام تزداد الرطوبة ويضج صوت الماء، حتى إذا تم قطع مائة خطوة نصبح في حرم المياه المقدسة!

ليس هناك أروع ولا أخطر من منظر هذه المياه، خاصة لمن يراها لأول مرة. إنها تتدفق بغزارة، وكأن أحداً يدفعها، بل أكثر من ذلك: تضحك وهي تدفع، وتضحك بطريقة أقرب إلى العريضة، فها قد بدأت رحلتها البراقة الحافلة في هذه الحياة، بعد أن طال سجنها وانتظارها في باطن الأرض.

فإذا كانت المياه هي أصل الحياة، وعلى ضفاف الأنهار والبحيرات قامت المدن، فإن مدينة «الحب الأخوي»، كما سميت عمان قديماً، أو فيلادلفيا كما شاع اسمها، لم تخرج عن هذه القاعدة. أكثر من ذلك أطلق عليها اسم مدينة المياه حين انشئت في العصور السحيقة، وكانت المياه أيضاً أحد أهم الأسباب لإعادة تأسيسها في العصر الحديث.

من "رأس العين" تبدأ الخطوات الأولى للرحلة. فالنبع الغزير الصخاب، بعد أن يعطي عمان ماتحتاجه من المياه - تدفع إلى الحاووز الكبير في أعلى الجبل - يصب في بركة كبيرة، وهذه البركة العميقة الرجراجة تمد لساناً ليلبث أن يصبح مجرى للنهر الذي يبدأ من هنا، ليقطع الوادي كله بين التلال والجبال، مستقبلاً في رحلته كماً متزايداً من المياه التي ترفده من الينابيع الكثيرة على جانبيه، ويواصل

النهر رحلته إلى أن يلتقي بنهر الزرقاء، حين يتحد الاثنان يتابعان رحلتهما الرائعة ليصبا في نهر الأردن.

يبدأ النهر رحلته إذن من رأس العين، ويسير من الغرب إلى الشرق، مستقيماً في معظم المسار، إلا عندما يضيق الوادي، أو تتصخر الأرض، فيضطر عندئذٍ لأن ينعطف قليلاً، مشكلاً حوامات هنا وهناك.

على ضفتي النهر، وبعد سوق الحلال الكبير مباشرة، تبدأ البساتين. بين البساتين، وعلى مسافات متباعدة، نسبياً، تقوم البيوت، وكان سكانها، في الغالب، من الشركس فإذا تابع النهر سيره، ووصل إلى قرب طلعة المصدر، وهناك كانت تقوم الطواحين على الضفتين، ثم انشئ جسر المهاجرين، يصبح السكان مزيجاً من الشركس والعرب، من المسلمين والمسيحيين، كما يلتقي هناك الشارع الهابط من الجنوب، من مصدار عيشة، بشارع المهاجرين، ومن هذا الموقع يبدأ السوق التجاري، الذي يسير ويمتد بموازة النهر، على ضفته اليسرى.

تستمر البساتين على الضفتين بجانب النهر مباشرة، لكن تصبح صغيرة، أقرب إلى الحواكير المحيطة بالبيوت. فإذا انعطف النهر قليلاً قليلاً في مساره، وأخذ يقترب من بستان ودار جواد بك فيشكل في ذلك المكان نصف دائرة، كما يغدو واسعاً وعميقاً، ليصبح أول مسبح لأطفال عمان. علاوة على أن هذا الموقع من أكثر المواقع التي يحتمل وجود السمك فيها.

يوصل النهر رحلته بعد ذلك ليمر تحت جسر الحمام، ونظراً لطبيعة الأرض والكثافة السكانية والأبنية لا يكاد يُرى، كما كان الحال في مشواره من النبع حتى هذا الجسر. فإذا تجاوز سوق السكر بخطوات، وقبل أن يصل إلى سوق الخضار بخطوات، يتفجر نبع من الضفة اليسرى. كان هذا النبع غزيراً بارداً، ومنه كان يستقي السوق كله، ومنه كان السقاؤون، بالقرب، يحملون كميات كبيرة إلى أمكنة بعيدة أيضاً.

بين سوق الخضار والجسر العسبلي كان يقوم جسر صغير آخر، وكان بعض الأطفال "يشكون" من أعلى هذا الجسر إلى المياه العميقة، لذلك يعتبر هذا المكان المسيح الثاني لأطفال عمان. وحين يوالي النهر سيره يصل إلى الجسر العسبلي، مقابل المدرج الروماني، وكان هذا أقدم الجسور وأهمها. ولما كانت المدرسة العسبلية وفندق فيلادلفيا يشغلان الضفة اليمنى، فإن الضفة الأخرى، والتي تصبح

عميقة من حيث كثافة المياه، ومنخفضة بالمقارنة مع مستوى الشارع فوقها، فإنها تغري حتى الكبار بالسباحة، وهكذا يكون في عمان ثلاثة مسابح!

بعد الجسر مباشرة تكثر من جديد الخضرة والبساتين على الضفة اليمنى من النهر، إلى أن يصل إلى المسلخ ثم جسر المحطة، وهناك يفتح الوادي، وتتسع الضفتان، لتبدأ البساتين بكثافة أكثر مما كانت وسط المدينة أو في طرفها الغربي.

وإذا كانت عمان - المدينة قد بدأت من جسر المهاجرين غرباً، فتكاد تنتهي تقريباً عند الجسر العسلي، عدا بعض البيوت المتباعدة، شرقاً. ولما كان الطابع الشرقي قد ميز غرب المدينة، تحديداً بالقرب من النهر، فإن الطابع ذاته، وإن يكن بنسبة أقل، يميز شرقها، خاصة الشابسوغ. أما في الوسط، في السوق التجاري وماحوله، فإن الطابع العربي، المتعدد والمتنوع، هو الغالب، وربما الوحيد.

يتابع النهر رحلته، وحين يتجاوز المحطة، يتعمق مجراه، ويبتعد عن الطريق، حتى إذا وصل إلى مكان قريب من الرصيفة، ينبثق نبع رائع أخاذ، ينبثق نبع عين غزال، ليصب في النهر.

في ذلك الصباح البارد من أيام الربيع، وكان الضباب لا يزال مخيماً على الوادي، سأل أحد التلاميذ الأستاذ يوسف الجيوسي، وكان يرتدي ملابس الكشف، وقد سيطرت الدهشة على الجميع بعد أن رأوا النبع الغزير، سأل التلميذ: لماذا سُمي النبع بهذا الاسم؟

فوجيء المدير بالسؤال، أو لم يكن واثقاً من الإجابة، قال:

- ربما جاءت التسمية بسبب أن الغزلان كانت ترد هذا النبع وتشرب منه...

وبعد قليل، وبدا كأنه غير راضٍ عن هذه الإجابة:

- وربما لأنه صاف كعين الغزال!

قال الأستاذ داود ضاحكاً:

- ربما لأنه واسع وكبير كعين الغزال!

نبع عين غزال، بذلك التدفق الغزير، بالصفاء، وأيضاً بالسحر الذي يتركه في قلب كل من يراه، خاصة في مثل ذلك الصباح الربيعي البارد، يجعل الإنسان على يقين: إن هنا بدأت الحياة، ومن هذا المكان كانت خطوات الإنسان الأولى، وفي هذا الموقع تم اكتشاف أول الأصوات العذبة والأشكال الرائعة والألوان التي تتغير كل

لحظة، ما امتدت الشمس، حين يتراجع الضباب، ولما تتداخل الخضرة مع انعكاسات
بريق الجبال المحيطة.

قد لا يكون هذا المكان الأجمل في الكون، والنبع قد يكون أصغر من ينابيع
كثيرة في هذا العالم - وهو بالفعل هكذا - لكن أياً من تلاميذ العبدلية لن يرى أكثر
منه رسوخاً في الذاكرة، وربما لن يشرب أعذب من مائه، وقد لا يكتشف أكثر جمالاً
ورغبة منه.

تصبح الأشجار في الرصيفة وحتى الزرقاء أكثر كثافة وأكثر جمالاً، وتصبح
أشجار الفاكهة أكثر من الأشجار الأخرى. كما يغدو الطريق، بالباص أو بالقطار،
أليفاً ناعماً، حتى إذا بدت الزرقاء من بعيد، فإن أبرز ما يبرى منها: الخضرة التي
تتعطف ويصبح لها مسار جديد مختلف، حين يلتقي النهران، وقد جاء كل واحد من
اتجاه؛ ويرى أيضاً قصر شبيب، القابع على رأس التل والمكتفي بعزلة أرادها أو
فرضت عليه، بعد أن زال مجده، ولم يعد سوى ذكرى من ذكريات الماضي.

مشوار نهر عمان، بين المنبع والمصب، قصير، لكن الأنهار ليست دائماً
باطوالها. كما أن الأنهار كالبشر، ليست لها طبيعة ثابتة أو سوية واحدة. وإذا كانت
لهذا النهر ملامح متشابهة أو متقاربة في ثلاثة فصول: الربيع والصيف
والخريف، فإنه في الشتاء نهر آخر.

فبعد أن يعود التلاميذ إلى مدارسهم في أول تشرين الأول، يصبح انتظار
المطر طقساً يومياً لجميع الناس. فإذا ازدادت برودة الجو وتأخر المطر، وظلت الكرة
تنطير في العصاري، تقذفها الأرجل من ناحية إلى أخرى، فإن الكبار الذين يكونون
قد انتهوا من دحل الأسطحة وترميم البيوت، واشتروا حملاً أو اثنين من
الحطب، يصبحون أقل تسامحاً إذا اصطدمت بهم الكرة وهم يمرون في الشارع، لأن
الهموم التي تشغل هؤلاء الكبار تختلف كثيراً عن الهموم التي تشغل
الصغار، خاصة في مثل هذه الفترة العصبية. فالحرب التي كانت بعيدة، وكانت
تقتصر على الأخبار التي تذاغ من لندن وبرلين، أخذت تقترب، إن لم يكن من خلال
دوي المدافع، فمن خلال ارتفاع الأسعار، وشحة المواد، وأيضاً من خوف غامض
يحسه الناس وإن ظلوا حريصين على نسيانه وعدم التطرق إليه: انحباس المطر.

كان الكبار لا يكفون عن مراقبة السماء، وكانوا يتشممون الهواء، لعل السماء
تجود عليهم بالغيوم، أو لعل الريح تحمل إليهم رائحة المطر. كانوا يفعلون ذلك
بصمت، لكن بحزن، ولا يتعبون من الانتظار.

فإذا طالت مدة الانتظار، وتوالت الأيام، ومع زيادة البرد، لكن دون مطر، فعندئذٍ يصبح النزق سمة تميز سلوك الكبار وكلامهم.

كانوا يتحدثون فيما بينهم، ولكن الصغار يسمعون، وهم يرقبون الغيوم الهشة تعبر السماء، وحين تهب رياح تحمل الغبار أكثر مما تحمل رائحة الرطوبة أو علامات المطر، يُسمع من يقول:

– الشتاء بأوله يا جماعة الخير...

كان الذي يتحدث يستريح قليلاً ثم يضيف بمرح:

– لست، بعد، عندنا الكوائين.

وحين لا يجد قبولاً أو موافقة من الذين ينصتون، يتابع:

– هذي الأيام ماهي قياس، لأنه مثل ما قالوا: بين تشرين وتشرين صيف ثاني!

حين تنقضي التشارين ولا يأتي المطر، يصبح الأمر خطيراً.

فالشركس الذين تعودوا على طقس آخر، والذين يعتمدون على الزراعة بشكل كامل، يصبحون أكثر تحسباً، وربما أكثر خوفاً، لذلك يستخرجون من الذاكرة الجمعية، من الموروثات البعيدة، كل ما اختزنوه فيها من طاقة لمواجهة الخطر الآتي. وإذا كان الكبار، بمكابرة قاسية، يحاولون الحفاظ على الكبرياء والتماسك، فإن الصغار، وهم يُدفعون لتوسل السماء، أكثر قدرة على التعبير.

كان أطفال الشركس يصنعون دمية كبيرة من العيدان والقصب، يلفون عليها أردية، ثم يدورون على البيوت، ويسيروا في الشوارع وهم يرددون:

حنسه كواشه زدوشنه يا الله

وشك قيشك تيشكج

وكان الأطفال العرب، تقليداً أو غير، وربما نتيجة تراث قديم أيضاً، يدورون في الشوارع وهم يرددون:

ياربنا ياربنا ياربنا اغث زرعنا

إذا كان الكبار اذنبوا فنحن الصغار ماذنبنا

أما الكبار فكانوا، بعد صلاة الجمعة، يصعدون إلى الجبال، وهناك يجري دعاء ثم صلاة الاستسقاء. يرفع الرجال، خاصة المسنين، أيديهم إلى السماء بضراعة حزينة أقرب للاستغاثة، بعد أن ينزعوا العقل عن رؤوسهم، ويبدأون بدعاء فيه بعض العتاب، ولا يخلو من استغفار كثير، طالبين من الله أن يبعث المطر.

لقد جرى مثل هذا الدعاء مرتين أو أكثر خلال فترة الأربعينات، كانت تخرج الجموع إلى جبل عمان، إلى جبل القلعة، وقيل إن الكثيرين خرجوا إلى أعلى قمة في جبل الأشرفية، وهناك ترتفع الأدعية، الأقرب إلى الصرخات، طالبة من الله أن يعفو وأن يصفح وأن يبعث المطر.

كان الله يستجيب بعض الأحيان، وكان لا يستجيب في أحيان أخرى، لكن الناس لا يكفون عن الانتظار والتضرع.

خلال فترة الانتظار، وحين يذهب الرجال إلى تأمين الرزق، وكانوا يحصلون عليه بمشقة بالغة، كانت النسوة تجبر الأولاد على عمل شيء نافع، لكي يشعروا بالهم الآتي، وليشعروا الآباء أنهم يشاركون في العمل. كان أكثر ما يُرشحون له تكسير الحطب. يندفع الأولاد، أول الأمر، بحماس للقيام بهذا العمل، لتجريب عضلاتهم، ليثبتوا أنهم أصبحوا قادرين ومفيعين، لكن ما إن تمر بضع ساعات حتى يكتشفوا أنهم أعجز أو أقل صبراً لمواصلته، ولذلك يلجأون إلى الأغصان الطويلة الرفيعة يكسرونها. حين ترى الجدة أنهم نحو الحطببات الكبيرة، وأخذوا يتعاملون مع الأعواد، ويبالغون في تكسيرها، تتطلع إليهم، تهز رأسها عدة مرات، تقول وهي تبسم:

- يا بابا... ولدي.. نريد ندفي عظامنا، ما نريد نكش سنونا!

وحين يتطلعون إليها تتابع وهي تهز رأسها، وربما تتذكر:

- برد عمان يقرم، وينراد له حطب جهنم!

تتغير لهجتها تصبح أقرب إلى الأمر:

- ولدي.. استنقوا الحطب الكبير، الحطب، اللي إذا اعتلق يساهر النجم...

وحين تبدو كلماتها غير مقنعة تضيف وهي تبسم:

- وين اكو نجوم بذيك الجلهيمة السودا...

تضحك بصوت متقطع وهي تتابع:

– هاي عمانكم ينراد لها صبر أيوب وحطب ماينذوب!

العادة أن تنكسر حدة الحرارة ويتغير الجو في الأيام الأخيرة من آب، حسب التقويم الغريغوري، وهو ذات التقويم الذي يعتمد الفلاحون في البذار والسقاية والحصاد. ومن الأقوال التي يرددونها المستون: "في الأيام الأخيرة من آب ينفث على الشتاء باب"، لكن هذه البرودة غالباً لاتأتي، أو لاتؤدي إلى سقوط الأمطار، إلا فيما ندر. ومع ذلك يظل المتفائلون يرددون: "أيلول ذنبه مبلول"!

والعادة أيضاً أن الأمطار إذا جاءت تجيء هينة متباعدة، قد تمطر في الليل لكن تصحو في اليوم التالي. أما أن تأتي كثيفة متتابعة، في الليل وفي النهار، وأن تستمر كذلك لأيام متواصلة، فإن عمان لم تألف هذا النوع من المطر، وإذا جاء لاتنظر إليه نظرة حسنة أو على أنه علامة من علامات الخير. وهذا ما حصل في سنة ١٩٤٣.

كل من نظر من جبل عمان إلى مجرى النهر في ذلك الصباح لم يصدق عينيه، ولم يكن من السهل أن يقنع نفسه. فالنهر الوديع، الأقرب إلى الخجل، والذي تعود أن يسير متمهلاً، كأن ليس له موعد مع أحد، بذلك اللون الذي يترواح بين الخضرة والزرق، حسب ساعات النهار، تحول فجأة إلى شيء آخر: ازداد عرضه مرات عديدة، وغادر سريده ليغطي على البساتين حوله من الناحيتين. أما لونه فقد أصبح طينياً أقرب إلى الحمرة، كما تضاعفت سرعة جريانه، فبدا كأنه يهرول ويريد أن يصل بسرعة!

هل هو نفس النهر؟ وهل يمكن أن يتغير بهذه السرعة؟

قال الكثيرون: إنه الخير، ونظروا إلى السماء بفرح. ومازح الكبار الصغار، ثم مضوا!

وإذا كانت الأسئلة بالنسبة للصغار، أغلب الأحيان، حسية، تتعلق بما حولهم من أشياء وحالات، فإن سؤال النهر كان أكبر الأسئلة وأخطرها.

قالت الجدة، حين سئلت كيف أصبح النهر هكذا:

– زودة.. وهاي مو شي.. لاتخافوا...

ابتسمت وهي تنظر إلى النهر وإلى الوجوه أمامها وتابعت:

– باجر أو اللي عقبه تشوفون دجلة وتقولون اللهم صل على محمد...

وبعد قليل كأنها تستدرك:

- هالكبر بالصيف، أما إذا فاض يغرق بغداد، وأنتم عندكم جبال تحميكم، أما بغداد فما لها إلا الله يحميها!

وظل السؤال الوحيد في المدرسة طوال ذلك اليوم سؤال النهر. كيف كان من قبل. وكيف أصبح في هذا اليوم عندما رآوه في الصباح، وكيف سيكون حين ينصرفون.

استمر المطر، واستمر الفرح. وحين نظر الصغار إلى النهر من جديد كان لا يزال يهرول وقد حمل معه أخشاباً وجذوع أشجار، وكانت هذه علامات تحدد سرعته.

وحين سأل الصغار الكبار، وكان في الصوت شيء من نزق:
- قولوا خير.

واستمر المطر ما تبقى من اليوم وطوال الليل.

في الصباح الباكر تفقد الرجال الأسطحة وجنابات البيوت، وأمعنوا النظر في السماء، وتشمموها رائحة الهواء، ثم مضوا.

وفي الصباح نظر الصغار إلى النهر، الذي ازداد عرضه عن اليوم السابق، وازدادت حمرة مياهه، وقبل أن يسألوا قالت الجدة:

- زودة ماتخوف، وإذا صحت مثل ما جت تروح!

في الليل، ومع استمرار المطر، تبادلت العيون النظرات، وكانت لاتخلو من قلق. قالت الجدة، وقد ظنت أن الصغار ناموا:

- لازم نحضر مواعين خاف السقف يخر.

لما استمر المطر لليوم الثالث قال الكبار لبعضهم، وبهمس:
- حدث.

كلمة جديدة لم يسمعها الصغار من قبل، ولا يعرفون لها معنى واضحاً أو محدداً، وحين أرادوا أن يفاجئوا زملاءهم في المدرسة بهذه الكلمة الجديدة، اكتشفوا أنهم قد سمعوا بها مثلهم، لكن اختلفوا حول معناها!

وفي اليوم الثالث تخلف عدد من التلاميذ، خاصة أولئك الذين يسكنون حول السوق، وأولئك الذين يسكنون في الضفة الأخرى من المدينة.

قال المدير الذي مرَّ على الصفوف، وكان واضح القلق:

- راح نعطل غداً إذا استمر المطر... ولكي يكون واضحاً أضاف بلهجة جديدة:

- المطر عطل الكثيرين عن المجيء، ويمكن "يقطع" غيرهم، فظلوا في البيوت إلى أن يتحسن الطقس..

شاب الفرح بالعطلة نوع من الخوف، خاصة حين طُلب من التلاميذ أن يغادروا المدرسة قبل نهاية الدوام. قال الأستاذ مولود محذراً:

- انتبهوا في العودة: ابتعدوا عن السيول وعن السلاسل، وامشوا جماعة، حتى إذا صار شيء يمكن أن تساعدوا بعضكم.

دفع حب الاستطلاع الذين شاهدوا النهر من جبل عمان فقط أن يروه من أماكن أخرى! ورغم أن الجميع يعرفون أن في عمان نهراً واحداً، فقد شهد الذين أخذوا طريق السوق شيئاً عجيباً: كانت هناك أنهار عديدة، أو بالتحديد كان يجري نهر في كل منحدر. فالطريق النازل من جبل عمان، والذي عُبد في وقت مبكر، وكانت مياه الشتاء تطفو على وجهه كلوح من البلور، إذ تُحسَّ ولا ترى، أصبح مجنوناً وهو يستقبل مياه الجبل، ثم المياه الساقطة نحوه من نزلة الجقة، ثم من درج القيادة. أما حين يلتقي مع المياه المتدفقة من جهة وادي السير فيصبح نهراً حقيقياً يملأ الشارع كله. كانت المياه عكرة سريعة، وبعد أن تقطع المسافة لتصل إلى التقاطع مع طريق السلط، ويكون قد جاء من هناك نهر آخر، ربما أكبر من هذا النهر، فعندئذ لا يمكن الاستمرار في السير أو الخوض في المياه، فإذا تم الوصول إلى مكتبة الصفدي، مقابل البريد، فلا بد من اختيار أحد طريقين: إما تسلق الدرج، رغم المياه المتدفقة، أو المجازفة قليلاً والوصول إلى طلعة العموري، والاتجاه نحو الجبل.

حين وصل التلاميذ، بعد مشقة كبيرة، إلى جبل عمان، واجهوا أنهاراً أخرى: النهر النازل من جهة مدرسة المطران، إذ رغم الخندق إلى جانب الشارع، والذي يفترض أن يستوعب مياه الأمطار، فقد تجاوزت هذه المياه الخندق، وطلغت على الشارع كله، بحيث جعلها الانحدار تتدفق بقوة تعيق إمكانية الاختراق، خاصة عندما يلتف الشارع، بعد أن خُلف بيت سعيد المفتي وراءه، ووصل إلى بيت شعبان، الذي كان في مواجهة المياه، رغم الاحتياطات الكثيرة التي هيئت سلفاً. أما إذا التفت النهر، مرة أخرى، ليصل إلى الزاوية التي على طرفها بيت صبري الطباع، ويلتقي هناك بالمياه الآتية من شارع خرفان، ومن درج أبو جابر، ثم لتجري

كلها، وتنحدر كلها، إلى نزلة الحمام، فعندئذ يصبح الشعور بالخوف قوياً طاعياً، ويصبح الوصول إلى البيت أمنية أقوى من أية رغبة للاكتشاف أو معرفة مسارات الأنهار الأخرى التي تتدفق من كل مكان!

قالت الجدة التي رأت البلبل ورأت الأحذية التي تلفت:

ـ عبالك بزازين دربونة، شلون تنقعتوا هالشكل... وقفتم تحت المزريب؟

وبدا: الجلوس إلى جانب النار، تغيير الملابس، تنشيف الشعر، إيقاف الأحذية بشكل عمودي إلى جانب الحائط، وغير بعيد عن النار، وأخيراً شوربة العدس تقدم للمكتشفين الضالين الذين لم يتوصلوا إلا إلى اتلاف ملابسهم وأحذيتهم، وأصبحوا معرضين، بنفس الوقت، للمرض، نتيجة الرطوبة التي انغrust في العظام.

الكبار عادوا مبكرين في هذا اليوم، لأن لديهم ما يفعلونه في البيوت أكثر وأهم مما يفعلونه في أماكن أخرى. فالدلف الذي بدأ في الليلة الفائتة، وكانت مواعين الجدة كافية للتعامل معه، أصبح يتطلب في المرحلة الجديدة إجراءات جديدة لمواجهة، ولمواجهة احتمالاته المتزايدة والخطرة، وهذا يقتضي نقل جزء من الأثاث، وترتيب مكان ملائم للنوم أقل خطورة، ومعالجة المزاريب والأسطح والميول لعل الماء لا يتوقف ولا يهدد.

في مثل هذه الحالة يعمل الكبار بصمت، أو بأقل قدر من الكلمات، وحين يضطرون للكلام فإنهم يصدرون الأوامر، يصرخون، يحاولون أن يعطوا المثل أكثر مما يريدون أن يعلموا. والصغار الذين يحاولون أن يكونوا مفيدين لا يعرفون هذه اللغة الجديدة، ولا يعرفون كيف يتصرفون. أما الجدة التي تراقب، وتقترح بعض الأحيان، أكثر مما تستطيع أن تفعل أو أن تشارك، فتكون مهمتها حماية الصغار، تجنبهم المهام الصعبة أو الثقيلة، حتى إذا أخذت الأمور صيغة قد تكون مقبولة، ولا يمكن أن يقال مرضية، وبعد أن يتم تناول العشاء في وقت مبكر، وغالباً في جو من الصمت والحذر، كانت الجدة تبتعد قليلاً، صاحبة معها الصغار، لتبدأ بعد ذلك أحاديثها، وعادة تكون هذه الأحاديث لها علاقة بما يجري لتعزيز القدرة والثقة بالنفس، وفي محاولة لتبديد الخوف... أو لترسيخه!

روت الجدة تلك الليلة:

«يقولون، والعهدّة على من قال، ولكن أريدكم بمفتاح الكلام تقولون ألف صلاة على النبي المصطفى المختار، محمد...»

تتوقف، تمهل الصغار أن يرددوا ما طلبت منهم، ثم تتابع:

«يقولون.. قبل ما يصير الطوفان، قال ربنا سبحانه وتعالى لنوح: ابن سفينة يا نوح، ابنيتها زين وبالعجل. رد نوح: ياربي أنا قاعد هنا ومسرتاح، قعدتي زينة بالفى والمي، وين تريد تهجولني. وين تريد مني اروح؟ قال له ربنا: أقول لك ابن سفينة يا نوح ولا تخالف أمري، أسمعت؟ رد نوح وقال: أمرك ياربي. قال له الله: اترك كل شيء وانج بروحك، خلص حياتك، لأن قومك فسدوا وأنا غضبت عليهم، واحمل في السفينة بذرة كل حياة. قال نوح: امرك ياربي. قال له سبحانه وتعالى: لازم تكون السفينة قوية ولازم يكون طولها مثل عرضها، وقال له: قيرها زين يا نوح، تسمعني؟ رد عليه نوح: راح اسوي مثل ما أمرتني ياربي، بس شاقول لأهل المدينة، للناس، لجماعتي؟ قال له الله: قلمهم ما قدر أعيش في مدينتكم بعد اليوم لأنكم كفرتم وصرتم موحوش أوام.

» عمل نوح مثل ما قال له ربه. جهز السفينة، وقيرها زين، وحط فيها المرادي والمونة، وقبل ما يركب ويشيل قال لروحه: لازم نودع الجماعة. ذبح وعزم الناس، عزمهم كلهم، وبعد ما أكلوا وشبعوا، ومسحوا السمن بلحاهم، وحانت الساعة، قال نوح لجماعته، أنا مفارقكم يا جماعة، مسلم عليكم وفي أمان الله.

» ركب نوح بالسفينة وشال وياه أهله وقرباته والمخلوقات التي وصاه الله بيها، وركب اللي عاونوه. ولما جاء الليل قفل السفينة ونام.

«بالليل أرسل سبحانه وتعالى الرياح، شلون رياح، تشلح النخل وتهز الجبل، وبعد الرياح جت البروق والرعود، طول الليل هالشكل، وفي اليوم التالي صارت الدنيا ظلمة، صارت سودا والريح تزمز والبرق يملأ الدنيا كلها. وبعد ما جاء المطر. كانت الدنيا سودا مثل الليل، أكثر من الليل، وصار الواحد ما يقدر يشوف أخوه، ما يقدر يشوف أصبعه، وانفتحت أبواب السماء، أي نعم، انفتحت أبواب السماء، وهات يامطر، وهات ياروج. وشلون مطر؟ مثل القرب مثل المزاريب، وصارت المي تنزل من السماء وتنبع من القاع، حتى من التنور نبعت المي، والريح تدفع المي، والمي تروج وتموج، والناس تبكي، تلطم، تصيح، وصارت المي ترتفع وترتفع، غطت القاع كلها، ووصلت للأشجار، غطت البيوت، وغرقت الزروع والضروع، وغرقت الناس، حتى الناس غرقوا، ماتوا. حتى الملائكة بالسماء وهم يشوفون هذي الشوفة انكسرت قلوبهم، صاروا يبكون ويلطمون ويقولون انهجمت الدنيا، صارت طين، رجعت من جديد كلها طين».

تستريح الجدة قليلاً، تتطلع إلى العيون التي تتابعها، تأخذ نفساً عميقاً ثم تتابع:

« ويقولون إن الله سبحانه وتعال بكى بعد ما شاف شنو اللي صار بالدنيا، وسأل روحه: يستاهلون أو ما يستاهلون؟

« ظل الطوفان، مثل ما يقولون ستة أيام وست ليالي، والزوابع والأمطار تنزل من السماء وتنبع من القاع، ويقولون ظلت الزوابع والأمطار أربعين يوماً.

« في اليوم السابع، أو في اليوم الواحد والأربعين، ما يندري، خفت الزوابع وخفت الأمطار. باوع سيدنا نوح من الشباك شاف الشمس. سجد وقال: كفى ياربي. قال هذه الكلمات وهو يرجف، وبعدها صار يبكي ونزلت دموعه على وجهه ولحيته. لما سبحانه وتعالى شاف نوح مقهور، ودموعه تنزل على لحيته وصدره، قال: ما يخالف، وهذا يكفي» تهز الجدة رأسها عدة مرات، وكان الحزن قد بلغ منها مبلغاً قوياً، فتتابع بنبرة جديدة:

« لما قال سبحانه وتعالى: يا زبي، كافي، كل شيء توقف بقدرة رب العالمين: الريح والرعد والمطر، حتى سفينة نوح وقفت. وقفت براس الجبل. وظل نوح، عليه السلام، محصور بالسفينة ما يدري شنو يسوي وشنو المطلوب. يوم، اثنين، ثلاثة.. لاصوت ولا خبر، والمائات داير منداره. قال نوح لروح: شلون بلوى هذي، شلون طرقة، لا ظلت مع جماعتي على القاع ولا وصلت لعند ربي في السماء. حار، خاف. حتى السفينة صارت مثل الصخرة لا تتحرك لا لقدام ولا لورا.

«في الليل، في المنام، جاء طيف لنوح وقال له فد شيء. وثاني يوم، وكان اليوم السابع، ويقولون اليوم الواحد والأربعين، طلع نوح حمامة من السفينة وطيرها. قال لها: روحي، يا بنت الحلال، شوفي اكو بني آدمين هنا.. هنا. اكو شجرة أو عرق أخضر. طارت الحمامة، غابت مشوار ورجعت. قالت: كل شيء ماكو.

«ثاني يوم طير سيدنا نوح خطاف. قال له: انت طير الربيع والبشائر، روح، يرحم والديك، شوف اكو حوالينا انس أو جان. طار الخطاف، غاب مشوار ورجع. قال لنوح: سيدي، تعيش، مالميت شيء.

«اليوم اللي عقبه طير نوح غراب. قال له: انت، يا غراب البين، روح وشوف، والخبر اللي تجيبه موافقين عليه. طار الغراب وغاب. ونوح وجماعته ينتظرون. هساً يجي، بعد شوي يجي، لكن ابد، ملح وذاب ابن الحرام، مارجع ولا رد خبر. هز نوح، عليه الف صلاة وسلام، رأسه وقال لروح: هالالين

الحرام، الغراب، وأنا أعرفه زين، لو لم يلق شي كان رجع، وكان نعيبه ملا الدنيا، لكنه وكّر على فد شي. نزل على القاع ولازم نزل.

«لكن قبل ماينزل ويتورط نادى الحمامة، وقال لها: تعالي يابنت الحلال، أنت حنونة وما تكذبين، فاريد منك تروحين وتجييني بالخبر اليقين، مو مثل الغراب الملعون، راح وما رد، وما ندري شنو الصاير بالدنيا. أخذت الحمامة لسيدنا نوح تمني، وقالت: أمرك. طارت، غابت. ونبي الله نوح وجماعته ينتظرون. والله مامرت ساعة إلا والحمامة جاية ويحلقها غصن أخضر. حطت ورمت الغصن، وقالت لسيدنا نوح: هذا النيشان!

«فرح عليه ألف صلاة وسلام ونزل من السفينة، ونزل جماعته، وبقدرة قادر يبست القاع تحت رجليه. وبدأ هو وجماعته يزرعون ويفلحون، وعادت الحياة لهذه الدنيا، ونحن، يا أولاد، أولاد آدم ونوح. وبهذا الشكل خلص الطوفان وخلصت سالفته».

وحين تطلعت إليها العيون تطلب المزيد، قالت الجدة:

– قال نوح للناس: اذكروا هذي الأيام، وابد لاتنسوها» .

ولم ينسَ الناس، ليس لأنهم حفظوا دروس التاريخ فقط، وإنما لأنهم عاشوا تجارب مريرة، وعانوا من مصائب القحط، كما عانوا من مصائب الفيضان في سنين سابقة.

ليس ذلك فقط، فالأمطار لاتزال تنهمر بغزارة، والغيوم الثقيلة تملأ السماء. وإذا كان الرجال ظلوا متماسكين، أقرب إلى الصمت، فإن وجوه النساء أخذت تفضح مافي العقول والقلوب. كما أن الحركات الكثيرة القلقة، والغضب المفاجئ الذي ينصب على رؤوس الصغار حين يسألون، حين يضحكون، لم تترك فرصة للشك أن الأمر وصل إلى درجة الخطر.

في اليوم الخامس، عند الفجر، سمعت أصوات استغاثة. كانت أصوات مبهمة كأنها أصوات حيوانات جريحة، تشق الظلمة. والجدة التي كانت تحرص، في الأحوال العادية، على أن يبقى الصغار نائمين، هي التي أيقظتهم في هذا الفجر. قالت وهي تحاول مساعدتهم على ارتداء ملابسهم:

– ارادة الله ولا احد يقدر يرد ارادته.

وبعد قليل:

– الطف بعبادك يا أرحم الراحمين.

لأحد يعرف ماذا يجب أن يفعل، لكن الأصوات التي كانت بعيدة أول الأمر، أخذت تقترب، ومع اقترابها أصبحت أكثر وضوحاً وهي تطلب المساعدة، لأن بعض البيوت تهدم، وطفّت المياه على السوق التجاري، وبدأت تجرف معها أي شيء تصادفه. كان الطبل الذي تعود عليه الناس أيام رمضان، طبل الشيخ عمر، لا يتوقف عن الدق، كما ارتفعت الأصوات من المآذن، ولم تتأخر أجراس الكنائس، فقد سمعت في وقت مبكر ذلك الصباح.

وإذا كان الناس قد استيقظوا فزعين، وأحسوا بالخطر، إلا أنهم ظلوا حائرين، إلى أن جاءهم صوت أبو رحمة، منادي عمان الأعمى، يطلب المساعدة في أماكن محددة، خاصة في حي المهاجرين، وكان يشير إلى أسماء وحالات بعينها.

خلال فترة قصيرة، وعلى ضوء الفوانيس التي بدأت تخرج من هنا وهناك، وكانت لا تقوى على تبديد الظلمة الحالكة، كان الرجال والفتيان، وحتى الأطفال الذين شعروا أنهم أصبحوا كباراً، يخرجون للمساعدة. ومثلما يفعل الكثيرون في حالات المرض، إذ يهبون ويندفعون لتقديم شيء ما حتى ولو لم يطلب منهم، وبدون انتظار لشكر أو رد، فإنهم يفعلون الأمر ذاته في ساعات الخطر.

مشاهد لا يمكن أن تنسى، وتضحيات لا يقدم عليها إلا الشجعان. كان الناس يندفعون بقوة، دون تقدير للأخطار والجهد، من أجل إنقاذ الناس الذين تهدمت أجزاء من بيوتهم، إلى مساعدتهم، إلى نقلهم لأماكن أكثر أمناً. فإذا انتهوا من هذه المهمات المتعلقة بالبشر التفتوا لمساعدة أصحاب المتاجر باخراج بضائعهم، بوضع أكياس أمام المحلات، بانقاذ بعض الحاجات القيمة كالأموال أو الدفاتر.

كانت الساحة بدءاً من الجامع الحسيني الكبير وحتى مسافة أبعد من سوق الخضار، عبارة عن بحيرة، ولأن طاقة النهر على التصريف أصبحت محدودة وتراجع كل لحظة، فقد طفّت المياه على المتاجر وأغرقتها.

كانت المحاولات لا تتوقف من أجل إنقاذ ما يمكن إنقاذه، وكانت البضائع السليمة ونصف التالفة تنقل من المتاجر، إذ تحمل إلى بيوت أصحابها أو إلى بيوت الأقارب في الأماكن المرتفعة. أما تلك التي لم يعد يرجى منها أية فائدة فكانت تترك في أماكنها، أو تلقى بعصية وحزن في مجرى المياه المتدفقة، كان ذلك يجري وسط الصراخ وتدخلات الكثيرين، وقد تسببت بعض الحالات بخصومات كثيرة أو قليلة، في ذات الوقت أو في أوقات لاحقة.

أبو إبراهيم الصبيحي، الذي كان يحرص على تحديد كل شيء بوضوح:

الأجرة، وعدد الحملات، قبل أن يحرك حميره، وكان يفعل ذلك وهو يردد كلماته برخاوة، ويخطط على الأرض بعصاه، خاصة حين يبدو السعر الذي يطلبه كبيراً، كان يقول: «أوله شرط آخرته سلامة، ويعدّه كل شيء بأرضه: بضاعتكم عندكم، ودوابي بمربطها، إذا عجبكم أنا جاهز، وإذا ما عجبكم ما في أكثر من الحمير في البلد، فدوروا على غيري» ... أبو إبراهيم الذي كان يردد ذلك، كان أول الذين تقدموا للمساعدة، نقل أحمالاً كثيرة من السوق، وقيل أنه تردّد، وهناك من يؤكد أنه رفض تلقي أي مقابل على ما نقله.

وكان مثل الصبيحي كثيرون. فالطناير، والسيارات، وحتى الجمال، جيء بها من أماكن كثيرة لتشارك في نقل ما يمكن نقله، رغم أن الجمال تسببت بأخطاء كثيرة نتيجة خوفها من الماء، ونتيجة قسوة الذين يقودونها.

لم يبق أحد في اليوم الأول، ثم في الأيام التالية، إلا وقدم مساعدة من نوع ما. حتى أم علي الشرشوحة، لم تهدأ ولم تتوقف لحظة واحدة، وقيل أنها كانت تقوم بأعمال كثيرة وبصمت، ويؤكد الكثيرون أنها مرضت نتيجة البرد والارهاق ونتيجة عدم الكلام، واستمرت بعد ذلك، في دارها أربعين يوماً متواصلة، ولم يفتن للامر حتى الجيران، بل وقيل، نظراً لغيابها الطويل، إنها ماتت، لكن هذه الإشاعة لم تستمر طويلاً!

ومثلما كانت ترتفع الأدعية والتضرعات أيام الجفاف لكي يبعث الله المطر، أخذت ترتفع أدعية أكثر منها، وكان يشوبها الخوف والرجاء والحزن، أن يوقف الله هذا العذاب، أن ينجي عبيده من الأخطار التي أصبحت تطوقهم وتطبق عليهم من كل ناحية.

كانت الجدة تقف تحت المطر، وقد أزاحت عبايتها عن رأسها، رافعة يديها الاثنتين إلى السماء، وهي تقول:

- يارب، يا رحيم، يا قادر، يا كريم، يا غفور، يا مستجيب الدعاء، ارحمنا وخلصنا من هذا العذاب والبلاء...

تجر نفساً عميقاً وهي تثني رأسها إلى الخلف، وتترك قطرات المطر تبلبل وجهها وتتابع:

- أكو ظالم هوايه بهذي الدنيا ياربي، لكن شنو ذنب البري والفقير والصغير؟ وتفتن لنفسها، تحس أن مثل هذا الكلام لا يحق لها أن توجهه إلى الله، أو لا يحق لها أن تقول له الآن، يتغير صوتها فيصبح أقرب إلى التوسل:

- لك عليّ ياربي أن أصوم كل اثنين وخميس، ومن الحول للحول، ولك عليّ ما أقطع صلاة، بس ييزي مطر، كافي عذاب، بجاه الصغار والحلابات وكل من قال لا إله إلا الله.

وكما فعلت الجدة فعل الكثيرون مع نذور بالزكاة وحج بيت الله الحرام، إذا تلطف الله بعباده وأوقف المطر.

في وقت من الأوقات توقف المطر!

بدت عمان، بعد هذه الأيام، رخوة، مليئة بالندوب، أقرب إلى الهشاشة، حتى تكاد تشبه رغيفاً نقع في الماء، أو ثوباً غارقاً في الوحل. بيوت عديدة تهدمت، أسواق بكاملها غرقت، سلاسل أكثر البيوت انهارت أو تصدعت، والمياه تملأ كل مكان. حتى تجاوبف الصخور في الأمكنة العالية، والبعيدة عن المطر، امتلأت بالمياه. أما النهر الذي كان مجنوناً طوال الأيام الماضية فلم يتنازل عن جنونه بسهولة، إذ ظلت مياهه حمراء طينية، وظل مجراه عريضاً، خاصة وأن البساتين، على الضفتين، أصبحت جزءاً منه، بعد أن غرقت بالكامل.

خرجت الزفرات من أعماق الصدور حين ظهرت الشمس. أما حين أخذت الغيوم تتمزق وتتفرق، ويانت فجوات واسعة من السماء، فقد بدت الزرقة أكثر لمعاناً وأكثر تألقاً، مثلما يبدو الزجاج بعد أن يُنظف، أو مثلما تبدو الأشجار بعد أن يغسلها المطر.

صرخت الجدة بغضب، وهي تؤنب الصغار، وكانوا يحزنون على أشكال الغيوم، ما إذا كانت أغناماً أو ثيراناً تركض في السماء. قالت وهي تأمرهم بالسكوت:

- انشَبُوا، اكلوا هوا واسكتوا، خلونا بهمنا ودردنا...

ويعد قليل، وقد أصبح صوتها أقل حدة:

- كل اللي صار بينا من كفر الناس، من معاصيهم...

هزت رأسها عدة مرات وأضافت:

- رب العالمين ماعنده حجارة يضرب بيها الناس، لكن يعرف شلون يطلع حيفه.

في اليوم التالي، وحين تأكدت النسوة أن الشمس ثابتة، غير مخادعة، خرجت

البيوت إلى خارجها. الفرش والأغطية والبسط وكل ما يمكن اخراجه إلى الشمس، خرج. فالأشياء التي لم تتعرض للبلل مباشرة لحقتها الرطوبة الشديدة، والتي كانت بعيدة عن الرطوبة أصابتها البرودة، ولذلك بدت عمان، رغم الحزن والقتام، ملونة، وكانت تنظر إلى الأيام الآتية أكثر مما تريد أن تدفن نفسها تحت ركام الأيام الصعبة التي كانت.

راضي أبو الشوارب، الذي يصاب بالسبات طوال أيام الشتاء، رافضاً أي عرض للعمل، باعتباره «معلم اسمنت» كما كان يقول، «وإنه ليس من جماعة الدبش والطين»، لتبرير الكسل، بحجة أن «الاسمنت، يا جماعة الخير، مثل البارود، في الشتاء يبرد، والبناء، خاصة الصبة، في الربيع بتروح مؤيد بتروح مواتي، أما في أيام الشتاء فتصير مثل الغريبة».

راضي الذي كان هكذا في السنوات الماضية، لم يتأخر لكي يكون من أوائل البنائين لاعادة ترميم البيوت والسقوف، ليس بالاسمنت، وإنما بالطين والحجر، أكثر من ذلك كان مستعداً لبناء السلاسل، وقد برع فيها أكثر من بنامين آخرين، خاصة وهو يحكم الزوايا، ويتحكم بالميل، ويتولى بنفسه تثبيت الأبواب.

وأبو حاتم الطيان، في شارع المصاروة، وكان يفضل أن يكون عمله مقصوراً على الطراشة، شوهد فوق معظم أسطح بيوت الحي، وهو يعيد ترميمها. كان يخمر الطين بنفسه، وكان يستعمل قدميه الحافيتين من أجل مزج التراب بالتبن، دون الاستعانة بأي عامل في المرحلة الأولى، ثم بواحد فقط لكي يصلح ما فسدده المطر.

وأبو تيسير الطيان، في شارع خرفان، مع اثنين من أولاده، كان لا يتردد في أن يواصل العمل ليلاً على ضوء الفوانيس «لأن إذا ماخلصنا اليوم راح يتأخر الشغل لأسبوع أو لاثنتين، لأنني مواعد جماعة غيركم في الأيام الجاية، ومثل ما بتعرفوا، يا جماعة الخير، وعد الحر دين».

وغير هؤلاء كثيرون، وفي مجالات شتى، اندفعوا للعمل، للمساعدة، لاصلاح أو لازالة ما خلفته الأمطار. فالتجار الذين اقتحمت المياه دكاكينهم، لم يعيدوا البضائع التي استطاعوا نقلها، أو تلك الجديدة التي أوصوا عليها، إلا بعد أن بنى كل واحد منهم مدماكاً جديداً أمام دكانه. كان البناء لا يتوقف، والاحتياطات تزداد، خاصة بعد أن اعترف الكثيرون بالأخطاء والنواقص، والتي تسببت بالأضرار!

حتى المدرسة العبدلية لم تنج من آثار الفيضان. فالباب الخلفي الذي اكتسب ارضية ثابتة، نتيجة انزلاق التلاميذ عليها خلال فترة طويلة سابقة، وجدت المياه

طريقاً سهلاً، ولذلك اندفعت نحوها بقوة فغيّرت معالمها، مما تطلب وقتاً طويلاً لكي يعود هذا «الباب» للاستعمال مرة أخرى!

كما وجدت في الساحة الجنوبية كمية من الأحجار المتساقطة، الصغيرة والكبيرة، وكان قوة خارقة وضعتها في تلك الأمكنة حيث يصطف التلاميذ!

هذا عدا عن الوحل الذي ملأ الساحات كلها. أما الدلف فقد لحق بعدة صفوف، بما فيها غرفة المدير، مما جعل التلاميذ، خلال يومين متواليين، يشتركون في إزالة الحجارة، وكس الأسطح، وفي إعادة الأمور إلى ماكانت عليه.

أما القصص التي أخذت تتردد في المدرسة عن «الطوفان»، وكيف عاشه كل تلميذ، فإنها أقرب إلى الخيال، وقد برع في رواية الكثير منها تلاميذ السوق، فالقصة ذاتها يكون لها أكثر من بطل وأكثر من راوٍ، كما كانت الحادثة ذاتها تنتقل من مكان إلى آخر! لكن بمرور الأيام أخذت هذه القصص تتراجع إلى أن تلاشت!

الصغار الذين ضيّق عليهم الشتاء فلم يعودوا قادرين على اللعب في الخارج إلا لفترات محدودة، بدأوا «يخترعون» ألعاباً جديدة، ومن جملة ما اخترعوا قراءة الغيوم. كانوا يطيلون النظر إلى هذه الغيوم ويتحزرون حول أشكالها. والجدة التي كانت تتظاهر أنها لا تسمع ولا ترى، لا تستطيع أن تستمر في السكوت، خاصة إذا زاد الأمر عن حد معين. كانت تقول بحدة:

- قراءة النجوم وقراءة الغيوم شغل السحارين، وهذا أول الكفر...

تهز رأسها بحزن وتضيف:

- وشفتكم بعيونكم شنو سوى رب العالمين بالناس...

وبعد قليل وبصوت مختلف:

- هذا الطوفان اللي صار علامة على اقتراب الساعة. رب العالمين قال للناس:

اليوم غريق، لكن باكر حريق جهنم... إلا إذا صرتم خوش أودام ...

وتختم كلامها بحرقة:

- ولدي اقروا دروسكم، وحطوا عقولكم بروسكم حتى الله يرحمنا!

تتابع الأيام، وينقضي شتاء تلك السنة، وتظل عمان تتذكر، لكن لا تتوقف عن انتظار الأيام الآتية!

الأرض، هذه الأم، التي بللها المطر، وجلالها الصمت والسكون خلال الفترة الطويلة السابقة، لم تعد قادرة على البقاء هكذا حين جاء آذار.

فجأة بدأت تتملل، ثم راحت تهذي. كان هذيانها نشيداً مجنوناً يعلن ولادة جديدة. فأشجار اللوز، وقد كانت أقرب إلى الحطب الذي نُسي تكسيره خلال فصل الشتاء كله، دبت فيها الحياة بنشوة جارحة، واكتست خلال أيام قليلة غلالة بيضاء زاهية. والبستان الذي كان يرى من بدايته إلى أقصاه أيام الشتاء، تحول فجأة إلى غابة يعجز النظر عن اختراق أكثر من بضع شجرات.

حتى أم خليل، في نهاية شارع خرفان، التي ظلت تتلظى وراء تنكات الزريعة في الأيام السابقة، لم تعد تحتاج إلى الحيط بعد أن دبت الحياة في شجرة التين المزروعة في نهاية البيت، ثم حين مدت الدالية أغصانها، إذ أصبحت هذه المرأة مضطرة لأن تمد رقبته وجزعها لكي تراقب الطريق وحمايتها، وأيضاً عبد الرؤوف منكور.

كانت أم خليل تقضي وقتاً طويلاً في الشرفة، رغم البرد. تتابع كل شيء بنفسها، إذ لا تحب أن تترك أي شيء للصدفة أو لأن يخبرها به الآخرون. خاصة وأن حمايتها، أم أحمد، تسكن تحت الشرفة مباشرة، على طرف الطريق، وكانت لها علاقات ودية بجميع أهالي الحي، فما إن يمر أحد في الشارع، سواء بادرها بالسلام أو تلكاً قليلاً، حتى تمطره بالتحيات الحارة والود وتدعوه له بطول العمر، وكان هذا يأكل قلب أم خليل، ويجعلها تحس بالغيظ والحسد.

أما عبد الرؤوف منكور، فبعد أن تعب لعدم وجود «مقر» لجريدته غير الدورية «على هامان يا فرعون» استأجر الغرفة المجاورة لأم أحمد. وبمرور الوقت توطدت الصداقة بين الإثنين، وكانت تجري بينهما أحاديث طويلة، الأمر الذي زاد في نكد أم خليل، وندمت لأنها وافقت أبا خليل لتأجير الغرفة لهذا «العواطي» كما أصبحت

تطلق على عبد الرؤوف، لعدم قناعتها بالعمل الذي يقوم به، ولأنه، وهذا هو الأهم، يكن وداً حقيقياً لام أحمد.

في وقت ما من الضحى، وبعد أن ينجز عبد الرؤوف بعض المواد التي يحضرها للعدد الجديد من الجريدة، وتكون أم أحمد قد «درجت» سيجارتين بعناية، وهيات القهوة، تدعو عبد الرؤوف. كان يستجيب، أغلب الأحيان، لهذه الدعوة، خاصة وأن «القفلات» التي يريدتها أو يبحث عنها أخيراً أو تعليق تستعصي عليه، أو لا يقدر على تدوينها، نتيجة الرقابة التي تمارس عليه من أكثر من جهة، ولذلك كان يلتمس أو يتوقع أن يجد في كلام المسنين ما يساعده على الوصول إلى ما يريد. وهكذا يبدأ بالأسئلة والحديث، فإذا انتهت السجارة الأولى، ولكي يستمر بالصفا ذاتة، يسحب من باكيت «النجاح» الذي يحمله سيجارة ويعزم على أم أحمد فتوافق بتردد، أما حين تسعل، ويقول لها عبد الرؤوف «صحة وعوافي» فيهبط عليها من فوق صوت أم خليل :

- مية مرة قلنا: سكاير اللف دخانها بيخنق!

فترد عليها أم أحمد، بعد أن تجر نفساً عميقاً:

- لقيها يا حرمة وروحي لشغلك!

في بداية الربيع تخرج أم أحمد إلى الفلا، كما تسمى الرصيف، مجموعة من الكراسي الواطئة المصنوعة من القش، لاستضافة أي زوار محتملين. ورغم أن هذا يطمئن أم خليل، إذ يتيح لها أن تسمع كل شيء بوضوح، إلا أنها لا تتخلى عن النكد، فما أن يقوم عبد الرؤوف بزيارته اليومية، وهذه المرة في الهواء الطلق، على الرصيف، ويبدأ بالحديث مع أم أحمد، حتى تعتبر أن صوته عال أكثر مما تحتمل، ولا بد أن تشير إلى ذلك وتعلم على حماتها، إذ تستدير نحو بيت كاظم سنجر القريب وتصرخ:

- وطوا صوت الراديو يا جماعة مغرب.

تقول الكلمة الأخيرة بطريقة توجي بوضوح أنها تعني غيرهم، وتعني جهة أخرى!

ترد أم أحمد، وتتظاهر بأنها تخاطب عبد الرؤوف:

- الصيف حلو يا عبد الرؤوف، لكن غبايره كثيرة!

ويأتي صوت أم خليل من فوق، وهذه المرة موجه إلى أم أحمد مباشرة:

- بعده الصيف مابلش يا عمتي، بعدنا بأذار، ولّسه ورانا نيسان اللي شتواته
تحبي الانسان ويتطلع للعجوز سنان!

ترفع أم أحمد رأسها الى الأعلى وتقول متوعدة:

- بيجي أبو خليل ونتفاهم!

وتوافق أم أحمد على تناول سيجارة جديدة من عبد الرؤوف، ويتابعان
الحديث، لكن هذه المرة بصوت منخفض، لكي يفوتا على أم خليل ما يدور بينهما!

أم أحمد هي أم شارع خرفان، ان لم يكن بالدم فبالرسوخ والقدم. كانت أكبر
معمرة في عمان تلك الفترة. هكذا يقول الجميع، لكن الكثيرين يختلفون حول
عمرها، منهم من يقول أن عمرها تجاوز المائة والعشرين سنة، ومنهم من يعطي لها
عمرأ أقل أو أكثر. أما حين تسألها فتجيب:

- والله يا ابني العلم عند علام الغيوب، لكن اذا ما كذبني ربي فوق المية!

فاذا أحست أن أم خليل تسمع وتراقب فتضيف وهي تضحك:

- ومثل ما أنتم شايقين: بعدني قوية وصحتي عال العال!

وبعد قليل تضيف بسخرية:

- والأعمار، أولها وأخرها، بيد الله!

تتلفت ثم تتابع بمودة:

- عليكم بالزيت، الزيت، أي نعم، هو اللي يطول الأعمار!

وبعد قليل تستدرك:

- أي نعم الزيت والريحة الطيبة.

وتتطبّب على نبتة الريحان الصغيرة أمامها، فتنبعث الرائحة الزكية. ويفهم
كلامها على أكثر من وجه، وربما بأكثر من معنى، خاصة لمن يعرف شيئاً عن
الخلافاات بين الكنة والحماة. فأم أحمد التي تجاوزت المائة نبتت لها أسنان
جديدة، وظلت بقرواها وذاكرتها، في الوقت الذي تبدو زوجة ابنها، أم
خليل، متهدمة، إضافة الى ذاكرة مشوشة. هذا عدا عن علاقة الناس بالمرأتين. ففي
الوقت الذي تحظى أم أحمد بالحب والرعاية من الكثيرين، وتتبادل معهم الأحاديث
والعلاقات، ويخدمها الصغار أيضاً، فإن أم خليل «نحسة» كما تصفها الجدة

«وجبهها يقطع الرزق» كما تقول عنها أم تيسير الطيان، إذ تميل إلى المشاجرة والصراخ على الأطفال، خاصة حين يتجمعون حول أم أحمد.

قد يكون هذا جزءاً من تاريخ عمان المنسي، ربما علق صدفة بذاكرة بعض الأطفال، لكن الشيء المؤكد أن فرحاً حقيقياً يسيطر على الحي، ويمتد إلى أحياء أخرى كثيرة، إذا جاء الربيع، لأن أم أحمد على قناعة أن الشمس، مثل الزيت، مثل الرائحة الطيبة، تطيل العمر. فإذا تراجع البرد ودب الدفء بالعود كما تقول، تدب فيها الحياة من جديد، وتتأكد أن الموت ابتعد عنها سنة أخرى، ولذلك كان فرحها يعدي الآخرين وينقل اليهم.

ولأن أم أحمد تسكن غير بعيد عن بيت الشيخ حافظ، فإن من يأتيها ببشرى ازهار الشجرة العجيبة تقبله من عينيه، وتعطيه كمشة من قضاة على سكر، وتدعو له بصوت عال، وهي ترفع يديها إلى السماء، تدعو الله أن يعطيه عمراً أطول من عمرها.

شجرة الشيخ حافظ المطعمة أول شجرة تزهو في عمان، هكذا يقولون. وإذا اتفق الكثيرون على هذه الواقعة، فإنهم يختلفون في تفسيرها. الذين يؤمنون بقدرات الشيخ يعتبرون أن إحدى البركات التي خصه الله بها أن تتبارك الأشياء عنده، وأن تظهر وتعبر عن نفسها بطريقة خاصة. آخرون يعتبرون أن الرعاية التي يوليها الشيخ لشجرته، إضافة إلى السمد والسقاية، تجعلها تختلف عن الأشجار الأخرى. غيرهم يقول إن الحجب التي يكتبها الشيخ، وقبل أن تُعطى لأصحابها، تعلق على الشجرة، لذلك فإن الشجرة تمتص فائدها كلها، أو جزءاً منها، وهذا ما يفسر أن بعض هذه الحجب « برء »، ولم يؤد إلى نتائج مشجعة بالنسبة لمن كتبت لهم!

الأكثر معرفة، والذين لا يؤمنون بالتفسيرات الغيبية، لديهم تحليل بسيط لإزهار هذه الشجرة قبل غيرها: فالشجرة مزروعة في مكان منخفض، والأسوار تحيط بها من جميع الجهات تقريباً، إضافة إلى قرب الطابون، والذي يشع دفئاً طوال أيام الأسبوع، الأمر الذي يجعل التربة والهواء حولها دافئين، مما يساعدها على أن تزهو قبل أشجار أخرى غيرها.

الذين يقدمون هذا التفسير ليسوا دائماً من خصوم الشيخ أو الذين يكرهونه، ولا إثبات حسن النية، وصحة ما يقولون، يذكرون أنهم شاهدوا أشجاراً مزهرة هنا وهناك في نفس الوقت الذي أزهت فيه شجرة الشيخ!

ما تكاد البشائر تصل إلى أم أحمد حتى تنقل تنكات الرياح، التي ظلت في

الشباك طوال الفترة السابقة إلى الخارج، كما تضع مجموعة الكراسي على الرصيف إيداناً بأن الربيع قد بدأ!

وخلال فترة قصيرة تصبح عمان مدينة أخرى، مدينة يعجب لتغيرها حتى المقيمون فيها. ففي أيام قليلة تتبارى الأشجار في أيها يزهر قبل الآخر، أكثر من الآخر. كما تتفجر الأرض بنباتات وأشكال واللوان يحار من يراها أين كانت، أو كيف استطاعت أن تتحمل هذا الصمت وهذا الغياب، دون إشارة احتجاج أكثر من ذلك، عمان التي كانت تنطوي على نفسها، وتطل إلى الداخل، تتحول فجأة إلى حالة من العنفوان، فتضج بالحياة والصخب، كأنها تريد أن تخرج من نفسها!

تقول الجدة التي ترى الصخب حولها:

– بني آدم أكل نكأ، ولا كان ذيك المصايب كلها مرت!

ولأن لا أحد يعتبر ماتقوله يعينه أو يحتاج إلى رد، تتابع الجدة، وكأنها تخاطب نفسها:

– الله، سبحانه وتعالى، خلق الانسان وعلمه النسيان، ولولا أن البني آدم ينسى كان مات من القهر.

لذلك لا تتردد الجدة في الموافقة على أن تكون جزءاً من السيران.

وأهل عمان يتذكرون وينسون بنفس الوقت وبنفس المقدار، ولذلك لا يكافئون أنفسهم حين يأتي الربيع إلا بمقادير بسيطة وبالتدريج. فحين يبدأون مشاويرهم لاكتشاف الربيع يفعلون ذلك بكثير من الحرص.

يبدأ أهل جبل عمان مشاويرهم بالحاووز الصغير، وفي محاولة لاقتناع أنفسهم أن هذا المقدار يكفيهم، يطيلون النظر إلى بستان يعقوب السلطي، ويتوقفون عند بيت أبي محمود الدرة، الذي كان منزلاً ومعملاً للسجاير، ثم يلتفون حوله ليصلوا إلى الحاووز الصغير، مقابل بيت العدوان. وهناك كانوا يقضون وقتاً ممتعاً، إذ يصنعون الشاي والقهوة، ويضيفون بعضهم، في الوقت الذي يلعب الأطفال، وقد تجري أيضاً، مباراة بكرة القدم.

والصغار الذين يكونون عادة شديدي التطلب، ولا يكتفون بالقليل، فإن المشوار الأول، وإلى هذا المكان بالذات، يجعلهم في حالة من النشوة والرضا، خاصة وأنهم أخذوا يكتشفون أشياء كثيرة حولهم، يكتشفون الواناً لم يروها من قبل، أو رأوها ثم غابت فترة طويلة، وهامهم يرونها من جديد. ويكتشفون أعداداً من الحشرات المختلفة

الألوان، وقد خرجت كلها، لا يعرف من أين، وأخذت تدب أو تطير هنا وهناك، كما أن الدفء ورائحة الأرض، وهذه الجدة في نسق الحياة، يجعلهم لا يعرفون ما يريدون، وبالتالي أكثر قبولاً بما حصلوا عليه.

ويوماً بعد آخر، ومع زيادة الدفء، تطول المشاوير وتأخذ محاور كثيرة. فتلاميذ العبدلية الذين كانوا يفضلون أقصر الطرق من أجل الوصول، أخذوا يختارون، لاشعورياً، طرقات أخرى، طويلة في الغالب، وفي تلك الطرق يكتشفون: الشعب التي تصلح للمغيطات أكثر من غيرها، الأماكن التي توجد فيها العصفير أكثر من غيرها، البساتين التي يمكن أن تكون هدفاً للغزو، النباتات الجديدة التي تخرجها الأرض وقد تصلح للأكل أو للعب، وكثيراً ما تسببت هذه الأخيرة باشكالات، وربما "معارك"، كأن يضع الواحد في ظهر أحد زملائه، تحت القميص، "قمح الشيطان"، وهو نبات له شكل السنبله الفارغة، ما إن يصل إلى الظهر، ومن خلال الحركة، حتى ينزلق إلى أسفل مسبباً الحكة والازعاج.. ثم الاحراج!

والكبار الذين يعتبرون يوم الجمعة وحده وقتاً مناسباً للسيران، ويهيئون لذلك، كانوا في بعض الأيام الأخرى، عند العصارى، لا يترددون في أن يقوموا بمشاوير قد تقودهم إلى الحاووز الكبير أو إلى بستان أبو شام

كان طريق مدرسة المطران يحفل بأعداد كبيرة من المتزهين، وكان عدد النساء والأطفال يزيد كثيراً عن عدد الرجال. وفي هذه المشاوير التي تأخذ صفة الاكتشاف لتحديد واختيار المكان المناسب ليوم الجمعة، كثيراً ما بدأت فيها أولى قصص الغرام، أو توثقت علاقات كانت قد بدأت في صيف سابق، ثم جاء الشتاء الطويل ليمنع أو يباعد بين الذين افترضوا أنهم عشاق، وأنهم يحبون بعضهم إلى درجة لا يطيقون الفراق!

في هذه المشاوير، بالإضافة إلى مهرجان الطبيعة، كانت ملابس الفتيات مهرجاناً آخر، بالوانها، بجسمالها. إذ كثيراً ما أعدت الملابس الجديدة لمثل هذه المشاوير، خاصة وأنه لم يكن في عمان، تلك الفترة، أماكن أو مجالات للقاء.

كانت لوسي، وأمها، وهما تتمشيان يومياً بعد العصر وعند الغروب، على طريق المطران، تجعل الفتیان يختارون هذا الطريق! وربما لا يوجد شاب في تلك الفترة إلا وأحب لوسي، أو على الأقل مال إليها، لكن حركة الأم، وهي تمشي ببطء، وكأنها البطة، إلى جانب لوسي أو خلفها بقليل لا تمكن أي فتى من الاقتراب أو التجرؤ على

قول كلمة .كانت ام لوسي حارساً كفوأ شديد الانتباه،وكانت مستعدة للتدخل في الوقت المناسب.

ولأن الكثيرين أحبوا لوسي،أو ادعوا ذلك،ولأن لوسي لم تحس بهم،أو لم تبادلهم الحب،فقد أصبح البيت التالي يردد إذا جاء ذكر الموضوع:

كل يدعي وصلاً بلوسي ولوسي لا تقرّ لهم بذاكا

وكان بعضهم يضيف إلى البيت السابق كلمة «أم» لكي يبرر عدم وصوله،وبالتالي هزيمته في هذه المعركة!

بالإضافة إلى طريق المطران،كان هناك الطريق الموازي للسوق، لشارعي فيصل ووادي السير،وقد أطلقت عليه الجدة: «الطريق الطويل» لتمييزه عن غيره،مع أنه لم يكن طويلاً،لكن شعورها أنه لايشبه الشوارع الأخرى،إنذ يخيم عليه الصمت،ويخلو من الأطفال،كما تقوم على جانبه الأيسر بيوت بعض رؤساء الوزارات،إن كان يسكن فيه أبو الهدى وإبراهيم هاشم،هذه الأسباب،ربما جعلته بنظر الجدة يبدو هكذا!

إذا كان دافع الكثيرين للتمشي في هذا الشارع،خلال فترة معينة،الرياضة ومراقبة السوق،فإن السينما الصيفية التي افتتحت باسم سينما الامارة،وتقع عند تلاقي شوارع فيصل والسلط ووادي السير،وتُشاهد من الطريق الطويل،كانت سبباً في تفضيل عدد متزايد لهذا الشارع،إن كانوا يأتون بالعشرات،يفترشون الأرض،ويأخذون بمتابعة وقائع الفيلم المعروض،مع أن الصوت لا يصل! يظنون كذلك،لايفادرون المكان،إلى أن ينتهي الفيلم. ومع أن كل واحد من المشاهدين يرى الفيلم بالطريقة التي تروق له،ويضع على السنة الممثلين الحوار الذي يفترضه أكثر ملائمة،وكان هذا مثاراً للخلافات والمناقشات بين هؤلاء في ذات المكان،فإن خلافات أخرى كانت تثور بين الذين شاهدوا الفيلم من الطريق الطويل،وأولئك الذين دفعوا مقابل الصوت والصورة،وكانوا داخل السينما!

ظلت السينما سبباً في شعبية هذا الطريق وكثرة المترددين عليه،إلى أن قررت إدارة السينما وقف المشاهدة المجانية،إنذ وضعت ساتراً من القماش المقوى ليحجب ليس فقط الصوت،بل والصورة أيضاً،الأمر الذي خلق أسى في قلوب الكثيرين! وقيل في ذلك الوقت أن دافع هذا الاجراء لم يكن مادياً،وإنما تم اتخاذه بناء لرغبة سعاد أبو الهدى،لأن الضجيج الذي كان يسببه متفرجو الشارع يفسد عليها لحظات التأمل!

يصبح الحاووز الكبير، والمنطقة المحيطة، مع تقدم أيام الربيع وزيادة الدفء، أمكنة مرغوبة أكثر من غيرها، لأن البرد الذي كان يستشعره الكثيرون في الأيام الأولى من نيسان، والذي يأتي من جهة وادي السير، أخذ يتراجع لتهب نسيمات رقيقة منعشة.

في المساحة بين الحاووز وبستان أبو شام تبدأ البرية، فقد كان هذا البستان، بالقرب من الدوار الأول، يحدد المدينة من ناحية الغرب، فما عدا بيت الجيوسي ذو الشرفة الدائرية، كانت الأرض خلاء، ولا تقوم فيها إلا أبنية قديمة متناثرة. هناك، أيام الجمع، كان ينتشر الناس، من الضحى إلى الغروب، وهناك يأكلون ويشربون ويطربون. كان الفتيان، مدفوعين بالجرأة ورغبة الاكتشاف، يتوغلون في الحقول التي تبدأ بعد بستان أبو شام مباشرة. وآخرون يأخذون السفوح الجنوبية، فإذا رجع الذين توغلوا في الحقول مدهولين بما صادفوه من طيور الفري، التي كانت تقفز من بين أرجلهم، وبحصيلة بائسة لا تتعدى أن يصاد أحد هذه الطيور صدفة، ويرمية حجر، فإن الذين أخذوا السفوح الجنوبية يعودون محملين بخيرات الطبيعة، لأن هذه السفوح حجيبة، لا تزرع، لذلك يكثر فيها النبات بأشكال وطعوم عديدة تفوق الوصف، كما يجني منها الكثير، والحصيلة تتوقف على المعرفة، إذ يعود من هم أكثر خبرة من غيرهم بنباتات لذيذة الطعم، يؤكل بعضها مباشرة، ويؤكل الآخر بعد أن يطهى.

كانت عمان، في بعض عصارى الربيع، تنتقل كلها إلى البرية، إلى قرب الحاووز، إلى رأس العين، إلى جبل القلعة. وكان الذين يسكنون القسم الشرقي من المدينة يفضلون بساتين المحطة إلى جانب النهر. حتى الذين يؤثرون المشاوير القصيرة أو البقاء بالقرب من البيوت، كانوا يتناولون طعام يوم الجمعة في الخلاء، لأن المساحات الريبعية الواسعة، والينابيع الكثيرة في السفوح، كانت على أطراف الأحياء أو غير بعيدة عنها.

الذين اختاروا رأس العين مكاناً للنزهة، وبعد أن يقضوا نهاراً ممتعاً، عليهم أن يلزموا الحذر الشديد في العودة، خاصة وهم يجتازون الشارع بالقرب من جامع رويق، لأن أية تصرفات أو مظاهر لا تروق للشيخ، أو يعتبرها منافية للدين، لا بد أن تؤدي إلى الرجم.

فالشيخ رويق، بالمكان العالي الذي اتخذته مقاماً، كان يشرف على الشارع الموازي للنهر، وكان يعتبر نفسه قيماً على الأخلاق والسلوك والمظاهر، فما يكاد يرى نساء مكشوفات الرؤوس، أو يرى مجموعة من الفتيان تنقر على الدريكات

والدفوف،حتى تنهال حجارته،ويكون قد أعدةا لهذا الغرض. الفتيان والشبان الذين وقعوا ضحية هذه الحجارة في وقت سابق،أو عرفوا طبائع الشيخ،يكونون قد أعدوا لهذه المعركة ما يلزمها. فما أن يمروا من هناك حتى تعلوا طبولهم وأصواتهم المستفزة،وخلال فترة قصيرة تبدأ "المراجعة"،إذ تتطاير الحجارة،خاصة وأن الشبان قد اختاروا حجارة مناسبة انتقوها من جوانب السيل. لكن الشيخ رويزق،بما له من مهابة ومهارة وحكمة،إضافة إلى الخبرة الطويلة،وأيضاً بحكم الموقع الحصين الذي يحتله على قمة الرايبة،لايسمح لنفسه أن ينهزم. قد يتوارى قليلاً،قد يبطئ،لكن حجارته وشتائم تظل تطارد العصاة والفاسقين حتى بعد أن يبتعد موكبهم كثيراً!

كان بعض متنزهي رأس العين يفضلون أن يجتازوا النهر إلى الضفة الأخرى،سالكين طريق المهاجرين،وأخرون يفضلون أن يغادروا قبل أو بعد موكب "العصاة والفاسقين"،وعلى شكل مجموعات صغيرة تلتزم الصمت أثناء العبور تحت جامع رويزق،وتلتزم أيضاً أقصى يمين الشارع،لكي لا يحس بها الشيخ،أو لا يستطيع أن يطرها «ببركاته»!

حين قيل للجنة أثناء إحدى النزعات لرأس العين ضرورة المغادرة المبكرة اتقاء لغضب الشيخ رويزق،وبعد أن استفسرت من يكون،ولماذا يتصرف هكذا،ردت بسخرية:

- هذا بعد العايزنا ... مابقي إلا المخايل.

وبعد قليل وهي تتذكر:

- إذا كان العباس رأسه حار ويشور،ومايصطبر على أحد،فبركاته عمت الدنيا كلها،ماخلى مظلوم إلا ووقف بصفه،وماخلى ظالم إلا وانتقم منه،فهذا صاحبكم،رزوقي،المخبل،وين بركاته؟ شنو اللي سواه للفقراء والمساكين والمظلومين؟ حين ردوا عليها أن الشيخ رويزق لا يحسن في الدنيا أكثر من رمي الحجارة،وأن صوته،وهو يؤذن،غير شجي،سألت بسخرية:

- وهذا يا با .. من شيخه؟ منو سواه شيخ؟

وحين لم يرد على سؤالها تابعت:

- هذول،شيوخ القشمرة،أكثر منهم ماكول،لكن الحق موعليهم،على الناس. لو كان الناس عقال ويفقهون كان هذول ماصاروا.

وأثرت الجدة أن تعبر النهر، إلى الضفة الثانية، رغم الصعوبة، على أن تمر من طريق رزوقي المخبل، كما أصبحت تسمى الشيخ رزينق!

ولما اقترح على الجدة مرة أخرى أن يكون السيران إلى جبل القلعة تساءلت:

- مو ذاك اللي رحنا يمه قبل سنتين، أبو المغارة والحجارة؟

ولما كان الرد بالإيجاب قالت:

- يا بابا بكيفكم، أني ماعلي، بس بذيك القاع العفرة والنفرة وبين اكو ونسة؟

وحين قيل لها أن تلك الزيارة كانت لقبر الفقير، وكانت أواخر الصيف، وأن القلعة في الربيع شيء مختلف، قالت بنوع من التسليم:

- أني ما أدري، وهذي عمانكم وأنتم اعرف!

القلعة في الربيع، في السنوات المطيرة، شيء عجب. فالزهور التي تتفجر من كل مكان، بألوانها، وبالشذى الذي يملأ الفضاء، تدفع الإنسان للتساؤل: أين كانت تختبئ هذه الأسرار؟ كيف استطاعت أن تحمي نفسها وتتواصل طوال ذلك الزمن؟

حين وصلت الجدة إلى هناك فوجئت، ظنت أنها أخذت إلى مكان آخر، سألت:

- يا بابا .. هذا نفس المكان اللي أخذتونا عليه حتى "عباسكم" يطيب أبنا؟

وأكدوا لها أنه نفس المكان، قالت وهي ترفع رأسها للسماء:

- سبحانه أبو الخيمة الزرقا، قادر على كل شيء!

ومثل القلعة كل الأماكن الأخرى. فالربيع في السنوات الخيرة، يشعر الإنسان بالضالة إزاء الطبيعة، وما تستطيعه أو ماتعبر عنه. فحدائق البيوت، وغالباً لأتولى إلا أقل الرعاية، تصبح عنواناً للجمال الصارخ. فكم بيت من بيوت الفقراء لا يلتفت النظر، يتكشف عن أزهار وورود لا يقوى على ترتيبها إلا فنان بارع. وكم من شجرة بدت ثقيلة زائدة خلال الشتاء أصبحت ملء العيون والقلوب في الربيع. حتى أسطح البيوت، بالعشب الغض الذي ينبت عليها، بالأزهار الصغيرة التي ترفع برؤوسها في بداية الربيع، تجعل الإنسان مدهوشاً، لأن هذه البذور والجذور احتملت الشتاء كله، ببرده وصقيعه، واحتملت قسوة الإنسان والحجر، ثم واصلت الحياة لتتفجر بمثل هذه الروعة؟

إذا نظر الإنسان إلى عمان في أواخر أيام الربيع، وقد غطت الدوالي الكثير

من البيوت، وكانت، نتيجة التضاريس، تبدو متدرجة، متلاحقة، كأن غيمات خضراً حطت فجأة من السماء، فغطت قساوة الحجر الذي كان، وحده، يبدو أكثر الأشياء وضوحاً خلال فصل الشتاء، يتساعل بدهشة: أين اختبأ هذا النسخ طوال أيام الشتاء؟ كيف استطاع أن يقاوم ويستمر؟ ثم كيف تغيب أسرار الحياة التي تكتنز بكل هذه القوة والخصوبة؟

في سنة الطوفان، وربما بعدها بسنة أو سنتين، حين زارت الجدة الرصيفة والزرقاء، قالت بعد العودة، وكانت تعيد ترتيب عبايتها الجديدة، عباءة الخطار، والتي تصر على ارتدائها حين تخرج، أياً كان المكان الذي تذهب إليه، لكي لا يقال عنها محتاجة أو فقيرة، قالت الجدة، وكانت تتذكر وكانت أقرب إلى الدهشة:

— ما أعرف وين كنا، بيا ديرة، لكن، والشهادة لله، المكان أبد ما يفرق عن سلمان باك وبعقوبة.

وبعد قليل:

— سبحانه، ما يترك أحد من رحمته!

وحين طال السهر، وظل الحديث يدور حول الرصيفة والزرقاء، تساءلت الجدة:

— اشو بهذه الديرة ما يزرعون تمر وبرتقال ... شنو ماعندهم؟

وبعد قليل وكأنها تجيب نفسها:

— تظل بغداد .. بغداد.

تنفست ثم أضافت:

— بمثل هذي الأيام ريحة القداح بالخالص ترد القلب، تخلي البني آدم يحس روحه بالجنة!

وإذا كانت الجدة قد رأت جانباً من الرصيفة والزرقاء، فإن الصغار رأوا جوانب كثيرة ويتذكرون هذه الزيارة وغيرها من الزيارات.

فبعد عين غزال تبدأ البساتين الواسعة والأشجار المثمرة.

أما الزرقاء، وكانت لا تتجاوز عشرات البيوت، فإن زيارتها بالربيع لا تنسى. كان يتطلب الوصول من القرية إلى قصر شبيب وقتاً طويلاً، فقد كان القصر بعيداً منعزلاً، وكان الوصول إليه يمثل نصف الطريق إلى نهر الزرقاء.

وتصميم الزرقاء، تلك الفترة، يشبه نيويورك وبعض المدن الأميركية (!) من حيث إن الشوارع تتعامد وتتقاطع بخطوط مستقيمة. سكة الحديد، من ناحية الجنوب، أقصى مكان يمكن أن يصله الإنسان، لأن خلفها مباشرة معسكر قوات البادية، بأشجار الصنوبر والأسلاك الشائكة تحيط به. على مسافة من السكة تبدأ القرية، وهي مجموعة من البيوت على شكل مربعات ومستطيلات، كأبنية وشوارع. معظم سكانها من المزارعين والعاملين في المعسكر أو سكة الحديد. هل كان عددهم ألف؟ قد يكون هذا العدد غير دقيق، إذ ربما يزيد قليلاً أو ينقص قليلاً، لكنه بحدود هذا الرقم. الشيشان والشركس أكثر السكان القدامى، ثم الذين جاؤوا مع المعسكر، وقبلهم الذين رافقوا السكة منذ بداية أنشائها.

نهر الزرقاء يفوق نهر عمان من حيث الاتساع والغزارة والصفاء، وبالتالي الروعة.

السماك في هذا النهر أمواج وراء أمواج. قد يكون صغيراً، لكن الكبير ليس قليلاً. وفي محاولة لأن يتحول الصيادون الصغار إلى صيادين كبار كانوا يستعملون في الصيد أنواعاً مخففة من الديناميت، كانوا يستعملون الكلس الحي. فما أن تلقى الزجاجة الحاوية على هذا الكلس وتنفجر حتى تطفو على سطح الماء فروخ السمك الصغير. كانت الجدة حين ترى هذا المنظر تصاب بالغضب والفرع معاً:

- نزول عليكم، ظلام، ما عندكم رحم ...

وحين تهدأ قليلاً:

- مايسوي هيچ سوايات إلا كل ظالم اللي ماكو رحمة بقلبه ...

تهز رأسها عدة مرات بأسف وتضيف مخاطبة نفسها:

- حرام .. ماتنوكل، صغيرة، لو خلاها هذول الظلام كانت صارت أكل لفقير أو لمسكين.

وفي الليل يشعر الصغار بالندم، لأن تلك الأسماك رميت، أو تركت تمضي مع التيار، بعد أن فقدت الحياة!

وإذا كان الربيع بالنسبة للصغار اكتشافاً ولعباً، فإنه للكبار حياة جديدة، لأن خيرات الأرض تصبح غذاء يومياً، ولأن أسعار الكثير من الأغذية تميل إلى الانخفاض. كما أن الخروج إلى البرية ليس مرحاً كله، إذ كثيراً ما استغلت مثل هذه

المشاوير لجمع أنواع من النباتات البرية لكي تؤكل، أو لاستعمالها في العلاج وكانت تتبدى براعة بعض النسوة في جعل الصغار يقومون بجمعها على أنها جزء من اللعب والرياضة، لقاء جوائز رمزية تعطى لمن يجمع أكبر كمية منها!

وخلال هذه الفترة تزداد زيارة القرويات إلى المدينة، وهن يحملن كميات كبيرة من النباتات التي لا يقوى الصغار على جمعها، وكن يبعنها بأسعار مناسبة، إذا لم يقل رخيصة. فالعكوب يباع بالشواتات الصغيرة. والبابونج يُعطى على البيلة! وكان الكما رخيصاً، وكذلك الفقع، وعشرات النباتات الأخرى التي تعرفها المدينة أو لا تعرفها. وكانت بعض القرويات يصلن المدينة ومعهن عدد من الماعز يبعن حليبها، إذ تحلب أمام المشتري. كما أن الكثيرين يوصون على الزبدة والسمن وبعض المشتقات الأخرى. وفي حالات عديدة تتم الموافقة على البيع والشراء مقايضة، وكان البائعون والمشترون لا يشعرون بالغبن، لأن ما يتم التنازل عنه في هذه البيلة يمكن تعويضه بأخرى، خاصة وأن علاقات وثيقة تقوم بين الطرفين.

إن عمليات البيع والشراء خلال فصل الربيع، رغم أنها صغيرة، وأغلب الأحيان فردية، إلا أنها تخلق شعوراً بالرضى، وتجعل الكثيرين ينسون مصاعب أيام الشتاء التي مرت، وهذا ما يدفعهم إلى إظهار الكرم دون خوف، والتصرف بحرية أكثر أثناء عمليات الشراء والتبادل.

ولأن الناس فقراء أو أقرب إلى الفقر، وأيضاً لخوفهم من الأيام الآتية، خاصة وأن ذكرى الأيام التي مرت لم تغب من الذاكرة، فإنهم يحاولون إلى أقصى حد استغلال نباتات الموسم، ولكن في الوقت المناسب الفول، مثلاً، لا يُشتري في بداية نزوله، إذ يكون مرتفع السعر، وحين يمر بائع الفول على حمارة تحت شرفة أم خليل، وهو ينادي وينغم من أجل الاغراء والتحريض على الشراء، تسأله أم خليل عن السعر، وقبل أن يجيب، أو أثناء إجابته، تقول أم أحمد لقطع الطريق على أي تفكير بالشراء:

– بعده قشر وما يئاكل.

فترد أم خليل قبل أن تقدر ما إذا كان السعر كثيراً أو قليلاً:

– طبعي ما يقدر عليه إلا اللي عنده سنان.

فتقول أم أحمد، وهي ترفع وجهها إلى فوق، لكي تبين أسنان الحليب التي نبتت لها من جديد:

- هذا الفول بعده صغير ويده سنان حليب، ما بده سنان ذيب!

وتضيف وهي تضحك مخاطبة البائع:

- أمشي يا ابن الحلال، روح تسبب، لأن هذي ماهي شرابة!

ما ان يمر اسبوع أو اثنان حتى تصبح عمان من أقصاها إلى أقصاها لاتأكل سوى الفول، وقد يصادف أن يؤكل كل يوم، مع تنوع في طريقة الطبخ أو التسميات!

الجدة التي ضافت أقرباء في الزرقاء، وكانت ربة البيت تطبخ الفول يومياً طوال أسبوع، وبعد أن أثنت الجدة على مذاق الطعام في اليوم الأول والثاني، وحين رأت ربة البيت تهتيء الفول لليوم الثالث، سألت:

- شنو .. أم عبدالله، بهاي الديرة ماتطلع غير الباجلا؟

وبعد ان استفسرت أم عبدالله عن معنى الباجلا، ردت بحماس:

- كل شي بيطلع عندنا .. يا حجة.

وأخذت تعدد النباتات والخضروات الموجودة، فقالت الجدة:

- ماشاء الله . ماشاء الله، عندكم مخضرات هواية يا أم عبدالله ...

هزت أم عبدالله رأسها موافقة، فسالتها الجدة:

- أشو ماتاكلون منها؟

أدركت أم عبدالله ماتقصد إليه الجدة، رتبت على فخذه، وقالت وهي تضحك:

- خلينا نشبع قول، أول مرة بياعمتي!

حين جاءوا "ليستردوا" الجدة، وقد كان مقرراً أن يبقوا معها يوماً أو يومين، قبل أن يعودوا إلى عمان، وشوشتهم الجدة، وكانت أم عبدالله تهتيء الشاي في المطبخ:

- خلونا نمشي بالعجل، عيني، لأن قلبي ساف من الباجلا، ويطني صار قبض!

حاولت أم عبدالله أن يبقى الضيوف فترة أطول، وحين بدوا محرجين لا يستطيعون الموافقة بسهولة، ويصعب عليهم الرفض أيضاً، قالت أم عبدالله:

- شورنا عند كبيرنا، فاللي تقوله عمتي هو اللي يصير.

قالت الجدة، وهي تحاول أن تنتقي كلماتها:

– عيني أم عبدالله .. أني هواية تونس، ونسة موشلون ماكان ...

وبعد قليل وبطريقة لاتخلو من حرج:

– لكن نريد نرفع الزحمة، واريـد أبـدل هـدومي، فـراح نـترخص ونـمشي.

وبطريق العودة ، وفي البيت، كانت الجدة تسأل أو تتسأل:

– شلون قهر من الله .. كل يوم نفس الزقوم ...

وبعد قليل، وبسخرية:

– كل يوم فول، يوم رز بفول، يوم فول بزيت، يوم برغل بفول .. وبعد شنو؟

وظل الصغار، ولفترة طويلة، يمازحون الجدة، فيرددون بصوت عال، وبطريقة غنائية:

– رز بفول، فول بزيت، فولية .. فولية!

حين تكون أمطار الشتاء وفيرة، وتبشر بموسم جيد، فإن تصرفات الناس تتسم بالشجاعة والثقة بالنفس، ويكونون أكثر استعداداً للمرح. ورغم أن الكثيرين لا يعملون بالزراعة بشكل مباشر، إلا أن علاقتهم بالزرع والمطر وثيقة إلى أقصى حد، لأن سنة الخير تعم الجميع، ولأن سنة المحل لا تترك أحداً إلا وتمسه بمقدار.

وأمطار الشتاء التي يستبشر بها الفلاحون، ويعتبرونها الخميرة الأساسية، إلا أن شتوات أذار ونيسان ضرورية وينتظرها الناس بلهفة. وفي محاولة لاسترضاء الطبيعة تجري بعض الطقوس التي تعبر عن الكرم من ناحية، وربما لها علاقة بأساطير أبعد. يتجلى ذلك بذبح أعداد من خراف الربيع، وفي تقديم النذور وصيام بعض الأيام، إضافة إلى إخراج الخيول من اسطبلاتها واستعراضها.

كان ملعب كوبان، وملعب المحطة، وحتى ملعب الحاووز الصغير، مضامير للخيول تجري فيها السباقات أو الاستعراض. وبمقدار ما يبرع الشركس في هذه السباقات، خاصة وهم يرتدون أزياءهم الوطنية، ويقيمون الاحتفالات، فإن خيول البدو تظهر خلال هذه الفترة، وتعامل بالكثير من الحفاوة والاهتمام.

وفي هذه الفترة، أكثر من فترات أخرى، كان الكثيرون يشاهدون الأمير طلال، عند الغروب، عانداً على الحصان من مشواره اليومي. وكان يشاهد أيضاً الشريف زيد في بعض الأحيان، أو يشاهد رزيق يروض خيول الشريف. أما جويبر

الذي يظل غائباً خلال فصل الشتاء مع خيول القصر، فإنه يعود حين يعتدل الطقس إلى عمان ويميل إلى الدفء. وكان عدد من هذه الخيول يستعرض في شارع خرفان، بالقرب من بيت جويبر، إذ يشاهد جويبر في المقدمة ووراءه بعض الفرسان. حين تعرف أم أحمد بعودة جويبر، وتسمع الضجة تقترب، تقول:

- اللي طوك الغيبات يرجع بالغنايم ...

ويعد قليل تسأل الذين حولها:

- ياهل ترى .. الكبير لازم يسلم على الصغير أم العكس؟

ولأن السؤال بديهي، ولا يحتاج إلى إجابة، وكان ينتقل بسرعة، فإن إجابته تكون مباشرة وعملية، فما أن ينتهي جويبر من الاطمئنان على الخيل حتى يبادر لزيارة أم أحمد. كان يفعل ذلك حتى قبل أن يرى أهله.

كان الكثيرون يتجمعون حول أم أحمد وجويبر وعبد الرؤوف منكو، وكان ينزل أبو خليل من الشرفة، ليشارك في الجلوس على كراسي الرصيف التي فردتها أمه، وتكون قد فردت لنفسها بساطاً تفترشه وتستند إلى الجدار. في هذا اللقاء الذي لا يدم طويلاً، يتحدث الجميع في وقت واحد، ويغم الفرخ والهرج في نفس الوقت، لكن يظل صوت أم أحمد هو الغالب!

أم خليل التي تتابع من الشرفة، وقد امتلأت غيظاً، لأن لأحد يتذكرها أو يسأل عنها، لا بد أن تفعل شيئاً لكي تلفت النظر إليها. كانت بعض الأحيان تنادي على أبي خليل، وحين لا يسمعها، أو لا يلتفت إليها، تكلف عدداً من الصغار لكي ينبهوه. والصغار الذين يستجيبون، بعض الأحيان، لطلبها، وبعد عدة تنبيهات، يضطر أبو خليل لأن يرفع رأسه، ويبيديه الاثنين يستفسر عما تريد، فتسأله:

- اسوي لكم شاي؟

- شو؟

فيعلو صراخها:

- اسوي لكم شاي؟ قهوة؟

كانت بهذا الصراخ تريد أن تعرض بحماتها التي "أخذتها" السوالف ولم تقم بواجب الضيافة. وحين يسأل أبو خليل جويبر ما إذا يفضل الشاي أم القهوة، يكون السؤال ايذاناً بانتهاء الزيارة، إذ يعتذر جويبر مع الوعد بزيارات كثيرة قادمة.

ما إن ينفض الجمع، حتى تأخذ أم أحمد نفساً عميقاً، وتقول مخاطبة بعض الذين بقوا حولها:

ـ إذا كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب!

وليفهم إلا القليلون من تعني أو لماذا قالت هذه الجملة!

إذا جاءت شتوة أو اثنتان في نيسان تزداد ثقة الناس، خاصة أن الكثيرين يعرضون أجسادهم ورؤوسهم لهذه الشتوات، لأنها تنفض البدن وتقويه وتجعله أكثر جمالاً. وفي هذه الأثناء تفتح الأمهات عيونهن أكثر من قبل لاكتشاف الفتيات اللواتي كبرن في غفلة عنهن! وتبدأ كل أم بإجراء تقديرات ومقارنات بين واحدة وأخرى، من حيث الجمال والصحة، إضافة إلى الحسب والنسب، في محاولة لاعتبار واحدة، وربما أكثر، ملائمة لابنها، فيما إذا انتهى الموسم كما تتمناه!

بعد أن ينقضي القسم الأكبر من شهر أيار، يبدأ الخوف من الشوية، ويظل هذا الخوف قائماً ومستمراً إلى أن تنضج حبات الشعير، ثم بعدها حبات القمح، ويحل وقت الحصاد.

والحصاد في عمان، رغم التعب، احتفال كبير.

ما إن ينفض الجمع، حتى تأخذ أم أحمد نفساً عميقاً، وتقول مخاطبة بعض الذين بقوا حولها:

ـ إذا كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب!

وليفهم إلا القليلون من تعني أو لماذا قالت هذه الجملة!

إذا جاءت شتوة أو اثنتان في نيسان تزداد ثقة الناس، خاصة أن الكثيرين يعرضون أجسادهم ورؤوسهم لهذه الشتوات، لأنها تنفض البدن وتقويه وتجعله أكثر جمالاً. وفي هذه الأثناء تفتح الأمهات عيونهن أكثر من قبل لاكتشاف الفتيات اللواتي كبرن في غفلة عنهن! وتبدأ كل أم بإجراء تقديرات ومقارنات بين واحدة وأخرى، من حيث الجمال والصحة، إضافة إلى الحسب والنسب، في محاولة لاعتبار واحدة، وربما أكثر، ملائمة لابنها، فيما إذا انتهى الموسم كما تتمناه!

بعد أن ينقضي القسم الأكبر من شهر أيار، يبدأ الخوف من الشوية، ويظل هذا الخوف قائماً ومستمراً إلى أن تنضج حبات الشعير، ثم بعدها حبات القمح، ويحل وقت الحصاد.

والحصاد في عمان، رغم التعب، احتفال كبير.

الصيف في عمان شاسع ومديد، ويبدأ قبل الصيف بفترة طويلة!

فما يكاد الدفء يسري في جسد الأرض، ويوقظ الأشجار، ويحرك الكائنات التي نامت منذ أمد بعيد، حتى يحس الإنسان نفسه أنه جزء من هذه الأرض والكائنات، وأنه مرتبط بهذه الحركة، فينفذ بقايا الشتاء عن روحه، وينطلق بقوة ليلتحم ويتفاعل مع الطبيعة حوله، بحركتها وسرعتها ومزاجها.

ولعلّ أبرز مظاهر الصيف، وربما أولها، في عمان الأربعينات - وبالتأكيد قبل هذا التاريخ طبعاً - عربات الشركس. فالعجلة التي كانت أحد أهم مراحل التطور في حياة الإنسان القديم، إذ نقلته من وضع إلى وضع أكثر رقياً، ماثلتها العربة التي جاء بها الشركس في رحلتهم التاريخية إلى المنطقة، إذ لعبت أيضاً دوراً مشابهاً في تطوير ونقل المجتمع. صحيح أن الحيوانات كانت تقوم بدور أساسي في نقل المحاصيل والمسافرين في أوقات سابقة، إلا أن وضع العربات التي تجرها الأبقار والثيران في حيز الاستخدام الواسع والكفؤ، وما يتطلبه ذلك من شق الطرق، وإيجاد بعض الصناعات المرافقة، جعل التطور أكثر سرعة وأكثر فاعلية.

كانت عربات الشركس عنواً وتلخيصاً لحالة عمان بكاملها خلال تلك الفترة. فبعد أن تقوم هذه العربات، في أواخر الخريف، بنقل البذار إلى الحقول، تدخل كلها أو أكثرها في سبات طويل، تغيب، وكأنها أحييت إلى التقاعد، خاصة حين تُركن إلى زوايا الحواكير، بأغصانها القديمة، اليايسة، حتى يظن من يراها أنها لم تعد صالحة إلا لتكون وقوداً. لكن فجأة في أواسط الربيع، تُسحب مرة أخرى من تلك الزوايا، ويتم ترميمها، خاصة الجوانب، بأغصان جديدة، وتُشحم عجالاتها، كما يعاد "نعلمها" بالحديد، لتصبح قادرة على القيام بالمهام الكثيرة التي تنتظرها. أما الأبقار والثيران التي طالت إقامتها في "الياخور"، فلا بد من إعادة تأهيلها قبل أن تُشد من جديد على العربات.

رحلة الزرع بين البذار والحصاد طويلة ومليئة بالأخطار. "وكل يوم بسنة، وكل شبر بندر" كما تقول أم أحمد. وهذه الرحلة تعتمد على الطبيعة وحدها. إذ بعد أن يتم بذار الحب، يبدأ الانتظار. فإذا واثت الظروف، وجاءت الأمطار بمقادير وأوقات مناسبة، وبعد أن يستوي الزرع، تجري، بسرعة، عمليات العزق والتعشيب. ومع ذلك يظل الخوف قائماً ومستمراً، لأن شتوات الربيع مهمة، أو لاغنى عنها، فهي التي تعطي الحب قوامه وثقله. لذلك يجب أن تكون تلك الأمطار بالحدود الضرورية، أي لا كثيرة فتغرق، ولا قليلة فتحرق، حتى إذا بدأت الخماسين وجفت القلوب، لأن الرياح الجافة، والحرارة حينما تزيد عن حد معين، يمكن أن تؤدي أحدهما أو كلاهما إلى "الشوبة"، وهي أن تضمر الحبة وتنشف وبالتالي يضيع جزء كبير من قيمتها أولاً، ثم "تفرط" السنبلة أثناء الحصاد بعد ذلك.

أم أحمد التي لا تستطيع أن تذهب إلى البرية، ولكي تراقب الزرع، تعتبر الريحان المزروع في تنكات صغيرة غير كاف، رغم رائحته الزكية. لذلك، ولكي تحس بالريح الخطرة، وضعت كمشة من الحنطة، ومثلها من العدس، في أوان صغيرة، وأخذت ترشها بالماء بين فترة وأخرى، وبمقادير تساوي أو تقارب الأمطار. لقد وضعتها على حافة الشباك من الخارج، لترى تأثير الخماسين.

ما ان رأت أم خليل هذه الأواني حتى وجدت الفرصة مناسبة للتغصيص على العجوز، إذ أسرت لبعض معارفها أن الحالة التي وصلت إليها العجوز لا تسر، إن لم تكن خطيرة. قالت وهي تحاول أن ترسم على وجهها مظاهر الحزن:

— خسارة .. العجوز خلصت، ودعت ...

وحين تبدو علامات التساؤل على وجوه من تتحدث إليهن، تتابع بنبرة أقل حزناً:

— صارت، المسكينة، تظن أن البحر مقائي ...

ولأن كلامها ليس مفهوماً بعد، تضيف بنفاد صبر:

— قبل كم يوم بذرت بالطاسات حُصصاً وشعير وكرسنة، وصمدتهم في الشباك، وكل ساعة راكبة، مخيلة، ودائرة بين طاسة والثانية .. وهات يا حكي .. وهات يا سواف ...

وتبدو أم خليل منشرحة بعد أن كشفت لعبة حمايتها وجنونها، فتضيف:

— وإذا أجا الحصاد وحصدت .. الله يستر، ماراح نلاقي محل نخط فيه شوالات الحصيد!

الذين لم ينتبهوا في البداية، لما قامت به أم أحمد، ينظرون باهتمام لهذه الطاسات، ويعد أن يتأكدوا من وجودها، يسألون عنها، وتعرف أم أحمد من دفعهم لهذا السؤال، فتقول:

- ابن الحلال عند ذكره بيان ...

تهز رأسها عدة مرات، وتتابع بلهجة لاتخلو من حزن:

- والله يا وليداتي ريحة الزرع تروي القلب، مثل النعنع والريحان، فإذا الواحد شاف أو شم، قلبه من جوا يفرح ...

تجر نفساً عميقاً، تنتظر الى أعلى، لعلها ترى أم خليل، وتتابع بصوت عال:

- نحن زرعنا وحصدنا، نحن خلص دورنا، هسه دور غيرنا، الصفار، حتى يرجدوا ويحصدوا، فخلهن يشمرن ويعدنها نشوف!

وتحاول أم أحمد إنهاء الموضوع، لكن أم خليل لاتريد له أن ينتهي. فما يكاد يبرز شيء له علاقة بالزرع والحصاد حتى يهدر صوتها:

- تأخر المطر على زرعنا، وإلا أنا غلطانة، يا أبو محمد؟

ويرد عليها أبو محمد مؤيداً أو مخالفاً، فتقول بسخرية:

- لو كان زرعنا سقي، يا أبو محمد، كان موسمنا، مثل بعض الناس، عال العال!

وحين لاتنفع أم أحمد، ولاتجيب، تنتظر فرصة أخرى:

- ها يا عبد الله .. متى حصادكم؟

- قرب، بعد كم يوم!

- وغيركم حصد؟

- في من حصد، وفي اللي بعده.

- وفيه من حصاده لاقمحة ولا شعيرة!

- وكلّي الله يا حرمة .. الدنيا ما خليت!

ويأتي صوت أم أحمد، ويكون ساخراً:

- روح لشغلك، يا ابن الحلال، لأن الغاضي بيعمل قاضي!

وتتمدأى أم خليل أكثر. ذات يوم، استوقفت أبا زهدي، صاحب إحدى العربات، وسألته ما إذا كان لديه الوقت والامكانية لنقل محاصيل كثيرة وقريبة. للحظات ظن الرجل أن الأمر جدي، ويعد أن استفسر ليتأكد، أشارت أم خليل إلى الطاسات الموضوعة على طرف الشباك، وقالت إنها تريد نقل حصاد هذا الزرع!

غضب أبو زهد، وهدد.

قيل أن أم أحمد لم تتكلم لم تنفعل، خلافاً لمرات كثيرة سابقة. وأبو زهدي الذي لم يستطع أن يتحمل هذه السخرية، الأقرب إلى الإهانة شكاً المرأة لزوجها، وسانده في الشكوى بعض الذين حضروا، فما كان من أبي خليل إلا أن منعها من الوقوف، مجرد الوقوف، على الشرفة. بل أكثر من ذلك، قيل إنه صاح أمام عدد من الرجال:

– هذه الحرمة طالق إذا طبت السطح، واشهدوا عليّ ياناس!

ظلت أم خليل أسابيع عديدة لا يراها أحد، وقيل أن الكثيرين توسطوا لكي يفرج عنها، ولم تنته المشكلة إلا بكفارة، كما أشار أحد الشيوخ. وقيل أن أم أحمد تبرعت أن تصوم وأن تتصدق نيابة عن ابنها.

ذكرت أم خليل لزوجها كاظم سنجر، بعد فترة طويلة، أن أصعب اللحظات التي مرت عليها، أثناء فترة الإقامة الاجبارية في الغرفة، كانت أثناء سماعها صرير عربات الشراكس التي تنقل الحصاد، ولاتستطيع أن تراها!

إذا تم تجاوز أخطار الزرع، وهي كثيرة، وتتطلب وقتاً طويلاً، فإن الحصاد يكون سريعاً، بل أكثر من ذلك، يود كل مزارع لو يستطيع أن ينتهي من حصاد زرعه في يوم واحد! لذلك لا بد في الحصاد من "فزرعة"، إذ على كل فرد من الأسرة، والأقرباء، وبعض الجيران، أن يقوم بعمل ما. كان يتجند الكبار والصغار، النساء والرجال. والعادة أن توكل الأعمال حسب المؤهلات والحاجة.

وعلى الرغم من الجهود التي تبذل للانتهاء من الحصاد في وقت مبكر، إلا أن النتائج لا تتوافق مع الرغبات، لأن المصاعب والنواقص، علاوة على الظروف، تتدخل. وحين تطيل أم أحمد سهراتها على الرصيف، لتتأكد من بعض الأمور، وتعرف أنها سارت بشكل مختلف أو معاكس، تقول، وهي تبتسم، لعلها تشجع على تجاوزها:

– طوّلوا بالكم يا جماعة الخير، الله سبحانه وتعالى، خلق الدنيا بسبعة أيام، وهو الله!

وتضيف بلهجة تعليمية:

– وبعدين ... بطيختين بيد واحدة ماتنحمل، يا بتحصدا ... يابتنقلوا ...

وحين يخيم الصمت اعترافاً أن أخطاء من نوع ما حصلت، تقول:

– شوفوا السرسك ... وتعلموا منهم!

كان الشركس أكثر استعداداً وأكثر تنظيماً للزرع والحصاد: إذ يهيئون أنفسهم من وقت مبكر: مَنْ يجب أن يحصد ومن عليه أن ينقل؛ من يدرس ومن عليه أن يشوّل القمح والتبن؛ ومتى ينقل هذا ومتى ينقل ذاك. والنقل لا يعتمد على الصدفة أو على رغبة الآخرين، إذ هيئت الوسائل والأشخاص والثيران والعربات، إضافة إلى المخازن.

كانت عربات الشركس، وهي تنقل المحاصيل من البيادر إلى المخازن، لا تكاد تتوقف. وكان يشارك في هذا العمل كل من هو قادر. حتى الاستاذ مولود، الذي كان يحرص على أنناقشته في المدرسة، أو في الأحوال العادية، يتحول، بمظهره، وبعمله، خلال موسم الحصاد، إلى مزارع. كان يساعد في نقل الأكياس، في ترتيبها، وأيضاً في فك الثيران عن العربات لكي تستبدل أو لترتاح. وشوكت الخطاط، يحمل الفرشاة والحبر ويخط على الأكياس. وخطا الذي يعمل نجاراً في الجيش، يستفيد من يديه الخشنتين في هذه الفترة، ومن خبرته، لكي يساعد في استقبال المحصول. كان يؤجل إجازته السنوية لأيام الحصاد، ويكل ماوتي من قوة، وحتى وقت متأخر من الليل، يظل يصلح العربات، يرتب الرفوف التي يجب أن تُصَف عليها أكياس القمح والشعير.

كل هذه الأعمال تجري بروح عالية من التفاهم والتضامن، وبطريقة لا تكاد تُلاحظ. في الوقت الذي تنفجر خصومات كثيرة، وبشكل مفاجئ، بين "العربان"، ولأسباب، كما يعترف الجميع، في وقت متأخر، نافهة، لا تستوجب مثل هذا الانفعال أو العراك.

كان ليل عمان، في تلك السنين، يتحول إلى نهار، من حيث الحركة وكثرة الناس في الشوارع، ولقد ساعد في ذلك مجيء رمضان خلال فترة الحصاد !

فصرير عربات الشركس، بوقت السحور، وضربات طبل الحاج عمر، وذلك التحفز في العقول والقلوب، يولد في الخيال صور احتفالات أسطورية، تشبه صور المحاربين القدامى الذاهبين في الليل المتأخر إلى ساحات الحرب البعيدة والمجهولة. ولذلك كان انتظار مرور العربات، ببل والاشتراك في المساعدة، أمراً يدعو إلى الحماس، بحيث يندفع كثيرون للمساهمة بشكل ما. وكانت الجدة، حين تسمع صرير العجلات، قبل أن تسمع الطبل، تقوم لتحضر النقود والشاي. ولأن الآخرين يكونون قد ناموا متأخرين، ولا اعتمادهم على الطبل أداة أساسية لابقاظهم من أجل السحور، حين لا يسمع مدفع القلعة، فإن طريقة الجدة لم تكن كافية، فإذا الحت في الضجة والحركة لابقاظ النيام، ولا يستجيبون، كانت تصرخ:

— قولوا ما نريد نصوم ...

ومثل الجدة جدات كثيرات يحاولن ايقاظ النائمين، وتكون النتيجة، أغلب الأحيان متوسطة!

ورغم أن لرمضان تقاليده، وكان الشريكس شديدي التمسك بها، فقد كان بعض الحصادين العرب، اعتماداً على فتوى لايعرف من أفتى بها، يبيحون لأنفسهم الافطار، نظراً للمشقة البالغة التي كانوا يلاقونها خلال الحصاد، وكان الآخرون يتسامحون، شريطة أن يقوم المفطر "بسدائها" بعد انتهاء الموسم!

كانت البيادر الأهم والأكبر، والأقرب أيضاً، إلى عمان، تقع على أطراف ملعب كوبان، مقابل بيت الفرج. وهناك لاتهدأ الحركة ليل نهار. وكانت ليالي القمر على البيادر تضفي جواً حافلاً شديداً الغنى، إذ بالإضافة الى العمل الجاد، وأكواب الشاي التي تدور بين فترة وأخرى، كان الغناء ينبعث من أماكن عديدة، وكان المزاج أيضاً، ولكن الى درجة لايعيق العمل ولايزيد عن حد معين.

كما كان يصادف في مثل هذه الليالي أن يصل الى البيادر عدد من التجار. كانوا يجيئون مبكرين، لا لاستيفاء ديون لهم على بعض المزارعين، وإنما للتثبت من أوضاعهم، ولتحديد مواعيد تسديد هذه الديون، وربما أيضاً الوصول إلى عقد بعض الصفقات! والمزارعون الذين يبدون ودأ مصطنعاً، ليسوا مستعدين في مثل هذا الوقت، وفي مثل هذا المكان بالذات، للمساومة أو التنازل، متظاهرين بالانشغال الزائد الذي يمنهم من مواصلة أي حديث!

وإذا كان العمل الزراعي قد ظل مقتصرأ طوال الفترة الماضية على الذين يقومون بالزراعة فعلاً، فإن عمان كلها بعد الحصاد، ولفترة طويلة نسبياً، تصبح ذات علاقة وثيقة بل وتنشغل بهذا الأمر وحده، تقريباً. تفعل ذلك من أجل استيفاء الديون، لتدبير المونة، لفض المنازعات التي تنشأ عن قسمة المحصول، وأيضاً لعقد اتفاقات مزارعة للسنين القادمة، أن كان موسم هذه السنة جيداً، أو لنفض اليد من الزراعة ومشاكلها، مع إيمان مغلظة، وعليها الشهود، أن كان الموسم سيئاً!

حتى تجار النوفوتيه والساكاكر، وهم عادة بعيدون عن الزراعة، يجدون أنفسهم متورطين بقبول كميات من القمح والشعير والعدس، بعد أن حوّل مدين ديونه من واحد إلى آخر، وكانت النتيجة هذه المحاصيل! وهكذا تجد في عمان خلال الموسم أعداداً كبيرة تبيع وتشتري نفس الصنف، كما يقول التجار، وتكون النتيجة مجموعة من العلاقات المتشابكة، والتي يعتبر كل طرف نفسه مغبواً بشكل ما، بنسبة ما!

وإذا كان الصيف يبدأ بالنسبة للصغار مع انتهاء السنة المدرسية، وما يرافقها

من خطوط على الألواح تفيض بعاطفة مفاجئة من الحنين الذي لم يظهر خلال الشهور التسعة الماضية؛ فإن من المظاهر الأولى التي تذكر أن الصيف قد بدأ: "ضو الحصادين" تلك الحشرة الطائرة التي تظهر بعد الغروب مباشرة، ويكون القسم الخلفي منها مضيئاً، إذ تصبح هدفاً يلاحقه الصغار، وبمقدار ماتبدو مضيئة جميلة وهي تطير، فما أن تصاد، ويعد أن يمر وقت قصير، حتى يخبو هذا الضوء اعلاناً عن النهاية.

بين هذه البداية، وعصفور التين، الذي يأتي في نهاية الصيف، تأخذ مسيرة الصغار طرقاتاً متعرجة بين "الزرب" مجدداً في أحد الكتاتيب، باعتباره أفضل من الشارع، وبين أيجاد أعمال للصغار لدى عدد من التجار. أما أولئك الذين يفلتون من أحد هذين المعسكرين، ويبدون أكثر حرية أول الأمر، فلا تلبث الشمس القاسية أن تحرق جلودهم، وتجعلهم أقرب إلى الأشقياء، خاصة وأنهم قضوا أوقاتاً طويلة في النهر، أو في صيد العصافير والحرادين.

الذين جاءوا من القرى، وسكنوا عمان، لكن ظلت علاقاتهم بقراهم مستمرة، ما أن يبدأ الصيف حتى يرحلوا. كان كثيرون من سكان شارع منكور، مثلاً، يغادرون إلى السلط والفحيص وماحص، وهناك يقضون الصيف كله. وأولئك الذين لهم قرابات أو صلات ببعض القرى، كالزرقاء، كانوا يذهبون إلى هناك لقضاء أيام قد تمتد لأسابيع.

حين اقترح على الجدة الذهاب إلى الزرقاء ذات صيف لقضاء أسبوع أو أكثر هناك، كان رد فعلها سريعاً ومفاجئاً:

- يا بابا .. انتو روحوا، أني ابقى هنا، هنا اروح لي!

ولما استغربوا رفضها وتساءلوا، قالت:

- أم عبدالله خوش مرية، بس الواحد بيته اروح له ...

وبعد قليل، وكأنها تحدث نفسها:

- الواحد ببيته ياكل ايشما يريد وشوكت ما يريد.

وحين تذكروا ما تنقصد إليه الجدة، وأكدوا لها أن موسم الفول قد انتهى، ويمكن لها أن تاكل ماتريد، ردت في محاولة لأن تنفي هذا السبب:

- يا بابا .. مو على مود الاكل، أني اكل خبزة وبصلة وأقول: الحمد لله والشكر، لكن نحن هواية، والمرية بيتها زغير ...

وفي محاولة لأن يتركوها ويذهبوا قالت بلهجة جديدة:

- يا بابا روحوا انتو، روحوا وتونسوا، أني هنا هواية متونسة!

بعد جهد وافقت الجدة، خاصة وأنهم تعهدوا أن يقوموا بأنفسهم بأعداد الطعام، بتوفير الراحة لها، كما أكدوا أن أم عبدالله ستغضب لو تخلفت عن الذهاب معهم. ذهبت الجدة، ولكن صنعت لنفسها عدة أقراص من "خبز عروق" وأخذت كمية من التمر. وماكادت تصل إلى الزرقاء، ولكي تخلص من أية احراجات متعلقة بالاكل، قالت أمام الجميع حين وجدت الوقت مناسباً:

- اللي يحبني ويريدني مايلح عليّ بأكلة، بشرية، ترى أني وجعانة، وماكان اتعنى واجي لولا خاطر ام عبدالله .. سمعتوني؟ سمعتوني زين؟

ولما تعالت أصواتهم أنهم سمعوا، وأنهم سيطيعون، قالت وهي تضحك:

- الواحد يحب الثاني موبس بالاكل ..

ومع ذلك فإن الاكل أحد أبرز الأمور التي تشغل الانسان، وتدفعه لأن يفكر ويتصرف بما يتلاءم مع امكانياته، والمحيط الذي يعيش فيه.

فالحمص الذي يكون أول نتاجات الموسم الزراعي، مايكاد ينضج حتى يصبح الاكل - التسلية للكثيرين في عمان. كان يؤتى به أخضر، خلال الفترة الأولى، ويباع بالشليل أو بالكوم، وكانت تستهلك منه كميات كبيرة. أما القمح قبل أن يكتمل جفافه فكان يتم قطاف حزم كثيرة منه، تختار بعناية من نوع جيد، لكي تهيأ منه الفريكة، وكانت هذه أكلة عزيزة ولها طقوس! أما السليقة في عمان، خلال تلك الفترة، فقلما يخلو سطح من الأسطح من الشراشف المنشور عليها القمح المسلوق.

كان البرغل، خاصة اثناء الحرب، مادة أساسية لمعظم الناس. إذ بعد أن قلّ الرز وارتفعت أثمانه، أصبح الجميع يعتمدون على البرغل، ولأنهم يحتاجون إلى كميات كبيرة، باعتباره، كما يقولون، مسامير الركب، لا بد من تحضيره، لذلك فإن موسم السلق أحد المواسم الهامة والحافلة في عمان.

إذ بعد أن "يصول" القمح، بفسله وتنقيته من الشوائب والزوان، وبعد أن يجف، لا بد من تحضير كميات وفيرة من الحطب الذي يولد الجمر من أجل غلي الماء في حلة كبيرة، وفي الماء الغالي يتم سلق القمح حتى ينضج، وبعد ذلك يجفف ثم يطحن إلى مستوى معين، ليصبح بعدئذ جاهزاً للطبخ.

كان موسم السليقة يبدأ بعد الحصاد بفترة، ويستمر حتى وقت متأخر من الصيف. إن تحديد الموعد لا يتوقف على الرغبة وحدها، لأن "الحلة" هي الأساس، خاصة وأن من يملك مثل هذه الآنية الكبيرة عدد محدود جداً، الأمر الذي يضطر لاستعارتها، أو لاستئجارها، إذا لم يتم الاستعاضة عنها بأواني أصغر، كالتنك.

أبو مجدي بائع الذرة الصفراء المسلوقة، والذي "يبسط" ما بين مطبعة السمان وسوق البخارية، رجل طريف، إذ يتحول و"حلتته" خلال فصل الصيف إلى "سلاق" يعرض خدماته لمن يحتاجها. بعد أن يعاين الكميات التي يراد سلقها، يحدد المكان المناسب لإقامة الموقد، والحطب اللازم « للعملية » كما يحدد اليوم الذي سيقوم فيه بالعمل. كان يفعل ذلك بدراية الخبير ودقته، تاركاً مسألة المقابل الذي يريده لقاء العمل إلى آخر لحظة. فإذا أُعتبر المقابل الذي يطالب به كبيراً يبتسم، وتكون ابتسامته أقرب إلى السخرية، فيستدير نصف استدارة كأنه يريد أن يغادر، وهو يقول:

- اي نعم سعر أبو مجدي غالي ...

يتطلع في الوجوه بثقة وهو يضيف:

- الغالي سعره معه ...

وبعد قليل تغيرت النبذة:

- سلاق عن سلاق ييفرق، وأنا إذا حطيت ايدي بهذي الشغلة بدي الواحد يقول: الله يعطيه ألف عافية اللي سلق هالبرغل، ما بدي واحد يقول: يكسر ايديه !
وتتغير اللهجة:

- ومع ذلك ما صار شي، دوروا على واحد أرخص مني !

ويضحك بصوت عالٍ متحدياً قبل أن يواصل:

- بس لعلمكم ... إذا مالقيتم، وبعثتوا ورا أبو مجدي، ترى سعر أبو مجدي راح يكون أغلى!

وأبو مجدي ليس سعراً مرتفعاً فقط، وإنما كثير الضوضاء، كثير المطالب، إضافة إلى أنه بحاجة إلى عدد من المساعدين. كانت لديه القابلية لتسخير أي من الذين حوله، سواء له علاقة بالسليقة أم لا!

وثالثة الأثافي، كما يقال، في صفات هذا الرجل، مجموعة النظارات التي يستخدمها الواحدة بعد الأخرى، وحسب الحالات. فحين يكون الأمر متعلقاً بالنار يضع على عينيه نظارات سودا قاتمة، وحين يعاين غليان الماء أو نضوج القمح يضع نظارات بيضاء، والأغلب ليست طبية، أو على الأقل ليست له! وحين يقف منتظراً قدح الشاي، أو نضوج السليق، كان يضع نظارة لها زجاجة واحدة!

الجدة التي لم يرق لها هذا الرجل، لكن، على عاداتها، كتملت عواطفها خلال الساعات الأولى، خاصة وهو يسخر الصفار، ويجعلهم في حركة دائمة، لجلب الحطب، الماء البارد، الشاي، الغداء، ثم كميات كبيرة من السكر الناعم لترش على السليقة...

في لحظة معينة لم تعد قادرة على الاحتمال أكثر من ذلك. صرخت بشكل مفاجئ:

- شلون، يامعودين، ثبرنا هالابن الحرام. خبصنا خبصة موشلون ماكان ...

وحين تبدو كلماتها غير واضحة بالمقدار الكافي، تضيف بعصية:

- يابا شقعا يسوي هالابن الحرام غير يقوّر الماي ويشمر بيه الحب؟ أني أقدر أسوي مثله وأحسن منه، لكن أنتم، أهل عمان، تحبون الهرجة والخبصة!

فإذا وضحو لها أن الأمر ليس من السهولة التي تتصورها، ترد بسخرية:

- طيروا .. احجوا هذا الحجي لواحد زعطوط ...

وبعد قليل، وكأنها تخاطب نفسها:

- كنا إذا قمنا عن التنور نندار على المواعين، وبعدها نركب، وبعده التركيب

ندار على المغزل، وماكنا نقول كلمة واحدة، لانقول أخ ولاوي، لانقول عيني ولا أغاتي، بس أهل هذي الديرة يريدون كل شيء على البارد المستريح!

وذهبت إلى أبي مجدي، تطلعت إليه ملياً، وكان يضع، تلك اللحظات، نظارات الزجاجة الواحدة، سألته:

- يابا ما تجوز من تسخير الجهال؟

- نعم ستي؟

هكذا سألها، وكانت ضحكته تملأ وجهه، ردت بغضب.

- اشو ماكو عندك الا تدرز الجهال خري مري. انت جيتنا حتى تشتغل ام

تريد تسويها سخطة؟

- مافهمت عليكى،ستي!

- عبالك شعار،مايعرف غير السخحات.

احس أنها غاضبة وأنها تؤنبه،ولكى ينهي هذه الموجة من الغضب،استبدل النظارات التي يضعها على عينيه بالأخرى التي يراقب بها مدى نضوج القمح،وحين تأكد،صاح،وقد تعود الصغار على صيحته:

- استوتو يا شباب ... اتحضروا.

قالت الجدة لنفسها،وهي تفسح الطريق للصغار الذين أخذوا يتراكمون لمساعدته:

- مايعيش بهذي الدنيا إلا السختجي!

ودخلت،بعد أن تفلت،وربما سمعها من كان قريباً وهي تقول:

- الحق عليّ،شلون احجي مع واحد ما اعرف قرعة ابوه منين؟

ماكاد السليق يُنزل عن الأسطحة،حتى امتلأت من جديد بالبدورة المعصورة؛ كانت الأواني المتعددة الأحجام والأشكال،والتي تشبه بحيرات دم صغيرة متخثرة،تنتشر في كل مكان تحت شمس عمان. وهذه الأواني التي تكون كثيرة مثل البقع المتناثرة على كل سطح لاثبت أن تتقلص يوماً بعد آخر،حيث تتركز في النهاية بأوانٍ قليلة،تمهيداً لوضعها في قطرميزات تحفظ لأيام الشتاء،لتكون مادة أساسية لغذاء كل يوم.

وإذا كانت عمان لم تعرف في تلك الأيام تجفيف وحفظ مواسم الصيف لأيام الشتاء،وكانت تختص بذلك بعض السيدات اللواتي يجلبهن هذه الخضار من الشام،فقد بدأت تظهر،فترة بعد أخرى،حبال البامياء المجففة،والفليفلة،وتجرات بعض النسوة فجففن الكوسا والبالذنجان وبعض الخضروات المشابهة. صحيح أن أخطاء كثيرة حصلت في هذه العمليات،نتيجة قلة الخبرة أو أخطاء التعامل،لكن يوماً بعد آخر أصبحت عمان تعرف كيف تواجه أيام الشتاء،وكيف تتغلب على المصاعب والنواقص.

قالت الجدة،وهي تستذكر الأيام الماضية:

- يجوز أني ما افتهم،لكن اشبلاهم الجوارين،لو أربعة خمسة منهم،اشتروا جدر جبير،ماكان أحسن من ذاك السختجي،أبو الجدر والمناظر اللي جا وخبص الدنيا،وبعدها أخذ كوم فلوس،وما قال في أمان الله؟

ولأن رمضان، خلال تلك الفترة، جاء في الصيف، فقد أضفى على الحياة لونا من التسامح أقرب إلى الرحمة والتعاطف، الأمر الذي لا يكون بنفس المقدار في الشهور الأخرى. فالحريصون، وهم في الحقيقة أقرب إلى البخل، ينقلبون إلى كرماء بين يوم وآخر، إذ يتخلون عن الحرص الشديد أو اللافت، بل ويبالغ بعضهم في السخاء، ليزيل من أذهان الناس الصفة التي يلصقونها بهم، ويعتبرون ذلك تجنياً! والذين واجهوا أكثر من غيرهم صعوبات الحرب، وعانوا الكثير في الأيام الماضية، يصبحون في هذا الشهر قادرين على النسيان نتيجة الكرم الذي يظهر من الذين حولهم. والمؤن التي وضعت بعيداً خوفاً مما قد تأتي به الأيام، لاتلبث أن تخرج كلها أو بعضها، وكان الحرب انتهت وأصبحت ذكرى من ذكريات الماضي.

كان أهل عمان يسخون على أنفسهم وعلى غيرهم خلال شهر رمضان، حتى ليظن من يرى تصرفاتهم، وبعض الأحيان اسرافهم، يفترض أنهم في بحبوحة كبيرة، وإن الحرب لم تقترب كثيراً منهم. فباعة القطايف لا يظهرون إلا في هذه الفترة من السنة، والذين لا يستطيعون شراء الكنافة لا يترددون في أن يحاولوا عملها في البيت. طبعي لا يتجرأون على ذلك إلا بعد استكمال المعلومات الدقيقة والتفصيلية الخاصة بالصنع، وبعد الاستعداد الكافي من حيث المواد والأدوات، ومع ذلك، وماتكاد تعتبر الوجبة قد اكتملت ويتم تذوقها، حيث يكتشف الجميع الفرق بين الكنافة التي يعرفونها، وهذه التي يأكلونها الآن، ورغم ذلك تُفترض مزايا كثيرة لكنافة البيت، ويبالغ في ذلك الصانع الأول، ثم المساعدون، من حيث خلو المواد المستعملة من الغش، والنار الهادئة، وأخيراً الأنفاس!

وباعة السوس الذين لا يظهرون إلا نادراً، وفي أمكنة خلفية من المدينة، بل ويلجأ بعض باعته إلى استبداله بالتمر هندي معظم الأيام العادية، بظهور فجأة وبكثافة خلال شهر رمضان، وكأن السوس أحد الطقوس أو أحد المظاهر المميزة لهذا الشهر. والباعة الذين غابوا أو صمتوا طوال الفترة السابقة، تعلق أصواتهم، خاصة بين العصر والمغرب، وهم ينادون: "خمير وبارد ياسوس" "طيب ومرطب ياسوس". ويكون الكثيرون من الصائمين قد استعدوا بأباريقهم والسطول الصغيرة، إذ يملأونها ويهرولون انتظاراً للمدقع، وليكون السوس والتمر ما يفطرون عليه!

هل كان في عمان ثلاثجات خلال تلك الفترة؟

أغلب الظن أن معظم الناس - هل تمكن المجازفة والقول الجميع؟ - لم يفكروا أو لم يبلغوا هذا المستوى من الترف لاقتناء ثلاثجة! وإذا كانت بعض الأدوات تفضح نفسها، كالراديو مثلاً، فإن الزقاق الصغير الذي على رأسه، من ناحية شارع فيصل، أبو جضم، ومن الناحية الأخرى أبو صلاح العلبي يمكن أن يعطي الجواب!

كان هذا الزقاق يمتلئ أكثر من أي مكان آخر بين العصر والغروب، خاصة في شهر رمضان، من أجل الحصول على قطعة تُلج من الألواح المرصوفة في ذلك المخزن الذي يقع وسط هذا الزقاق. كان المنشار لا يتوقف لحظة واحدة، وماتكاد القطعة تصل إلى يد صاحبها، حتى يكون الخيط مهيناً لربطها، ثم الهرولة إلى البيت لتكون هذه القطعة جزءاً من الإفطار، إذ توضع في السوس أو الماء في الوقت المناسب!

لم يكن الفقراء وحدهم الذين "يدلون" أنفسهم بشراء قطعة تُلج بقرش أو اثنين، كان الأغنياء يفعلون ذلك، الفرق بين الفريقين: الكمية والتوقيت، فالأغنياء يشترون مبكراً نصف لوح من التُلج، وربما أقل أو أكثر، وكان ذلك لا يجري إلا خلال شهر رمضان، إذ يبدو مخزن التُلج في الأيام الأخرى، وفي معظم الأوقات، بطيء الحركة.

حتى تجار السوق كانوا يفضلون ماء النبع، بحجة أنه صحي وبرودته طبيعية، كل ما حرصون عليه أن يسخروا الأولاد بتجديده بين فترة وأخرى، خاصة حين يأتي زبون "دسم" أو ضيف عزيزاً!

في وقت لاحق، وأخر الأربعينات، عرف الناس الثلاثات، وتم شراؤها، ودخلت البيوت، وكان موقع بعضها في غرف الضيوف، للدلالة على الموقع الاجتماعي للمالك! الذين سافروا إلى بلداتهم وقراهم للاصطياف لم يكونوا قادرين على ترك بيوتهم لفترات طويلة، ليس خوفاً من السرقة، وإنما لوجود الدجاج بالدرجة الرئيسية! والجارة التي تستطيع أن تعتني بدجاجات جارتها لبعض الوقت، لا يمكن أن يُثقل عليها، الأمر الذي يقتضي عودة بعض المسافرين لاقامات قد تطول أو تقصر. أما حين ينضج العنب والتين فتصبح العودة ملحة، لأن تحضير مواد الشتاء يتطلب الاستعداد، وهكذا تنتشر المدارق من جديد، إعلاناً عن العودة، ويبدأ بعدها تحضير الخبيصة والقطين والزبيب، كما يكون جزء من المونة قد تم تحضيره في القرية، وفي هذه الفترة، وإعلاناً عن كرم الطبيعة، كان يرسل العائدون للجيران العنب والرمان واللوز اليابس، مع رسائل ودية: "بعد فترة سيصلكم القطين والخبيصة!" كان أهل القرى أكثر كرمًا من أهل المدينة، وربما الجذر البعيد الذي لهم هناك يجعلهم أكثر ثقة!

وإذا كان الشتاء، هو انكفاء للداخل، والربيع دهشة واكتشاف وإعادة الصلة بالطبيعة، فإن ليالي الصيف، لا نهاراته، فرصة لإعادة ترتيب الأولويات والأشياء

وتأملها، وأيضاً محاولة لامتصاص الرحيق، تماماً كما يفعل الصغار وهم ينتزعون
توزيع أحد النباتات الشوكية ذات اللون البنفسجي، ويمتصون الحلاوة منه!

كانت الليالي في أصياف عمان مليئة بالسحر والأيحاء، وكان الناس يسهرون
ويطيلون السهر، ويبالغ البعض فينام تحت السماء. وفي هذه الليالي يطيب السمر
وتجري الأحاديث واستغابة الآخرين، وقد يتخللها الغناء، لكن الأصوات، أغلب
الأحيان، متواضعة، وتظل في محيط لا تتعداه.

تعود أن يمر في أحياء عمان بائع صغير للحلويات، كان هذا البائع يبيع أكثر
من الآخرين، خاصة من عبده، ابن صاحب الدكان في بداية شارع خرفان، رغم أن
العربة التي يجرها عبده تحوي أشياء كثيرة وتتنوع حسب الفصول، والسبب في
حجم المبيعات أن هذا الصغير كان شجي الصوت، يردد بعض الأغاني. فعندما يبدأ
بأغنية: "قل لي يا غنام" تفتح أبواب البيوت، وتخرج الفتيات إلى الشرفات لتتابع هذا
"الغنام" الصغير!

بعد أن تم انشاء محطة إذاعة في عمان، وكان ذلك في النصف الثاني من
الأربعينات، وكانت فترات بثها قصيرة، في الصباح والظهر، وأطول فترة في
المساء، فقد كان من أبرز المغنين في هذه الإذاعة: عبد الوهاب اقومي، المغربي، ورغم
جمال الأدوار التي كان يغنيها، فالجدة لا تتوقف عن السؤال بين كلمة وأخرى، بين
مقطع وآخر:

- شيقول هذا؟

وحين توضح لها الكلمات التي يغنيها، تقول:

- وهاي شنو؟

فاذا اشكلت عليها الأمور أكثر مما تحتمل تعلق:

- واي .. واي .. غنا هذا غنا وغنا صديقة الملاية غنا؟

وبعد قليل تقول، وكأنها تخاطب نفسها:

- خلني اقوم اتوضا واصلي أحسن من هذه الطنِ طنِ!

ويستمر الدفء، وإذا بدأ الصيف مبكراً في عمان، فإنه لا ينتهي بانتهاء
الصيف!

بمقدار ما يبدو الربيع في عمان صريحاً، أقرب إلى الفضيحة، وهو يعلن عن وصوله، فإن الخريف مخادع، إذ يتسلل بهدوء أقرب إلى الخفاء، حتى لا يكاد يُحس به، لكنه يوماً بعد آخر يتمكن ويستبد تماماً كالنفعاس حين يسيطر.

قد تشي بالخريف بعض المظاهر في السوق التجاري، كالازدحام حول مكتبة الصفدي أو مكتبة المغربي لشراء اللوازم المدرسية؛ ومثل شراء الأحذية، خاصة صندل الحنتور، أو شراء الملابس، وغالباً ما يتم ذلك من مخازن السبتية، حيث تتوافر الملابس الجديدة والقديمة، وأبو فؤاد ومتري، وبفراسة لاتخطى، يعرفان أية ملابس تلائم المشتري، سواء من حيث الامكانية أو المزاج، وبالتالي لا بد أن يبيعا، ولا بد أن يسقطا أي تردد أو اعتراض عند المشتري.

وقد تشي بالخريف أيضاً الحركة النشيطة لعدد من البنائين. فراضي أبو الشوارب يكون في حالة من الانشغال والحركة إلى درجة تصبح معها تصرفاته أقرب إلى النزق، خاصة وأنه يريد أن ينتهي قبل أن تبدأ الأمطار.

أما عربات الشركس التي هدأت حركتها خلال الفترة الأخيرة من الصيف، فإنها تعود مرة أخرى من أجل المساعدة في أعمال الحراثة والبذار. أما إذا ظهرت بعض الغيوم، وأخذ الصغار يتحرزون حول اشكالها وما تمثل من مخلوقات أو معارك، فالجدة تتظاهر بالغضب، لأن الصغار لم يتعلموا من الدروس السابقة، ولذلك تعيد عليهم هذه الدروس:

.. قراية النجوم وقراية الغيوم شغل السحارين .. وهذا أول الكفر.

المدرسة بعد العطلة تبدو مختلفة، مع أنه لم يتغير فيها شيء، إذ تبدو أصغر، بنظر التلاميذ، عما كانت عليه حين تركوها في أول الصيف! حتى الأساتذة تغيروا أيضاً، إذ تبدو ملابسهم أكثر قدماً، والتعب غزا ملامحهم واشكالهم.

وكلوب باشا الذي غاب خلال الصيف، لا يعرف أين، وعاد، بدأ بنظر كثير من الذين رأوه أكثر حركة وشباباً؛ والبدو الذين انقطعوا طوال الشهور الماضية عن بيته وعن القيادة، عادوا من جديد، وقيل إنه تم تجنيد أعداد كبيرة منهم في قوات البادية. أما مبرد، مرافق كلوب، فقد رقي إلى رتبة ضابط، وكذلك حكمت مهيار.

الذين كانوا متحمسين لهتلر، أبو علي، وكانوا يتابعون أخبار راديو برلين، ويحفظون تعليقات يونس بحري، لم تفتر حماسهم، لكن أصبحوا مختلفين عن السابق، أصبحوا أكثر نزقاً وأكثر استعداداً للعراك، خاصة وقد أخذت تصل قوات متزايدة من الحلفاء، وتمر في عمان باتجاه الشرق وباتجاه الغرب، ولا يعرف الناس أين ذهب أولادها.

الجدة التي حاولت بالحاح أن تذهب إلى بغداد خلال الصيف، وأجلت رحلتها مرات عديدة، بالرجاء والاقناع، لم تعد قادرة على الاحتمال أو التأجيل، لذلك أخذت تستعد بعد أن انكسرت حدة الحرارة، وأصبح الجو في بغداد مقبولاً.

بستان الغريب الذي ظل مكاناً محرماً من بداية الربيع وحتى نهاية الصيف، أخذ يغيب عنه محيي الدين، وانشغلت أمه بتنشيف الملوخية والنعنع، وإيضاً بطرد العصافير والدبابير عن دالية العنب التي تخيم على مدخل البيت، وقد "كيست" عدداً من قطوف العنب، وتركت أخرى لكي تقطف مبكراً، وبذلك أصبحت مشغولة، وتحوم فقط حول البيت والدالية طوال النهار، مما أتاح للتلاميذ المتأخرين أن يمرؤا من البستان وهم في الطريق إلى المدرسة. ليس ذلك فقط، أصبحت لعيون هؤلاء علاقة مغناطيسية مع اللوزات المنسية، خاصة وأن الأوراق بدأت بالذبول، أو على الأقل فقدت الكثير من لونها، مما يتيح لهم أن يستعملوا المغطيات في انزال اللوزات المتأخرة، أو استعمال الحجارة، وبعض الأحيان يستغلون ببطء العجوز وبعدها لكي يتسلقوا الأشجار. وقد صادف أكثر من مرة أن جاءت للبحث عنهم، بعد أن سمعت أصواتهم، لكن نتيجة الخوف أو المكر ظلوا "لابدين" دون صوت أو حركة، ومرت تحت الأشجار التي يكونون فوقها، فإذا ابتعدت مسافة أمن كافية هبطوا بسرعة ضاحكين، وحين تكتشف أم محيي الدين الخدعة، تحاول أن ترمي وراءهم بضعة حجارة!

ما إن تمر أسابيع قليلة حتى تتساقط أوراق أشجار اللوز وتتعرى الأغصان تماماً، وتدخل أم محيي الدين في سبات طويل.

وبستان أبو شام الذي كان يفخر بأن فيه الفواكه المبكرة، والتي تنزل قبل

غيرها إلى السوق، وتحصل على أسعار مرتفعة، كان يفخر أيضاً بوجود فواكه تتأخر عن غيره من البساتين، كالسفرجل أول الأمر، ثم نوع من الخوخ، كان يطلق عليه الخوخ الاستنبولي، وقد جلب شتلاته سليمان أبو شام في إحدى سفراته إلى تركيا.

العلاقة بين الجدة وأم عمر أبو شام وثيقة وبالغة الود، إذ كانت المرأتان تتزاوران وتقضيان وقتاً طويلاً معاً. وفي هذه الزيارات، وحدها، أم عمر، تتكلم، والجدة تصغي. كانت الأحاديث تدور حول الدين وقصص الأنبياء، والجدة التي تفهم بعضاً مما يقال، ولا تفهم البعض الآخر، كانت ترد باستمرار: صلوات .. صلوات على النبي.

في هذا الخريف، وقبل سفر الجدة بيوم واحد. حدث أمر لم يتوقعه أحد: ففي الوقت الذي كان يفترض أن تأتي أم عمر لوداع الجدة، وأن تحمل معها بضع حبات من الخوخ الاستنبولي، لكي تأخذها الجدة معها إلى بغداد، "ولازم تزرعوها هناك يا حجة" جاءت أم علي الشرشوحة.

جاءت أم علي تنقل خبراً لم يُصدق رغم وضوح الكلمات:

- أعطاكم عمره سليمان.

- شنو؟ منو؟

- سليمان أبو شام مات .. اختنق، خنقته خوخة!

مرت دقائق حتى استوعبت الجدة ما حصل، بعد أن استعادت أم علي الخبر عدة مرات، ولم تتأخر لتذهب وتكون قرب أم عمر.

إنه يوم تتذكره عمان جيداً، فذلك الشاب الأوسط بين أخوته، كان وحده المسؤول عن البستان الكبير، كان يفيض شباباً وقوة وحيوية، ويريد أن يجعل البستان، كما كان يردد: "جنة الله على الأرض". كان لا يتعب من التعشيب والتقليم والتجهين، وفي محاولة لأن يتفوق على أصحاب البساتين الأخرى ... وفجأة تأتي أم علي الشرشوحة بخبره.

تقول أمه، وكانت أقرب إلى الذهول، وكأنها تتحدث عن واحد بعيد:

- وحده سافر إلى تركيا، لا أحد قال له، ولا أحد جره. حمل حاله وراح، وجاب معه خوخة الشيطان!

وبعد قليل ويلهجة غاضبة:

- يا حجة .. احلفك بالله وملائكته، وهذول الناس شاهدين، لاتحملي شجرة الزقوم ولاتذوقوها .

ومن بين دموع النسوة ونحيبهن يخرج صوت لايعرف لمن:

- الأشجار مثل الأولاد، موكل شجرة عجبك صارت شجرتك، ولا كل ولد هفت له نفسك صار ولدك .

يقول من كان موجوداً أن الأخ الأصغر لسليمان حمل الفاروعة وأراد أن يقطع أشجار الخوخ، لكن أباه منعه وكان قاسياً في منعه .

وقيل إن أحد أقرباء سليمان اقترح دفنه في البستان ذاته، لكن أحداً لم يستجب لاقتراحه

قالت الجدة إن نعش سليمان ،والرجال يسرون به عبر الممر الطويل بين البيت وبداية الشارع، غطته أوراق الأشجار التي كانت تتساقط، رغم أن النهار كان ساكناً .

وأكد الكثيرون أن خريف ذلك العام جاء مبكراً، خلافاً لكثير من السنوات، وأن الكثيرين أوقدوا النار وشتوا قبل أربعين سليمان .

والجدة التي اشتريت بعض الحاجات، لتحملها معها إلى بغداد، وزعتها على روح سليمان أبو شام، بعد أن أجلت سفرها إلى الربيع .

أما بعد أن سافرت وعادت فقد وجدت أن أم عمر غادرت البيت، إلى بيت آخر .

وبعد عدة سنوات أنكرت الجدة أن يكون ذلك المكان هو نفسه بستان أبو شام، أما حين انفجر اللغم في البستان .

بعد سنوات من وفاة سليمان، فقد قيل أن المكان تحول إلى مستودع، ولم يعد، بعد، بستاناً .

الانتقال من المدرسة الابتدائية إلى المدرسة الثانوية كالانتقال الفجائي من الصيف إلى الشتاء، ويشبه اقتلاع شجرة من مكانها وغرسها في مكان مختلف. إنها عملية شاقة، رغم الشعور بالكبرياء المتببس، حيث يحس التلميذ أنه كبير وصغير في آن واحد. فالمدرسة السابقة لم تعد له، لم تعد تسعه، رغم أنه كان في الصف الأعلى، ولذلك عليه أن يغادر. وفي المدرسة الجديدة يحس أنه ضئيل ومجهول، وبالتالي لا يستطيع أن يتكيف مع المكان الجديد بسهولة.

في بداية السنة الدراسية تتكون مجموعات على شكل جزر من الطلبة الجدد، تعتبر امتداداً للمصادر السابقة. فهؤلاء الطلبة أتوا من أماكن عديدة، من عمان والبلدات الأخرى القريبة، عدا السلط، ولذلك تبدو الهيئات والمستويات شديدة التنوع والتباين، إضافة إلى تعدد اللهجات.

طلبة العبدلية، مثلاً، أيأ كانت الصلة التي تربطهم سابقاً، يصبحون أصدقاء، شديدي العصبية والتضامن، بل ومستعدين للدخول في معارك إذا تعرض أحدهم للاعتداء أو للسخرية. ولا يختلف طلبة المدارس الأخرى عن العبدلية، إن لم يكونوا أكثر ترابطاً، خاصة الذين جاؤوا من خارج عمان.

ولكن كيف تبدو المدرسة الجديدة؟

بناية قديمة كانت في يوم بعيد ثكنة عسكرية، تقع في شارع جانبي متفرع عن شارع الأمير طلال، وسط السوق. لا تبعد إلا قليلاً عن الجامع الحسيني وسينما البتراء والمنشية والكرنتينا، من ناحية الشرق. أما من ناحية الغرب، فإنها على رمية حجر، كما يقولون، من الحمام وسوق الحلال الصغير. يحيط بهذه المدرسة - الثكنة سور عال لا يفكر أحد، مجرد تفكير، بتسلقه، عدا عن كونه يمنع الكرة من الوصول إلى الشارع! وسط السور، من الناحية الشرقية، بوابة حديدية عالية ثقيلة، كأنها بوابة

سجن، يقف وراءها، من الداخل، حارس له مهمات عديدة، من جملة فتح البوابة وإغلاقها

الصفوف المخصصة للطلاب الجدد في الطابق الثاني، تطل مباشرة على الشارع الرئيسي. عبر هذا الشارع تماماً حداد لا يهدأ كوره ولا تتوقف مطارقه. إذا شرد انتباه أي طالب للحظات، وكانت النوافذ مغلقة، يستطيع أن يلتقط الكثير مما يقال تحت النوافذ، أما إذا فتحت هذه النوافذ، وكان يحصل ذلك لفترات قصيرة بين حصة وأخرى، من أجل التهوية والتسلية معاً، فإن السوق كله ينتقل إلى داخل الصف! أصوات الباعة والمساومات والسؤال عن الصحة والمواسم والمسافرين، وأيضاً الضحكات الصاخبة التي تعقب نكتة جنسية مكشوفة!

المدرسة واسعة بباحاتها، رغم ما فيها من أدوات رياضية، إضافة إلى الأشجار المعمرة الكثيرة والمنتشرة على الطرف الجنوبي بشكل خاص. عدد الصفوف والشعب كبير في المستويات الدنيا، يتقلص تدريجياً ما ارتفع المستوى، حتى إذا نجح عدد من طلاب الثالث ثانوي كان عليهم أن يغادروا إلى السلط، فيما لو أرادوا مواصلة الدراسة، تمهيداً للتخرج من هناك، والعودة إلى دوائر الدولة والتعليم، أو متابعة دراستهم الجامعية.

تناوب على إدارة المدرسة، خلال تلك الفترة، عليان: على رويحي وعلي سيدو، وإذا كان الأول استطاع ذلك، رغم كونه مصرياً، من خلال اللباقة والمسايرة وخفة الدم، فإن من مزايا المدير الآخر، علي سيدو الكردي، الحزم وتقطيب الجبين، إذ لم يكن يعرف الابتسام مطلقاً، وكأنه خلُق وعلى كتفيه هموم الدنيا كلها، أو كأن التلاميذ شياطين بالفطرة، وبالتالي لابد من معاملتهم بقسوة!

إذا كانت الطبيعة، بالأشجار والخضرة والطيور أيضاً، شديدة الحضور والكثافة في الشوارع التي تؤدي إلى المدارس القديمة، فإن الوصول إلى المدرسة الجديدة يتطلب المرور في شوارع مزدحمة، مليئة بالبشر والحاجات، الأمر الذي يجعل العيون تتفتح على أنماط مختلفة من الأشكال والعلاقات والناس، إضافة إلى اختلاف "اللغة" !

لم يكن لأهل السوق موقف سلبي من التعليم، وبالتالي من المدارس وطلابها، ومع ذلك لا يبدون مرتاحين أثناء انصراف الطلاب بشكل خاص. فهذا الكم من البشر الذي يتدفق فجأة، ودفعة واحدة، إلى السوق فيملاؤه، ويحصل ذلك مرتين، عند الظهر، وبعد العصر وقبل الغروب، يجعل الكثيرين أقرب إلى الزفرزة

وأميل إلى الحذر، خاصة حين ينصرف الطلاب الانصراف الأخير، إذ يكون هؤلاء ميالين إلى التسكع، ومضايقة بعض المشتريين، خاصة من البدو، إضافة إلى أن أحداً منهم لا يشتري "ببارة"، فهم مفلسون، وإذا وُجد في جيب أحدهم "تعريفة" أو قرش فلشراء أشياء غير تلك المعروضة في هذا السوق. هذا عدا عن حالات الضوضاء والكثافة، وهما سببان يساعدان على السرقة أو السهو عن تسديد القيمة! وفي حالات كثيرة إلى الخطأ في الحساب! ولا يخلو الأمر، في حالات معينة، من التنغيص على الباعة!

لقد كان هناك عدد من "الباعة"، لكي يحرّضوا على الشراء، يتفوقون فيما بينهم، ويمثلون أدواراً؛ إذ يتظاهر بعضهم أن السلعة المعروضة بالغة الرخص، لذلك يُقبل بحماس على الشراء أمام الآخرين، ويبدى اغتباطه للسعر والنوعية بصوت عالٍ، وقد يشتري مرة أخرى وثالثة، لكي يشجع المترددين على أن يفعلوا مثله، وغالباً ما تسري العدوى فيشتري البعض. بعد أن ينفذ الجمع يعيد المشترون الصوريون البضاعة إلى صاحبها. تنطلي الحيلة على الكثيرين أما المفلسون فإن همهم المراقبة والمتابعة، لأنهم يقضون وقتاً طويلاً في السوق، ولا بد أن يكتشف بعضهم الحيلة، فإذا صرخ أو صرّح .. وبعض الأحيان إذا ابتسم، فلا بد أن يصبح خصماً، وقد يتعرض للأذى!

كان عدد كبير من التلاميذ يقضون وقتاً طويلاً في السوق، رغم التعليمات المشددة التي يكرها المدير علي سيدو! وخلال هذا الوقت "يتلقون دروساً" من نوع آخر، فإثناء حضور المساومات التي تجري في سوق الحلال، القريب من الحمام، يعرفون أسعار الملح والخراف وبعض المحاصيل. وكانوا يرون طريقة البدو في البيع والشراء، إذ رغم ما تتسم به هذه الطريقة من بساطة، فإنها لا تخلو من مكر، فحين يريد البدوي أن يشتري يدوخ السوق، بالذهاب والعودة والمساومة، راسماً على وجهه البراءة والبساطة، وغالباً ما يصل إلى أقل الأسعار! أما إذا أراد أن يبيع فيتظاهر بالجهل الأقرب إلى البلاء، مع كلمة واحدة تفتح البازار. "سوم". وكلما عرض عليه سعر قال :

بعيد ... بعيد ،مع التأكيد أن من يعرض مثل هذا السعر لا يريد أن يشتري، وحين يبلغ السعر حداً معيناً وبشكل مفاجئ يقول البدوي: الله يبارك لك، صار حلالك. وكثيراً ما أظهر المشتري ندماً لأنه تسرع ودفع أكثر مما قدر، وأكثر من سعر السوق!

القصص المتعلقة بالأساتذة، شخصياتهم ومزاجهم وطريقتهم في التصرف، تُعرف وتنتقل حتى قبل أن يصل التلاميذ الجدد إلى المدرسة.

يعقوب هاشم، أستاذ الرياضيات في الثانوية، أهم شخصية في المدرسة. يعرفه، أو على الأقل، سمع اسمه، كل إنسان في عمان.

رجل شديد البساطة بشكله وملابسه، وبعض الأحيان بتصرفاته، رغم كونه الأخ الشقيق لرئيس الوزراء إبراهيم هاشم! كان قليل العناية بشعره وبثيابه، وكثير العناية بالمسألة التي يفكر بها ويريد حلها. إذا سيطرت عليه مسألة، واستعصى الوصول إلى حل لها، يصبح أقرب إلى الذهول، إذ لا يحس بكل ماحوله، من أصوات وبشر. والقصص التي تروى في هذا الشأن كثيرة، ولا يخلو بعضها من مبالغة!

يروون أنه في إحدى المرات، وكان يسير في السوق، بالقرب من مطبعة السماء، حيث تقف باصات مآدبا، وكان مستغرقاً بمسألة رياضية تشغله، فجأة برقت في ذهنه بداية حلها، فما كان منه إلا أن أخذ يخط على غبار الباص الأرقام والرموز، وحين وقت تحرك الباص، وهو مشغول يكتب ويتابع، فلما نبه إلى ذلك، دفع أجرة راكب، فقط لكي ينقل النتائج التي توصل إليها!

تروى القصة بهذه الطريقة، ويرويها آخرون أنه اضطر، لضيق الوقت، أن يركب الباص ويذهب إلى مآدبا، لعل تتاح له هناك مواصلة الحل والوصول إلى النتيجة، لكن باعتبار أن الطريق لم يكن معبداً، فقد تراكم الغبار من جديد على "المسألة". ورغم سفره إلى مآدبا، في هذه الرحلة، والجهود التي بذلها، فقد كانت النتيجة الفشل، وظلت المسألة دون حل لسنوات كما يقال، رغم المراسلات التي كان يتبادلها مع أساتذة آخرين، ومع بعض المراكز الرياضية!

ولأنه يدخل الأركيلة، والمنشية غير بعيدة، كان "يعزم" نفسه إلى هناك بعض الأحيان، بعد أن يعطي الطلبة فروضاً، مع التأكيد على العريف أن يسجل أسماء التلاميذ المشاغبين، أو الذين لا يتابعون حل الفروض، ولأن العريف راشد الحنيطي، أكثر شغفاً من المشاغبين، فقد قاد ذات يوم مجموعة من هؤلاء إلى المنشية كي يعاقبهم الأستاذ يعقوب هناك!

وثمة قصص كثيرة تروى، من إطلاق الجنادب في الصف، إلى رشق بذلته العسكرية من الخلف بالحبر، إلى التهمير.

كان أكثر ما يضايق الأستاذ يعقوب سماع تهمير المشاغبين، وهو الصوت الذي يخرج على شكل ونين، دون أن تفتح الشفاه. كان يصرخ:

- أنا اللي بيهم بضربهم بضرب اللي بدهاه!

ومايكاد يتوجه إلى حيث يخرج الصوت حتى يصدر صوت التهمير من ناحية ثانية، ويظل الأمر كذلك إلى أن يأتي الأستاذ وهيب أو المدير!

كان الأستاذ وهيب، بعد المدير، أقوى الأساتذة وأكثرهم حضوراً، إذ بالإضافة إلى كفاءته في مادته، اللغة العربية، فقد كان حريصاً على أن يكون مربياً، بالنسبة لأكثر الصفوف. كان يهتم بالنظافة بشكل خاص، إذ يتأكد من الحلاقة والأظفار والملابس، ويقسو في معاقبة المخالفين، كما كان يهتم بالرياضة، رغم سمنته وتقدمه بالسن. ومن الأمور اللافتة أيضاً صوته الشجي حين يتولى تدريب التلاميذ على الاناشيد!

والأستاذ حسيب، بطربوشه المائل قليلاً، والذي يدل على المرح، وبخبرة السنين الطويلة، يعرف كيف يحوّل التاريخ والجغرافيا إلى مادة ممتعة، كان يستحضر المدن والقارات ويجعلها تنبض بالحياة والحركة، بحيث أصبحت الجغرافيا أكثر المواد التي يحبها الطلبة وينتظرونها! أما إذا دخل إلى التاريخ فكان يُدخل الطلبة معه، يتحدث عن ملامح الوجوه، عن غبار المعارك، عن دسائس السياسة والسياسيين، بحيث تبقى الصور في الذاكرة، لا تغيب أبداً.

إن الأساتذة، في مرحلة معينة، هم الذين يكونون الطلبة، يجعلونهم يحبون هذه المادة أو يكرهونها، يبرعون فيها أو يفشلون. كما أن قوة شخصية الأستاذ أو ضعفها تنعكس على المادة ذاتها، إذ تصبح هامة وجدية أو العكس.

ولأن الطلبة جاءوا من أماكن ومستويات مختلفة، وحين لا يستطاع الوصول إلى نوع من التجانس خلال فترة قصيرة، فإن المكر البدائي، والقوة الجسدية، إضافة إلى الالتفاف على التفوق الدراسي بوسائل أخرى، تصبح السمات التي تميز الكثيرين، خاصة وأن التقصير يجر إلى تقصير آخر، والكسل يعدي الآخرين، كما ينعكس على الأساتذة، بحيث يصبحون أقل صبراً وأضيق صدرأ في التعامل مع هذه الظواهر.

كان المفتشون: سعيد الدرة، إبراهيم قطان، عوض الرويلي، إذا جاءوا إلى المدرسة، وقد تعددت هذه الزيارات، لا يتوقفون طويلاً عند الصف السادس، وكان هذا الصف عدة شعب، ربما لتقديرهم أنه انتقالي، إذ لا بد أن "يتخرج" منه من لا يستطيع أن يواصل، خاصة وأن هذا الصوت الذي يحاصر المدرسة من كل جهاتها، السوق، قادر على استيعاب الكثيرين، ولقد صادف أن غادر عدد كبير منهم قبل أن تنتهي السنة الدراسية، بحجج وأسباب عديدة ومختلفة.

إذا خرج الطلاب، وأخذوا جهة الغرب، يمرون بديكان عبيدان، ورغم وجود بضعة أكياس من الرز والعدس، إضافة إلى صندوق أو اثنين من الشاي، وكان يتولى أمر البيع أخوه صويلح، فإن هذه الدكان مركز للبدو، فيها تجري الصفقات الكبيرة على الرعايا التي وصلت أو التي لم تصل بعد، إضافة إلى بعض الصفقات السياسية!

بعده يأتي وديع الحمام، "الملحمة" الكبرى في عمان الأربعينات، خاصة أثناء الحرب، حيث الذبائح المعلقة، وتحديداً البقر والجمال. وغير بعيد عن الملحمة خمارة قعوار، على كنف طلعة الحمام.

كان اسم عرار يتردد كثيراً على السنة الناس، لأن حياة هذا الشاعر ارتبطت بالسياسة والنور وبالشعر السري، أما لكونه شعراً مكشوفاً أو ممنوعاً. ولأن أحد أبرز الأماكن التي كان يشاهد فيها خمارة قعوار، فكان يروق للتلاميذ الذين حفظوا شيئاً من شعره أن يتوقفوا، للحظات، وهم يرددون:

فمن سجن إلى منفى ومن منفى إلى غربه

ومن كر إلى قَر ومن بلوى إلى رهبة

فبي من كل معركة اثرت عجاجها ندبه

وحين يهز رأسه طرباً، وبعض الأحيان يقف ويصفق، ملتفتاً إلى الذين معه وهو يقول:

- شايفين، يا بجم، شو أهمية الشعر، حتى أولاد المدارس حفظوه!

ويشرب من كأسه وهو واقف يردد، وموجهاً الكلام إلى ندمائه:

كم صحت فيكم وكم ناديت من ألم فلم تفيقوا لصيحاتي وأناتي

ربما كانت خمارة قعوار الوحيدة في عمان آنذاك، أو ربما وحدها التي تباع الخمر الذي تصنعه المعامل. فالعادة أن الكثير من المسيحيين يصنعون في قراهم الخمر لاستعمالهم الشخصي أو لاهدائه للأصدقاء. وفي محاولة لأن تتبّت خمارة قعوار أقدامها في السوق، فقد انتشرت عبارة كان يرددها زبائنهم: "إذا بدك تفرح وتغني اشرب من عرق بني"، وهو العرق الذي كان يأتي من لبنان بزجاجات مختومة!

الذين يأخذون طلعة الحمام يصلون بسرعة إلى الجبل، وإلى الطبيعة من

جديد، أما التلاميذ الذين "أدمنوا" طريق السوق، لما فيه من أشياء غريبة ومفاجآت، فلا بد أن يتوقفوا عند السينما التي كانت في هذا الشارع، وقد ظلت تعرض لأسابيع طويلة، خلال تلك الفترة، فيلم عنتر وعبلة، وكان هناك من يشاهده مرات عديدة، وربما كل اسبوع، لكن تضطر السينما لاستبداله بفيلم الورد البيضاء، أرضاء لمتذوقي وعشاق عبد الوهاب.

كان الذين يأخذون هذا الطريق يصلون إلى درج الزعامطة، أو درج الكوربا، كما يطلق عليه أيضاً، نظراً لوجود التواء فيه، ويبدأون الصعود وتسلك أعلى درج في عمان.

كان هذا الدرج للنازلين، خاصة الصغار، ممتعاً إلى أقصى حد، إذ بعد التدريب، وبطريقة متقنة، يمكن قطع كل ثلاث درجات بقفزة واحدة، كانوا يفعلون ذلك وكأنهم يركضون في مرج أو ينزلون فوق الماء، وكان الكثير من الصاعدين يخافون منهم وعليهم، ولذلك يفسحون المجال واسعاً أمامهم.

بعد الدرج مباشرة أم أحمد؛ ولا بد أن يتوقف الصغار، الذين كبروا، في هذه المحطة، خاصة وأن الكثيرين منهم أصبحوا يدركون المهمة التي يقوم فيها عبد الرؤوف منكو، ويتعاطفون معها، وكان يروقههم أيضاً أن يروه وهو يعمل، وهو يفكر.

أم خليل لا تتوقف عن المناكدة أبداً، بمجرد أن ترى التلاميذ، وقد توقفوا عند الحماة وعند "العواطي" يخرج صوتها المشروخ، وكان أقرب إلى السخرية:

- أهى .. وياما شاء الله .. وصل ولاد المدارس ...

وبعد قليل وهي تخفي ضحكتها:

- آخر الزمر طيط ...

تهز رأسها عدة مرات وهي تضيف:

- اجتمع المقرود على خايب الرجا

فتصرخ بها أم أحمد:

- ولك يا حرمة ، انضبي، استحي!

وحين ترد أم خليل بضحكة، تقول أم أحمد، وهي تجر نفسها عميقاً:

- الله يجيبك ياطولة الروح!

أما عبدالرؤف الذي يصغي إلى هذا الحوار ولا يصغي، وحين يرى التلاميذ يراقبونه وهو يكتب، يرجع كرسيه إلى الخلف وهو يردد:

أنت بلادي مهد العلوم فبالجهاد وبالهجوم
نرمي الأعادي من الخصوم إلى الامام سر بانتظام
إلى الامام .. إلى الامام
ويصفق التلاميذ ثم يمضون!

الجدة تراقب، تسمع، تقارن بين اهتمامات الصغار في هذه المرحلة واهتماماتهم في المرحلة السابقة، تفعل ذلك بصمت، لكن بشعور الخائف أيضاً.

في نهاية السنة الدراسية، وبعد أن تراكم عدد كبير من "الحرمانات" التي فُرضت على الصغار، نتيجة الشغب أو لعدم انجاز الوظائف، بحيث كان يُحجز المقصرين لساعة أو لساعتين بعد انتهاء الدوام، وبعض الجمع، ولا يعود الصغار إلا متأخرين .. ثم ذلك الخروف الذي تم شراؤه في اليوم الأخير، إذ اشتراه الصغار وهم عائدون من المدرسة، ليبدأوا العطلة الصيفية، فقد سألت الجدة بارتياح:

ـ اشو هذا الطليّ جلد وعظم شراح تسوون بيه؟

وجاءتها الاجابات الصاخبة إن هذا الخروف، بعد أن تتم العناية به، وعلفه بشكل جيد، سوف يتضاعف وزنه خلال فترة قصيرة، وبالتالي سوف يتم بيعه بأضعاف السعر الذي اشتري به!

وبعد أن استفسرت عن السعر الذي دُفع، ولماذا يراد بيعه، قالت بلهجة ساخرة:

ـ وين تعلمتم هذه العلوم؟ بالمدرسة قالوا لكم سووا هالشكل؟

وحين تلقت اجابات ساخرة رداً على سؤالها، قالت بغضب:

ـ هذي العايزة

وبعد قليل وبغضب أشد:

ـ لو چنا ندری، لو قلتوا من قبل، ان الواحد منكم يريد يصير بیاع شرّاً كان ماشلعلنا قلبنا بالقراية، كان بعنا اللي فوقنا واللي جوانا وفتحنا لكم علوة ...

استراحت، أخذت نفساً وأضافت بسخرية:

ـ كان لقينا لكم عرف، قرايب، بالشورجة، بعلاوي الحلة، بسوق حمادة، وقلنا له: عليك الله يا أبو فلان ... علّم الولد ملاعيب السوق، علمهم شلون يبيعون ويشترون، وبيعاً قراية ودوخة رأس، لكن شايفينكم، الله عليكم، رايعين للمدرسة وجايين من المدرسة، وأبد موبالنا تشترون وتبيعون طليان!

بعد أسبوع، وبعد أن اكتسى الخروف بقليل من اللحم، دُبِح.

وقبل أن تنتهي العطلة الصيفية تم تسجيل الصغار في الكلية العلمية الإسلامية.

قالت الجدة. بعد أن التحق الصغار، الذين كبروا خلال هذه العطلة، بالمدرسة الجديدة:

ـ خلصنا من السوق وطلايب السوق ...

وأضافت كأنها تخاطب نفسها:

ـ الله، سبحانه وتعالى، ما خلق للبني آدم قلوبين، خلق له قلب واحد، إمّا يقرأ ويتعلم، وهذا اللي له حظ، أو يقول له: أنا ما علي، دور خبزتك، وروح اشقى واتعب حتى تعيش ...

وبعد قليل وهي تنظر إلى الصغار:

ـ احنا نريد يصير براسكم خير، نريدكم تتعلمون، ولاحقين على شلعان القلب، وعلى البيع والشرا!

حين بنى الصائغ محمد علي الأردكاني قصراً على كتف الدوار الأول، قال الكثيرون: "الجنون فنون". وحين تذكروا ثراء الرجل أضافوا: "ومع ذلك يمكن للذين يلعبون بالذهب أن يفعلوا أي شيء!"

أما حين اشترى عبد العزيز الكحيمي ذلك القصر، وحوله إلى سكن الوزير المفوض، ثم سدّ واجهات الدكاكين التي كانت في المقدمة، وجعلها مكاتب للمفوضية، فقد قال أهل نجد في سوق الحلال: "هذي ماهي قنصلية ابن سعود، هذي قنصلية الشياطين الزرق لأنّ حتى الخبل مايبات خلاوي"، حين استعادوا في الذاكرة مكانها البعيد، وصعوبة الوصول إلى هناك، قالوا ساخرين: "الرجال اللي يريد الناس يقربهم، يسكن بينهم، أما إذا حط روحه بالحماد، فكأنه يقول: خلكم بعيدين، والله ما بيني وبينكم .. يا جماعة".

كان لا يصل إلى الدوار الأول إلا المتنزهون في أيام الربيع، والصيادون، والذين يسافرون إلى وادي السير. أما إذا دخل الصيف فتزداد حركة بعض الناس حول الدوار لاسبوعين أو لثلاثة، وغالباً ماتكون لهؤلاء علاقة بالزرع والديون. فإذا انتهى الحصاد خمدت الحركة مرة أخرى إلى نهاية الخريف، إلى وقت الحرث والبذار. أما حين تبدأ البرودة ويدخل فصل الشتاء، فعندئذ يغيب هذا المكان من الذاكرة، لأن لا أحد يفكر بالوصول إليه أو الاقتراب منه، باعتباره مخزناً للرياح والزمهرير.

تنتهي حدود عمان، اذن، عند الدوار الأول، أما بيت الفرج، مقابل ملعب كوبان، فكان يشبه المخفر المتقدم، وكان الكثيرون يتسألون: كيف يستطيع آل الفرج أن يتدبروا أمورهم خلال فصل الشتاء؟

لما أقيمت الكلية الإسلامية بين الدوار الأول وملعب كوبان، نظر الناس إلى البناء بتساؤل ودهشة. أكثر من ذلك لم يخف الكثيرون استغرابهم، بل وتراهن بعضهم حول الأسباب التي دعت لاقامته في هذا المكان! قال حسنو النية

والمتفائلون: تم اختيار هذا المكان لرخص الأرض، ويمرور الأيام، بعد سنين، لا بد أن يعمر. الذين لم يكونوا متفائلين بهذا المقدار قالوا: تجار، تباعوا فيما بينهم ليتخالصوا!

لم يكن أحد يتوقع لهذه المدرسة أن تنمو وتتقدم بهذه السرعة، لكن عمان، خلال تلك الفترة، كانت تمر في حالة خاصة، أقرب إلى الانفجار، وهكذا ما إن انتهى البناء الرئيسي، وقبل أن يشاد السور أو تسوى الأرض، فتحت الكلية أبوابها وتدفق إليها الطلاب.

يمكن أن يفسر الاقبال الذي لاقته الكلية، ومنذ البداية، بأسباب عديدة ومختلفة، فالذين لهم موقف من مدرسة المطران، ومن الانكليز عموماً، وجدوا في هذه المدرسة حلاً مناسباً. والذين لم يكونوا يثقون ثقة كافية بالمدارس الحكومية، نظراً للعدد الكبير من التلاميذ في كل صف، وجدوا أنهم إذا دفعوا في مدرسة خاصة يمكن أن يحصلوا على نتائج أفضل. أما الذين اعتبروا "السوق" شراً يمكن أن يشغل التلاميذ، وقد يسرقهم قبل الأوان، ولأن المدرسة الحكومية في ذلك الموقع، فقد وجدوا في الكلية الجديدة مكاناً أكثر ملائمة. وربما تكون لدى بعض الذين أرسلوا أولادهم أو أقرباءهم لهذه المدرسة أسباب دينية أو مسلكية، حيث يعتبر هؤلاء أن ما لحق الناس من مصائب، وما يعانونه من ويلات، بسبب ضعف التربية الدينية، أو قلة الدين، كما تعودوا أن يقولوا، وإن المدرسة الجديدة، والتي أخذت اسماً دالاً، لا بد أن تولي الدين اعتبارها، وتعمل على إعادة تقويم وتربية الطلبة.

إذا كان للمدرسة، أية مدرسة، تقاليد، بما في ذلك أن يكون للقدامى حقوق مكتسبة، فإن الكلية، وهي تستقبل الطلبة، بدت كالأرض البكر أو مثل المكان المحايد، إذ جاء إليها الطلاب دون عصبية سابقة، ودون امتيازات لأحد. حتى الذين ساهموا ببنائها، وبعثوا أولادهم وأقرباءهم إليها، بدوا غائبين، عدا عبدالله أبو قورة، الذي كان كثير التردد على المدرسة، لأمر تتعلق بالبناء، ومع ذلك لم يستطع أن يتدخل، رغم وقوع المخالفات بعض الأحيان، إلا مع أقربائه المباشرين: عبد الغني ورزق، ولديه، وعبد المجيد، أحد أقربائه المباشرين، ومرة أخرى مع المستر ساتن مدير المطران!

كان عبدالله أبو قورة شخصية مميزة، فهو أول من سيرّ الباصات بين عمان والمحطة، ثم في وقت لاحق سير باصات إلى جبل عمان. كان يضع في مكتبه، عند تلاقي شارعي الرضا والسعادة، لوحتين، كتب على الأولى: "ممنوع التكلم بالسياسة"، وعلى الثانية، وكانت فوق رأسه تماماً: "من راقب الناس مات هماً".

هذا الرجل بشواربه الكثّة، المعتنى بها، وبطريقة تركه بنطاله منخفضاً على خصره، وكأنه صاحب كرش تراجع في اللحظة الأخيرة، أشبه مايكون بالمختار، فهو موجود في أكثر الأماكن وفي أكثر الأمور. وكان مميزاً بشكله وبتصرفاته، وأيضاً بصمته، حتى الحطة البيضاء التي يعتمرها، كانت تبدو حائرة، أو زائدة، ولكنه يصرّ على ارتدائها ليبدو مختلفاً عن التجار الآخرين ذوي الطرايش!

خلال فترة قياسية استقرت صورة الكلية، وبدأت ملامح تميزها عن غيرها من المدارس، إذ بالإضافة إلى استقطاب مجموعة من الأساتذة الأكفاء، تضاعف عدد طلابها في فترة قصيرة، وكان بينهم خلال إحدى السنوات الأمير - الملك حسين، الذي قضى عدة شهور ثم سافر إلى الخارج، ولقد كان خلال تلك الفترة كبقية الطلبة من حيث البساطة والانضباط، وكان الأساتذة يعاملونه كما يعاملون الطلبة الآخرين.

أما المهرجان الرياضي الذي كان يقام في نهاية كل سنة، فقد أصبح أحد المواسم الاحتفالية في عمان خلال تلك الفترة، وكان قذري شاهين يحصد عدة ميداليات في كل مهرجان، خاصة بالقفز على الزانة.

من الأساتذة الأوائل الذين علّموا في الكلية اثنان مصريان: الأستاذ يوسف، وكان يدرس الفيزياء، نموذج للبراعة وخفة الدم وسعة الأفق، الأمر الذي جعل هذه المادة حية وعملية في أذهان الطلبة، أما الآخر، الأستاذ هلال، أو أبو شنب، كما أطلق عليه الطلاب، فكان رياضياً محترفاً، وله الفضل الأول في المهرجان الرياضي الذي كان يقام سنوياً.

الأستاذ يوسف البرقاوي، مدرس الدين، رجل بسيط، تقي، على باب الله، كما يقول الناس، يصحح أوراق الامتحانات ويمنح العلامات على قدر عدد الصفحات التي يكتبها الطالب، وعلى عدد الآيات التي يستشهد بها، وكان يردد: "هذه زوادة الدنيا والآخرة"!

أحد أبرز الأساتذة الذين مروا في الكلية: عبد الجبار الفقيه، أستاذ اللغة العربية. كان مثله الأعلى طه حسين، وهو مثل طه حسين درس وتخرج من الأزهر، وكان مثله أيضاً في العقل المتنور والعصري، وهو بالإضافة إلى براعته في التعليم، قرّر مجموعة من الكتب الإلزامية للمطالعة، كان منها: على هامش السيرة، والأيام، لطه حسين، ويوميات نائب في الأرياف لتوفيق الحكيم.

كان هذا الأستاذ متمكناً وعاشقاً للغة، ولقد ترك تأثيراً بارزاً على معظم الذين درسهم.

أما الأستاذ الأرمني، زخريان، أستاذ اللغة الانكليزية، وكانت عربيته ثقيلة، فإنه يشبه أحد أبطال ساروويان، بشواربه السوداء الكثّة وقد لاحتها صفرة السجائر، وبالبيريه التي يرتديها أيام الشتاء، ثم الشال الطويل الطويل الذي يلفه حول رقبته عدة مرات ليقاوم البرودة والرياح. كان زخريان ضليعاً باللغة وبالتعليم، وكان ودوداً، ولقد استطاع أن يقيم علاقات جيدة مع الكثيرين.

لطفني ملحق، الأستاذ الآخر للغة العربية، رقيق بجسده وصوته. في أيام الشتاء، خاصة حين تهب الريح، يستبدل الطربوش بحطة، كما يتعمد أن يسير وسط مجموعة من الطلبة، لكي يكونوا له درعاً فلا تنتزع الرياح أو تطوّح به!

إذا بدأ الأستاذ لطفني بتصحیح أوراق "الانشاء"، يضع يده على خده، مثل أمير الشعراء أحمد شوقي، لكي يكون في وضع مثالي، فيقدر الكلمات والتعابير، ليمنح العلامة المناسبة!

لقد دأب، خلال فترة معينة، على كتابة قصص وخواطر، وكان قبل أن ينشرها في الصحافة يقرأها على الطلبة، ليرى مدى تأثيرها، وبالتالي امكانية وصولها إلى القارئ.

الأستاذ محمود العابدي كثيف باهتماماته وتدفقه، يحول التاريخ إلى رواية، ويتحدث عن العصر الحجري كما لو أنه عاش في ذلك العصر، وشهد الانسان الأول وهو يصنع أدواته! أما إذا تحدث عن الامين والمأمون فكان يبدو وكأنه قضى كل وقته معهما، وكان كاتم أسرار الاثنين معاً!

ولقد برزت براعة العابدي أكثر من قبل حين جاء ذلك الشاب الخجول، خريج جامعة بيروت الأمريكية، معتوق الاسمر، لكي يدرس التاريخ أيضاً.

إن بمقدار ما حاول الأستاذ معتوق أن يثبت قواعد ومفاهيم في التعامل مع الواقعة التاريخية، وكان يجتهد في ذلك، إلا أن الطلبة الذي تشبعوا بطريقة الأستاذ العابدي، كانوا يؤثرون التاريخ كرواية، حتى لو كانت خيالية!

بعد أن غادر أستاذ الفيزياء المصري، جاء الأستاذ محمد أبو غريه.

في الدرس الأول طلب أن يذكر كل طالب اسمه، وفي الدرس الثاني أصبح ينادي على الطلبة بأسمائهم، وكأنه يعرفها منذ وقت طويل! أما حين أصبح مديراً، في وقت لاحق، فكان يعرف أسماء جميع الطلبة.

بالإضافة إلى كفاءته كأستاذ للفيزياء والكيمياء، كان يتميز بروح ساخرة. إذا سأل عارف حدادين حول أمر ولم يعرفه، يهز رأسه ويقول:

– ليش مو عارف يا عارف؟

أما إذا تبرع محمود النجار للإجابة، وكانت إجابته صحيحة، فكان يهز رأسه باستغراب وهو يقول:

– عجيب .. رمية من غير رامي!

يغفر للطلبة المجتهدين بعض أخطائهم، ويعاملهم بود، أما إذا ظفر بطالب كسول متأخراً أو مشاغباً فإنه لا يتردد في أن يلجأ إلى البوكسات والشلالات، بعض الأحيان، في معاقبته!

أحمد بشناق أستاذ قدير، ورغم تهذيبه لا يخفي قناعاته ولايموهها. عندما أعطاه بعض طلبته كراساً لميشيل عفلق ليبيدي فيه رأياً، كان جوابه، بعد أن قرأه:

– لغة جيدة وأسلوب جميل، لكن الأفكار خاطئة!

أساتذة الرياضيات الذين تعاقبوا على الكلية لهم مزاج خاص: الأستاذ فريد يفترض أن الأرقام والمعادلات واضحة، والقانون الرياضي لا يحتمل الخطأ، فإذا طبق لابد أن تكون النتائج صحيحة. ولذلك يستغرب كيف يخطئ الطلبة، أو لماذا لا يفهمون مسألة من المسائل مادامت بهذا الوضوح! كان يقول حين يخطئ الطالب، وبطريقة فحمة:

– حمار .. أي نعم .. حمار!

أما الأستاذ الصياغ، وكمدخل لدرس الجبر، فقد جاء بمثل أصبح أسيراً له:

– اجمع أربعة حمير مع خمسة بغال.

وحين يجمع بعض التلاميذ، أو يترددون في الجمع، يتابع الأستاذ:

– لا يمكن الجمع مطلقاً، ولذلك نعتبر الحمير الف، والبغال باء، وهكذا تصبح الألف غير الباء وهذا أساس الجبر!

فإذا أضيف إلى هذا المدخل الذي بداه الأستاذ صياغ ساعة الجيب الكبيرة التي يحملها، ويبدو أن الزمن كان يشغله كثيراً، بحيث يخرجها مرات عديدة، وفي فترات متقاربة، وينظر إليها بامعان، وكأنه نسي كم كان الوقت قبل قليل، أو ليتأكد ..

كانت هذه الساعة تثير ابتسام الطلبة، وبعض الأحيان قهقهاتهم، خاصة حين يسأل أحد الطلبة لماذا يتتسم، ويخرج الساعة في نفس الوقت!
ظلت "الرياضيات" قلقة، حائرة، إلى أن جاء الأستاذ موافي، فأخذت نسقاً مختلفاً.

إذا كان الأساتذة يتغيرون بين فترة وأخرى، فإن من المعالم الثابتة، البارزة والمميزة، التي بدأت مع الكلية الإسلامية واستمرت معها، شخصيتين أساسيتين: الأستاذ بشير الصباغ، المدير، وزهير كحالة، المسجل.

فالأستاذ بشير الذي بدأ مديراً، ثم أصبح رئيساً للكلية، قوي الحضور بالغ الحيوية، في الإشراف على البناء، في الإدارة، في الرياضة، في متابعة "المنهل"، وأيضاً في الصراع السياسي خلال فترة لاحقة.

لم يكن من النمط الذي يجلس وراء الطاولة. كان يتابع البنائين، والذين يسوون أرض الملعب، وكان ينوب عن بعض الأساتذة الغائبين، ويحرص على ضرورة أن يرتدي الطلبة الملابس الرياضية أكثر من حرص أستاذ الرياضة ذاته. أما إذا تأخر الطالب في تسديد القسط، لأسباب لا يعتبرها مقنعة، فلا يتردد أن يكون معه حازماً إلى درجة القسوة.

الشخصية الثانية زهير كحالة: طويل، شديد النحافة، منظم إلى درجة الإفراط، لا يتكلم إلا بمقدار.

كان يدرس الرياضيات، في بعض الأحيان. وأثناء الامتحانات، ولكي يحكم المراقبة، يعتلي كرسيّاً، وعندئذ يكاد رأسه أن يلامس السقف!

وحده المسؤول عن البرنامج والحسابات والدفاتر، وكانت ذاكرته تسعفه في معظم الأحيان.

لكي تكتمل الصورة الأولية للكلية، خلال تلك الفترة، لا بد أن تحضر شخصية سعيد، الأذن. كان رجلاً مسنّاً، يحرص على النظافة والتّهذيب. له مهمات عديدة، من ضمنها رفع العلم. كان حين يفعل ذلك، ونظراً لاصابته بمرض عمى الألوان، لا يميز بين الأسود والأخضر، ولذلك كثيراً ما رفع العلم مقلوباً!

هكذا بدت الكلية بموقعها ومكانتها في الفترة التي أعقبت الحرب. ورغم أنها ظلت بعيدة، نائية، بنظر الكثيرين، إلا أن البيوت أخذت تظهر هنا وهناك خلال الفترة اللاحقة. فجودت شعشاعة بنى بيتاً في مواجهة الكلية، وفوزي الملقى في الجهة

الأخرى، وبعده الشريقي. وشهراً بعد آخر ازدادت البيوت. أما الطرق غير المعبدة التي كان يسلكها الطلبة في الذهاب والعودة، وكان الأستاذ زخريان يشارك الذين يتوجهون إلى شارع المصاروة حيث كان يسكن، المشوار، هذه الطرق لم تلبث أن أخذت تتغير، نتيجة الأبنية التي بدأت تجور على هذه الطرق القصيرة، ثم جاء سور الكلية ليمنع حتى فوزي الملقى من "المقاطعة" وصولاً إلى الشارع الرئيسي، إذ أصبح مضطراً لأن يلتف حول السور! وأصبح للكلية باب رئيسي واحد يجب سلوكه، وباب فرعي، جهة الجنوب، يفتح في بعض الأوقات!

كان الوصول إلى المدرسة في فصل الربيع ممتعاً؛ وفي فترات الصحو خلال الفصول الأخرى سهلاً؛ أما إذا هبت العواصف، وهطلت الأمطار، فعندئذ يصل الطلبة والأساتذة وقد غرقوا بالبلل والوحول.

في تلك الفترة بدأت المواصلات العامة، لكن على نطاق ضيق، إذ كان باص جبل عمان يصل، أول الأمر، إلى الدوار الأول، ويتجه بعد ذلك جنوباً ليمر بالقرب من الحاووز، ثم يلتف شرقاً لكي يقفل عائداً إلى وسط المدينة. وفي فترة لاحقة، ونظراً لبناء مدرسة للبنات بالقرب من البرلمان، أصبح الباص يتابع سيره غرباً ليمر بمحاذاة سور الكلية الشرقي. وبين زاوية السور والبوابة مسافة تكفي لأن يبتل الانسان وقت المطر!

عدد الطلبة الذين تقلهم سيارات خاصة قليل جداً، وربما لا يتجاوز أصابع اليد الواحدة. فعصام بدير توصله سيارة أغلب الأحيان، وكذلك حسان وزياد منكو، وعبدالله أبو قورة ينقل ولديه، عبد الغني وزريق، بسيارته البلايموث السوداء ذات الستة مقاعد، في بعض المرات، ويتركهم يمشون في مرات أخرى!

كان الذين يركبون السيارات يشعرون بالحر، إن لم يكن من زملائهم، فمن الأساتذة، ولذلك كانوا يخرجون بسرعة، أو يتأخرون، لكي يتفادوا النظرات وبالتالي الارتباك. أما محاولاتهم في نقل الأساتذة فكانت تبوء بالفشل، إذ يفضل هؤلاء أن يكونوا مع الكتلة الكبيرة الراجلة، وكان الأمر، في أحيان كثيرة، لا يخلو من متعة، رغم المطر والرياح.

كانت السيارات في عمان ذلك الوقت قليلة إلى درجة أن الصغار يميزونها من صوت البوق دون أن يروها! وكانوا يعرفون أصحابها، ومن يركب فيها، متى تمر، وإلى أين ذاهبة! كانت بعض السيارات تسبب لأصحابها الكثير من المشاكل، خاصة في فصل الشتاء، نظراً لقدمها.

فيوسف جقمان الذي سكن في شارع منكرو، وكانت لديه سيارة يمكن كشف غطاءها القماشي في الأيام الجميلة أو الحارة، أثارت الكثير من الفضول والاهتمام في البداية، لكن ما لبثت أن أصبحت مثاراً للمتاعب حين أقبل الشتاء، إذ تحتاج إلى من يدفعها حتى تصل إلى بداية المنحدر، مقابل دار سعيد المفتي. والتلاميذ الذين حافظوا على مسافة بينهم وبين هذه العائلة الجديدة، ما لبثوا أن أصبحوا جزءاً من الطاقم الذي يستعين به جقمان لدفع سيارته، خاصة وأن فرحة المرأة، الأخت أو الخادمة، لا يدرى (!) لم تكن تقوى على هذه المهمة، مما جعل التلاميذ يشفقون عليها، ثم يحلون مكانها، والمقابل: أن ينقل جقمان الذين ساعدوه إلى أقرب نقطة تمكنهم من مواصلة طريقهم إلى مدرستهم!

في وقت ما، بعد نهاية الحرب بسنة، تقريباً، وصلت إلى عمان مجموعة من السيارات الجديدة، كانت من نوع "نش" و"ستديويكر"، ولقد خصص أديب الصباغ، الذي استوردها، بعضاً منها كسيارات أجرة، مما أثار الكثير من الاهتمام والتغيير في المدينة، نظراً لقلّة عدد سيارات الأجرة، ولأن أغلبها لا يعمل إلا "بالمناول".

ولأن الشوارع لم تكن معبدة، فإن السيارات، خاصة أيام الشتاء، تصل إلى أمكنة معينة لا تتجاوزها، خوفاً من "التغريز". حتى في حالات الضرورة، كالمرض مثلاً، وحين يتم استئجار سيارة "سكارسا"، كان الدكتور شقير يضطر لقطع مسافة إضافية على قدميه، رغم الصعوبة، لأن السيارة لا تصل! أما سيارة الدكتور ملحس، الانكليزية الصفيرة، وربما من نوع موريس، فكانت، مثل صاحبها، مناضلة، لا تبالي بالمياه والوحول، إذ تحاول اجتياز أطول مسافة ممكنة نحو البيت الذي تقصده، ما مكنتها الطريق من ذلك.

قبل متابعة الكلية في مرحلتها اللاحقة، لا بد من وقفة عند بعض الأحداث التي وقعت في عمان خلال تلك المرحلة.

رغم أن دوعي مدافع الحرب الثانية لم يصل إلى عمان، إلا أن آثار تلك الحرب، ثم نتائجها - وقد وصلت في وقت مبكر - أخذت بالتزايد والانتساع يوماً إثر يوم. فبعد أن باع الكثيرون الذهب الذي كان لديهم، باعوا أيضاً النحاس ثم الصوف، في محاولة لمواجهة المصاعب والأسعار التي استمرت بالارتفاع. أما ذلك التراجع الذي ساد في بداية الحرب، وكان من سمات الناس، فقد بدأ يتقلص ويتراجع مادامت الحرب تتناول وتمتد، وتبدو لكثيرين وكأن لانهاية لها.

بطاقات التموين التي وفرت لأسر كثيرة حذاً ضرورياً، وإن لم يكن كافياً، من المواد، وكانت تسمى الاعاشة، اضطريت وساعت خلال السنين الأخيرة للحرب. كما أنه لم يبق لدى الناس ما يبيعونه أو ما يبادلون به، الأمر الذي دفع الكثيرين، ممن جاءوا من القرى والبلدات، لأن يعودوا إلى قراهم وبلداتهم، أو لأن يعتمدوا عليها في تأمين ما يحتاجون إليه، إذ طبيعة الحياة والعلاقات في القرى أسهل وأكثر رحمة. كما أن عدداً متزايداً من الرجال التحق بالجيش أو بقوات البادية، إضافة إلى سفر آخرين، بحثاً عن عمل، خاصة وأن قوات الحلفاء في فلسطين ومصر وطرابلس الغرب، أصبحت بحاجة إلى عمال أو مستخدمين في المعسكرات.

الحياة في الأقطار المجاورة للأردن، خاصة سورية، اضطريت وزادت فيها المصاعب والتحديات، مما دفع عدداً كبيراً للمغادرة المؤقتة، بحثاً عن أماكن أكثر أمناً، ولقد جاء قسم من هؤلاء إلى عمان.

كما أن الجزيرة العربية التي تعودت، عندما تضيق بساكنيها، أن تدفع بالفائض منهم إلى الهجرة، فقد استمرت تفعل الأمر ذاته، وهكذا تواصل تدفق الآتين من هناك إلى عمان.

كان رأس العين، في بعض الأحيان، يمتلئ بالبشر ليل نهار، وكان معظم هؤلاء ينام تحت السماء، ما مكنتهم الطقس من ذلك، وماداموا قادرين على احتمالها. فإذا

زادت البرودة عن حد معين، يبدأ البدو بالنزول إلى الغور، وقد يتابع بعضهم إلى مصر عبر فلسطين.

كان أغلب الذين يأتون فقراء أو أقرب إلى الفقر. وإذا تعودت عمان، في سنين سابقة، على استقبال القوافل والرعايا بفرح، لأن عمليات البيع والشراء سوف تتسرع، ولا بد أن يصل الخير إلى الكثيرين، فإن قوافل الحرب كانت صغيرة، متباعدة، وشديدة البؤس أيضاً، ولذلك أضافت إلى الفقر الموجود فقراً جديداً، وإلى المعاناة معاناة أوسع وأعمق، ومع ذلك فإن الحياة علّمت الكثيرين أن يكتفوا بأقل الأشياء، وأن يحتملوا ويصبروا، لعل الأيام الآتية تصبح أكثر خيراً ورخاء من الأيام التي يعيشونها الآن.

ولكن الأيام، فترة بعد أخرى، تزداد صعوبة وضيقاً بالنسبة لأغلب الناس. ومع الصعوبة والضيق، خوف، بدا أول الأمر مبهماً، لكن مالبث أن أصبح واضحاً وأقرب إلى الهم، ولقد تمثل ذلك بتزايد أعداد المهاجرين اليهود إلى فلسطين، مع إشارات أخذت تتضح شيئاً فشيئاً أن خطراً من نوع آخر يترصد الناس، ولن يتأخر حتى ينفجر في وجوههم.

وإذا كانت الحرب شراً للناس، معظم الناس، فإنها لبعضهم فرص للشراء والاحتكار، ولتغيير السلوك والعلاقات. ولعل أبرز ما ظهر في تلك الحرب حمى "الكوتا"، وهي اجازة الاستيراد لبعض المواد الضرورية، وقد اختص بها عدد من التجار، مما أدى إلى ثراء هؤلاء بشكل يفوق التوقع أو التصور، لكن ظل ثراء أكثرهم خفياً متوارياً خلال فترة الحرب، لكي يظهر بعدها.

لقد عبّر هذا الثراء عن نفسه بمظاهر لاتخفى، وبعض الأحيان شديدة التحدي، إذ شيد البعض أسواقاً، وأقام غيرهم العمارات الكبيرة، كما بدأ آخرون بشراء الأراضي الواسعة والمضاربة بها، هذا عدا عن السيارات الجديدة الفخمة التي أخذ يفتتها هؤلاء وأبناؤهم.

فالأبنية التي شيدت على طريق السلط كانت نمطاً جديداً لم تألفه عمان من قبل، إذ كانت على شكل مجمعات وأسواق كبيرة، كما أقيمت دارات أقرب إلى القصور ببنائها والمساحات المحيطة بها. أكثر من ذلك سميت مناطق وشوارع بأسماء الذين ملكوها!

أما السيارات التي ظهرت بعد الحرب، وكانت من الأنواع الفخمة، المرتفعة السعر، فلا يمكن مقارنتها أبداً بتلك التي كانت أثناء الحرب أو قبلها. حتى سيارة

منكو، الكرازيلر، السماوية اللون، ورغم نظافة السائق وعنايته، بدت قديمة جداً، وصغيرة أيضاً، قياساً لبعض السيارات التي تم استيرادها بعد الحرب!

ليس ذلك فقط، فبعد أن كانت عمان تخاف الابتعاد عن النهر والسوق، وبنّت بيوتها قريباً منهما، أخذت في المرحلة الجديدة تمتد وتتسع، إذ شيدت مجموعة من البيوت في سفوح الجبال، خاصة جبل عمان وجبل اللويدة، وكان بعضها واسعاً رافهاً، أقرب إلى الفخامة غير المألوفة، من حيث هندستها أو ألوان حجارتها.

الجدة التي كانت متقشفة باكلها ومطالبها، أصبحت في هذه المرحلة أكثر تقشفاً. أما عندما جاء الربيع، ونزل الفول، فقد أخذت تلحّ على ضرورة أن تكون "الباجلا" الوجبة الأساسية، والتي يجب أن تطبخ كل يوم!

قالت ذات مرة، حين جيء بخضرة أخرى:

- شنو، ماكو باجلا اليوم .. ؟ شنو خلصت؟

وحين قابلتها الابتسامات ولم تتلق جواباً، تابعت:

- يخلف عليها أم عبدالله، هي مو مثل بعض الناس الفسقانيين اللي يركبون أشكال وارناق صبح وعشية، ويمردون الفلوس مرد!

لم يقتصر الأمر على ذلك، فقد أصرت الجدة على السفر من جديد - مثلما أصرت عام ١٩٤١ وغادرت إلى بغداد.

لم تطل غيبتها هذه المرة، إذ قبل أن ينقضي شهر عادت. وإذا كانت قد تعودت في سفراتها السابقة على جلب أباريق الشاي التي تحمل "رسوماً" جديدة ومميّزة. وجلبت معها سدادات في مرة أخرى، فقد حملت في هذه السفرة مجموعة من الصرر: حملت رزاً وشاياً وسكراً. كان السكر على شكل قوالب كبيرة مخروطية، مغلفة بورق أزرق داكن أقرب إلى لون الحبر. كما حملت مجموعة من الدفاتر والأقلام، إضافة إلى ساعة جيب قديمة، لو أنها يميل إلى الصفرة، وخاتماً له "فص" من عقيق ورثته عن أمها، وكانت تخبئه في بغداد لنوائب الأيام!

كانت وهي تستخرج الصرر، وتفردها، حزينة وفرحة في آن واحد. حزينة لأنها لم تستطع أن تحمل معها كميات أكبر، وأنها لم تجلب أشياء أخرى، وفرحة "لأن الهدايا" كما قالت "ليست شقّد تسوي، كم مثقال ذهب أو فضة، الهدية بحاجة البني آدم لها، وشقّد تفيده".

وبين الشرح والتوضيح والاعتذار، كانت دموع الجدة تتساقط بهدوء ووداعة

على خديها، وكانت غير مضطرة لأن تخفيها أو لأن تمسحها، كما كانت تفعل في العادة!

الذين راهنوا على انتصار هتلر، "أبو علي"، وكانوا، خلال فترة سابقة، مطمئنين، بدأ الشك يساورهم، إذ أصبحوا أقل اطمئناناً، خاصة مع توالي هزائم المحور، وتضييق الخناق على ألمانيا. وفي محاولة للتغلب على الضيق أو الاحباط الذي يحسون به، أخذوا ينشرون أخباراً أن شيئاً ماسيق في اللحظة قبل الأخيرة، ولا بد أن يغير موازين القوى، ويقلب الأمور على الانكليز بشكل خاص، الذين يعتبرون سبب كل الشرور والمصائب! كانوا يقولون ذلك علناً، وهمساً يقولون: إن لدى هتلر سلاحاً سرياً سيستعمله في الوقت المناسب!

لكن هزائم ألمانيا تواصلت، ولم يستعمل هتلر السلاح الذي بشر به "أصدقائه" وعندما أعلن عن انتهاء الحرب وانتصار الحلفاء، روج هؤلاء شائعات قوية عن خروج هتلر سالماً، ولجونه إلى مكان مجهول لكي يواصل الحرب! قالوا إنه ذهب إلى الأرجنتين، لكي يبدأ من هناك مرة أخرى، وقالوا إنه في بارجة حربية سوداء يجوب البحار، وبحوزته السلاح السري الذي سوف يستعمله ولا بد أن تظهر آثاره!

أما حين تأكد سقوط الرايخ نهائياً، وتأكد موت هتلر، فقد قال راضي أبو الشوارب، وكان يحب هتلر نكابة بالانكليز، قال في مجلس عبيدان، وأمام كثيرين:

- أبو علي .. وراح . افرحوا. حنّوا أيديكم ورجليكم ...

ابتسم بسخرية، هز رأسه، وتابع بطريقة فحمة:

- وهساً خلي كل واحد يحضر صرمة لشلالات الانكليز واليهود!

وقام من المجلس غاضباً وهو يردد:

- اللهم اشهد: إنني بلغت، وما على الرسول إلا البلاغ!

في أحد أيام الصيف الحارة، امتلأت عمان بمئات، بالآلاف الجنود. كانوا بالوان وأشكال عديدة وشديدة الغرابة. كان قسم منهم راجلاً، وقسم يركب الخيول، وكان القليلون يركبون سيارات عسكرية. فيهم الشقر من استراليا، وفيهم السود من افريقيا، خاصة من السنغال، وفيهم أعداد كبيرة من الهند.

وصل هؤلاء إلى عمان فجأة، وأخذوا يجوبون الشوارع طوال النهار على شكل مجموعات. كانوا يملأون جيوبهم بعناقيد العنب وأزرار البندورة

والخيار، كانوا يأكلون ويتمازحون ويغنون. ملابسهم بسيطة أقرب إلى القذارة، وجوههم فرحة لكنها لاتخلو من تعب ومعاناة.

كان أهل عمان، الذين وقفوا على الأرصفة وفي بوابات الدكاكين وأطلوا من الشبَابيك، ينظرون إلى هؤلاء الجنود، بحياد. كانوا يراقبون ويدققون ليعرفوا أي بشر يكونون. والجنود الذين لا يبالون بنظرات الناس يواصلون أكلهم ومرحهم وسط السوق. كانوا يسيرون في الشوارع ذهاباً وإياباً، فإذا وصلوا في مسيرتهم التائهة إلى المدرج الروماني قفلوا عائدين، ليملاؤا من جديد شارعي السعادة والرضا. فإذا التقوا من جديد في شارع فيصل تصافحوا وصخبوا وكانهم يلتقون بعد فراق طويل!

ظل الأمر كذلك طوال النهار. وفجأة، بعد العصر وقبل الغروب، هدأت الحركة، وغاب الجنود. ظن الناس أن كل شيء انتهى، لكن ما إن تسربت الظلمة قليلاً حتى تدفق الجنود من جهة طريق السلط، تدفقوا بكثافة وبانتظام، وكانوا يحملون المشاعل، وتتقدمهم فرقة موسيقية، وعلى الجانبين فرسان، خاصة عند تقاطع الطرق. كانت مسيرة كبيرة وفرحة، وقد استمرت حتى وقت متأخر من الليل.

في اليوم التالي انتهى كل شيء، إذ واصل الجنود سفرهم ورحلوا إلى مكان آخر، وربما كان هذا أبرز مظاهر النصر في عمان!

قبل أن تنتهي الحرب بشهور كانت الأخبار تتوارد من سورية وفلسطين، ومن أماكن عربية أخرى، وكلها تتحدث عن خديعة الحلفاء ومكرهم، وعن قسوتهم أيضاً، وكيف أنهم تخلوا عن الوعود التي أعطوها في بداية الحرب، ثم كيف لجأوا إلى القسوة والقتل لإخماد صوت المطالبين بالاستقلال والحرية. أما عندما وصل نبأ مجزرة أيار في دمشق، فقد خيم الحزن والغضب على عمان، وأصابها الذهول. أقيمت صلاة الغائب على أرواح الشهداء، وفتح الكثيرون من أهل الشام وغيرهم بيوتهم لتقبل العزاء، وقيل أن وفوداً شعبية زارت المقر وقابلت الأمير.

ماكادت أيام تمر على هذه المجزرة، حتى انتشرت أخبار أن الانكليز تدخلوا وأوقفوا حماقات الفرنسيين، وذهبت الأوهام ببعض الناس إلى درجة توقعوا حرباً بين الانكليز والفرنسيين!

حين "نوقش" الموقف في مجلس عبيدان، قال راضي أبو الشوارب:

ـ يا جماعة الخير كُبروا عقولكم، ولازم تعرفوا: الكلب أخو السلوقي، وما لكم سند إلا أبو علي.

وحين وجد من اعترض على كلام راضي، وأكد أن الخلاف بين الانكليز والفرنسيين جدي، ويمكن أن يؤدي إلى حرب، قال راضي وهو يضحك:

- طعموا حالكم جون فاضي، واحلموا!

ولما ظل الخلاف قائماً، والنقاش محتدماً، وفي لحظة تخيرها راضي واعتبرها مناسبة، قال بعصبية في محاولة لأن يؤثر على الموجودين:

- ابليس ما يخرب بيته، يا جماعة، فما دام أبو علي موجود، الانكليز والفرنسيين طيزين بلباس واحد، ما ممكن يختلفوا أو يتحاربوا، وهذي خذوها من هذا الشارب!

ووضع يده على شاربيه، ولأن الآخرين يعرفون اعتزاز راضي بشواربه، وماتعني له، فإنهم في مثل هذه الحالات لا يجراؤن على الابتسام، إذ يتذكرون ما حصل أكثر من مرة بين راضي وآخرين حين وصلت الأمور إلى الشوارب!

الجدة التي سمعت الكثير مما قيل حول احتمال تدخل الانكليز، وبعد أن استفسرت عدة مرات لتؤكد، سألت بسخرية:

- مجنون يحكي وعاقل يفهم! أحد يصدق أن أبو حنك يريد يساعد المسلمين؟

وحين أكدوا للجدة أن الانكليز تدخلوا بالفعل، وأوقفوا الفرنسيين، ردت بسخرية:

- وهسه شلون يخلص أهل الشام؟ شلون راح يطلعوا الزمال من هالوحلة؟ وبعد قليل وكأنها تتحدث لنفسها:

- اويلاخ على اللي راح يصير بأهل الشام ... زفرت بحرقه ثم أضافت:

- هذا اللي يريده الانكليز، ومثل ما قالوا: أمن البزون شحمة!

الدعوة للاستقلال، والتضحية من أجله، لم تتوقف، قبل مجزرة أيار وبعدها. وإذا كانت هذه الدعوة أوضح في سورية، وأكثر دموية، فإنها مطلب أساسي في جميع الأقطار. ولذلك ما كادت الحرب تنتهي، بعد الذي حصل في سورية، حتى أصبحت المطالبة بالاستقلال حديث كل يوم في عمان.

أعلنت بريطانيا رسمياً في اجتماع لهيئة الأمم المتحدة مطلع عام ١٩٤٦: "بتطور شرقي الأردن تطوراً جعلها أهلاً للاستقلال التام ورفع الانتداب عنها، وأن الحكومة البريطانية تتخذ الخطوات السريعة للاعتراف بشرقي الأردن دولة مستقلة ذات سيادة".

ولم تمض شهور قليلة حتى استقل الأردن.

كان يوم الاستقلال حافلاً في عمان، فقد خرج الناس جميعاً إلى الشوارع مبكرين، وكان سعيد الحظ من يجد له مكاناً في شارع فيصل، قريباً من المنصة التي أقيمت عند تلاقي هذا الشارع مع الرضا والسعادة. أما عندما وصلت وفود المناطق والأقطار العربية الأخرى، فقد بلغ الزحام، المزيج بالفرح والتسامح، إضافة إلى الأهازيج، درجة تفوق التصور وتتجاوز الخيال.

جاء فرسان البادية، وفرسان الشركس. جاءت وفود المدن والقرى، وجاءت عراضات من مدن سورية عديدة، لعل أهمها عراضة الحموية.

كانت هذه الوفود تأتي من جهة الشرق، أغلب الأحيان، من جهة المدرج الروماني، مارة تحت أقواس الزينة التي نُصبت في أمكنة عديدة، وماتكاد تصل، وقد سبقتها الأهازيج، إلى شارع فيصل، حتى تقابل بالتصفيق والهتافات، الأمر الذي يخلق حالة من الانفعال الشديد. كانت وجوه الناس وتصرفاتهم أقرب إلى وجوه الأطفال وتصرفاتهم، إذ يضحكون، وبعض الأحيان يبتسمون، في آن واحد. يصمتون مذهولين أو ينفجرون بالصياح دون أسباب واضحة. كانوا يفعلون ذلك بطريقة أقرب إلى الهياج، وقد اختلطت في أذهان الجميع ذكريات وعواطف وآمال لا يعرف كيف تشكلت أو لماذ تعبر عن نفسها بهذه الطريقة.

إنه يوم استثنائي في حياة عمان، وربما لا يتكرر إلا نادراً، وقد قال هذا اليوم الكثير عن أحلام الناس وطموحاتهم، وعن معاناتهم أيضاً.

قال الذين ذهبوا إلى الرصيفة، وكان عددهم بالآلاف، إنهم لم يروا في حياتهم وليمة مثل تلك التي أقيمت هناك، سواء بعدد الخراف التي ذبحت، أو الأهازيج التي ظلت تتردد في جنبات الوادي. وقالوا إن رصاصاً غزيراً أطلق في ذلك اليوم.

الجدة التي كانت شديدة الانفعال والفرح، سألت في المساء المتأخر، بعد العودة إلى البيت:

- يابا .. خلصنا من أبو حنيك؟

وحين جاءتھا الاجابات متداخلة ملتبسة،فهمت منها انه لايزال موجوداً،قالت:

- الحیال یلطم ویأ صاحب البیت ویقسم ویأ الحرامی!

وظلت عمان تحاول وتنتظر استقلالاً اكمل وأوضح،وكان يتمثل ویتجدد بالخلاص من "أبوحنیک"!

فی السنة التالية للحرب جاء التیفوس. بدا اول الأمر مرضاً غامضاً،لكن بعد عدة وفیات أمكن تشخيصه،ففتحت أبواب الكرنتینا لتستقبل المصابین. كان معظم الذین یصلون إلى هناك لا یخرجون أحياء،لأن عادة الاهل أن یتکتموا على الاصابات لأطول فترة،فیذا انکشفت یكون المرض قد استفحل،وبالتالی احتمال النجاة محدوداً.

یؤكد راضی أبو الشوارب أن عبیدان قتله أبو حنیک،وحین یردون علیه أن الرجلین كانا صديقین،ولایعقل أن یقتل الصديق صديقه،یرد وهو یتسم بسخریة:

- الانکلین،یا جماعة الخیر،ما لهم صاحب،وأبو مسفر،الله یرحمه،راح معهم بعيد بعيد،صار یعرف أسرارهم ورجالهم،وهذا ما یهون علیهم ..

وحین یدو كلامه غیر مقنع،یتابع،وقد تغيرت نبرة صوته:

- الدكتور ملحس قال: "خلوه بالبیت،وانا أشرف على علاجه،وعلى یدی،وبمشیئة الله،یشفی"،لكن عندما عرف کلوب،قال: "الكرنتینا أحسن". قال هذا الكلام وبعث رجاله وأخذوا عبیدان مثل ما یأخذوا السخل،وكانت روحة بلا ردة!

ویقولون لراضی أن الكرنتینا هی المكان الذی أخذ إلیه کل الذین أصیبوا،فیرد بنزق:

- یا جماعة خذوا منی: کرنتینا عن کرنتینا بتفرق،واحد یأخذه حتی یدفروه،حتى یخلصوا علیه،والثانی یتروکه لرب العالمین.

ویذکرونه ببنت ابي حاتم الطیان،وکیف أخذت إلی الكرنتینا وشفیت هناك،وعادت،فیقول ساخراً:

- حتی رب العالمین یزید لأبو حاتم همّ جدید وکأن مرته لاتکفی!

قد یكون عبیدان مات موتاً طبعیاً،وربما من الرعب(!)،لكن الشیء المؤكد أن

التيفوس الذي مرَّتلك السنة خلق حالة من الخوف أقرب إلى الفزع. حتى عبيدان تجنب المرور بالقرب من بيت أبي حاتم، وجاءت الصحية، بعد أن أخذت البنات المصابة إلى الكرنتينا، وبخِرت البيت، ومنعت الدخول إليه أو الخروج منه لبضعة أيام، وقد فعلت الأمر ذاته في بيوت المصابين الآخرين.

أم أحمد التي بدأت تسمع أخبار المرض والوفيات، وتحار في أسبابه، كانت توصي كل من يمر بها:

– يا ولیداتي .. علیکم بالزیت والشمس ..

تنظر إلى الوجوه وتتابع:

– فتَوّأ خبز بالزیت وکلوا، لأن الزيت يقوي ويبارك .. والشمس معروفة ما بدها أخذ وعطا!

وحین تواجه بالصمت، تسأل من جدید:

– قولوا لي شو دینه هذا المرض .. مثل ذاك؟

وحین یشرحون لها أن التيفوس غیر السل، وأنه مرض جدید ووافد، وسببه الأساسي القذارة، تقول، ويخرج صوتها حاداً:

– الله یخزي نسوان هالأیام، دايرات على حل شعرهن، وتارکات بیوتهن وولادهن بدون نظافة وبدون ...

ویأتیها صوت أم خليل من أعلى قبل أن تكمل عبارتها:

– خلي الناس بهمومها یا اختیارة.

ترفع أم أحمد رأسها، وتجيب بسخرية، لكي تنهي الحديث:

– القول قولك !

لم يمض على التيفوس أكثر من سنة حتى جاءت الكوليرا!

صحيح أن الكوليرا لم تصل، كوباء، إلى هنا من قبل، لكن الكثيرين سمعوا بها أو عرفوا عنها من الذين سافروا إلى مصر عن طريق غزة هاشم، أو عن طريق البحر. فرعايا الغنم التي كان يؤتى بها من هناك، والخيول العربية الأصيلة التي كانت تُشترى من محافظة الشرقية ولبليس والصعيد، وكانت تمر بسهولة في السنين العادية، أصبحت عرضة للتأخير أو المنع في سنوات الوباء. حتى الخيول

التي ترسل للمشاركة في سباق الاسكندرية، كانت تحجز في الحجر الصحي لبضعة أيام، ريثما يتم التأكد أن مرافقيها خالون من الكوليرا.

كانت أخبار الكوليرا تصل، أول ماتصل، إلى سوق الحلال برأس العين، فتخلق حالة من الارتباك والخوف لدى الكثيرين، الرعاية وأصحاب الرعايا، إضافة إلى كل من له علاقة بالسوق، لأن الحجر الصحي في العريش، أو في نقاط العبور الأخرى إلى مصر، لا يعني مجرد أيام يقضيها المسافر وراء الأسلاك للتأكد من خلوه من المرض، وإنما الخوف من النتائج، وبالتالي فشل الرحلة، إضافة إلى خوف الموت في ديار بعيدة.

هكذا كانت الحال في بعض السنين السابقة، أما حين وصلت الكوليرا إلى عمان، وذلك الموت السريع الذي يعصف بالإنسان، والخوف من العدوى، والاشتباه بالأكل والشراب في أن يكون أحدهما أو كلاهما سبباً لانتشار المرض، وماترتب على ذلك من منع أنواع معينة من الخضروات، إضافة لاقتقاد عبده (المدني؟) الذي كان يدور بعربته لبيع البوظة، وغياب الأولاد مع عليهم المعدنية وهم يملأون الشوارع بصراخهم: "الاسكا"، فقد جعل الكثيرين يعيشون في رعب دائم، لا يعرفون ما يأكلون وما يدعون.

قالت الجدة، وهي تسمع أخبار الموت كل يوم:

- يا بابا أني مسلمة عليكم، وأريد أقولكم: في أمان الله ...

وحين نظرت إليها العيون متسائلة، تابعت:

- يا بابا أني أريد أموت بديرتي، وموصية أندفن بصف أمي وأبوي، بالشيخ معروف.

وصدرت الأصوات تطلب للجدة العمر الطويل، وتطلب منها أن تبعد فكرة الموت، وأن لا تتحدث عنه أبداً، فتقول:

- كلنا راح نموت، وأناي أريد أموت ببغداد.

بصعوبة بالغة أمكن اقناع الجدة بتأجيل السفر، خاصة بعد أن أخفوا عنها أخبار الوفيات، وبعد أن تراجع المرض فعلاً، لكن نتائج الوباء ثم آثاره، كانت كبيرة، وربما تذكر الناس ذلك بعد وقت، حين دخل الخريف، ثم بعد الشتاء.

قالت الجدة، وهي تتذكر تلك الأيام:

- كل شيء ولا مرض أبو زوعة، يوم والثاني ينمرد البني آدم، ينشف، وبعدها الله ياخذ وديعته.

كان يمكن للناس في عمان أن يستمروا في تذكر الأويئة والمصاعب التي مرت، لو لم تأت أيام أصعب. جاءت الأيام الأخيرة المضنية من عام ١٩٤٧، ثم جاءت سنة ١٩٤٨ الثقيلة القاسية، ولهذه حديث آخر!

أما حين جاءت سنة ١٩٤٩ القاحلة، فقد جاء معها الجراد!

كان الصغار يعرفون الجنادب ويلاحقونها، وكانت الجنادب تعرف كيف تختفي ومتى تطير. فإذا ظفر الصغار ببعضها ينظرون إليها، إلى أرجلها وعيونها العجيبة، إلى لونها الذي يشبه التراب، وبعد أن يتملوا منها يقطعون الأرجل أو الأجنحة، ويراقبون تصرفاتها، طريقتها في الدفاع، حتى إذا سكنت تركوها، لتأتي بعد ذلك القطط أو النمل وتتصرف بالباقي.

هذا ما يتذكره الصغار عن الجنادب، والتي تسمى جراداً أيضاً.

الذين لهم أقارب أو معارف في سوق الحلال يعرفون أن البدو يأكلون الجراد، يعرفون ذلك ويستغربون، بل ويتساءلون كيف يؤكل، وماذا يؤكل منه! خاصة وأن الشوام يسخرون ويعيرون البدو بأنهم الذين يأكلون الجراد!

ربما رأى المسنون الجراد في سنة من السنين القديمة، وربما أكل بعضهم منه، لكن لفرط بعده وغيابه، فإنه لا يذكر إلا في سنوات المحل، أو عندما يدهش أحد الأكلين الآخرين بشراسته فيقولون عنه إنه كالجراد!

هذه هي الصورة عن الجراد في أذهان الناس خلال فترة الأربعينات، أما عندما وصل فلم يكن أحد يصدق ما يرى!

ارتال ليس مثلها النمل. اعداد ليس مثلها أكرام القمح.

الشمس، في رابعة النهار، تختفي، تحتجب، حين تمر هذه الأسراب. كانت تطير على ارتفاعات ليست عالية، كانت مثل الغيوم الترايية بالوانها، بكثافتها، بذلك الحفيف الأقرب إلى اللونين حين تعبر طائفة من مكان إلى آخر.

إذا نُظر إليها، وهي تمر، في مواجهة الشمس، يغلب اللون القاتم، الأقرب إلى السواد، ألوانها الحقيقية، لأن الكثافة المتراسة السميكة تجعل نفاذ النور من خلالها مستحيلاً، كما أن هذا الطيران الثقيل الأعمى يولد فجوات هنا وهناك فيحول الضوء إلى مساقط تجعل الأسود وحده الذي يرى، ووحد السائد.

كانت الأسراب تطير ثم تنهأوى، كانت تتساقط مثل البرد الثقيل. وفي طيرانها وفي سقوطها تبدو مخيفة، سميكة، ثقيلة، حتى ليحار الإنسان: هل يتجنبها؟ هل يسرع إلى قتلها؟ هل يتأمل هذه المخلوقات التي هبطت فجأة ودفعة واحدة؟

تطير وتنهأوى. تسقط في كل مكان: على الأسطح، على الأشجار، على الأرض. كانت تملأ الأمكنة كلها. مائتاد تسقط، وخلال ثوان قليلة، حتى تبدأ الزحف. تنسى أجنحتها تماماً، وتبدأ بتلك الأرجل التي يشبه جزء منها المناشير، تتحرك. وفي طريقها لا تترك شيئاً.

لا يمكن للإنسان أن يستعيد شكل أو تصرفات تلك المخلوقات وهي تاكل وتتبرز في نفس الوقت، لأنها أقرب إلى عدم التصديق، أقرب إلى الحلم.

فجأة كل شيء يتحول إلى اللون الأصفر الترابي الكامد. أما الأشجار التي هبطت عليها تلك المخلوقات، وكانت إلى ما قبل دقائق خضراء، فلا تلبث أن تتحول إلى اللون البني المحروق، بعد أن تعرت من أوراقها، وأصبحت مجرد عيدان.

كل شيء يتحول خلال فترة قصيرة.

كيف يمكن الوقوف، أو التصرف، في مواجهة هذا الطوفان المفاجئ؟ إلى متى سيستمر؟ والأسراب التي ستأتي .. أكثر أم أقل؟ وإذا كانت هذه الأسراب أتت على الخضرة والأشجار، فماذا ستفعل الأسراب التي ستليها؟

حتى الأسئلة تبرق في الذهن ثم تغيب، لأن الإنسان أعجز عن التفكير.

وإذا بدا الإنسان عاجزاً في بعض اللحظات، فإن الطبيعة، بعناصرها المتعددة، تتولى، بعض الأحيان، الإجابة. فالرياح التي تهب تحدد لهذه المخلوقات اتجاه سيرها، المدى الذي يمكن أن تصل إليه، الحالة التي تكون فيها.

كابوس ثقيل مر على عمان تلك السنة. ورغم كونه واقعياً، ملموساً، كثيفاً، إلا أنه أقرب إلى الحلم، حتى ليميل الإنسان إلى عدم تصديقه، أو لاجبار نفسه على نسيانه، إذ لا يتصور أن مثل هذا ممكن، أو أنه وقع بالفعل.

ومثل التيفوس والكوليرا ... مر هذا الكابوس أيضاً بعد أن خلف جروحاً حتى في الروح!

الفترة الثانية في مسار الكلية الاسلامية - إذا جاز التقسيم - هي الفترة السياسية. والأمر هنا، لا يتعلق بالكلية ذاتها، أو وحدها، فالأردن بعد الحرب، وأثر بداية تغير علاقته ببريطانيا، دخل مرحلة جديدة، مرحلة كان العمل السياسي أحد أهم عناوينها، إن لم يكن العنوان الوحيد. وإذا جرى الحديث، ومعظم الحديث، حول الكلية الاسلامية، فليس أكثر من محاولة لقراءة الأحداث والمحاولات من خلال بؤرة محددة، يمكن أن تعكس، ويرى من خلالها، وضع البلد بشكل عام.

فالاسم الذي اتخذته الكلية، حاولت في المرحلة الجديدة، أن تعطيه صيغة عملية، من خلال الالتزام بطقوس معينة، خاصة أداء الواجبات الدينية، الصلاة بالدرجة الأولى، ثم الصيام، بعد ذلك، خلال شهر رمضان.

لذلك أقيم مصلى في الكلية، وكان الأستاذ يوسف البرقاوي يؤم التلاميذ في الصلاة مرتين، ظهراً وعصراً.

في السنة التالية جاء الأستاذ حمدي الطاهر ليؤم التلاميذ، ولكي يخطب فيهم أيضاً كان الأستاذ نموذجاً "للشطارة" الشعبية، حيث يتبع الأسلوب الذي يلائم الطرف الأقوى، إذ يلجأ إلى الابتسام والتحلي بالتواضع والتقوى، ومحاولة الاقناع، ولا يتردد في اللجوء إلى التخويف من اليوم الآخر، كما يوافق على أعذار بعض الطلاب الأغنياء، حين يهرون من الصلاة، بحجة أنهم على جنازة! وكانت إحدى هواياته المفضلة الخطابة، كان يخطب في الدرس، في الملعب، وفي صلاة الجمعة!

وإذا كان الأستاذ الطاهر مهتماً بالطقوس والمظاهر، فإن اهتمام الأستاذ الذي جاء في السنة التالية، الشيخ تقي الدين النبهاني علامة بارزة، وأحد التواريخ المهمة في العمل السياسي للأردن، ولكن وصوله جاء متأخراً سنتين أو ثلاث سنوات عن الموعد المناسب! فالأرض التي كان يفترض أنها غير مكتشفة، أو أنها لا تزال

بكرأسبقه إليها الآخرون ووضعوا عليها، أو على القسم الأكبر والأهم منها - أيديهم. لذلك ماكاد يبدأ دروسه حتى وجد أن المناخ، في حالات كثيرة، غير مواتٍ، أو ليس كما رغب فيه أو افترضه. ففي الوقت الذي كان يحرض على الأسئلة، بعد أن يلقي محاضراته، كان يقابل بالصمت، أو بالحوار من موقع المختلف.

والأردن الذي أرسل عدداً من أبنائه ليواصلوا دراساتهم الجامعية في الاقطار العربية الأخرى خلال فترة الحرب، بدأ بعد الحرب يستقبل هؤلاء العائدين، والذين كانوا يحملون، بالإضافة إلى الشهادات الجامعية، الأفكار السياسية، وعلاقات صداقة أو ارتباط مع منظمات فكرية أو حزبية. ولأن تلك الفترة بالغة الحساسية، شديدة الاضطراب، مليئة بالاحتمالات، والطموح، فقد اندفع الذين وصلوا حديثاً للعمل ضمن اختصاصاتهم وفي المجال العام. فالعيادات الطبية للأطباء عبد الرحمن شقير ومنيف الرزاق، ثم لنبية ارشيدات وبعدهم جورج حبش ووديع حداد، وعيادات آخرين، كانت تستقبل، في أن واحد، المرضى والفقراء والناشطين سياسياً، وكانت بالإضافة إلى الخدمات الكثيرة التي تقدمها، خاصة للفقراء، تتحول إلى خلايا للعمل السياسي لاتهدأ.

وصيدليات أمين شقير وراضي الشخشير، ومختبر فريد القسوس، بمقدار ماتوزع الأدوية وتجري التحليلات، كانت توزع المناشير والكتيبات الحزبية "والتحليلات" السياسية. أما المحامون، في تلك الفترة، فكان يروق لهم أن يروا في أية قضية تعرض أمام المحاكم جانبها السياسي بالدرجة الأولى. لذلك كان شقيق ارشيدات وعبد الحليم النمر وسليمان الحديدي وصبحي القطب، ومحامون آخرون، يعتبرون المرافعة في قضية، بالإضافة إلى محاولة كسبها، فرصة لتكريس قواعد تكون أساساً لتقاليد في العمل العام. كانت مرافعاتهم عبارة عن بيانات سياسية مليئة بالاستشهادات المستندة إلى القضاء المصري، وإلى اجتهادات فقهاء القانون الفرنسي! وكان القضاة الجالسون تحت أقواس المحاكم يفهمون دوافع هؤلاء المحامين، ويتجاوبون معها، دون ضجة، في محاولة منهم لتثبيت قواعد وسوابق تؤكد استقلال القضاء، وفي أن يكون مرجعاً وملجأً للمظلومين.

هذا المناخ لم يقتصر على الخريجين، إذ امتد إلى أوساط واسعة، كانت المدارس ضمنها، وربما أكثرها حيوية.

فمدرسة السلط التي لم تعد الثانوية الكاملة الوحيدة، إذ قامت في عمان ثانوية كاملة أيضاً، إضافة إلى الطران والكلية الإسلامية، حاولت أن تعوّض المزية التي

كانت لها، بأن تصبح ساحة للعمل السياسي ومدى حيوية للأحزاب، وكذلك كان حال المدارس الأخرى.

لذلك عندما جاء الشيخ النبهاني إلى الكلية الإسلامية، كان قد سبقه إليها البعثيون والشيوعيون، وهذا سبق لم يكن على شكل تعاطف وتأييد، وإنما على شكل علاقات تنظيمية متعددة المستويات.

ولأنه لم يكن للتنظيمات السياسية مقرات ومراكز علنية، عدا الإخوان المسلمين، فإن العيادات والصيدليات ومكاتب المحامين، وأيضاً مكاتب بعض الموظفين، كانت مراكز للاتصال والارتباط، فهي التي تستلم المنشورات والتعليمات، وتوجيهها تتم أغلب المهمات.

كان أمين شقير، بالنسبة للبعثيين، دينمو للنشاط والحركة، وكان ذا قدرة تنظيمية عالية، كما كانت صيدليته مركزاً أساسياً للاتصال.

كما أن غالب خير، ومن موقعه في البنك، كان يوزع التعليمات ويقوم بالاتصالات. وكذلك محمد الدباس، من وزارة المالية، حيث كان موظفاً في النهار، ومتفرغاً نشيطاً للعمل السياسي بعد الساعة الثانية.

أما عبد الكريم الدباس، موظف الجمارك، الشديد الدقة والسرية، فكان موظفاً مثالياً في عمله، وأحد أنشط المسؤولين في قطاع الطلاب.

حين يكون الطقس موافياً، فإن الاجتماعات واللقاءات تتم في الهواء الطلق، في البرية، حول عمان. وحين لا يساعد الجو، فإن بيت أحد الأعضاء أو المؤيدين يمكن أن يكون مقراً للاجتماع، مع أن بيت عبد الكريم، المتواضع والبالغ النظافة، جاهز لاجتماع الحلقة الحزبية.

في وقت لاحق سيكون المنتدى العربي، بالقرب من المدرسة العبدلية، أول طريق وادي السير، أحد أبرز الأماكن التي يلتقي فيها جمهور واسع من المثقفين، خاصة من البعثيين والقوميين، وسيمارس المنتدى، وأماكن مشابهة لقوى سياسية أخرى، أدواراً مهمة في النشاط الثقافي والسياسي من خلال المحاضرات والندوات، ومن خلال دورات محو الأمية والتطبيب المجاني، كما ستكون أماكن للقاء الذين يزورون عمان من الألوية الأخرى، أو الذين يأتون من خارج الأردن.

الإخوان المسلمون، وحدهم، لهم مركز علني وسط المدينة، أول طريق السلط، ولا يبعد أكثر من عدة أمتار عن المطعم الجديد الذي افتتحه صبحي جبري، وأعطاه اسمه.

كان يتردد على هذا المركز عدد كبير من الرجال، وربما وصله الكثيرون، في محاولة لمعرفة واختبار مدى قدرتهم على التكيف مع هذا التنظيم وافكاره، وبالتالي امكانية ان يكونوا جزءاً منه، لكن هذه الصلة تقف عند حد، ثم تتراجع، بالنسبة للأغلبية، عدا الفترة التي يأتي فيها إلى الأردن، بزيارة سعيد رمضان، ويلقي خطاباً أو اثنين في سينما البتراء.

كان سعيد رمضان مصرباً، ولكنه كثير التجوال في العالم، قليل الإقامة في مصر. كان اسمر الوجه، مربوع القامة، أو أميل إلى القصر. يعتمر باستمرار قبعة باكستانية، وكان واحداً من أبرز الخطباء الذين مروا بعمان.

حين يعلن عن موعد خطاب سيلقيه، تمتلئ سينما البتراء بالكبار والصغار، حتى الذين لا يترددون في العادة على السينما، ويعتبرونها مفسدة، كانوا يزاحمون الآخرين في الوصول، لكي يستمعوا إلى هذا الخطيب الذي يعرف كيف يلهب حماس الناس، وكيف يحرك عواطفهم. كان يبدأ بصوت هادئ، أقرب إلى المسكنة، ثم لا يلبث صوته أن يعلو ويزداد سرعة، مع حركات من الجسد واليدين، فإذا وصل إلى مواقع معينة، يريد لها، أخذ يركز عليها، بحيث يمتلك القاعة ويسيطر على المستمعين. يظل كذلك ساعة أو تزيد بطلاقة أخاذة وتدفق ساحر، حتى ليبدو كأنه ممثل على خشبة مسرح اندمج بدوره إلى الحد الأقصى، دون تكلف، دون شعور بالزمن، إلى أن تقدم إليه ورقة صغيرة تشعره باقتراب موعد الحفلة المسائية للسينما، فلا بد عندئذ أن يبدأ الهبوط بعد هذا التحليق، إذ يخفض صوته تدريجياً، ويتباطأ، إيداناً باقتراب النهاية، إلى أن يصل إلى الكلمات التي يختم بها هذا اللقاء: "على أمل أن يكون لنا موعد مع المؤمنين في وقت آخر، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته".

بعد أن ينتهي سعيد رمضان، ولأيام عديدة لاحقة، يتغير مزاج عمان. يصبح الدرج الطويل الضيق المؤدي إلى مقر الاخوان المسلمين مليئاً بالبشر، ويتحرك الناشطون من الجماعة أكثر من الأيام الأخرى: لكسب أعضاء جدد، لتوزيع قسائم العضوية على الزوار. أما طلاب الكلية الذين لم تتح لهم فرصة زيارة المقر، أو لم يحصلوا على القسائم، فكان عصام خورشيد، في الكلية الاسلامية، يوصلها!

لكن ما ان تمر أسابيع على هذه الزيارة حتى تعود الأمور، تقريباً إلى ماكانت عليه!

الشيخ تقي الدين النبهاني لايمتلك مواهب سعيد رمضان وقوة سحره، ومع

ذلك جاء، من موقع آخر، لكي يضع حداً لجميع الحركات السياسية، بما فيها حركة الاخوان المسلمين، وليكون الحزب الأساسي، إن لم يستطع أن يكون الحزب الوحيد.

"الثقافة الاسلامية" مادة تم "اختراعها" في الكلية الاسلامية، ولم يكن لها ما يماثلها في المدارس الأخرى، عدا درس الدين، وهي عبارة عن محاضرات يلقيها النبهاني على الطلاب، لتجمع في أمالي، ولتصبح، في نهاية السنة، مادة من مواد الامتحانات.

كان معظم أساتذة الكلية محايدين تجاه هذه المادة وتجاه مدرستها. أما الطلاب، خاصة الذين ليست لهم انتماءات أو علاقات سياسية، فكانوا أقرب إلى الحيرة، إذ رغم أن أكثرهم يلمّ بالمادة التي يقدمها الشيخ، إلا أنهم لا يعرفون، أو ليسوا مستعدين، أكثر من ذلك أو غير ذلك. والشيخ يريد دعاة أكثر مما يريد مجرد تلاميذ يحفظون الدروس!

الطلبة الذين لهم انتماءات أو علاقات سياسية، وتجنبوا الاحتكاك أو الصدام في المرحلة الأولى، لم يعودوا قادرين على الصمت أو الحياد، ولذلك أخذ درس الثقافة الاسلامية يتحول إلى سجال سياسي، وأصبح سبباً للخلاف ثم للصراع.

وإذا كانت العادة أن الطلاب غير المسلمين مخيرون بين حضور درس الدين أو عدمه، وكان بعضهم، أغلبهم، يحضر برغبة، دون الزام بالامتحان، فإن الثقافة الاسلامية أصبحت مسألة خلافية، لأن هذه المادة ليس لها علاقة بالواجبات الدينية، كما أكدت الادارة، قدر تعلقها بالثقافة بشكل عام، أو تحديداً بالفلسفة والتاريخ، الأمر الذي ولّد مزيداً من الاختلاف ثم الاحتكاك.

فسليم الصويص الميال إلى مناقشة الشيخ في كل درس، لديه دائماً ما يشغل قسماً من الوقت، لكي يحاول أن يخرج الموضوع عن مساره! وكامل أيوب، حين يُسأل، ولكي يعفي نفسه من احتمال الخطأ أو الجهد، يرد بأنه مسيحي، الأمر الذي ينرفز الشيخ ويخرجه عن طوره. أما فريح شحاتيت فكان يميل إلى المماحكة، كما وصفه ذات مرة الأستاذ لطفي ملحس، ولذلك كان يروق له أن يسأل الشيخ: لماذا خلق الله ابليس؟ ولماذا أوجد الشر والفقر في هذه الدنيا؟

ومن جملة الاشكالات التي واجهت الشيخ النبهاني أن الطلبة المتفوقين في الدراسة: عبد الرحمن منكو، مهدي أبو الذهب، باسل جردانة، هشام عز الدين، فريدون حربي، كان لبعضهم انتماءات أو ميول سياسية غير متوافقة مع حزب

التحرير، أو أنهم غير مهتمين بالسياسة ومنصرفون بالدرجة الأساسية لدراستهم، لذلك لم يبق أمام الشيخ إلا أن يفتش عن دعاة خارج الكلية، أو أن يخفّض سقف اشتراطاته!

ولأنه تعود، خلال الفترة الأولى، على اختيار الموضوع الذي يريده مادة للدرس، ويلقيه اعتماداً على ورقة صغيرة يكون قد دون فيها رؤوس الأقسام، إلا أن المحاكات والأسئلة الخطرة والخلافات التي لم تعد تخفى، جعلته يحضر، بين فترة وأخرى، مراجعه معه. حمل ذات مرة كتاب اشبنجلر: انهيار الغرب، ومرة أخرى غيره، وكان قد تخير فقرات أخذ يقرأها للتدليل على صحة وجهة نظره بخصوص افلاس الغرب! ثم عرج على الشيوعية واستحالة أن تكون حلاً، لكي ينتهي إلى تلخيص رأيه وموقفه بمقولة محددة ومباشرة: ليس في العالم سوى ثلاث نظريات وثلاثة مذاهب: الرأسمالية والشيوعية والإسلام، ولا مجال إلا اختيار واحد من هذه الثلاثة!

لم تكن هذه الطريقة في تلخيص الأمور تزعج سليم الصويص، إذ كان ينظر بطرف عينه إلى البعثيين، ويسأل: دون كلمات: ما رأيكم؟

والشيخ الذي أدرك، منذ الدروس الأولى، أن خصومه، مهما تعددت انتماءاتهم، يتفقون عليه، رغم الاختلاف فيما بينهم، أراد أن يخلص من الخصم الأقوى، ولذلك ركز هجومه بالدرجة الأساسية على الفكر القومي ودعائه.

كان في بعض الأحيان، خاصة بعد أن تقدم فصل الربيع، يخلع جبته وعمامته، فيبدو غريباً ومختلفاً، فالطلبة لم يتعودوا أن يروه هكذا، إضافة إلى أن لون الجبهة العليا يختلف عن لون الوجه. حين يفعل ذلك يعني أن الموضوع الذي سيخوض فيه هاماً أو غير عادي.

ويبدأ: القومية رابطة زائفة، الديمقراطية بضاعة غربية، ومادام الأصل زائفاً فالفرع كذلك. الشيوعية الحاد واغتصاب لحقوق الغير، الحقوق الطبيعية التي وزعها الخالق، وخلق الناس طبقات. ولذلك ليس هناك حل سوى الإسلام.

كان يقدم كما من الأسانيد لدعم وجهة نظره، وكان يعتمد اختيارها بشكل انتقائي من هنا وهناك، في محاولة لاقتناع الطلبة، وحين ينتهي، ويكون الصمت مخيماً، يسأل:

— هل هناك سؤال؟

بعض الأحيان تكون هناك أسئلة حول طبيعة النظام السياسي والاجتماعي الذي ينادي به، وما هو الموقف ازاء الملكية، والأحزاب والديمقراطية وتداول السلطة؟ من الذي سيقوم بالتصنيع؟ هل الزكاة تكفي لحل المشكلة الاجتماعية؟ ماسقف ملكية الأرض والثروة؟

وبعض الأحيان تكون الأسئلة من نمط آخر: ما هو موقفنا من الديانات غير السماوية كالبودية؟ ماهي اللغة التي يجب اعتمادها في الدولة العالمية التي ينادي بها الشيخ النبهاني؟ هل ستقوم هذه الدولة بالتراضي أم من خلال القوة؟

يسوق الشيخ حوادث من التاريخ، وكيف أن الفتوحات الاسلامية وصلت إلى الهند والصين، وإن قسماً من شعوب هذه البلدان قد أسلم. وحين يُسأل من جديد، إن ذلك إذا جاز في عصور ماضية، فإن العصر الذي نعيش فيه لا يعطي للفتوحات، أو السيطرة على الآخرين، إلا اسماً واحداً: الاستعمار، فهل يوافق الشيخ على هذا التوصيف، خاصة إذا رفض ذور العلاقة وقاوموا؟

إذا بدت الأسئلة حسنة النية، بريئة، لا يتردد الشيخ في الإجابة، أما إذا لمس شيئاً آخر، فعندئذ لابد أن يكون قاسياً أو ساخراً.

فترة الكلية الاسلامية إذن بالنسبة لحزب التحرير، وللشيخ النبهاني، كانت فترة حضانة، إذ استطاع خلالها أن يعرف كيف يفكر الآخرون، وما هي نقاط قوتهم وضعفهم، وما هي الأساليب التي يمكن أن تؤثر أكثر من غيرها.

حتى الأمالي التي كان يلقيها على الطلبة، وكان يفترض أن تطبع على الحرير، اكتشف أنه عاجز، أو قليل الحيلة، إذا كان الذي يطلب منه طباعتها مختلفاً معه سياسياً، الأمر الذي زاد في النقمة على الشيخ، ومن ثم على الإدارة، لأن الطلبة، في النهاية، يريدون أن تكون المادة التي سيتمحنون فيها بين أيديهم. حتى الأساتذة الذين كانوا محايدين، وربما اقرب إلى عدم الاهتمام، اكتشفوا أن طلبتهم في وضع متوتر نتيجة الصراع السياسي، وإن المادة الجديدة بدأت تخلخل البرنامج والمستوى العام. لذلك فإن الإدارة التي بدأت متعاطفة مع النبهاني، من خلال مفهوم عام للإسلام، اكتشفت أن الرجل يريد تكوين حزب أكثر مما يهدف إلى اشاعة ثقافة!

ولأن عمان في تلك الفترة بالذات شديدة الحساسية والتوتر بحكم تأثير القضية الفلسطينية وتطوراتها خاصة بعد أن تكتشف موقف بريطانيا أكثر من

قبل، فقد تزايدت المطالبة بإلغاء المعاهدة التي أعقبت الانتداب، والمطالبة أيضاً بتحرير الجيش، تحديداً من كلوب. ولقد عبرت الصحافة والقوى السياسية وشخصيات كثيرة عن هذا التوجه، إلا أن توفيق أبو الهدى، المعروف بتطرفه، وكان رئيساً للوزراء، لجأ إلى العسف والرفض، ولم يكتف بذلك وأرسل عدداً من المعارضين إلى باير، ذلك المنفى الصحراوي القاسي، والذي يمثل رمزاً لنوع العلاقة التي انتهجتها الحكومة.

ورغم ما بين مدرسة المطران والكلية الإسلامية من مسافة نفسية، لكن نتيجة تطورات تلك المرحلة، فقد قامت علاقات سياسية تتجاوز رغبة إدارتي المدرستين، إذ أصبح الناشطون سياسياً يلتقون بصورة منظمة، كما أن المدرسة الثانوية الحكومية في عمان، والتي انتقلت في هذه الفترة إلى جبل الحسين، وأخذت اسم الحسين أيضاً، أصبحت أكثر فعالية، وأكثر تأثيراً. المدرسة الوحيدة الغائبة، رغم وجودها، كانت تراسنطة، ربما نتيجة برامجها الدراسية الكثيفة، وأيضاً لنوعية الأساتذة والطلبة فيها.

أكثر من ذلك كانت علاقات وثيقة وأكثر تنظيماً بين المدن: عمان وأريد والسلط، سواء من خلال الزيارات، أو من حيث المساهمة في النشاطات، خاصة الرياضية والثقافية.

"صوت الجبل"، مثلاً، المجلة التي كانت تصدرها مدرسة أريد الثانوية، أصبحت منبراً لطلبة الأردن جميعاً، حيث يساهم فيها عدد من خارج تلك المدرسة، كما توزع في أماكن عديدة، ومن ينشر في تلك المجلة، إذ كان مستواها متقدماً، يكون قد اجتاز مرحلة هامة، ووصل إلى الآخرين.

وعلى غرار "صوت الجبل" كانت "المنهل"، وتصدر مرة واحدة في السنة من الكلية الإسلامية، وإن غلب عليها الطابع المحلي وكثافة مساهمة الأساتذة؛ الأمر الذي دعا الطلبة لإصدار مجلة موازية سميت "المنهل الصغير"، وكانت تصدر أكثر من مرة سنوياً، ويحررها الطلبة وحدهم، تحت إشراف الأستاذ عبد الجبار الفقيه، الذي بدأ سمحاً، ميالاً لتشجيع التجارب الجديدة، بما فيها محاولة الشعر الحديث (!) هذه المحاولة التي زامنت تجرية نازك الملائكة في قصيدتها "الكوليرا"، أو ربما سبقتها! الأمر الذي سيخلق خلافاً جديداً حول أول من كتب القصيدة الحديثة!! هل هو علي أحمد باكثير أم بديع حقي أم نازك الملائكة، أم المنهل الصغير!!

إذا انتقلنا إلى نطاق أعلى وأوسع نجد أن عمان، الأردن، وخلال مرحلة جديدة، مرحلة الانفعال والتساؤل، بدأت الأسئلة المحرمة، الخطرة، المسكوت عنها، تصبح أسئلة كل يوم، لماذا؟ كيف؟ وماذا الآن؟

ولذلك، وبعد "روايات الجيب" التي كانت خبزاً يومياً للكثيرين، وكانت من جملة أسباب رواجها، إنها يمكن أن تستبدل لقاء فاروق بسيط، وبعد "نظرات" المنفلوطي، ثم "عبراته"، وبعد "رمل وزيد" جبران ثم "نبية"، خاصة لما رُفعت من الكتاب الأخير الصور التي لالتيق بالشباب الذين يعملون في السياسة أن يتوقفوا عندها، أو تشغلهم عن القضايا التي يجب أن ينصرفوا لها (!)؛ بعد هذا كله جاء طه حسين بعقلانيته وانفتاحه، وكان إلى جانبه الزيات وأحمد أمين، وقد اعتبر ذلك بمثابة نقلة نوعية كبيرة وهامة في ثقافة تلك الأيام، خاصة وأن الكثيرين الذين "اكتشفوا" طه حسين لم يستطيعوا أن يفلتوا من تأثيره بعد ذلك، وهذا ما أدى لأن "تُكتشف" انجازاته يوماً بعد آخر. "فالكاتب المصري" لم تتأخر في الوصول إلى عمان، وكذلك اصدارات "الكاتب". الأمر الذي دفع خالد الساكت، خريج مدرسة السلط في تلك الفترة، لأن يقول في إحدى زيارته لعمان، وفي المنتدى العربي، "إن الذي لم يقرأ [الباب الضيق] لاندريه جيد، والذي قدم له العميد طه حسن، وترجمه نزيه الحكيم، لا يمكن أن يصل إلى الثقافة الحقيقية، لأن هذا الكتاب الصغير يعادل بأهميته وقيمته عشرات الكتب".

ورغم أن عمان، ذلك الوقت، تفتقر إلى المكتبات، فإن الكثير من الشباب الذين كانوا "يوصون" المسافرين على "بوط فطبول"، أخذوا يوصونهم على "الأدب الجاهلي" ليعرفوا لماذا حوكم طه حسين على هذا الكتاب، ماهي جريمته، وماهي العقوبة، وكيف يجب أن ينظروا ويتعاملوا مع الكاتب والكتاب؟

ولأن المسافرين، ذلك الوقت، إلى مصر، كثيرون، فقد كانت تأتي كتب كثيرة. حتى الذين كانوا يعودون برعايا الغنم والخيل، حملوا معهم، في مرات كثيرة كتباً لم يعرفوا مافيهها، ولكن حملوها لأنه تمت توصيتهم عليها!

مايكاد الكتاب يصل لأحد ويقرأه، حتى يعطيه لآخر، لثالث، وهكذا يظل الكتاب يلف ويدور كالبلبل. ليس مهماً ما إذا قرئ بوعي وبشكل جيد، الأكثر أهمية أنه أدخل مزاجاً جديداً في القراءة، ونوع الكتب التي يجب أن تُقرأ.

أما كيف انعكس ذلك في عمان، وكيف عبرت عنه، فلفعل أبرز التعبيرات، ربما نتيجة الظروف التي كانت سائدة: الشعر والصحافة ... وبعض التحدي السياسي.

كان الشعر مجلياً. فإذا غاب عرار، مصطفى وهبي التل، أو لم يصل صوته، فلا بد أن يرتفع صوت صبحي زيد الكيلاني، وقبله أو إلى جانبه، بمقدار ما تسمح الوظيفة، حسني فريز. إلى شعر الإخوانيات الذي ينظمه عدد من الشعراء بشكل مشترك، أو يتبادلون ويساقون الأبيات حتى تكتمل القصيدة. هذا عدا عن الشعر السري الذي يتم تداوله وراء الأبواب المغلقة، والذي يراد له أن يبقى هكذا، على الأقل خلال الفترة الأولى، لأن ليس قائله وحده مذنّباً، بل وناقله وسماعه، ولو بمقدار، أيضاً! عمان، في تلك الفترة، مليئة بالشعر. قد تكون هذه الكلمة مجازية، لأن قسماً مما ينظم ليس له علاقة بالشعر، من حيث جودته أو أهميته، وربما كان أكثره عادياً أو رديئاً، ومع ذلك كان يلبي رغبة، ويعبر عن حاجة أو حالة. هذا إضافة إلى أن الشعر سهل الحفظ والانتقال، وبالتالي امكانيته في التأثير.

وسائل التعبير الأخرى موجودة، لكنها أقل تأثيراً من الشعر. فالمقالة والدراسة والقصة، ونسبة أقل، المسرحية والرواية، لها وجود، لكن بحدود ضيقة وبفترات زمنية متباعدة، واهتمام الناس بها، وبالتالي امكانيات تأثيرها، لا تقارن بالشعر، خاصة السياسي. فكتابات عبد الحليم عباس وعيسى الناعوري ومحمد سعيد الجنيدي والإيراني وآخرين، رغم وجودها، إلا أن الدور الذي تلعبه في تكوين ثقافة الناس محدود، ربما نتيجة المستوى العام السائد، وأيضاً نتيجة سذاجة بعض هذه الكتابات، بالمقارنة مع ما يكتبه الأدباء في الأقطار العربية الأخرى، والذي كان يصل بعضه أو كله إلى الأردن، ولو متأخراً.

المجلة التي أصدرها الناعوري، رغم حسن النية، كانت محدودة الانتشار، وبالتالي التأثير، بسبب المستوى والاختيارات، حتى إن بعض المجلات المدرسية، كصوت الجيل، مثلاً، كانت أكثر تأثيراً.

يضاف إلى ذلك أن المقالة أو القصة التي تنتشر في "الرسالة" أو "الثقافة" وكانت تصدران في القاهرة، أو "الأديب" التي تصدر في بيروت، والتي يكتبها كاتب في الأردن، تصل وتؤثر أكثر من تلك التي تنتشر في عمان.

أما بالنسبة للصحافة فقد لعبت دوراً بارزاً في هذه الفترة، رغم القيود المفروضة، إذ كانت الجرائد اليومية والاسبوعية تستقطب اهتمام الناس، نظراً للمناخ السياسي الذي أصبح متفجراً، شديد التوتر، نتيجة القضية الفلسطينية وتطوراتها.

وتجدر الإشارة إلى أن الصحف الناقدة أو الساخرة لم تنقطع عن الظهور، وكانت أكثر رواجاً، وبالتالي أكثر تأثيراً من الصحف الأخرى، لأنها تحاول،

عادة، أن تعبر، في الكثير من الحالات، عن عواطف الناس ومواقفها، رغم أنها لاتعمر طويلاً، كما لا يصدر بعضها بانتظام، نظراً لما يطالها من الملاحقة والاغلاق، أو لافتقارها إلى التمويل الكافي الذي يمكنها من الاستمرار.

وقد يكون من المفيد، والطريف أيضاً، العودة لصحافة تلك الأيام، لأنها مرآة جليلة لطريقة التفكير والتعبير، إذ تعكس، بنسبة ما، الهموم والمستوى والأولويات، كما يمكن من خلال الأشياء الصغيرة، كالأخبار الاجتماعية والأسعار، أن نقرأ واقع مجتمع، ونكتشف أشياء غابت أو تكاد من الحياة الراهنة، كما نتبين البدايات أو البذور التي خلّفت أشياء كثيرة لاحقة.

ولابد من لفت النظر إلى أن القوى السياسية التي أخذت تتكون في هذه المرحلة، كانت تحاول أن تكون لها صحافتها، وأن تُسمع صوتها، فإذا تعذر عليها ذلك بشكل مباشر، تلجأ إلى مساندة أو دعم واحدة من الجرائد القائمة، في محاولة لأن تعبر عن أفكارها كلها أو بعضها، بشكل صريح أو خفي، من خلال هذه الجريدة. مع العلم أن لهذه القوى صحافتها السرية، والتي كثيراً ما لعبت دوراً بالغ الأهمية، خاصة في الفترات الصعبة أو الحرجة.

إن أحد مصادر تاريخ أي بلد صحافته، العلنية والسرية، إذ يمكن من خلالها معرفة الكثير، بما في ذلك المسكوت عنه، إضافة إلى أنها تعكس مدى التطور الذي حصل في اللغة والأساليب ونمط التفكير. وقد لا يكون من الخطأ إعادة "تصوير" نماذج واسعة من صحافة فترة الأربعينات، والتي قد تكشف لنا، من جديد، أشياء هامة وطريفة.

وإذا كنا قد أشرنا سابقاً إلى الدور الذي لعبته مصر في مجال التعليم، من خلال الأساتذة، وأيضاً من خلال المناهج والكتب المدرسية التي كانت متداولة في الأردن أثناء تلك الفترة، فلا بد من التأكيد أن صحافة مصر أيضاً لعبت دوراً شديداً الأهمية، لأنها كانت الصحافة الأكثر تطوراً من ناحية، والتي أصبحت أكثر تداولاً وانتشاراً في الفترة التي تلت الحرب، من ناحية أخرى. إذ بعد أن كانت تصل الصحف والمجلات مرتين في الأسبوع وبكميات محدودة، انتظمت في الوصول، كما أصبحت توزّع بأعداد كبيرة، وكل يوم تقريباً.

هذا الدور لصحافة مصر، وأيضاً لأفلامها وأغانيها، رغم أهميته في تطور المنطقة عموماً، إلا أنه لم يخل من السلبيات. إذ أصبحت المقاييس المصرية وحدها

هي التي تؤخذ بعين الاعتبار، وهي وحدها السائدة، علماً بأن مصر، تلك الفترة، خاصة في الجانب الرسمي، كانت متخلفة سياسياً، كما أن موقفها تجاه القضايا الأساسية كالعروبة والقضية الفلسطينية كان ملتبساً.

مع الشعر، الذي كان أبرز وسائل التعبير، والصحافة، كان التحدي السياسي.

فالمعاهدة التي أعقبت الانتداب، وكان يفترض أن تمثل علاقة متكافئة ومختلفة عن السابق، بين دولتين صديقتين، لم تغيّر في نظرة وموقف الانكليز تجاه الأردن، فقد استمرت الهيمنة، والنظرة المتعالية، خاصة من كلوب والضباط الانكليز الذين كانوا معه، مستغلين انتصار الحلفاء في الحرب من ناحية، وحاجة الأردن المالية من ناحية ثانية. وهكذا تحول بيت كلوب إلى ثكنة عسكرية، وكثر الذين يراجعونه، ليس فقط من أجل الدخول إلى الجيش أو قوات البادية، بل ومن أجل قضايا أخرى كثيرة ليس لها علاقة مباشرة بهذه الشؤون!

فإذا أضيف إلى ذلك الوضع العربي الشديد التحرك بعد الحرب، خاصة في سورية، القطر الأقرب والمتشابك مع الأردن، وإلى حد أقل العراق ومصر، واستمرار الصراع مع العربية السعودية، ثم التطورات المتلاحقة والسريعة في فلسطين، وقد انعكس كل ذلك على الأردن، فعندئذ لا بد أن تتبدى الخلافات والصراعات بأشكال حادة، وأن تعبر عن نفسها بالشعر مرة، وبالمواقف العنيفة مرة أخرى، خاصة وإن عمليات الرصد، في هذه الفترة، أصبحت أكثر اتساعاً وانتبهاً من فترات سابقة، كما أصبح الصدر ضيقاً إذ لا يحتمل الاختلاف أو الاجتهاد.

هذا في نفس الوقت التي بدأت فيه الأحزاب والأفكار تجد صدى لها في الأردن، خاصة من خلال الذين عادوا من الدراسة، أو الذين احتكوا بأجواء وعلاقات أكثر تطوراً.

وجاءت المشكلة الفلسطينية، بكل ثقلها وتعقيداتها، لكي تلقي بهذا الثقل، بشكل أساسي، في الأردن، وأيضاً لكي تتفاعل معه.

إن المشكلة الفلسطينية والأردن وجهان لعملة واحدة، وهذه المشكلة موجودة قبل ١٩٤٨، لكن برزت بشكل أوضح وواسع منذ هذا التاريخ. فعدد من رؤساء الوزارات في الأردن، منذ البداية، من فلسطين. وعدد كبير من سكان الأردن، ومنذ البداية أيضاً، من فلسطين، إضافة لاستمرار العلاقات بين البلدين والشعبين منذ البداية، وعلى كافة المستويات.

لذلك فقد برزت المشكلة الفلسطينية وتفاعلت وأثرت في تكوين هذا البلد أكثر من أي بلد آخر، وتأثر الناس في الأردن بهذه المشكلة أكثر.

كان كل حدث له علاقة بالمشكلة الفلسطينية لا يجد انعكاسه المعنوي فقط في الأردن، بل تبرز آثاره المباشرة والقوية، فالعملة الموحدة للبلدين، والإدارة الانكليزية الواحدة التي كانت تسيطر على البلدين، إضافة إلى التشابك الكثيف في العلاقات الانسانية والاقتصادية والإدارية، علاوة على المخاوف والهموم المشتركة، خاصة بعد تزايد الهجرة اليهودية أثناء ثم بعد الحرب، هذه الأمور، وأخرى غيرها، خلقت وضعاً دقيقاً صعباً، وقد وجد له اصداء وحساسيات بالغة لدى الناس ولدى السلطة في أن واحد، فإذا أضيف إليه العجز والقيود والارتباك، فعندئذ يمكن تقدير ردود الفعل المتوقعة لأي موقف أو إجراء.

لم تكن السلطة تنظر بارتياح لأي تحرك أو موقف شعبي، حتى لو كان على مستوى ابداء الرأي، خشية أن يخل ذلك بحساباتها، أو أن يجرها في مواجهة الانكليز. ولم تكن تكتفي بالمنع والقيود، إذ كانت تلجأ إلى الزجر والنفي والملاحقة، وكان كلوب، من خلال قواته، إذا لم يبادر شخصياً ومباشرة لاتخاذ مثل هذه الاجراءات، فإنه مستعد وجاهز لتلبية أي طلب من هذا النوع حين تطلب منه الحكومة ذلك!

والجماهير التي تعتبر من حقها، ومن واجبها أيضاً، أن تتصدى لمقاومة المشاريع والخطط التي يمكن أن تؤدي إلى هدر الحقوق والمقدسات، وأن تشارك في ابداء الرأي والتعبير عما يجيش في العقول والقلوب، كما يحصل في أقطار أخرى، تصطدم بقوات البادية التي أنزلها كلوب إلى الشوارع لمنع المظاهرات أو لتعممها، الأمر الذي خلق فجوة، وفجوة كبيرة، بين الطرفين.

ونظراً لعدم وجود صيغ أو اطرار محددة للعمل السياسي، وللتضييق على حرية الرأي والتعبير، يكون العمل السري، ويكون العنف، ويكون الرفض المطلق والإدانة الكاملة الوسائل الوحيدة للمواجهة والعلاقة، ومن ثم للتعبير.

فالمظاهرات التي قامت في عمان خلال سنتي ١٩٤٧ و ١٩٤٨ قمعت بقسوة وعنف، وأدت إلى النفي الداخلي والخارجي لعدد من القادة الوطنيين، كما أدت إلى طرد من اعتبروا محرزين أو قادة للمظاهرات من الطلبة، وتولد في عمان، ومدن أخرى، كالسلط واربد، جو من التوتر والهياج تضامناً وتأييداً، الأمر الذي دعا

السلطات والادارات المدرسية لأن تتساهل بعض الشيء، في محاولة تنفيذ الاحتقان واشاعة جو من الانفراج والتسامح.

وإذا كانت هذه الصفحات لاتعتبر تاريخاً قدر ماهي تذكر وانطباعات عن فترة بالغة الدقة، فلا بد أن يتصدى لتسجيلها، ويأكثر من صيغة، الذين عاشوها، ثم الذين تخصصوا في التاريخ المعاصر، لعله يستطيع رسم لوحة للمنطقة والمرحلة في واحد من منعطفاتها الأساسية، خاصة وأن تداعيات تلك الأحداث استمرت وتفاعلت، ولا تزال كذلك إلى الآن، وبالتالي لا يمكن استشراف المستقبل إلا من خلال استيعاب دروس الماضي، ليس بهدف الادانة بقدر ما المقصود والمطلوب قراءة الماضي، وإعادة قراءته لكي نتجنب، قدر الامكان، إعادة تكرار الأخطاء.

من المشاهد المألوفة في عمان خلال فترة الأربعينات: تلال البرتقال اليافوي التي كانت تتكوم في سوق الخضار، وفي أمكنة عديدة أخرى، اثناء فصل الشتاء.

فحين تصل الشاحنات من فلسطين، وتفرغ حمولتها من البرتقال، كان يفوح السوق بشذى رائحة لذيدة تولد النشوة، كما كان اللون الأصفر الذهبي يغمر كل شيء. ورغم الكميات الهائلة التي تصل، فمن يرى مشهد المشتريين - وكان البرتقال يباع بالعدد - يخيّل إليه أن الناس لا يأكلون سوى البرتقال، خاصة وهم يحملون كميات كبيرة منه إلى بيوتهم.

ومن ذكريات تلك الفترة أن الهدايا التي تحمل إلى المرضى بشكل خاص: حبات من البرتقال في غير موسمه. وفي مباريات الكرة، كان البرتقال يوزع على لاعبي الدرجة الأولى بعد الشوط الأول، وكان يعتبر أهم من المشروبات الغازية. أما النسوة، حين يذهبن إلى حمام السوق، فكن يحملن معهن البرتقال كفاكهة أساسية، وربما وحيدة.

حين ترى الجودة الكميات الكبيرة من البرتقال تصل البيت تنظر إليها بفرح. تتناول حبة، تفركها بقوة حنونة، تتشممها، تماماً كما تتشمم الأم وليدها، وقبل أن تأكلها، تهز رأسها مرات وهي تتذكر، وفي هذه الرحلة تسافر، تضحك، يغيم وجهها. كانت في كل مرة ترى البرتقال تسأل، تحدث نفسها:

- ريحة القداح ترد القلب، وماكو بال دنیا، إذا الله ما كذبني، مثلها ريحة، فليش أهل عمان، مومثل أهل بغداد، ما يزرعون البرتقال؟

ولم تنتظر، مرة واحدة، التسمع الاجابة!

من الكلمات المبكرة التي دخلت إلى لغة الاطفال، لكن لم تكتسب معنى واحداً

او واضحا: كلمة بيارة . حين تذكر الكلمة تقترون بالبريقال، ولا شيء غيره. اما د تكون "البيارة"، ولماذا سميت هكذا، فكل انسان يعرف ولا يعرف في نفس الوقت!

اما الميرامية والزعتر، اما الصابون والكنافة، اما البحر وجبل النار، فإ مرادفات للصفة الأخرى من النهر. كانت بمجرد أن تذكر تولد سلسلة التداعيات ليس لها نهاية. أما حين ترد كلمة "مجاهدين" فتشمخ في الذاكرة رجال ملثمين، يعيشون أغلب الوقت في البرية، ينامون في المغاور، وعند أواخر ال ينتقلون من مكان إلى آخر، لكي يحاربوا الانكليز واليهود، الذين كانوا يطوقونهم كل ناحية. كان هؤلاء الرجال من الشدة والبطولة وانكار الذات بحيث يتمنى طفل، حين يكبر، أن يصبح مثلهم، واحداً منهم.

أسماء المدن، عبر النهر، كانت دائماً حاضرة وكثيرة، كما كانت مثيرة للخبر وإذا غابت أسماء مدن في بعض الأقطار العربية، أو تداخلت، فإن أيدي جه التلاميذ ترتفع حين يطلب المعلم تعداد أسماء خمس مدن في فلسطين. كانت تتبا الأصوات وتتزاحم: القدس، يافا، حيفا، غزة، اللد، الرملة، عكا، صفد، الله، الخليل .. ويوقف المعلم التلميذ الذي اندفع دون توقف، ليسأل غيره، وكان ا كل تلميذ أسماء اضافية جديدة!

كانت فلسطين أكثر من مجرد أرض وبشر، إذ هي في ذاكرة كل فرد عر مجموعة من المعاني والرموز والدلالات، تراكمت وترسبت عبر أجيال عد متلاحقة، وهي تعني لكل واحد، بالاضافة إلى الشيء المشترك، شيئاً خاصاً، قد ية غامضاً أو مختلفاً، لكنه شديد القوة والتأثير.

كما كان موضوع فلسطين مقياساً في الحكم على الأشخاص والمواقف، وأيضاً امتحاناً للقوة والخوف والضعف والتقدم وسلامة الاتجاه.

اللغة التي تستعمل في الحديث عن هذه القضية مزيج من الصوفية والذ والواقعية المباشرة، وفي بعض الأحيان لاتخلو من خفة أو رثالة، ربما لأنها شد الموضوع، بحيث لاتتطلب اقناعاً من أي نوع، تماماً كمن يتحدث عن الماء والهواء.

قبل المدرسة، وربما رضعه الأطفال مع حليب الأمهات، كان اسم فلسطين يتر أكثر من أي اسم آخر، وكان له وقع خاص وظلال كثيفة. أما الألعاب الأولى ا، يتدعها الصغار فلعبة العسكر والحرامية، ولعبة العرب واليهود، ونتائج الك محددة سلفاً، وقبل أن تبدأ: العسكر يغلبون الحرامية، والعرب يتغلبون على اليه أما عن الريا والبخل وقسوة القلب والوشاية، وصفات أخرى مشابهة، فإ:

تتلخص، بعض الأحيان، بكلمة واحدة: يهودي. قد تكون هذه الصورة نتيجة الاحتكاك بنماذج معينة، أو معرفة هذا الجانب فقط، ورغم أنها لاتعني الجميع، إلا أنها الصورة السائدة.

في المدرسة، من خلال الدروس والأناشيد الأولى، كانت الوطنية، ذروة الوطنية، تتحدد وتتجسد في الموقف من فلسطين. وإذا اختلف الناس حول أي شيء فإنهم لا يختلفون حول هذه القضية.

أما الموقف السلبي من الانكيز فإن أحد عناصره الأساسية هو سلوكهم وطريقة تعاملهم تجاه القضية الفلسطينية منذ الحرب العالمية الأولى، بإعلان وعد بلفور أولاً، ثم التمييز في المعاملة بين العرب واليهود خلال فترة الانتداب.

و"أصدقاء" بريطانيا من السياسيين العرب، رغم ادعائهم أنهم يختلفون معها، أو هكذا يتظاهرون، حول القضية الفلسطينية، فقد كانوا يواجهون حرجاً وتناقضاً في دفاعهم واقتناعهم بالسياسة البريطانية، أو محاولة تبرير مواقفها تجاه القضايا الأخرى، الأمر الذي انعكس على الطرفين بأشكال كثيرة في الفترات اللاحقة.

ليس ذلك فقط، فإن موقف الاتحاد السوفياتي، وموقف الشيوعيين العرب أيضاً، لم يكونا متوافقين مع قناعات وتطلعات الجماهير، أولاً بتبني التقسيم، ثم باعتراف الاتحاد السوفياتي بدولة إسرائيل، نتيجة قناعة أن الطبقة العاملة العربية - الاسرائيلية الموحدة طريق النهوض وتغيير الأوضاع، ممّا خلف موقفاً سلبياً خلال فترة طويلة، تجاه الاتحاد السوفياتي والأحزاب الشيوعية العربية معاً، وبالتالي سهّل أمام الطرف الآخر خلق فجوة كبيرة بين قوى يُفترض أن تكون في صف واحد.

حتى الشيخ النبهاني، ولاحقاً حزب التحرير الاسلامي، الذي كان يقول، مداورة، بضرورة عدم الخوض في هذه القضية، قضية فلسطين، إلى أن تقوم الدولة الاسلامية، أثر هذا الموقف الملتبس على جماهير الحزب، وجعل الاخوان المسلمين، بنظر المتدينين، أكثر وطنية وجراً، خاصة حين التحقت مجموعات منهم بكتائب الحرب الشعبية خلال عامي ١٩٤٧-١٩٤٨، في قطاع غزة بشكل خاص.

إن الوقائع الدقيقة لمواقف القوى، الدول والأحزاب، وحتى الأفراد، يجب أن تدون وتدرس، وأن تُقيّم أيضاً، في المراحل المتعددة، لكي تُستخلص منها الدروس، ولمعرفة الدوافع والمصالح وطريقة التفكير في قراءة الأحداث والوقائع، وايضاً في فهم الواقع والقوى المحركة، لأن من شأن هذه القراءة أن تؤدي

إلى معرفة أعمق وأشمل لجميع العوامل والأسباب والنتائج التي أوصلت هذه القضية إلى هذا الوضع، تمهيداً لمواقف من نوع جديد.

هذه المهمة بمقدار ماتعني المؤرخين والمحللين، فإن الكثيرين، أيضاً، معنيون، إذ يفترض بكل شخص له دور أو مشاركة أن يقدم شهادته، خاصة وأن ما حصل، حتى الآن، لا يعدو أن يكون طوراً من أطوار هذه القضية، التي تبدو أن ليس لها نهاية محددة أو واضحة ضمن معطيات المنطق السائد، أيًا كانت القوى أو المبررات الراهنة.

والى أن يقوم المؤرخون، وتقوم مراكز الأبحاث، بدراسة وتقييم ما حصل، فمن المفيد تقديم وصف لبعض الأحداث والأجواء، مع التأكيد أن هذا الوصف فردي، ومن زاوية محددة، وبالتالي فهو جزئي.

رغم التيفوس، ثم بعده الكوليرا، وقد خلفا تحسباً أقرب إلى الخوف، فإن الهاجس الذي كان ينام ويقوم مع الناس هو فلسطين، خاصة وأن الفترة التي أعقبت الحرب العالمية الثانية شديدة الحركة والتغير، مليئة بالترقب والمخاوف والتوقعات.

الصغار الذين انتقلوا من المدرسة الثانوية الحكومية إلى الكلية الإسلامية، افتقدوا في رحلتهم الجديدة عزيز الكباريتي، أحد أبرز المحرضين وقادة التحركات الطلابية، وهذا مادعا إلى الاعتماد على النفس، وضرورة إقامة مركز جديد لتحرك الطلاب، خاصة وأن عام ١٩٤٧ كان شديد الأهمية ومختلفاً عن الأعوام السابقة، لأن ما كان مؤجلاً أو مموهاً ظهر جلياً، وعلى السطح. وما كان يقال همساً ووراء أبواب مغلقة، أصبح حديث الجرائد والأذاعات، وحديث الناس أيضاً، وكان كله يدور ويتركز حول القضية الفلسطينية.

الكلية الإسلامية التي كانت بعيدة، جغرافياً، عن مركز المدينة، وقد أفترض بالتالي أنها بعيدة عن الهموم والقضايا السياسية، لم تكن كذلك، فقد كانت جزءاً من نسيج المدينة، ولهذا فهي مليئة بالاضطراب والقلق والتساؤل والبحث، وما كان يجري في الأماكن الأخرى يجد أصداءه فيها بسرعة، رغم ما يبدو على التلاميذ من تهذيب!

فعندما ارتفعت عصا الدكتور شقير، إعلاناً عن الرفض والغضب، فقد بدت كعصا المايسترو، إذ حركت عمان كلها، وكانت بمثابة الباروميتر الذي يؤشر ويعلن الخطورة والأشياء الحقيقية، حتى لو لم يرها الجميع بنفس المقدار.

كانت ساحة الجامع الحسيني في الفترة المتأخرة من عام ١٩٤٧ ساحة

مواجهة، وتبلغ هذه المواجهة ذروتها يوم الجمعة، بعد صلاة الظهر. إذ رغم الكلمات الصادقة التي يقولها خطيب الجامع، إلا أن طريقة القول "الرصينة"، وهي عبارة عن مجموعة من الكلمات المحفوظة، لم تكن تكفي أو ترضي الناس، لذلك لا بد أن يتقدم قادة الجماهير ويقولوا الأشياء بكلمات صريحة وواضحة.

كان طلبة عمان، خلال تلك الفترة، في المقدمة، أو قوة الصدام الأولى، نظراً لتجمعهم وسرعة تحركهم، بسبب الروابط السياسية والعاطفية، وأيضاً نتيجة التحديات، وكانوا بهذا يعبرون عما يجيش في صدور الجميع، خاصة وأنهم كالاسفنجية أو كالمرآة تمتص وتعكس ماحولها، إضافة إلى ما يتسم به الشباب من جرأة واندفاع

تركت الحكومة، وترك كلوب، هامشاً للناس لكي يقولوا ويعبروا، لأن الاحتقان وصل إلى درجة خطيرة، وأي صدام واسع أو عنيف يمكن أن يولد ردود فعل يصعب التحكم بها، لذلك كانت المظاهرات والاضرابات، وقد تكررت خلال هذه الفترة، اللغة السائدة أو طريقة التعبير.

وإذا كان التنافس طابع العلاقة بين المدارس في السنوات الماضية، نتيجة اعتبارات كثيرة، لعل الرياضة، أحد أهم أسبابها، خاصة المباريات، فإن علاقة من نوع جديد تولدت بين هذه المدارس، وأبرز تعبير عن هذه العلاقة: التنسيق والتضامن، رغم بعض الخلافات السياسية. لقد أثبت الطلبة جدارة مميزة في معركة التحدي، إذ كانوا على رأس المظاهرات، وأبرز المشاركين فيها، الأمر الذي أدى إلى طرد عدد منهم، لفترات محددة، وتحت عناوين غير سياسية، لكن المناخ العام السائد أرغم الإدارات على التراجع.

أصبحت المدارس الثلاث: ثانوية الحسين، الكلية الإسلامية، المطران، مدرسة واحدة! أكثر من ذلك تولدت لغة سرية شديدة الاختصار والوضوح بين قادة الطلبة: من يهين اللافات، ماذا يكتب عليها، متى تبدأ المظاهرة، أين تبدأ، وإلى أي مكان يجب أن تتوجه، وتفصيل أخرى، لإحكام السيطرة والتنظيم. كانت نسبة النجاح، في أغلب الأحيان، عالية، ولعل قصة المستر ساتن، مدير مدرسة المطران، أعطت الطلبة درساً.

ففي بداية هذه المظاهرات، حاول طلبة مدرسة المطران أن يسجلوا سبقاً، إذ بدل أن ينتظروا طلبة الكلية الإسلامية لكي يمروا عليهم، ويتوجه الجميع إلى السوق، نحو الجامع الحسيني، فقد توجهوا نحو الكلية الإسلامية مع لافتاتهم وهتافاتهم، لاستتعال طلبة هذه الكلية.

ركض وراء المتظاهرين المستر ساتن، مدير المطران، في محاولة "انكليزية" أخيرة لكي يقنعهم بعدم الاستمرار في المظاهرة. ولقد صادف وصوله، اللاهث، المتأخر، خروج طلبة الكلية الإسلامية، وأيضاً وجود عبدالله أبو قورة، أحد الذين ساهموا بانشاء الكلية، ولأن أبا قورة غير قادر، وليس من صلاحيته، منع المظاهرة، بعد أن رأى طوفان الطلبة الآتين والذين يخرجون، لم يجد أمامه خصماً يمكن أن يفرغ فيه حقه وغضبه سوى المستر ساتن!

الذين شهدوا المعركة رأوا أبا قورة ينقض على الخصم المناسب والمقنع، ويكيل له كماً كبيراً من اللكمات، وكماً أكبر من الشتائم، واصفاً إياه بالحرص والمنظم والموجه للمظاهرة، ولم يخرج ساتن من بين يديه إلا بعد أن دمّاه!

كانت المظاهرات خلال عام ١٩٤٧ تتكرر كثيراً، رغم التطمينات التي تعطيها الحكومة، خاصة وأن أصداء الحوادث التي تقع في فلسطين، في تلك الفترة، تتردد في كل مكان وبسرعة، كما أن التحركات السياسية من اجتماعات ومؤتمرات رسمية، كانت تملأ الصحافة والاذاعة، وكلها تؤكد الحرص وعدم التفريط، وأيضاً تظهر الاعتماد المتزايد على الضمير الانساني والمنظمات الدولية، لكي ينصفا العرب، ويضمنوا لهم حقوقهم! لكن بمقدار ماتزيد الاجتماعات والمؤتمرات كانت ثقة الناس تتراجع ومخاوفهم تكبر، الأمر الذي جعل شعار الحرب غير النظامية يطغى على غيره من الشعارات، خاصة وقد أخذ عدد متزايد من السياسيين الشباب والمثقفين والأفراد في الأقطار العربية، وتحديدأ في سورية ومصر والعراق، يلتحقون بجيش الانقاذ، أو يكونون منظمات مسلحة لمواجهة المنظمات الصهيونية المسلحة.

عبد القادر الحسيني كان أبرز القادة وأكثرهم توهجاً وأجدرهم بالثقة. كان هذا الاسم يثير في ذاكرة الكثيرين صورة جديدة للقسام. ورغم أهمية هذه الصورة ومهابتها إلا أنها أقرب إلى الحزن في ظل المناخ المسيطر، نظراً للظروف الصعبة التي يناضل خلالها! أما الأسماء الأخرى، كالقواقجي والحاج أمين، فإنها تثير الالتباس والحيرة، إذ لا يعرف هل يمكن تصنيفها ضمن الحكام أم تعتبر قيادة للنضال الشعبي.

وأسماء أخرى كثيرة تبرز هنا وهناك: عزيز المصري وعمر عبد العزيز في جنوب فلسطين، أكرم الحوراني والعجيلي والشيشكلي والركبي ومأمون البيطار في الشمال. صبحي وبهجت أبو غربية في القدس ونابلس. عبد الرحيم محمود، الشاعر المقاتل، حين يرد اسمه يذكر بالشعرأء الفرسان وبأبطال الملاحم والأساطير.

وعشرات، مئات الأسماء الأخرى، أكثرها كالشهب يظهر ويغيب بسرعة، خاصة في ظل الاضطراب والحيرة الذي كان سائداً.

كثير من الشباب الذين تجاوزوا الثامنة عشرة سجلوا أسماءهم لكي يذهبوا "للجهاد". كانت تقف عند الجامع الحسيني سيارات شاحنة كبيرة لتحمل عدداً من هؤلاء المتطوعين. كانوا يغيبون أياماً ثم يعودون خائبين، إذ بعد أن أخذوا إلى معسكرات، وظلوا هناك أياماً متوالية، "يتدربون" على: استرح .. استعد، إلى اليمين در، إلى اليسار در، وحين تعبوا وزهقوا من هذا التدريب جاءهم بعدد قليل من البنادق القديمة لكي يفكوها ويعيدوا تركيبها. كان ذلك يجري في ظل ظروف شديدة الصعوبة، من حيث الإقامة والاكل وطريقة المعاملة، وحين يسأل هؤلاء المتطوعون عن "الجهاد"، ومتى سيذهبون إلى هناك، لايتلقون أية إجابة!

حالة من الفوضى والاحباط وكسر المعنويات، لأحد يعرف لماذا أو إلى متى، في الوقت الذي كان من الممكن أن تأخذ الأمور مساراً مختلفاً.

ظلت الحال هكذا، والناس لا يعرفون ماذا يجب أن يعمل، ومن يجب أن يبادر. لذلك كانت المظاهرات المتنفس الوحيد، والطريقة التي يُعبر من خلالها الناس عن الأفكار والمواقف، وعما يجيش في الصدور من عواطف. ولأن المظاهرات كانت تحمل هذا المقدار من العنف والتحدى، فقد أصبحت بذاتها هدفاً، وأصبحت صيغة للاحتجاج والادانة، دون أن تتحول إلى شيء آخر.

ومثلما يبرع بعض الأفراد في الصيد أو السباحة، ويعترف لهم الآخرون بهذا التفوق، فإن للمظاهرات "قوانينها"، من حيث القدرة على التحريض والقيادة والتوجيه، وبالتالي لها رجالها الذين هم أقدر من غيرهم على تحريك الجماهير والتعامل معها.

إذا غاب عزيز الكباريتي أو مظهر خير عن مظاهرة الثانوية، نتيجة الحصار أو المنع، وبعض الأحيان نتيجة التوقيف، تبدو المظاهرة ناقصة مضطربة، سواء في سيرها، أو بالجو الذي يحكمها، إذ قد تندفع أكثر مما يجب، أو تتراجع دون مبرر! صحيح أن الجماهير تفرز قياداتها، كما يقال، لكن القادة، في الكثير من الحالات، يجعلون الجماهير تبعد وتعطي أحسن وأفضل ما تختزنه في داخلها.

والأمر ذاته في المدارس الأخرى، وفي المجالات الأوسع أيضاً.

من الطلبة الذين كانوا يعطون للمظاهرة نكهة مميزة: مسلم العايد، ذلك

المرح، الأقرب إلى السخرية في الأيام العادية، يتحول في المظاهرة إلى شخص آخر: أشبه بربان سفينة هائجة يصعب على غيره ترويضها وقيادتها.

وشاهر الطالب، الصغير الجرم، يصبح في المظاهرة تياراً "يكنتك" كل من حوله، إذ يغوي ويعدي أشد الطلبة تحفظاً، ويدفعهم إلى المشاركة.

أما عبد موسى النهار، المتواضع، المتوازي، والمتفوق في دراسته، فيعرف كيف يتغلب على تردد أي طالب، يفعل ذلك بهدوء أقرب إلى الدهاء، ويقدم نفسه مثلاً.

محمود النجار الذي يتضايق من ضخامة جسده، قياساً لزملائه، تصبح هذه الضخامة ميزته الكبرى، خاصة حين يرفع على كتفيه أحد قادة المظاهرة.

عبد الرحمن منكوش الشديدي، التهذيب، يعرف كيف يفضب وينفعل أثناء المظاهرة، حتى يبدو انساناً آخر.

غالب هلسا اللابد في القسم الداخلي للمطران، والذي يعتبر أن مهمته تغيير الكون، "يتنازل" للمشاركة في لعبة عملية، "لأن المظاهرة أداة تثقيف وأداة تحريك للجماهير" هكذا يقول ويشارك.

وكذلك الحال بالنسبة لآمال نفاع، الذي ينسى صفته كجزء من اتجاه سياسي، "لأن المظاهرة للجميع"، كما يقول والابتسامة الكبيرة تملأ وجهه.

ليس ذلك فقط، كل فرد في المظاهرة له أهمية وله دور، ويتبدى ذلك من خلال المشاركة والصمود، صحيح أن القادة هم نتيجة الفرز الطبيعي، وليس نتيجة الفرض، إلا أن الأدوار الأساسية تتحدد وفقاً للامكانيات والأحجام. فالهاتفون غير الذين يحملون اللافتات. والذين يصادمون غير الذين يبرعون في الأهازيج. أما المسؤولون عن التنظيم فيُميزون ليس من خلال الشارات التي توضع على الأيدي، وإنما من القدرة على عدم نسيان المهمات المكلفين بها.

تبقى مظاهرات الطلبة كالروافد الصغيرة إلى أن تلتقي بالنهر الكبير، بمظاهرة الشعب، عند الجامع الحسيني. هناك يتحدد المزاج، ويبرز القادة الكبار، كما تصبح الكلمات التي تقال لها مدلولات وتعني موقفاً، وغالباً ما يدفع ثمنها إما فوراً أو بعد حين.

أصبحت المظاهرات خلال هذه الفترة طقساً يتكرر كثيراً، الأمر الذي جعل الكثيرين يتسألون: وماذا بعد ذلك؟

ولأن عمان لا تحتمل هذا المقدار من المظاهرات، خاصة التي لا تؤدي إلى نتيجة

عملية، ولأن القيادة السياسية الشعبية عاجزة عن تطوير أو بلورة المواقف والمشاعر التي تملأ الشارع، وبالتالي دفع الناس إلى صيغة أعلى، فقد أخذت هذه المظاهرات تتراجع، أو أصبحت أقل جدوى.

كما أصبح رهان الكثيرين بافتراض تطوير الحالة الشعبية والاستفادة من زخمها غير مجد، ولم يتبلور، خاصة بعد أن تعب الطلبة، أو لم يعودوا مشوقين بالمقدار الكافي، لكي يستمروا في هذه الحالة، إضافة إلى أن الدراسة التي تخلخلت أقلقّت الأهل، ومن بعدهم التلاميذ، وبالتالي فإن الدعوة للاهتمام بالدراسة، والعودة المنتظمة إلى المدارس، لم تلق رفضاً أو احتجاجاً، وتؤكد ذلك أكثر بعد أن تزايد التوقع أن الجيوش النظامية، وقد أكد الحكام العرب ذلك بصوت عالٍ، ستتولى المهمة، وستقوم بتأديب العصابات الصهيونية بعد انتهاء الانتداب وأنسحاب الانكليز!

الناس في هذه الفترة ضائعون، لأحد يعرف ماذا يجب أن يعمل أو كيف. الصوت العالي، بغض النظر عن مدى صدقه، هو الصوت المسيطر. الرغبة تمتزج بالخيال، والادارة تحدها عشرات القيود. المؤتمرات والاجتماعات والتوقعات تتوالى وتملأ ليالي الناس، وتغرقهم في حالة من الأمل والانتظار.

لقد كانت الفترة التي سبقت ١٥ أيار ١٩٤٨ شديدة الاضطراب، ثقيلة، لأن كل يوم يحمل جديداً، وهذا الجديد ليس ساراً في معظم الحالات. فالرهان على الحرب غير النظامية، وكان أحد رموزها المضيئة عبد القادر الحسيني، ينكسر فجأة ويتراجع، حين سقط الحسيني نفسه صريعاً في معركة القسطل. القواقجي يتحول يوماً بعد آخر إلى شكل جنرال في جيش نظامي، بالدربيل المتدلي من رقبته والنياشين التي تملأ صدره! طه الهاشمي لا يُعرف إن كان لا يزال وزير دفاع للجيش العراقي أم مسؤولاً عن قيادة شعبية مهمتها اعداد الناس للمقاومة.

والانكليز، رغم ادعاء الحياد الذي رفعوه كشعار لسياساتهم في فلسطين، والاعلان عن نيتهم بالانسحاب في ١٥ أيار، إلا أن مساندتهم لليهود تزداد وتصبح علنية ومفضوحة، إذ أخذوا يسهلون لهم الاستيلاء على القرى العربية، وإجبار سكانها على الهجرة، كما سمحوا لهم بحصار عدد من المدن، وغضوا النظر عن الأسلحة الكثيرة والمتطورة التي تصل إليهم، الأمر الذي جعل الحياد الذي يدعونه استفزازاً إضافياً ورياء لا يمكن السكوت عليه أو تبريره. ليس ذلك فقط، إن العقوبات التي تُوَقَّع على العربي الذي يحمل سلاحاً للدفاع عن النفس، كانت من الشدة والردع إلى درجة جرّدت الناس من أي سلاح، وجعلتهم

عزلاً. وبلغ الأمر في المرحلة الأخيرة، قبل الانسحاب، أن فتح الانكليز مخازن أسلحتهم أمام المنظمات اليهودية المسلحة لتأخذ منها ما تشاء، بما في ذلك الطائرات والأسلحة الثقيلة، وقد استعملت هذه الطائرات والأسلحة فعلاً أثناء فترة الانتداب، ثم بعد ذلك.

لذلك، حين تقرر أن تكون الجيوش النظامية صيغة المواجهة الأساسية، أو الوحيدة، لم تجد أحداً يعترض، أو يطالب بموقف مختلف.

ومن أجل الجيوش، وفي سبيل الحرب والتحرير، لا بد أن تصمت كل الأصوات، وأن يمثل الجميع، وهذا ما حصل فعلاً. أما ما تبقى من طاقة أو رغبة في النضال عند الجماهير فتحول إلى العمل الانساني، خاصة في مجال مساعدة اللاجئين الذين أخذوا بالتدفق، وفي مجال الطبابة والتدريب.

وضع غير متكافئ، ومليء بالثغرات، إضافة إلى العجز والارتباك. ففي الوقت الذي حشد كل القادريين على حمل السلاح في الطرف الآخر، وسلحوا ودرّبوا، وحيث لهم صيغة منظمة للحركة والاتصال والقتال، فإن الطرف العربي كان يتخبط ويمنع ويحرم من أبسط وسائل الدفاع عن النفس.

حين بدأت طلائع القوات العراقية تصل إلى عمان، في طريقها إلى فلسطين، كانت تستقبل بحرارة وبطريقة احتفالية بالغة الود والدلالة، إذ بالإضافة إلى الفرح الذي غمر الناس جميعاً، فقد حاول الكثيرون ترجمة هذا الفرح إلى دعوات واستقبالات في البيوت والمقاهي والشوارع، وإلى رفض تلقي مقابل للسلع التي يشتريها الجنود، أو الموافقة على تلقي مقابل رمزي، هذا عدا عن نثر الرز والقمح والزهور على الوحدات أينما كانت تمر. كما كانت الابتسامات تمتزج بالدموع في كثير من الحالات، تعبيراً عن الأمل والتفاؤل، وابتهاجاً بهذه اللحظات التي انتظرها الناس طويلاً.

أكثر من ذلك بدت الجدة في تلك الأيام فخورة أقرب إلى الزهو، خاصة حين جاء أحد الأقارب ضمن هذه القوات، وقام بزيارتها.

كان يوم الزيارة حافلاً، بحيث لم يبق أحد في الحي إلا وعرف، ونظر إلى الجدة نظرة اهتمام وحافلة بالود والتقدير. والجدة التي غرقت بالفخر والارتباك بذلت جهداً كبيراً لاقتناع هذا القريب أن يترك فوراً "المسافر خانة" ويحمل أغراضه للإقامة معها، وحين اعتذر، لأن الإجازة قصيرة، لا تتعدى الساعات، ألحت عليه أن يأتي في اليوم التالي للغداء، قالت باصرار:

- زين .. إذا ماتقدر تبات عندنا، يابا اسماعيل، باجر تجي وتجبب ربعك وياك.
ويبتسم، واضعاً يده حول فمه، فتتابع الجدة قبل أن تسمع اعتذاره:
- وأنى أروح للأمر واترخص منه!

فيرد اسماعيل، وهو يداري حيرته وخجله:
- بيبي مايصير، لأننا ماندري شوكت نمشي ...
يضحك بقهقهة، لكن لا يرفع يده عن فمه، ويتابع:
- ما اقدر اواعدكم، بيبي، لكن إذا هدونا، إذا انطونا اجازة، ماتشوفوني إلا وأنا
طآب عليكم!

- لا يابا .. شلون حجي هذا، أريد أركب، أريد أسوي لك دوله، تبسي ...
يتغير صوتها وهي تسأل:

- علم الله صار لكم أيام ماحطتوا الزاد بحلقكم، موهاشكل؟
- شلون يصير، بيبي، ثلاث نوبات ناكل باليوم، واكلنا هواية زين.
- لعد ليش تبين ضعفان ووجهك مخطوف؟
- من السفر والشموس - بيبي!

- زين .. زين، باجر تجي وتتغدى ويانا.
وبعد قليل:

- مثل ماقلت لك، عيني اسماعيل، تجي وتجبب ربعك وياك، سمعت؟
- بالقرعان ما اقدر، بيبي، وعليك الله لاتلحي، خليها على الله!
بعد مناقشة طويلة، تخللتها الأسئلة عن بغداد والأهل، وعن راحته وأكله، مرة
أخرى، طلبت منه أن يأتي بملابسه لكي تقوم بغسلها.
وهو يشرب الشاي الذي صنعه الجدة باهتمام، وأثناء تقديم الكاس
الثانية، قال وهو يبتسم:

- كل شيء زين بهذي الديرة إلا الشاي ..
تطلعت إليه الجدة باستغراب، فأضاف موضحاً:

- بالقهاوي أبدأ ما يعرفون شلون يخدرون الشاي، موبس هالشكل، فوقها يقدمونه بالكلاسات!

وضع يده على فمه من جديد، وبقه، ثم أضاف:

- البارحة واحد من جماعتنا .. لما جابوا لنا الشاي بالكلاسات، سأل الشايجي: يا بابا ما عندك ليفة وصابونة!

ضحك أكثر من قبل، وضحكت الجدة، أما الذين حوله فقد فهموا ولم يفهموا، لكنهم ضحكوا .. أيضاً!

لم تنتزع الجدة منه موافقة على وعد الغداء، كل ما قاله إنه سيحاول المرور إذا لم تتحرك قطعته، وإذا حصل على إجازة.

جاء في اليوم التالي بين العصر والغروب، مع اثنين من زملائه، جاء مودعاً، واعتذر حتى عن تناول الشاي، لضيق الوقت. ويبدو أن الجدة قدرت احتمالاً مثل هذا، لذلك هيأت له كمية من "خبز عروق والكليجا"، وماكاد يمد يده مسلماً ومودعاً، حتى جاءت الزوادة.

قالت وهي تمرر يدها على رأسه وتتمتم:

- محسنين بالرحمان، والله وملائكته تحميكم وتنصركم . .

وتغيرت لهجتها:

- صيروا سباع ولدي، أرفعوا روسنا، حتى نفاخر بكم كل الناس ...

وبعد قليل وبلهجة مختلفة.

- وتقيدوا زين، ولدي، احموا أرواحكم واحموا بعضكم.

ومع أن زيارات الجدة قليلة في الأحوال العادية، فقد حرصت في هذه الفترة أن تقوم بعدد منها، خاصة وأن الفضول الذي تولد لدى أهل الحي، حين رأوا الجنود العراقيين يزورونها، وسألوها عنهم، دفعها لأن تتحدث بأسهاب عن أشياء كثيرة. قالت أن هذه القوات مجرد الطلائع، الدفعات الأولى، وستلحقها قوات أخرى كثيرة، هكذا أسر لها القريب. وأكدت أن أقرباء آخرين لها سيصلون، إضافة إلى عدد من أبناء المحلة، ومن المحلات الأخرى، كما أكدت أن هؤلاء الجنود أشداء وشجعان، وأنهم "يخوفون الموت"، كما قالت.

لم تكتف بذلك، فقد زارت عدداً من معارفها، وأفاضت في الحديث عما تعرف
وعما تتوقع! كانت وهي تتحدث تفعل ذلك بنوع من المباهاة، مع اشارات لاتخفى، إن
بعض هذه الأمور سرية أو لايعرف بها الكثيرون، وماكانت لتبوح بها لولا الثقة!

وزيادة في تأكيد الدور الجديد أخذت تنزل إلى السوق أكثر مما تفعل
عادة، ولاتتردد في سؤال بعض الجنود ما إذا كانوا يعرفون قريبها اسماعيل، الذي
هو واحد من هذه القوات، ولأن أغلب الذين تسألهم لايعرفونه، فقد كانت الفرصة
مواتية لأن تؤكد لهم أنها من بغداد، وأن لها قريباً معهم، وتتوسط في الحديث، وقبل
أن تتركهم ترفع يديها إلى السماء طالبة من الله أن ينصرهم.

لو قدر لرغبات الجدة أن تصبح واقعاً، وأن تتحول أمنياتها إلى أوامر لأخذت
الأمور مساراً مختلفاً.

إذ بعد أن حلّ الخامس عشر من أيار، وبدا أن تندفع الجيوش العربية بقوة
إلى جبهات الحرب، ضمن خطة محددة وهدف واضح، فقد غرقت في وحول
السياسة، وفي متاهات السياسيين.

فالجيش العراقي الذي غادر إلى فلسطين، توقف القسم الأكبر منه فترة طويلة
عند الحدود العراقية، لكي يستريح ويستعد! أما الطلائع التي وصلت، وكان يفترض
أن تتبعها قوات كبيرة، كما أسرت الجدة للجارات، للكثيرين، فقد نُشرت في مساحة
واسعة، الأمر الذي جعلها عاجزة عن الهجوم أو الدفاع، مما اضطرها للعودة مجدداً
إلى الأراضي الأردنية، وحين جاء اسماعيل، مرة أخرى، لزيارة الجدة، فقد كان بالغ
التأثر:

- بيبي .. هدونا بالچول وراحوا، ومانعرف شنو نسوي ..

يهز رأسه بحزن ويضيف:

- هساً يجي الأمر، هساً يجي الأمر، لكن أبداً ...

وتغيرت لهجته، أصبحت غاضبة:

- قواويد .. أدب سيزييه وين خرايطكم، وين خططكم، وشراح تسووا؟

شمرونا، وقالوا: ستصلكم الأوامر، ونحن ماندرى: يلزم نكون في حالة هجوم؟ في
حالة دفاع؟ نتخذق ونتحصن، أو راح نشيل ونمشي!

هدأ قليلاً، ثم تابع:

- بعد ماتهجولنا هنا .. هنا، جاءت الأوامر بالانسحاب. قالوا: راح نخش على اليهود من درب ثاني، وهسّا مايندرى شراح نسوي، وشراح يصير!

قالت الجدة في محاولة للتخفيف عنه:

- عيني اسماعيل .. لاتنحمق، وهاي الخرابيط منها هواية، وكل الأمور ماترهم وتصير إلا يواش يواش!

- يعني بعد مانموت موة كلاب؟

- بعيد عنك، عيني، لاتقول!

- لعاد وينهم هذول الترسية التارسين صدورهم نياشين وقالوا: فلسطين نحررها بيومين؟

- الصبر زين، عيني، طولك بالك

- بيبي .. أني ما احجي هذا الحجي لغيرك، أريد أبرد فوادي.

حصل الشيء ذاته لألف اسماعيل، وفي كل الجبهات، مع اختلاف بسيط في التفاصيل. وخلال الفترة التي امتدت من الخامس عشر من أيار، إلى الحادي عشر من حزيران، تاريخ اعلان الهدنة الأولى، سقطت مدن، وقتل الآلاف، وتشرذم مئات الآلاف. وكان كل ذلك يرى بوضوح في عمان.

فهذه المدينة التي استقبلت آلاف اللاجئين خلال الشهور الماضية، لم تكن مضطربة أو خائفة، بل كان حقدّها يزداد، وكانت تنتظر حلول منتصف أيار بلهفة، موعد انسحاب القوات البريطانية من جهة، وموعد دخول الجيوش العربية من جهة ثانية. كانت تعضّ على ألامها وجروحها وتنتظر. وكان اللاجئين أنفسهم، رغم التعب والمعاناة، مملوئين ثقة وتفاناً، بانتظاراً لذلك التاريخ. أما الآن، وبعد أن حلّ وحمل معه المزيد من الخسائر والفواجع، إذ سقطت مدن، واحتلت أراض واسعة، وتدفقت أعداد كبيرة من اللاجئين الجدد، فقد خيمت حالة من التعاسة وسوء الظن والشكوك.

بدأت عمان في نهاية الربيع مليئة بالجروح والمرارة. كما أن الأسئلة التي كانت محرمة في السابق أصبحت وحدها على جميع الألسنة، ووحدها التي يتداولها الناس.

إن هول الصدمة وقسوتها لم يتركها شيئاً كما كان من قبل. لا أحد يصدق

ماحصل؛ الحياة أقرب إلى الكابوس؛ كل انسان في حالة من الغضب؛ والاستياء أقرب إلى السيولة والرخاوة والجنون.

حتى قبول الهدنة كان بذاته صدمة كبيرة خاصة وأن الطرف الآخر، الذي طلبها وفرضها، لم يتقيد بها من ناحية، إذ استمر بخرقها واحتلال المزيد من الأراضي، كما أنه أخذ يستعد إلى أقصى درجة للجولة الجديدة، من ناحية ثانية. كانت تتوالى الأخبار عن الطائرات التي تصل، والكميات الهائلة من الأسلحة التي تُحمل إلى المستعمرات، هذا عدا عن عمليات القتل والتفجير. في الوقت الذي تبدو القوات العربية حائرة، تنتقل من مكان إلى آخر بعيون زائفة، وبإرادة رخوة، وقد اتضحت، خلال هذه الفترة، أكثر من قبل، الفروق بين العسكريين والسياسيين، وبدأت تروى قصص كثيرة حول ذلك.

حسن سلامة الذي كان يماثل الحسيني، وكان لا يزال محارباً شعبياً عنيداً، ومختلفاً عن "القادة" الذين يصرخون كثيراً ولا يفعلون شيئاً، وقد راهن عليه الكثيرون، يهودي كالنجم، كما هو قبله عبد القادر، وينكسر شيء في داخل قلوب الناس. أما عبد الرحيم محمود، فقد أصبح رمزاً لمقاومة باسلة ويائسة في نفس الوقت. وحين جاء نعيه، فقد قال الكثيرون: "صدق أبو الطيب ووفى بالوعد، مثل سميح أبو الطيب المتنبي. والشجرة التي ارتوت بدمه لا يمكن أن تموت أو تنتهي ... والأيام بيننا."!

والطلبة الذين غرقوا في الاستعداد لامتحانات مبكرة، اكتشفوا الزيف أكثر من أية فترة سابقة، وأحسوا بوجع داخلي، لأن الموت المبكر يترصدهم، والذي يحوم فوق رؤوسهم، ولذلك أصبحوا أكثر عصبية، وبدرت منهم حركات تنم عن الرفض والتحدي.

بدأوا يطالبون، من جديد بالتجنيد، والالتحاق بالمحاربين، أسوة بالشباب اليهود الذين أصبحت قصص تجنيدهم ومشاركتهم على كل لسان.

يتذكر طلبة الكلية الإسلامية ذلك اليوم الربيعي المتأخر حين جاء الضابط معن أبو نوار لاختيار المناسبين للتجنيد، بعد أن تزايدت المطالبة بذلك.

كان ضابطاً شاباً، ورغم الحزم الذي ارتسم على وجهه وتصرفاته، لم يكن معادياً. حتى لما طلب من الراغبين بالتجنيد أن يتقدموا خطوة، بعد أن انتظم الطابور، فقد مر على هؤلاء لكي يتأكد من صلاحيتهم. كان يعصاه العسكرية القصيرة يطلب من الكبار، الأقوياء، أن يبقوا متقدمين خطوة، أما الذين تقدموا من

الصغار، أو أولئك الذين لا يتمتعون باللياقة الجسدية، فكان ينقر على صدورهم بعصاه لكي يتراجعوا. فعل ذلك، وبعد أن سجلت أسماء المقبولين، غادر.

الذين لم يتم اختيارهم كانوا حساداً كباراً. كانوا يتمنون لو أنهم اختيروا أيضاً، لو كانوا ضمن هذه الكوكبة، لكن الأمر، على الأقل الآن، لا يحتمل أي استئناف ولا يقبل أية مناقشة.

أبلغت الإدارة الذين تم اختيارهم، والآخرين أيضاً، أن يستعدوا الآن للامتحان، وحالما تنتهي السنة الدراسية ستبدأ مرحلة جديدة.

الذين اختيروا، والذين تجاوزهم الاختيار، كانوا في حالة من الانفعال والغضب جعلت الجميع يلجؤون إلى التظاهر.

المظاهرة التي قام بها الطلبة بين الهدنتين فريدة من نوعها: فقد حمل الطلبة نعشاً فارغاً، لفوه بالسواد، وظل النعش يدور وينتقل، تعبيراً عن الحزن والاحتجاج إلى أن تلقاه الناس في ساحة الجامع الحسيني، فأصبح هذا النعش رمزاً لحالة واحتجاجاً عليها في نفس الوقت، حالة التقاعس والشلل، والمطالبة بتجاوزها.

إن تدوين التفاصيل الكاملة لتلك الأيام الحزينة ضروري لأقصى حد، فمن خلالها نكتشف نقاط الخلل والضعف والخراب، ونعرف كيف هزمنا، ولماذا، وهذا التدوين ليس بقصد جلد النفس والتلذذ بالآلم، وإنما محاولة للتجاوز، وفهم أعمق للنفس والظروف، وللآخر، في نفس الوقت.

فإذا كانت الهدنة، أية هدنة، التقاطاً للأنفاس، ومحاولة لتلافي النقص، وإيضاً لمعالجة الحالات الانسانية، فإن هدنة ١٩٤٨ كانت خديعة كبيرة تضاف الى مجموع الخدع التي انطلقت على العرب، وادت بهم، بالتالي، إلى المزيد من الضعف والارتباك، وأخيراً إلى الخسارة.

وتتالت بعد ذلك الهزائم: سقطت اللد والرملة، وتم احتلال مناطق تتجاوز بكثير ما كان "مقررًا" في قرار التقسيم، وأصبح الوضع العربي مكشوفاً، فبانت فيه الثغرات والندوب والعلل.

وزيادة في الاهانة والتحدي، ولاثبات التفوق، قامت طائرة بالاغارة على عمان.

جرت الغارة في أواخر الليل، ومثلما كان الناس يخرجون إلى الأسطحة والأماكن المكشوفة في ليالي الخسوف، خرجوا هذه المرة أيضاً، وخرجت معهم الأسلحة القديمة المخبئة .. أطلقت كمية كبيرة من الرصاص على الطائرة التي سمع

صوتها، لكن لم يرها أحد. واختلف الناس حول المكان الذي القت عليه قنابلها، وحول مدى الأضرار والخسائر التي خلّفتها.

خلال الأيام التالية نُصبت بعض المدافع المضادة للطائرات في عدة أماكن، عند الملعب الصغير قرب اللاسلكي، وغير بعيد عن الحاووز الكبير، وعلى بعض التلال المحيطة بعمان، لكن الغارات لم تتكرر!

وانتهت الهدنة الأولى وتجددت الحرب، لكن الموقف العربي لم يتغير، وبدأت الهدنة الثانية. واغتيل الكونت برنادوت، الوسيط الدولي. اغتاله اليهود جهاراً، لأنهم اعتبروا الاقتراحات التي قدمها للتسوية، بما فيها الحاق القدس والنقب بالدولة العربية الفلسطينية غير مقبولة، ولم تستطع الأمم المتحدة أن تفعل شيئاً أكثر من الاحتجاج!

وتوقفت الحرب العربية - الاسرائيلية الأولى، " واستقر "معظم النازحين في عمان. ومنذ ذلك الوقت أصبحت المدينة شيئاً مختلفاً، بمزاجها، بعدد سكانها، بامتدادها واتساعها وأيضاً بحجم القلق والخوف الذي سيطر عليها، لأن هناك أحداثاً، حين تقع، تجعل الناس يكبرون، بل يهرمون، خلال فترة قصيرة، وربما قياسية. حتى الفتيان الصغار، بعد أن وقعت تلك الأحداث، غدوا رجالاً تثقلهم الهموم وتملؤهم الأسئلة، والكبار الذين كانوا ملء العين والقلب، تحولوا فجأة الى أناس حائرين.

لقد خلقت هذه المأساة جروحاً عميقة، وإذا كان بعض هذه الجروح قابلاً للشفاء بمرور الوقت، فإن جروح الروح لاتندمل أبداً. قد تختفي لبعض الوقت، قد تُنسى، لكنها هناك، في الأعماق، توالي نزفها، فتولد وجعاً كاوياً، وتولد لوعة في الجسد والروح، لايمكن لهما أن يزولا إلا إذا زال الظلم وصُححت الأخطاء وخضعت العلاقات إلى العدل والمنطق ومصالحة الأجيال القادمة.

فلسطين أكثر من أرض، وأكبر من جيل، وأبعد من مجرد جيوش تتصادم فينتصر جيش ويهزم آخر. إنها لا تعني الذين يسكنون هذه الأرض وحدهم، ولا تتوقف عند حدود من يهزم من، أو من أكثر مكرًا من من، كما أن الآخرين، البعيدين، الأقوياء، يمكن أن يتدخلوا ليعطوا للأحداث مساراً في وقت من الأوقات، لكن هذا الآخر، البعيد، القوي الآن، لايمكن أن يظل المقرر، أو أن يبقى قوياً الى الأبد، أو أن ينوب عن الآخرين، أو عن حركة الحياة، وقوة التاريخ وعتو

الجغرافيا. إن ذلك مستحيل تماماً كاستحالة من يحاول التحكم بالشمس أو بالمد والجزر، أو كمن يريد أن يغير اتجاه الرياح وحركة الأمواج ومواعيد الليل والنهار.

فإذا استطاع اليهود، اعتماداً على التوراة، أن "يخلقوا" وضعاً ويفرضوه، مستفيدين من التقدم الذي حصلوا عليه في الأماكن التي سكنوا فيها، ومن العلاقات التي لهم مع "الآخرين" ومستغلين ضعف الطرف الآخر في هذا الصراع، فإن هذا الطرف الضعيف الآن، المذهول، الذي يثقل عليه التخلف وقسوة الأنظمة، لن يبقى ضعيفاً إلى الأبد، ولن يظل مستسلماً إلى مآلنهاية، ولن يقوى الحكام على أن يستمروا هكذا، أو أن يفرضوا ما يشاؤون. إضافة إلى أن الطرف العربي يعتمد على حقائق تتجاوز الأوراق القديمة واللغائف، كما لن يخضع أو يستسلم للقوة المسيطرة الآن، أو عند الأمر الواقع المفروض نتيجة هذه القوة.

الجيل الذي ولد في قلب العاصفة قد تحمله رياحها في الاختيار لهذا الاتجاه أو ذاك، وقد تطرح به فينتيه، خاصة وأن جيل الآباء لم يقطن لما كان يُدبر، ولم يستعد، لكن الجيل الذي يليه، والجيل الذي سيعقبه، لابد أن يتوقف ويراجع ويستفيد من أخطاء الذين سبقوه، ومن حقدهم أيضاً، لكي يغير المعادلات ويصحح المسارات، وقد يشعل حروباً كبيرة، كما حصل في أكثر من مكان، وفي أكثر من عصر، نتيجة القسوة والظلم والاهانة، وبالتالي تكون الأجيال القادمة مضطرة لأن تدفع ثمن أخطاء الأجيال التي سبقتها، وبذلك يصبح الدم القانون الذي يحكم المنطقة لازمان كثيرة قادمة.

إن الأمر الواقع المستند إلى القوة الغاشمة وحدها لا يشكل قانوناً رياضياً، أو أزلياً. كما لا يمكن أن يقاس المستقبل واحتمالاته على ضوء الواقع الراهن وحده، أو نتيجة له، لأن قوانين الحياة: التبدل والتغير باستمرار ودون توقف، وهذا التبدل والتغير لا يعني بالضرورة، وفوراً، نحو الأحسن، إذ قد يكون المخاض طويلاً وقاسياً، ولكن لابد من ولادة جديدة، ولابد من صيغة مختلفة.

لقد مرت أيام كثيرة على أحداث ١٩٤٨، لكن الآثار التي خلفتها لا يمكن أن تنسى. أكثر من ذلك، ستبقى تتفاعل وتؤثر إلى أن يتم الوصول إلى حلول بعيدة عن الغرض والعسف، وبعيدة عن التزوير وصفقات الظلام والسمسرة، لأن الإنسان، أي إنسان، أعجز من أن يستطيع تغيير الجغرافيا والتاريخ، والقوة وحدها لا يمكن أن تديم الأمر الواقع، كما أن القوة ذاتها لاتدوم لنفس الجهة وب نفس المقدار.

قد يكون هذا حكم قيمة أو استنتاجاً مستنداً إلى القيم المعنوية والشعور بالظلم، وبالتالي ترحيل القضايا من الجيل الحالي إلى الأجيال القادمة.

إن استنتاجاً من هذا النوع، أو الخضوع إلى منطق الآلية والتكرار لا يؤدي إلى نتيجة دون فعل الانسان، شرط أن يكون هذا الفعل منسجماً مع الحركة الكلية للأشياء وقوانينها الفاعلة.

دلت الوقائع أن أحد أهم التحديات، والتي تؤدي إلى مقتل، اعتبار الحقيقة الجزئية حقيقة كلية، واعتبار لحظة بمفردها تلخيصاً للزمن، والاعتماد على عنصر واحد في قراءة التطور أو تحديد اتجاهه وحركته الكلية، الأمر الذي يؤدي إلى سيادة الجزئي والمؤقت والعارض، وتأجيل المشكلة، لا الوصول إلى حلول حقيقية ودائمة لها.

ولأن الحياة لاتعرف التوقف أو الثبات، وهي شديدة الحركة والتغير والتنوع، فإن الهموم والمشاكل والتحديات والطموحات، وأيضاً الرغبات، إضافة إلى الأحلام، تظل تفعل وتحرك وتغير، كما تظل تدفع إلى البحث للوصول إلى صيغة أكثر قوة وعدلاً وتلبية للوقائع والحقائق المادية، وصولاً إلى اختصار جزء من الآلام الكامنة في الصيغة الراهنة.

إن عمان، مثل المدن الأخرى في المنطقة، تنام على آخر نشرة أخبار، وتستيقظ على أول نشرة، لأنها تنتظر شيئاً لم يأت بعد، وهو بالتأكيد غير هذا السلام الهش المفروض بالقهر والقوة.

وتبقى عمان، مثل المدن الأخرى، تنتظر ذلك الذي سيأتي!

بعد أن طال الحديث هكذا عن عمان وتشعب، لابد أن يتساءل من لم يرها بتلك الصورة، وذلك الذي لم يعرفها أبداً، كيف كانت المدينة؟

سؤال مثل هذا، رغم أهميته، لأحد يستطيع الإجابة عنه، لأن المدن ليست المعالم، مهما بلغت البراعة في استعادة تفاصيلها؛ وليست المياه والأرض والأشجار، وهذه كلها أو بعضها، لاتزال قائمة، أو يمكن تخيلها؛ والمدن لاتقتصر على البشر، رغم أن هؤلاء هم الذين يعطونها القوام والنكهة؛ كما لايمكن أن نستعيد الفترة الزمنية الماضية، باستعراض ماوقع خلالها من أحداث، إذ رغم فائدة ذلك، لأنه يضعنا في الطريق الصحيح، إلا أنه لا يوصلنا الى ما نريد.

ان المدينة، أية مدينة، كل هذه الأشياء معاً وغيرها، وقد تداخلت وترابطت وتفاعلت، بحيث أصبحت مختلفة عن العناصر التي كوَّنتها، مع استمرار صلتها بها، واختلافها عنها.

المدينة هي الحياة بتعددتها وتنوعها، هي الأمكنة والبشر والشجر ورائحة المطر، وهي التراب أيضاً، وهي الزمن ذاته ولكن في حالة حركة. المدينة طريقة الناس في النظر الى الأشياء، وطريقة كلامهم، كيف تعاملوا مع الأحداث التي وقعت، كيف واجهوها وكيف تجاوزوها. المدينة هي الأحلام والخيالات التي ملأت عقول الناس وقلوبهم، التي تحققت وتلك التي طاشت ثم خابت، وكُم تركت من العلامات والجروح. المدينة هي لحظات فرح الناس وأوقات حزنهم. المدينة هي الطريقة التي تستقبل بها من تحب وتواجه من تعادي. المدينة هي الديمور التي تودع بها من غادروها، مضطرين، مؤقتاً أو الى الأبد، وهي البسمات التي تستقبل بها العائدين.

هذه هي المدينة وأشياء أخرى كثيرة وصغيرة، فهل يمكن استعادتها؟

هل يمكن استعادة ضوء الشمس الغاربة، أو القبض على لحظة الفرح التي

كانت ثم مضت؟ هل نستطيع أن نسترد العاصفة أو نثبت أمواج البحر ونقاط المطر التي تهبط من السماء؟

إذا استطعنا، إذا حاولنا، أن نوقف الزمن أو نعيده إلى الوراء، نستطيع أن نستعيد المدينة في لحظاتها تلك، ولأن ذلك يبدو مستحيلاً تلجأ إلى التوقف عند بعض المعالم، عند بعض التفاصيل، كيما نستعيد وجوه عدد من الرجال والنساء الذين كانوا ثم مضوا، تاركين في القلب والذاكرة بعض الملامح وبعض الأجزاء التي تأبى الغياب، ومن خلال ذلك يمكن إعادة رسم صورة تقريبية للمدينة، أطيافها وظلالها، التي كانت في يوم أو التي يخلقها الوهم.

إنها مجرد محاولة.

لكن قبل الدخول في متاهة الذاكرة، وما يمكن أن تستحضره من الأشكال واللحظات والبقايا، من المفيد تسجيل المعلومات التالية:

جاء في معجم البلدان لياقوت عن عمان: «... كورة من أعمال دمشق، بين الشام ووادي القرى، قصبته عمان وفيها قرى كثيرة ومزارع واسعة، وبوجود حنطتها يضرب المثل» ووصف عمان بقوله « عمان بلد في طرف الشام، وكانت قسبة أرض البلقاء... وقيل إن عمان مدينة دقيانوس، وبالقرب منها الكهف والرقيم»^(١).

وقال المقدسي في كتابه: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم: « أما الصف الرابع (من هذا الاقليم) فسياف البادية. وهو جبال عالية، باردة، ذات قرى وعيون وأشجار، يقع فيه من البلدان: مأب وعمان وأذرعات ودمشق وحمص وحلب»^(٢)

« وفي الحروب الصليبية كانت عمان أحد مراكز التجمع وإرسال الحملات لاسترجاع مدينة الكرك ولقد وجد على القلعة ترميمات في الأبنية لايواء الجيوش الصلاحية، مع بعض العملة والقطع الفخارية وبعد هذا الزمن توالى عليها الزلازل فهدمتها، ثم أصبحت مياهها مستنقعات تقضي على السكان بحمى الملاريا بحيث لايشعرون، فابتعدوا عن سكناها، على أنهم لم يستغنوا عن ورودها لسقاية مواشيهم. ومنذ القرن الرابع عشر أهمل ذكرها بالمرّة وخيّم عليها النسيان »^(٣).

(١) ياقوت الحموي، معجم البلدان .

(٢) المقدسي ، أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم .

(٣) محمود العابدي، عمان في ماضيها وحاضرها .

أما في العصور الحديثة وبعد أن زارها بيركهارت سنة ١٨١٢ فيقول: « ... ان قبائل البدو كانت تتردد على مياه عمان لكي تسقي مواشيها وجمالها منها » «...والنهر المدعو [مئة عمان] ينبع من بركة في طرف البلدة الجنوبي، ويجري في واد تتاخمه على الجانبين تلال صوانية قاحلة » « ... ضفاف النهر، وكذلك مجراه، جميعها مرصوفة، إلا أن سيول الشتاء جرفت الرصافة في أغلب الأماكن » وقال أخيراً « ... ان جدول الماء ملآن بالأسماك الصغيرة » (٤).

أما الرحالة تريسترام الذي زار عمان عام ١٨٦٤ فيقول « ... وصلنا الى نبع غزير، وشاهدنا بقايا جدران، ووراء ذلك رأينا جسراً يقوم على ثلاثة قناطر وهو من منشآت الرومان المتبقية » « ... أما جدول الماء المملوء بالأسماك فيتعرج بالوسط بينما ترفده الينابيع هنا وهناك، بحيث تصبح ربة عمون مدينة المياه حقاً » (٥).

ولورنس أوليفانت مر بعمان سنة ١٨٧٩ وشاهد الشراكس فيها، وقال « ان عددهم لا يزيد عن ١٥٠ شخصاً. وذكر انه شاهد الى الشرق من عمان موضعاً حجز فيه ماء النهر لأغراض الري » (٦).

وذكر جراي هل هي عام ١٨٨٠ « ... ان منازل البلدة تقوم في واد ضيق على جانبي جدول الماء، وأن الناس الذين يأتون الى عمان ينظرون بأعجاب الى عريات الشراكس الصغيرة ذات العجلات، لأنه لا يوجد عريات في البلاد تشبهها » (٧).

وقال رينسون ليس الذي زار عمان مرتين الأولى ١٨٩٠. اذ يقول: « ... ظهر في البلدة شارعان أولهما للدكاكين والثاني أصبح سوقاً ... فيه فرن يخبز الأرغفة لكافة الناس » (٨).

أما عندما زارها للمرة الثانية عام ١٨٩٣ « ... ازداد عدد السكان فأصبح حوالي ألف نسمة من الشراكسة، بالإضافة الى عدد من أصحاب الدكاكين من أهل السلط » (٩).

أما الرحالة النمساوي الذي زار عمان سنة ١٩٢٣ فيقول في كتابه « الطريق

(٤) مس كهارت، عن كتاب : عمان عاصمة الاردن تحرير : سليمان موسى .

(٥) المصدر السابق .

(٦) المصدر السابق .

(٧) المصدر السابق .

(٨) المصدر السابق .

(٩) مس كهارت، عن كتاب : عمان عاصمة الاردن تحرير : سليمان موسى .

الى مكة» واصفاً البلدة: « كانت عمان، العاصمة المبنية على أطلال فيلادلفيا، مدينة مغمورة لا يتجاوز عدد سكانها ستة آلاف نسمة» (١٠)

بعد هذه المعلومات الأولية ربما تقوى الذاكرة على استعادة بعض ما رآته العين خلال فترة الأربعينات، أنها مجرد محاولة.

تبدأ المدينة، مدينة عمان، بعد رأس العين بمسافة ليست قصيرة.

أول المعالم المادية: البناء الذي يضم مولدات شركة الكهرباء، مقابل سياج رأس العين، على يمين الطريق الترابي النازل. هذه أول إشارة للمدينة.

بعد المولدات، في بسطة ضيقة من الأرض، عند تلاقي أودية الجنوب والغرب، سوق الحلال الأساسي، وهو للمرعايا الكبيرة التي تأتي من الأمكنة البعيدة، وقد يتابع بعضها الى مصر أو الجزيرة بعد استراحة بضعة أيام.

على التل المقابل لسوق الحلال بيت نزال العرموطي، ولعله البيت الأول الذي يحدد المدينة من الناحية الجنوبية الغربية.

على ضفاف النهر، من الناحيتين، وحتى جسر المهاجرين، بساتين الشراكس وبيوتهم. كانت البيوت متناثرة، متباعدة، على الضفة اليمنى، متقاربة متداخلة على الضفة الأخرى. أما عند الجسر تماماً فكانت الطواحين.

أثناء الحرب الثانية وبعدها، ونتيجة الهجرة المتزايدة نحو عمان، اتسع حي المهاجرين، وبدأ يستقبل الكثيرين، وبالتالي لم يعد مقصوراً على الشراكس.

بدأ من جسر المهاجرين مروراً بالجامع الحسيني، وصولاً الى الجسر العسبلي، السوق، مع فجوات تتخللها البيوت. وغالبية سكانه والعاملين فيه من العرب، في البداية الذين أتوا من قرى وبلدات الداخل، من مأدبا والكرك والعقبة، وأيضاً من الجزيرة، ثم بعد ذلك، وكلما اقتربنا من الجامع الحسيني، تصبح الأغلبية من الشوام.

الى جانب الجسر، عبر الشارع، دير اللاتين، وفيه مدرسة أطلق عليها في وقت لاحق اسم المدرسة الوردية. على بعد مائتي متر من الدير كنيسة الروم الأرثوذكس، وغير بعيد عنها الحمام العام الوحيد في عمان. كان الحمام يستقبل النساء قبل الظهر في جميع الأيام، عدا يوم الجمعة، أما بعد الظهر وفي الليالي

(١٠) كتاب الطريق الى مكة.

فللرجال . مقابل الحمام تماماً سوق الحلال الصغير ، وكانت تجري فيه عمليات البيع والشراء في كل الايام ، ويبلغ ذروته يوم الخميس . الى جانب الحمام يقع الجسر الذي يقود الى وادي سرور . فاذا تم الوصول الى الجامع الحسيني نكون في مركز المدينة ، واهم مكان فيها ، لان معظم الشوارع تصب فيه او تنطلق منه ، وحواليه تلتف الاحياء ، تماماً كما هو الحال في جميع المدن الاسلامية ، حيث يكون المسجد الجامع مركز الدائرة .

الجامع الحسيني بالنسبة لعمان هكذا ، اذ تقوم حوله الدوائر الحكومية وسوق الخضرة ومركز الشرطة الرئيسي ، وغير بعيد عنه كان في يوم من الايام اول سجن في عمان » . وكان السجن مؤلفاً من ثلاث طوابق « (١١) !

على مسافة قريبة من الجامع : سوق الخضار . لقد لعب هذا السوق دوراً مميزاً في اربعينات هذا القرن ، لان الاحياء التي كانت تفرق وتباعد بين الناس ، من حيث السكن ، نتيجة الانتماء ، فإن السوق يجمعهم ، اكثر من ذلك كان يقارب بينهم ، تمهيداً لان يوحدهم .

كان الناس في عمان يسكنون وفقاً للقرابات ، ثم للانتماءات ، واخيراً نتيجة العلاقات ، كما هو الحال في اي مجتمع زراعي تقليدي . لذلك لم يكن من السهل تجاوز التقاليد الصارمة التي تفرض نفسها . " ... فالشركس يسكنون متجاورين ، واهل الجزيرة العربية لابد ان يسكنوا في مكان غير بعيد عن الطريق الذي يقود الى الجزيرة مرة اخرى . والذين جاءوا من سورية استقروا ، في الغالب ، شرق المدينة ، غير بعيد عن السوق التجاري ، وغير بعيد عن طريق الشام " (١٢)

مقابل المسجد ، مع انحراف قليل نحو الشمال ، السوقان التجاريان الرئيسيان : الرضا والسعادة ، واغلب التجار فيهما من الشام . حين يلتقي الشارعان ، ناحية الغرب عند دار البلدية ، يشكّلان شارع فيصل ، الذي يقود بدوره الى غرب المدينة وشمالها ، ويؤدي بالنتيجة الى وادي السير والسلط .

ومثلما كان بيت العرموطي نقطة علّام المدينة من ناحية الجنوب الغربي ، فإن بيتي صالح بسيسو ومحمد حمزة ، على طريق السلط ، كانا من اواخر البيوت ناحية الشمال الغربي . كذلك الحال لبيت الجيوسي في غرب المدينة ، إذ كان هذا البيت

(١١) عبد الرؤوف منكور ، ذكريات حياتي من ٤٧ ، ملاحح الحياة الشعبية في مدينة عمان ١٩٤٨ - ١٩٧٨

(١٢) عبد الرحمن منيف : محاضرة في عمان مؤسسة شومان - ايار ١٩٩٢ .

مقابل بستان ابو شام، على كتف الدوار الاول، الذي لم يكن قد تم انشاؤه بعد . هذا إذا استثنينا بيت الفرج مقابل ملعب كويان، والذي كان وحيداً منعزلاً، وكأن ليست له صلة بالمدينة!

لو أخذنا نقاطاً أخرى لتحديد المدينة، من حيث السكن، فإن بيت الدكتور يوسف عز الدين، المقابل لدرج فرعون، كما كان يطلق على الدرج الروماني، يعتبر، مجازاً، آخر البيوت ناحية الشرق، وكذلك الحال لفندق فيلادلفيا على الضفة الأخرى من النهر. صحيح أن بيوتاً أخرى تلي الإثنين شرقاً، لكنها في الغالب صغيرة متباعدة وبالتالي لاتشكل نقاط يمكن الاهتداء بها.

إذا تم الوصول شرقاً، الى جسر المحطة، يتفرع الطريق هناك اذ تقود طريق اليسار نحو المقر، الى قصر رغدان، وطريق اليمين نحو المحطة.

أما ما يحدد الشمال، جهة القلعة فبيتان: بيت محمد أمين الشنقيطي، مرافق الأمير- الملك: عبد الله، وأحد الذين شغلوا الوزارة عدة مرات، وبيت ابراهيم قطان، مفتش وزارة المعارف، واحد مؤسسي « المنتدى العربي » .

وكان بيت البشارات يحدد آخر الأمكنة المعمورة في جبل اللوييدة.

أما ناحية الجنوب قياساً للجامع الحسيني، فمستشفى الطلياني، وإلى جانبه مشفى الست العرجا، وكان آخر ما يشاهد من الأبنية، حيث يشمخ فوقهما الجبل العالي، الأشرفية، الناتني الصخور، والذي يجثم على المدينة كالشبح.

حين بدأ الدكتور ملحس ببناء مستشفى في جبل عمان، اقصى غرب المدينة، نظر الناس الى بعضهم وتسألوا باستغراب: هل يمكن لمريض أن يصل الى هناك، خاصة أيام الشتاء والبرد ويبقى حياً؟!

عمان، إذن، من حيث السكن، في الأربعينات، كانت، بالدرجة الأولى، حول النهر، وإذا ابتعدت لاتبتعد عنه كثيراً.

الذين سكنوا في أمكنة أبعد كانوا مضطرين لذلك، بحكم الانتماء أو بحكم الضرورة، خاصة وأن الشوارع، معظم الشوارع، لم تكن معبدة، وسلوكها خلال فصل الشتاء شديد الصعوبة والعناء، إضافة الى عدم توافر الخدمات، تمديدات المياه بشكل خاص، لأن الكثيرين لم يفكروا، ذلك الوقت، بالكهرباء، نظراً لما تكلفه من أعباء لم يكونوا قادرين على تحملها!

النهر أولاً، والسوق ثانياً، وحولهما وبالقرب منهما، يسكن الناس. هكذا كانت الحال في البداية. لكن في وقت لاحق، بدأ تسلق الروابي. لم يكن هناك بوصلة أو دليل، فحيث يفترض صاحب العلاقة أن المكان الذي اختاره يناسبه، ولأسبابه الخاصة، أغلب الأحيان، يبدؤ فيه أول الأمر ثم يضع حجر الأساس، وبعد ذلك يواصل البناء بما يعتبره أكثر ملاءمة.... أو ربما أكثر جمالاً! وهكذا نشأت في عمان مجموعة هائلة من « المستعمرات » الصغيرة. فالأبنية تقوم وسط الأراضي الزراعية، وتكون، غالباً، متباعدة، متفرقة، بحيث أصبحت المدينة خاصة الجديدة، أشبه بالبقع، كانت تفتقر إلى الطرق، إلى الخدمات، لكن إصراراً عجيباً أقرب إلى العناد، جعل أصحابها يفعلون ذلك، الأمر الذي أدى لأن تأخذ عمان هذا الشكل، وهذا النسق، وجعل الفضاءات الخاوية بين « مستعمرة » وأخرى أحد أبرز السمات التي « ميزتها » خلال تلك الفترة، وربما لاتزال كذلك، إلى حد ما، وأكثر من المدن الأخرى، وإلى الآن!

معظم بيوت عمان، تلك الفترة، من طابق واحد، وهي مبنية من الحجر غير المصقول، ومسقوفة بالخشب والقصب والطين، كما كان يجثم على كل سقف، تقريباً، مدحلة حجرية صغيرة، أسطوانية الشكل، تستعمل خلال فصل الخريف لدحل الأسطح وترصيصها تجنباً للدلف.

كما كان لكل بيت، في معظم الأحيان، حاكورة، وهي عبارة عن حديقة غير معتنى بها، تنتثر فيها أشجار التين والرمان واللوز والمشمش، وكان في بعضها العناب أيضاً، إضافة إلى دالية تظلل مساحة واسعة، وتكون هذه المساحة، عادة، خلال فصل الصيف، المكان الذي يستظل فيه أهل البيوت وضيوهم. وفي جانب الحاكورة « خم » للدجاج في أكثر البيوت، إضافة إلى الحاجات المتروكة أو القليلة الاستعمال. حول البيت والحاكورة سور صفّ حجارته بدون مهارة وبلا اتقان، فبدأ في أحيان كثيرة متعرجاً، غير متساوي الارتفاع، الأمر الذي يجعل لمعظم البيوت أكثر من مدخل!

هكذا كانت أكثر البيوت أول الأمر، عدا بيوت الميسورين، لكن الاسمنت ما لبث أن غزا واقتحم. صحيح أن غزواته بدأت بمدة تُوضع على السطح، لكي ينزلق ماء المطر بسرعة، ويقي البيت من الدلف، ثم مدة في صحن الدار، تحت الدالية، ليكون الجلوس أكثر راحة ونظافة، إلى أن تجرأ كثيرون وبدأوا ببناء غرفة من الاسمنت، وغالباً ماتكون خارجية وللضيوف، ثم أصبح الاسمنت مادة البناء الرئيسية، وربما الوحيدة.

من التقاليد التي ترافق عقد سقوف البيوت، أي « الصبّ » أن يذبح صاحب البناء خروفاً ويولم للعمال، الذين يبذلون في مثل هذا اليوم جهداً مضاعفاً لإنجاز العمل، ويكونون في حالة من النشاط والسرعة، خاصة وهم يغنون ويهزجون ليشجعوا أنفسهم وبعضهم . أن ذبح الأضاحي تقليد يعود الى أزمنة قديمة، وله دلالات لاتخفى .

حين غزا الاسمنت أخذت عمان تتغير، بدأت ترتفع فيها الأبنية العالية، ذات الطوابق المتعددة، ولعل من أوائل تلك الأبنية: البريد .

أما حين زادت الأموال في أيدي الناس فقد أخذوا يصقلون الحجارة التي يبنون بها، ويتخيرون الروائاً جديدة منها، كما أخذوا يجودون في الهندسة والبناء، خاصة بعد أن وصل من التل، المدينة القريبة من دمشق، عدد من الحجارة والبنائين المهرة، وكانت تجربة هؤلاء عريقة في مجال البناء، الأمر الذي جعل بعض البيوت التي أقاموها، في نهاية الأربعينات، قبلة للناس، ينظرون اليها ويطيّلون النظر، إعجاباً وتقديراً للجمال والصنعة .

ويوماً بعد آخر، ولأسباب كثيرة، بدأت عمان تدخل في طور جديد، من أبرز مظاهره أن أخذت بيوت السكن تنأى شيئاً فشيئاً عن السوق وعن مجرى النهر، بدأت ترتقي أكثر التلال وتوغل في البعد عن الأماكن المزدحمة .

خلال فترة قصيرة بعد الحرب امتدت المدينة واتسعت في جميع الجهات، وأخذت سفوح الجبال، التي كانت عارية، تنظرز بالبيوت . صحيح أن هذه البيوت متفاوتة، وبعض الأحيان تفاوتاً كبيراً، لكن مكاناً يعتبر بعيداً أو صعباً، مالبث البشر أن احتملوا بعده، وتغلبوا على صعوباته، رغم اختلاف الدوافع والامكانيات . فجبل عمان، عدا السفح الجنوبي، أصبحت تكثر فيه البيوت ذات الحجارة البيضاء . فاذا تعذر بناء البيت كله بنفس الحجارة فلا أقل من الواجهة الأمامية !

أما السفح الجنوبي الذي بدأ فقيراً فقد استمر كذلك، رغم تزايد السكان فيه أكثر من السفوح الأخرى . فحي المصاورة، نهاية شارع خرفان، امتد جنوباً وغرباً أكثر من قبل، وأخذ يتدلى كنبات الصبّير، باتجاه الجزء الأعلى من المهاجرين !

وجبل اللوييدة أخذ مسيرة جبل عمان، لكن بوتيرة أبطأ . بدأت تظهر على سفحه الجنوبي بيوت واسعة وجميلة . أما السفح الشمالي، المطل على طريق السلط، فقد قامت مجموعة من المنشآت التجارية والمكاتب، وكتب على واجهات بعضها: « هذا من فضل ربي » أو « ماشاء الله » . فأنديب الصباغ والبليسي وشنانة

أقام كل منهم مجعاً، وبالبحث هذه المجمعات أن أصبحت مركزاً تجارياً وإدارياً للمدينة، وأخذت التجارة وأخذ التجار يزحفون في هذا الاتجاه!

سفوح الجبال الأخرى: النظيف والأشرفية والجوفة، امتلأت أيضاً بالبيوت التي أخذت تتراكم بسرعة، ودون اتقان، من أجل إيواء القادمين الذين تزايدوا بشكل كبير خلال هذه الفترة.

بكلمات قليلة: أصبحت عمان تتسع وتكبر بوتيرة تفوق التصور، وتفوق أية فترة سابقة، أما عندما جاءت سنة ١٩٤٨، وتدفق عدد كبير من اللاجئين، فقد أصبحت المدينة وخلال فترة قصيرة، خزاناً بشرياً مكتظاً.

لقد ظل الرقم: ثلاثون، وخمسة وثلاثون ألفاً، يتردد في بداية سنوات الأربعين، كتقدير لعدد سكان المدينة، وكانت الكتب المدرسية تؤكد ذلك. أما بعد الحرب العالمية الثانية، ثم بعد نكبة فلسطين، فقد اضطرت الأرقام وتفاوتت كثيراً، ولم يعد من السهل إعطاء رقم دقيق لعدد الذين يقيمون في عمان.

وباعتبار أن المدن ليست الأبنية فقط، وليست الأرقام وحدها، فإن من أبرز ما بدأ خلال هذه الفترة تزايد حركة السكان، إذ بالإضافة إلى التوجه نحو التلال، فإن تدخلاً أهم أخذ يشق طريقه ويفرض نفسه. حيث تجاوز الكثيرون الصيغة السابقة، التقليدية من حيث مكان السكن أولاً، ثم أخذت النظرة والعلاقة تتغير بعد ذلك. وهكذا نشأ تمازج سكاني شديد التنوع والغنى، أصبح الحي الواحد يضم سكاناً من منابت ومذاهب متعددة، وأصبحت رابطة المدينة أقوى من الروابط السابقة.

إن المدينة لاكتسب هذه الصفة إلا إذا ارتفعت فوق الأجزاء التي تكونها، وقامت فيها علاقات مدنية حقيقية. هذه العلاقات ليست نتيجة الرغبة قدر ما تكون نتيجة التطور في طبيعة الروابط وأسباب المعيشة والنظرة، إضافة إلى الشعور بالأمن. وهذه كلها تفرض بدورها، نمطاً جديداً من العلاقات والسلوك، تؤدي إلى صفات تميز الحياة والناس في ذلك المكان.

كان يمكن لهذه الحالة أن تتسرخ وتنمو لو أمكن التحكم ببناء المدينة وتوسعها، في ظروف طبيعية، خاصة وأن عدداً من العناصر الإيجابية كانت متوافرة وتساعد في الوصول إلى ذلك. فالتنوع القوي والديني والمذهبي الذي ميز عمان، والذي يكون في أحيان معينة عاملاً سلبياً معيقاً، خاصة في المدن القديمة المغلقة، كان في حالة عمان عاملاً إيجابياً.

فقد أدى تلاقي العنصر الشرركسي بالعنصر العربي، وتحديد البدوي، من حيث العادات والنظرة، وخاصة للمرأة، الى تجاوز مرحلة بكاملها، اذ انتقلت المرأة الى السفور دون مقاومة، ودون قيود. ثم جاء التعليم ليعزز وضع المرأة، ويجعلها عنصراً منتجاً وأكثر استقلالاً. كما أن التزاوج الذي تم بين العرب والشرركس، واتقان الشرركس للغة العربية، واعتبارهم للموطن الجديد وطناً نهائياً ووحيداً، هذه الأمور ساعدت على ترسيخ القناعة ثم العلاقة، خاصة وإن الوضع المادي لهؤلاء تحسن كثيراً نتيجة ملكيتهم لمساحة واسعة من الأراضي، والتي ارتفعت اسعارها بشكل سريع ومتزايد، مما انعكس ايجابياً على علاقة الشرركس بالمكان والآخرين.

يضاف الى ذلك ان العلاقات الاسلامية- المسيحية اتسمت بالكثير من التسامح والتفاعل الايجابي، وتأكدت أكثر من خلال التقارب السكني وعلاقات العمل، في الوقت الذي أخذت مثل هذه العلاقات في أمكنة أخرى، صفات سلبية، نظراً للعزلة والخوف المتبادل، إضافة الى التحريض الخارجي .

وما ينطبق على العلاقات الاسلامية- المسيحية، ينسحب أيضاً على العلاقات داخل الدين الواحد، بين المذاهب، إذ سادت روح التآخي والتقارب، قلما تتوافر في أمكنة أخرى .

قد يكون هذا التحليل استطراداً أو زائداً في وصف حال المدينة، عمان، في الأربعينات، ولكن نتيجة المقارنة، والنظر الى الأمور من مسافة، وبعد اختبار علاقات من أنماط مختلفة، يكتشف الانسان هذه الصفات الايجابية الهامة، والتي يمكن ان تشكل جسراً قوياً للانتقال، والتي كانت ولا تزال، موجودة في عمان، إلا أنها لم تستثمر بطريقة فعالة ومستمرة .

فإذا تجاوزنا الرغبات (وربما الاماني) وعدنا الى المدينة التي كانت، وحاولنا ان نقرأها، فكيف كانت تبدو ؟

كانت عمان، اثناء الحرب، خائفة، منتظرة، تعيش عيشة الكفاف، وتبدو اقرب الى التقشف، لكن ما كادت الحرب تنتهي حتى أصبحت المدينة مدينتين، واحدة للأغنياء، والآخرى للفقراء، وتأكدت هذه الصفة وتزايدت بعد ١٩٤٨ . ومما ساعد على تأكيد هذه الصفة، الطبيعية الجغرافية للمدينة، وعدم وجود تخطيط واضح لتوسعها . وهكذا اتسعت عمان وكبرت بشكل عشوائي، الامر الذي فرض شكلاً وامتداداً لم يعد من السهل الحكم بهما .

وإذا كان الجامع الحسيني قد ظل،لفترة طويلة،مركزاً لعمان،فإن طريقة امتداد المدينة وتوسعها،جعلاه يفقد هذه المركزية،خاصة وأن التوسع لم يقتصر على بيوت السكن،فقد تراقق أيضاً بالاسواق والخدمات وتطور وسائل النقل،مما جعل حاجة الناس لهذا المركز تتراجع،خلفاً لما هي حال مراكز تقليدية مماثلة في المدن القديمة،كالقاهرة ودمشق وبغداد .

المكان الآخر الذي شكّل مركزاً للمدينة،ولفترة طويلة أيضاً،مع اختلاف الوظيفة : المدرج الروماني .

ورغم التأكيد الذي سجله التاريخ أن الرومان هم الذين بنوا هذا المدرج،ويظهر ذلك أيضاً من طراز البناء،فقد أطلق الناس في عمان على هذا المدرج تسمية أخرى : درج فرعون .

لماذا أطلقوا هذه التسمية ومتى ؟ ان الاجابة الكاملة عن هذا السؤال مهمة المؤرخين،ومع ذلك من المفيد،هنا،الاشارة الى أن بعض التسميات،الخاطئة،يمكن أن تتوارث في المدن العريقة والمستمرة،لكن عمان التي اندثرت بالكامل خلال قرون معينة،الى ان جاءها الشركس،مهاجرين،في الربع الأخير من القرن الماضي،تختلف عن تلك المدن،وبالتالي تطرح تسمية المدرج باسم درج فرعون سؤالاً :

هل لحمة ابراهيم باشا،ابن محمد علي،أثناء استيلائه على المنطقة،وبالتالي التمازج السكاني،ولو بمقدار،وخلال فترة محدودة،علاقة بهذه التسمية ؟

هل للبطالسة الذين حكموا مصر،بعد الاسكندر المقدوني،والصراع الذي نشأ بينهم وبين السلوقيين،ثم مع الانباط،علاقة ترسبت عبر التاريخ في اذهان الناس،الامر الذي دعاهم لاطلاق هذه التسمية ؟

الا يحتمل ان يكون بعض الافراد،مجرد افراد،الذين قدّر لهم زيارة مصر ومشاهدة آثارها الفرعونية،هم الذين أطلقوا هذا الاسم،اعتقاداً منهم ان كل أثر ضخم لا بد ان يكون له علاقة بالفرعون والفراعنة ؟

ثم الا يعتبر الحاكم القوي المستبد،والذي وحده القادر على تسخير الناس من اجل اشادة مثل هذا البناء الضخم،هو (الفرعون)،خاصة وأن التسمية الدارجة التي يطلقها العامة على الحاكم من هذا النوع بأنه فرعون ؟

هذه الاشارة للموضوع تطرح سؤالاً أكثر مما تقدم اجابة .

ومع ذلك، يبقى المدرج الروماني، أو درج فرعون، في الذاكرة الجمعية الموهلة في القدم، جزءاً من حالة ليس من السهل تفسيرها، سواء من حيث التسمية أو المكان أو من الوظيفة .

فالشركس الذين وصلوا عمان مهاجرين، حلّوا، أول ما حلّوا، في المدرج الروماني، إذ اتخذوا بيوتهم بين أعمدته، واستعانوا بحجارته من أجل بناء بيوت جديدة لهم .

ثم دار الحكومة التي اقيمت بعد نشوء شرق الأردن، اقيمت بالقرب من المدرج الروماني .

والاحتفالات الهامة التي جرت في بداية قيام الدولة الجديدة، وإلى وقت متأخر نسبياً، كانت تجري في رحاب المدرج الروماني .

والفندق الأول، الهام، والكبير، الذي شيد في عمان، فندق فيلادلفيا، كان مقابل المدرج الروماني.

ثم ان (العيد)، وهو أهم الاحتفالات وأكبرها، لا يقوم في عمان، خلال أربعينات هذا القرن، إلا في هذا المدرج .

يضاف إلى ذلك أن التسمية الشعبية التي كانت تطلق على المدرج — إذا تنازلت عن تسميته بدرج فرعون، هي (الميدان)، ولا تخفى أهمية ودلالة مثل هذه التسمية في الذاكرة الشعبية .

إن أموراً كهذه تطرح سؤالاً من نوع جديد : إلى أي حد يتخفى التاريخ في ذاكرة الناس، لكن لا ينتهي ؟ أكثر من ذلك، إلا يضمّر التاريخ، بمكر، ولكنه ينهض بعنفوان ويؤثر في سلوك الأفراد والجماعات، كطريقة للدفاع عن النفس وتأكيد الذات ؟

من يرى عمان أيام العيد، أو في أيام أخرى مشابهة، في (الميدان)، في رحاب درج فرعون، أو المدرج الروماني، ويقارن ما يراه بالصور والمشاهد التي سجلها التاريخ، والتي كانت تجري في عين المكان قبل ألفي عام، يدهش من المماثلة والوظيفة التي كان يؤديها المدرج، ويمارسها الناس في رحابه .

أكثر من ذلك، يقول التاريخ أن جزءاً من المسرحيات التي كانت تقدم في المدرج، كانت تقدم بطريقة صامتة، ومن خلال الاشارات فقط، لتعدد اللغات التي كانت

سائدة آنذاك، ولافتراض ان الاشارات اكثر دلالة، وربما ايضاً لانها كانت الطريقة الافضل في التوصيل .

هكذا كان الحال في « الميدان » ايام العيد، فالصخب لا يتيح الفرصة لان يسمع الانسان الآخر، او ان يفهم عليه، لكثرة البشر، ولتعدد وسائل التعبير . فالطبول والمزامير، الرقص والغناء، ثم نداء الباعة، اضافة الى صراخ الاطفال، هذا عدا عن اصوات القلايات والمراجيح والمصورين واصحاب العريات والمهرجين، والذين يصرخون : راس بلا جثة، تتداخل كلها فتخلق حالة من الدوي لا يحس بها من كان داخلها . أما حين تنفد القروش القليلة التي يحملها الاطفال، ويبتعدون قليلاً، بارتقاء درجات اعلى في المدرج، او بالعودة « لمعايدة » من لم تتم معايدتهم بعد، اذ ربما يحصلون منهم على بعض القروش الاضافية التي تمكنهم من العودة مجدداً الى « الميدان » ... اذا ابتعد الاطفال قليلاً، ورأوا المشهد من مسافة، او سمعوا الاصوات وراءهم تطاردهم، يحسون اكثر بمدى الفرح الذي ولّده العيد في قلوبهم، خاصة في هذا المكان بالذات، والذي لا يغني عنه اي مكان آخر، رغم وجود المراجيح وبائعي الفول في اماكن عديدة !

في اليوم الأخير من ايام العيد، عند العصر، تحتشد عمان كلها، تقريباً، في المدرج . ومثلما كانت تجري الاحتفالات القديمة، قبل الفي عام، كان رجال عمان المعاصرون، هم فرسان اليوم الأخير للعيد . فالغناء والعزف والديكة، وكل المخزون من البراعة والقوة، يتجلى بين العصر والغروب، وكان الناس يودعون اياماً لن يروا مثلاً الا بعد وقت طويل، او كأنهم يقولون خلال هذه الساعات ما لم يقولوه في ايام كثيرة سابقة .

اكثر من ذلك ... حين تميل الشمس، وتبدأ الظلمة الخفيفة، يتداخل الزمن والاشياء، إذ تخرج الاصوات القديمة، التي طواها الماضي البعيد، تخرج مرة اخرى، تختلط بالاصوات التي تتردد في هذه اللحظات، وكأن شيئاً ما شبكها، احياها، او كأن الاصوات الآن تجد صداها بتلك الاصوات من خلال نغم شجي وحاسم: انها منذ هذه اللحظة ستصبح، ايضاً، اصواتاً قديمة، وتتضم الى هذا الموكب .

بالاضافة الى ذلك، تتبدى اشباح الناس الذين كانوا في فترات سابقة، إذ تغدو الوجوه والملامح ذاتها، فيصبح المكان جليلاً، وموحياً ومولداً للخوف . حتى حركة الناس، في لحظات معينة، عصبية مرتاعة، تريد ان تغادر المكان قبل ان تصبح جزءاً من حجارته او اصداؤها البعيدة!

إذا كانت احتفالات درج فرعون تبلغ ذروتها أيام العيد، فإن أياماً أخرى تتمتع بأهمية مماثلة أو مقاربة . ولعل أبرزها الاحتفالات التي كان يقيمها الحاج عمر في المناسبات الدينية، ثم في بعض الليالي الخاصة، وإيضاً في ليلة خسوف القمر .

فالحاج عمر، ذلك الدرويش الذاهل الذي يطوف شوارع عمان، والذي يرافقه بعض المريدين والمتسولين، ويُعتقد أن له بركات، وأنه صاحب طريقة، ويشمل بعطفه الحيوانات كالقطط والكلاب، وتروى عنه القصص، كما يؤكد الكثيرون أنه ينفق، بسرية، على عدد كبير من العائلات الفقيرة، إذ يأخذ من الأغنياء ويعطي الفقراء ... كان هذا الحاج، بالإضافة إلى بركاته الكثيرة، يقوم بعمل آخر خلال شهر رمضان، إذ يصبح كبير مسحري المدينة، ويخضع لنفوذه الأدبي، هكذا يفترض الكثيرون، المسحرون الآخرون .

كان الحاج عمر أحد أبرز معالم المدينة، خاصة في هذا الشهر .

كان طبله الكبير يملأ بدويّ الصاخب الساعات المتأخرة من ليل عمان، خاصة شرق المدينة، الأمر الذي يجبر أي إنسان على الاستيقاظ للسحور، مهما كان نومه ثقيلاً، أو في أية ساعة أوى إلى الفراش .

أما إذا جاء اليومان الكبيران في رمضان، الخامس عشر والسابع والعشرون، فإن عمان تعيش حالة خاصة، نادرة، لاتماثلها أية ليالٍ أخرى .

في مثل هذين اليومين، يبدأ الحاج عمر، ومعه مريدوه، وجمع كبير من الصبية والمتسولين، بعد أن يكون قد لف نفسه بملابس ملونة، وشد الطبل إلى صدره، وركّز علماً أخضر كبيراً إلى جانب الطبل، ناحية اليسار، قابضاً عليه بيد، وباليد الأخرى مطرقة الطبل وعند الضحى يبدأ طوافه بالمدينة .

كان يطوف المدينة من اقصاها إلى اقصاها، مع الاناشيد والتهاليل وصوت الطبل . ورغم أنه لا يطلب صدقة، ولا يتوقف عند أحد، إلا أن كمية كبيرة من الملابس والحاجات، إلى أرغفة الخبز، إلى النقود، كانت توضع في السلال التي يحملها المريدون، أو تُدس في أيدي أو في جيوب المقربين من الحاج . ويظل الأمر كذلك، من الطواف والتهاليل والصدقات، حتى العصر . عند العصر، أو بعده بقليل، يتوجه الحاج عمر شرقاً، ليعود إلى قرب المدرج، حيث يكون بعض مريديه، خلال غيابه، أوقدوا ناراً كبيرة، ووضعوا عليها قدراً، وبدأوا بإعداد شوربة الحاج .

ما إن يصل حتى يُفسح له المجال واسعاً، لكي يُضفي على الحساء لمساته الأخيرة وبركاته، إذ ينشغل، وبهمة كبيرة، في تحريك الحساء، بإضافة بعض المواد

اليه، في قلب النار . فإذا اقترب الافطار يشاهد العشرات الذين اصطفوا، وبأيديهم اوعية فقيرة، او تدل على النعمة، ليأخذ كل واحد منهم مقدراً من الحساء، حيث يتولى الشيخ بنفسه سكبها في الاواني .

يقول الكثيرون ان هذا الحساء يشفي من المرض ويجلب البركة، ويبالغ بعضهم فيؤكد انه يحقق المراد ايضاً ! ولا يتردد عدد من الاغنياء في ان يبعثوا باولادهم، او باقارب لهم، لكي يجلبوا مقدراً من هذا الحساء، يجزم كثيرون ممن فعلوا ذلك انهم لم يذوقوا منذ وقت طويل حساء بهذا المذاق الطيب !

الشخص الوحيد الذي يعلن احتجاجة على هذا الاحتفال، وينتقص من اهميته، الشيخ صالح، مسر المنطقة الغربية من عمان . إذ يعتبر طواف الحاج عمر في كل انحاء المدينة، متجاوزاً لمنطقته، ومتعدياً على مناطق نفوذ الآخرين، امر لا يمكن السكوت عليه او التسامح به، ولذلك يطلق لسانه بالتنديد، والتعريض، وحين يُنبه الى اننا في شهر رمضان، الشهر الحرام، الشهر الذي لا يجوز فيه التشهير، يصرخ بحرقة :

- قولوا لحيه التبن، قولوا لحجكم، وين خباً روحه شهور وايام، وبعدين طلع علينا وكأنه احد الصحابة !

بعد هذا الاحتفال، ولدة عشرة ايام، يغيب الحاج عمر، حتى يقال ان احداً ينوب عنه في طبل السحور ! الذين يقدرون بركاته، يقولون انه يستعد ليوم السابع والعشرين من رمضان، وغيرهم يقول انه مشغول بتوزيع الصدقات التي جمعها في الاحتفال على المستحقين والفقراء، ولانها كثيرة، ويجب ان يختار لكل انسان ما يناسبه، فإنه يقضي وقته في تسجيل الاسماء والحاجات، وعليه ان يكون دقيقاً حريصاً لئلا يقع في خطأ يلوم نفسه عليه في الدنيا، وينال جزاءه في الآخرة ! اما الشيخ صالح الذي لاتصله الردود على شتائمه وتعريضاته، وحين يقال له ان الحاج عمر غاب، او انه لم يشاهد، فيرد بسخرية :

- غيبة اهل الكهف ...

وبعد قليل وبسخرية أكثر :

- تنبل . اي نعم، طول عمره تنبل، لكن وين اللي يقتنع ويصدق !

وحين لايرد عليه احد، يصرخ بغیظ :

- قولوا لي وين موكر ؟ وين صارت اراضيه ؟

وحين يأتي السابع والعشرون من رمضان، وبطريقة لا تخلو من براعة، يظهر الحاج عمر من جديد . وربما هذه المرة بمهابة اكبر، وإن كانت لا تخلو من حزن، مع اناشيد تناسب هذا اليوم، لأن الشهر الفضيل، رمضان الكريم، بيودعنا ونودعه، ويجب أن يكون الاحتفال متناسباً مع هذا الشعور بالأسى والفقد نتيجة قرب انتهاء الشهر .

والشيخ صالح الذي لعل وعرض وتحدى في الايام الماضية يغيب تماماً، يغيب حتى عن بيته، كما يقول بعض الخبثاء، خفية، أن ينتقم منه مريدو الحاج عمر، أثناء طوافهم في غرب عمان، ولا بد أن تكون قد وصلتهم شتائم واقواله . لكن عند العصر، حين يكون موكب الحاج عمر متجهاً نحو المدرج، لتوزيع الشورية مرة اخرى، يخرج الشيخ صالح فجأة، يخرج مع طلبه هذه المرة، ويملاً حيّ المهاجرين بالصراخ والادعية والشتائم، مذكراً الناس أن يوم القيامة اقرب اليهم من حبل الوريد !

صراع صامت من ناحية ومدور من ناحية ثانية، بين طرفي المدينة، والناس يتابعون بدقة، يراقبون، واغلب الاحيان، راغبين او مشفقين، إذ بمقدار ما يفترضون أن لا غنى عن أي من الرجلين، لأن كل واحد منهما جزء من نسيج المدينة، يعتجرون الشيخ صالح مغالياً، أقرب الى الافتراء والتجني، ومع ذلك يريدونه أن يبقى كذلك، إذ لو فقد أو تنازل عن هذه الصفة لأصبح دون معنى، وبلا ملامح، وبالتالي فإن تحريضاً، صريحاً أو ضمنياً، كان يمارسه الناس لكي تبقى الامور كما هي الحال الآن !

قبل الانتقال الى اناس آخرين، لا بد من كلمات اخيرة عن المدرج الروماني، أو درج فرعون: ففي رحاب ميدانه، وعلى ادراجيه، كانت تجري عمليات بيع وتبادل لاشياء وحاجات ليس لها مكان في الاسواق الاخرى، فبيع الحمام لايجري في سوق الحلال، وكذلك بيع الأرناب، وانما مكانها الأساسي، وربما الوحيد، تحت أعمدة المدرج. وكذلك حال بعض الحيوانات غير الأليفة وبعض الطيور، فالغزلان، وقد كانت كثيرة خلال تلك الفترة، يحملها البدو ويدورون بها، فإن وجدوا مشترياً باعوها، والا وصلوا رحلتهم الى « الميدان » حيث يجدون هناك من يشتريها، وكذلك الحال بالنسبة لطيور الحجل والصقور، وفي حالات قليلة الحباري.

وعلى الأدراج العالية، وهرباً من المراقبة والشرطة، كانت تجري ألعاب قمار كثيرة، لكن المقامرین، وقد انتبذوا أمكنة قصية، يستطيعون أن يتدبروا أمرهم قبل أن تصلهم الشرطة وتقبض عليهم.

وفي زوايا المدرج، كان يوجد دائماً الباحثون عن الكنوز، وغالباً ما يكون هؤلاء من المفلسين، لكن لديهم قناعة، ولدى بعضهم خرائط ملفقة، أنهم سيتحولون بين يوم وآخر الى أثرياء كبار، كان هؤلاء يتظاهرون بالبراءة، وأنهم هناك للراحة والتأمل، لكن ما ان يحسوا بالأمان حتى يبدأوا رحلة بحثهم التي لا تنتهي!

وإذا كان معظم الاحتفالات يجري في المدرج نهاراً، فإن له احتفالاً ليلياً يهز عمان: ليلة خسوف القمر.

صحيح أن الخسوف لم يتكرر إلا قليلاً في الأربعينات، مرة أو مرتين، ولكن المدينة التي تكون ساهرة أو نائمة، ويكون الصمت شاملاً عميقاً، عدا أصوات حشرات الليل، أو عواء كلاب سائبة، تتحول فجأة الى حالة من الهياج والضجة حين يبدأ الحوت بابتلاع القمر!

يخرج الناس الى أسطح المنازل، الى الشوارع، الى الأمكنة المفتوحة، لكي يراقبوا، ويحتجوا أيضاً، لاختفاء القمر. كانوا يخرجون حاملين الأواني الفارغة التي يمكن أن تحدث أكبر قدر من الضجة والصخب، ويبدأون بالدق عليها، مع أهزيج لاتخلو من غضب طالبة من الحوت أن يخلي القمر، أن يتوقف عن ازدراده أولاً، ثم أخرجه بعد ذلك.

كان الكثيرون يدقون ويتوسلون وهم في عين المكان، لكن آخرين، حين يسمعون صوت طبل الحاج عمر، يتوجهون الى حيث يكون الطبل، الى المدرج الروماني. فهناك يكون أكبر تجمع بشر مع الأواني والطبول والصراخ، مع كمية من الشتائم والتهديد أيضاً، وكلها، تطالب، وتلع في الطلب، أن يفرج الحوت عن القمر.

انها واحدة من الليالي النادرة التي تعيشها المدينة، والتي لاتنسى رغم مرور الزمن.

والحاج عمر الذي يكون في أيام رمضان متفرداً وحيداً فإنه في ليلة الخسوف ليس أكثر من طبل، وليس أكثر من واحد ضمن هذه الجموع الكبيرة، وحين يقال ذلك للشيوخ صالح، الذي لا يتأخر بدوره عن المشاركة في اخراج القمر من بطن الحوت، لكن من مكان آخر، غرب المدينة، فإنه يعلق ساخراً:

— كان الحاج عمر، صاحبكم، مثل اللي ترقص بالعمّة!

يضحك بصخب فتبرز أسنانه الكبيرة المصفرة، ويتابع:

— الفرق كبير يا جماعة، بين واحد يغني ببير وواحد براس الجبل وصوته يردد

رعد.

كان يشير الى دوره، حين يخرج وبعض الفتية الى تلة المصدر، بالقرب من المقابر، وهناك يتولى تهديد القمر، اذ بعد أن يخرج من جيبه ساعة قديمة متوقفة، وينظر اليها في الظلمة ثم يقربها من اذنه لكن لا يسمع شيئاً، يقول بغضب:

- اسمع.. معك من الواحد للمية، اذا تركته عفينا عنك، سامحناك، أما اذا...

ويبدأ العد.

يقول الفتيان الذين كانوا يتابعون « معجزات » الشيخ صالح انه يبدأ يطيل الفترة بين رقم وآخر حين بلغ الثمانين، وكان يزداد غياب القمر، حتى اذا انتهى من العد، ولم يزد القمر إلا غياباً، التقط بعض الاحجار، وتفل في يده، ثم بدأ يقذفها نحو الحوت، وطلب من الصغار أن يفعلوا مثله، ولم يعد من المقابر إلا بعد أن هزم الحوت وأخرج القمر!

ولوقت طويل ظل يردد، اذا تذكر، أو ذكره أحد بخسوف القمر.

- الفرق كبير بين الجورة والجبل... وفهمكم كافي!

كان بهذه الكلمات القليلة يميز بين موقع المدرج في ذلك المنخفض من الأرض، وبين جبل المصدر، وبالتالي يميز بين دوره في دحر الحوت وبين دور الحاج عمرا!

لم تكن عمان تغالب ضجرتها وهمومها بمداعبة الشيخ صالح وحده، لأن هذا الشيخ بمقدار ما يبدو مسلياً، ومقبولاً في بعض الأحيان، إلا انه في أحيان أخرى سليل للسان الى درجة البذاءة، كما لا يتردد في أن يكون خشناً، وبعض الحالات عدوانياً، الأمر الذي يجعل الكثيرين لا يتحاورون معه، لأنهم يخشون لحظات جنونه. بل وأكثر من ذلك يتجنب البعض مجرد الاحتكاك به أو ملامحته. ولذلك يلتفت الذين يؤثرون السلامة، ويرغبون بالمزاح أيضاً، الى اناس آخرين.

كانت شتية إحدى معالم السوق التجاري، امرأة معتوهة تذرع الشوارع ساعات طويلة كل يوم، وهي ترتدي كل ماتملك من ملابس. كانت ملابسه طبقات عديدة ملونة، وفوقها دائماً معطفها البالي، والذي لا تتخلى عنه حتى في أشد أيام الصيف حرارة، كانت تتجول صامته، تبحث في الزوايا عن شيء ضائع، خاص بها. ومع ذلك لا تتردد في قلب القمامة بحثاً عن هذا الشيء، وقد تلتقط ماتعتبره مفيداً، لكي تعطيه للآخرين. والقصص التي يتناقلها السوق عن الحاجات الثمينة التي وجدتتها شتية أثناء البحث كثيرة ومليئة بالمبالغات!

إذا تعبت من البحث والمشى تستريح في ظل احد المحلات،مادة رجليها على طولهما،فيبدو البسطار الجيشى القديم المهترئ الذي تلبسه،وكان أجد ماتملك!

في استراحتها يبدأ السوق بممارحتها: تُسأل عما تبحث؟ متى ستتزوج؟ رأيها بالشيخ صالح وبشارة واليماني، وآخرين يشابهونها في الحالة والمهنة. تتطلع شتية الى السائلين. تجيب بعض الأحيان، وتصمت أغلب الأحيان. حتى اذا جاء علي اليماني،التائه الآخر الذي يذرع المدينة،واقترب،لا بد أن يدفعوه أو يغروه للجلوس الى جانبها،وعند ذلك يقول الكثيرون وقد امتلاؤا فرحاً « حبكت » وتبدأ المقلب.

كانت تنتهي الجلسة،في معظم الحالات بالشتائم والتحديات،وهذا بفعل المحرضين أكثر مما هو نتيجة خلاف حقيقي بين الإثنين. والناس الذين يتجمعون ويتزايدون لايملكون أنفسهم من القهقهة وزيادة التحريض!

انها واحدة من التسليلات القاسية التي كانت تتسلى بها جماعة من التجار في السوق وبعض المتسكعين،ومع ذلك فقد كان في عمان من العطف وحماية الضعفاء الشيء الكثير.

فابو الحيايا،سلامة الذي كان معتوهاً مسالماً،إلا حين يستثيره الصبية،تعود أن يقضي وقتاً طويلاً في سوق الخضار،مراقباً عمليات البيع والشراء،ومعلقاً بصوت مسموع على فروق الأسعار والخداع،ومع ذلك كان بعض تجار السوق يستخدمه لقاء أجر لنقل بعض الأشياء من مكان الى آخر،في كنس بقايا الخضرة،فاذا تغاضى عنه الذين يحمونه أو نسوه يصبح لقمة سائغة للساخرين والعابثين. والغريب أن أغلب هؤلاء من الفقراء،من الحمالين أو المتسبيين،اذ يلجأون الى تحديه:

- ... سلامة ... اذا شلت هذا الكيس لك قرش.

- لا .. قرش ونصف.

- طيب.. قرش ونصف،لكن اذا ماشلته؟

- إلكم علي قرشين!

ويحاول سلامة،فاذا بدا انه سيقدر على حمله،وضع أحدهم يده فوق الشوال لتثقيله،أو مدّ شنكله وغرزه في الشوال،الأمر الذي يجعل سلامة،أغلب الأحيان خاسراً،فيُجر الخرقه التي ربط فيها نقيده القليلة ويدفع،مع تهديد لايفك عن ترديده:

- هالمة قرّنت، ماطلع بي حيل، لكن بكرا بتشفووا!

ويأمر الذين ربحوا، لأنفسهم وإسلامة، بكأس من الشاي، ويسأل سلامة وهم يشربون:

- بالله، بشرفكم، كم كيلو هذا الكيس؟

حين يذكرون رقماً كبيراً يهز سلامة رأسه موافقاً، أما اذا ذكروا رقماً صغيراً، وربما الوزن الحقيقي، فينظر اليهم بغضب ويقول:

- يعلم الله لما بلّشت ماصلّبت، وهذا اللي طّيح حيلي.

ويتشارطون مرة أخرى، فيصّلب سلامة بصوت مرتفع ويبدأ، لكن يعجز نتيجة المؤامرة، ويشربون دوراً جديداً من الشاي بالمبلغ الذي خسره سلامة، الى ان يأتي أبو راغب أو الخليلي ويخلصه من براثن العتاة، مع تكليفه بعمل جديد ليعوض الخسارة!

وكان في عمان أيضاً أبو زهدي، لكن هذا الرجل كان همه وثاره يتجاوزان البشر، فبعد أن فقد ابنه بضربة شمس، أصبح معتوهاً ويريد أن ينتقم، ولذلك: أخذ يطارد خصمه الحقيقي: الشمس.

كان يبدأ من الفجر، حيث يحمل عصاه الخيزران ويتجه نحو الشرق، الى حيث تظهر الشمس، لكي يداهمها في مكمنها هناك وينتقم، وحين « تخيبه » وترتفع فوق عصاه، أو تسبقه، يهددها بأن مواعده القادم، لن يخيب! لذلك كان يشاهد وسط المدينة خلال النهار، لكن عينيه لاتفارقان السماء.

يمر أبو زهدي بالناس وسط المدينة دون أن يراهم، وكانت شتائمه وتحدياته موجهة الى الشمس وحدها، وكان كثيرون يحترمونه حزنه ويفهمون تحديه، ولذلك ينظرون اليه بأسى، دون أن يزعجوه، حتى بعض السواق، وهم يرونه يعبر الشوارع، وعيناه نحو السماء، يتوقفون لكي يمر، كانوا يفعلون ذلك دون احتجاج، دون شتائم، خلافاً لعاداتهم، حين يضطرون للوقوف الفجائي في حالات أخرى!

واذا كانت النميمة إحدى صفات البشر في كل مكان وفي جميع العصور، وإن أخذت أسماء مهذبة في بعض الحالات، فعمان واهلها لم يشذوا عن هذه القاعدة !

فأبو رحمة المذاذي الضريع، وكان قصيراً سميناً، يحفظ عمان عن ظهر قلب . يعرف شوارعها ويعرف ناسها بالاسم . كان يدب في المدينة منذ ساعات الصباح

المبكرة، ويظل يذرع الشوارع، ويتوقف في " محطات " رئيسية لكي ينقل الاخبار، حتى غياب الشمس، فيعود الى بيته في المهاجرين، وتكون محطته الاخيرة، اغلب الاحيان، عند الشيخ صالح !

كان ابو رحمة يعرف كيف ينقل الاخبار، وعن، ومتى، خلافاً لطريقة ام علي الشرشوحة البدائية، والتي كانت تفرغ كل ماعندها خلال فترة قصيرة، وتمضي الى بيت آخر، لكي تعيد تفريغ نفس الاخبار ونفس الطريقة .

ابو رحمة رجل ماکر، يلمح ولا يصرح، يغمز ويواري، لكن رسالته تصل في معظم الاحيان. فالتاجر الذي لم يتصدق عليه في خميس سابق، لعدم وجود " فراطة"، لابد ان يدفع الضعف في خميس لاحق، يفعل ذلك صاغراً، خشية ان يصبح لقمة في فم البورزان، ابي رحمة، علماً بأن ابا رحمة لا يشير ولا يذكر، لكن طريقته في الحديث عن ذاك الذي لم يدفع له قبل سنة تجعل الذي نسي الدفع في المرة السابقة يدفع فوراً . كان ذلك يجري في اطار مجموعة من القصص والنوادر والذكريات، بحيث يصبح الهدف شراء سكوت هذا الاعمى باي ثمن !

ولان جزءاً من عمل السوق يعتمد على المنافسة، فإن ابا رحمة يعرف كيف يؤيد تاجراً ويحارب آخر، إذ يسوق الاحاديث، التي تبدو بريئة في الظاهر، او كأنها حصلت في ازمة بعيدة، لكي يمنح الثقة لواحد، وينزعها من آخر . كان ذلك يجري بتواطؤ ضمني، وبلغة يفهمها الطرفان، ثم تصبح مفهومة من قبل الآخرين بعد ذلك. إن مؤامرة مثل هذه تتم بكثير من الدهاء والسرية، وتعتمد على مقدار الاكرامية، او مثل ما يقول ابو رحمة، لكي يقوم بهذه المهمة :

-دقي ايدي يا ابو فلان، وعليك الامان .

يضحك بثقة، مقدراً الكفاءات التي يتمتع بها، ويضيف :

- وحضرّ الشوالات، يا فلان، حتى تلم القلوس اللي راح تهيل عليك !

ليس ذلك فقط، كان في بعض الحالات يفرض خوة لا يمكن الهروب منها .

كان يقف في باب احد المتاجر، ويهدر صوته :

- الله يصحبك بالخير يا ابو محمد .

- صباح النور .

- تسببت ولا بعد ؟

- خليها على الله يا ابو رحمة !

- مافي غيره ... هذا ابو الخيمة الزرقا !

.... -

- ابو زكي زوج ابنة، سوى له عرس مطنطن، فمتى راح تفرحنا بزواج محمد، يا ابو محمد؟

- بس الله يرزقنا، يا ابو رحمة، ولما نلاقي بنت الحلال .

- الله ما يقطع عبده، يا ابو محمد، وبس تتوكل، مافي اكثر من بنات الحلال .

- لاحقين يا ابو رحمة !

- لا .. بدك تقول، لان ثوبي قبل ثوبه، وهذا نذر !

ولانه آمن مبدئياً، الثوب، حتى من خلال الصمت، يصبح هذا الثوب مثل قميص عثمان، إذ لابد ان يذكر، تورية كلما مر، وغالباً ما يحصل على الثوب قبل زواج محمد، ويحصل ايضاً على ثوب آخر، وربما اكثر، حين زواجه !

ولان اعداء ابو رحمة الحقيقين هم منافسوه في الكار، فكان يعرف كيف يتصرف معهم، وكيف يحرض عليهم . عند الحاج عمر متصوف ومريد :

- جينا نطلب شفاعتك، يا ابو الفقراء، يا حاج !

ولان الحاج عمر لم يسمع، او تظاهر انه لم يسمع، يتابع ابو رحمة :

- لو الارض خليت من امثالكم، يا حاج، لخربت !

ويأتيه صوت الحاج متلعثماً خجولاً :

- كل الناس خير وبركة، يا ابو رحمة .

- لكن العين لاتعلو على الحاجب يا شيخنا، وياتاج راسنا .

- استغفر الله ... استغفر الله .

- الحق حق، يا حاج، والواحد لازم يعترف به

يستريح قليلاً، ثم يضيف مجدداً :

- بسم الله الرحمن الرحيم : وخلقناكم بعضكم فوق بعض طبقات . صدق

الله العظيم !

أما عند الشيخ صالح فإن اللغة تصبح مختلفة تماماً :

- حليت عند صاحبنا،ياشيخ

يتطلع اليه الشيخ صالح مستفسراً دون ان يتكلم،فيتابع :

- بدل مرتين او ثلاث في السنة راح يسويها كل جمعة .

- عمي كلامك اكثر يا اعمى !

- الله يسامحك ياشيخنا ...

وبعد قليل،وبلهجة مكسورة اقرب الى الحزن :

- كانت النصيحة بجمال، اليوم،وعند بعض الناس،صارَت النصيحة فضيحة!

- ولك قول وخلصنا !

- صاحبك الحاج عمر،وبعد ما اكل الاخضر واليابس من ورا شوربته،راح يسويها كل جمعة !

يذهل الشيخ صالح . ترفرف اجفانه وكأن فلفلاً دخل في عينيه،فيصرخ :

- يعزم الناس على الشورية الماسخة ؟

- اي نعم ياسيدي !

- وكل جمعة ؟

- اي نعم ياسيدي !

- ومين غير الكلاب تَلْق من هذي المي المصبوغة ؟

- عاجبة الناس،ياسيدي

وبعد قليل :

- وهذي مصيدة .

- عاجبهم العجب والصيام في رجب ؟

ولايترك ابا رحمة لكي يجيب يتابع بحدة :

- ولك يا اعمى القلب والعيون بعدك قاعد ؟ يا الله اطلع، دب الصوت، افضحه، العن سنسفل اجداده !

- رجلي على رجلك، يا شيخنا !

ويخرج الشيخ صالح بهياج، أما ابو رحمة، بعد ان اوصل الرسالة، فإنه ينسل مبتعداً، لكي تبدأ معركة جديدة بين الشيخ صالح ومريدي الحاج عمر !

ولان ابا رحمة منادٍ قبل ان يكون متسولاً، او هكذا يقدم نفسه، فقد كان في احيان معينة يملا عمان بدويّ صوته سائلاً الناس ما إذا رأوا ولدأ ضائعاً او بغلاً ضالاً او حاجات اخرى فقدت . كان نداؤه من حيث ارتفاع الصوت، او عدد المرات، يتناسب مع الاكرامية المخصصة له، اكثر مما يتعلق بقيمة الشيء الضائع . ولكي يضمن مقابلاً مجزياً كان يشترط ان يتلقى نصفه مقدماً، وكل المحاولات التي تبذل معه لتأخير تلقي المقابل، إلى حين العثور على الشيء الضائع، كان يرفضها، كان يقول بسخرية إذا طلب منه ذلك:

- الغالي ضايع، والقلب والى على كم قرش من وسخ الدنيا ؟

يستريح قليلاً ليرى رد الفعل، يهز راسه وهو يبتسم، ثم يضيف :

- مافي اكثر من اولاد الحلال بالبلد، بس بدهم واحد يسألهم، يخبرهم : مين ضيع ومين لقي.

وبعد ان يتلقى ما يطلب يهدر صوته :

- " ياسامعين الصوت صلوا على النبي

اولكم محمد وأخركم علي

يا من حسّ يا من شاف، يا من لقي"

فإذا وجد الشيء الضائع لا يكتفي ابو رحمة بما تم الاتفاق عليه، كان يطلب المزيد. يطرح المطالبة اول الامر مازحاً، لكنه يعنيها من خلال إظهار الجهد الذي بذله، وايضاً ما اصاب صوته من تلف. وفي مجال الضغط يغير نبرة صوته مع سعال، وهو يقول :

- صحيح، يا جماعة الخير، ان المال الحلال لا يضيع، لكن بدك من يبلغ الرسالة ويحسرج صوته وهو يضيف :

- وهالصوت حتى يرجع مثل ماكان بده مافتح ورزق !

قال من يعرف ابا رحمة معرفة جيدة ان الرجل حين احس بقرب الوفاة ابلغ عن اموال كان قد خباها في اكثر من مكان، وأكد الذي يروي ان الاموال التي عثر عليها كانت كثيرة ومتنوعة، ورفض ان يعطي رقماً، لأن " المجالس بالامانات "، كما قال، وابتسم .

وإذا كان لابد لهذا الحديث ان ينتهي، وقد طال، وحول هامش جانبي من حياة عمان، فيجب ان نعرف كيف انتهى الشيخ صالح :

هجر أولاً مهنة حذو الحمير، المهنة التي كان يعتاش منها .

وحين جاء رمضان حمل طبله، كما كان يفعل في السنين السابقة، وبدأ يوقظ النيام للسحور، لكنه في لحظة معينة، وقبل الخامس عشر من الشهر قرر ان يتوقف !
قال للذين ذكروا انه لم يسمعوا طبله في الليالي السابقة :

- من يريد الصيام لايحتاج الى طبل، لان المؤمن لايجر الى الجنة بالسلاسل ولما الحوا عليه، رد بسخرية :

- ... وعمان سمعها خفيف وطبل الحاج عمر يكفي ويزيد .

وحين نظروا اليه مستغربين اضاف بحزن :

- خلوني بهمي يا جماعة، وحلوا عني .

ولما الحوا عليه اكثر، انفعل، اخرج الطبل ودفره برجله فأنبعط، وفرك يديه بفرح وهو يقول :

- عجبكم ؟ كسرنا الطبل وبطلنا الرقص .

وهبط الشيخ الى الظل بهدوء وسلام .

يروى محمد المصري، الذي يغسل الموتى في الجامع الحسيني، ان الشيخ صالح زاره قبل وفاته بيوم وقال له :

" حضر حالك "

وفي اليوم التالي توفي الشيخ صالح وغسله محمد المصري، وبعد ان صلى عليه في المسجد حاولوا رفع التابوت فلم يرتفع، التصق بالارض ! هكذا أكد محمد المصري .

.....وبعد

كان عقد الاربعينات، في عمان، طويلاً، ثقيلاً، صعباً .
بدأ العقد في ظل الحرب العالمية الثانية، وانتهى في ظل الحرب العربية -
الاسرائيلية الاولى.

خلال الحربين، وما بينهما، عانى الناس الكثير : خيم الحزن وطال الانتظار، اما
الفرح فكان قليلاً وعابراً .

كبر الصغار في هذا العقد قبل الاوان، وفي غفلة من الزمن، اما المسنون فقد
هرموا اسرع مما يحصل في الاماكن الاخرى، او في ازمئة مختلفة .

الجدة التي افترضت ان اقامتها في عمان لن تمتد كل هذي السنين امتدت
وطالت اكثر مما قدرت واكثر مما تحتمل .

حين جاء اقاربها الذين كانوا ضمن القوات العراقية لوداعها عائدين الى
بغداد، قالت بتوسل :

- يا ابا اسماعيل، ابو حقي، وانت، عيني، علي، اقدر اسافر وياكم ؟

وبعد قليل وكأنها تخاطب نفسها :

- ما عاد بي حيل .

خيم الصمت، إذ لا يعرف كيف يُجاب عن هذا السؤال . قالت بنوع من
العتاب :

- اشو ماكو احد منكم قال فدّ كلمة، شنو ماتريدوني ؟

قال القريبان اشياء كثيرة . قالوا انهم يريدونها، وانهم افتقدوها كثيراً خلال
الفترة الماضية، ويودون ان تكون من جديد في بغداد .

بعد فترة جديدة من الصمت، وكانت الجدة تهز رأسها، قال اسماعيل موضحاً
ومعتذراً :

- علواه، بيبي، نقدر ناخذك ويانا، بس احنا عسكر .
وسافر العسكر .

تغيرت الجدة، غرقت بالتفكير والحزن، وامتلأت بالانتظار .
مرت سنة، ومرت سنة ثانية، وكادت تمر الثالثة .

ذات يوم، أوائل الصيف، جاء أحد الأقارب يريد السفر الى بغداد . ماكادت
الجدة تسمع هذه الكلمة، حتى أخذت قرارها :
- اسافر وياك أبو ابراهيم .

وإذا كانت العادة أن تُناقش الجدة في قراراتها، فقد بدت هذه المرة غير
مستعدة لاية مناقشة، ولن توافق على اي تغيير .

في اليوم الاخير قبل السفر، وخلافاً لسفرات الجدة السابقة، استيقظت
مبكرة، وبدأت سلسلة من الزيارات . زارت معظم بيوت الحي، حتى الذين لم تدخل
بيوتهم من قبل، دقت ابوابهم، وقالت وهي تبرر ما تفعل :

- يا بابا نحن جوارين

وتمسح طرفي فمها بالابهام والسيابة، وتتابع :

- عيني عطشت، وقلت لروحي ادق بابكم، واطلب مي .

وبعد ان يرحب بها وتشرب، وإذا سُئلت عن نوع القهوة التي تفضلها، تعتذر
وتتابع :

- قلبي يرفرف إذا شربت القهوة، عيني، وبعد ما شربت مأي، بكل شي ما اريدا
تستريح قليلاً، وتضيف بصوت مختلف :

- عيني نحن جوارين، وأني مسافرة لبغداد، فأريد اقولكم : في امان الله !

بهذه الطريقة ودعت الجدة الاهل والمعارف وسكان الحي، وطلبت من الجميع
ان يتذكروها بالخير.

قالت للحفيد وهي تركب السيارة المتجهة الى بغداد :

- إذا خلصت، عيني، تعال لبغداد ولا تدير بال، أني هناك .

وسافرت .

في نهاية الصيف سافر الحفيد، بعد ان انتهى من دراسته الثانوية .

كانت فرحة الجدة بوضوله لاتصدق . بكت، ضحكت، زغردت، قرأت على رأسه بعض الادعية، سألته عن كل شيء . أما حين عرفت انه اتفق مع احد زملائه على السكن في دار البعثات العربية، فقد اعترضت وشتمت ورفضت، وحين ذكر لها انه لا يستطيع ان يخل بالوعد الذي اعطاه لزميله بالسكن معاً، ردت :

- تعال انت وياه، وخذوا القبة اللي فوق .

ولم تترك وسيلة لكي تقنعه، فقال في محاولة لان يلتف على الامر :

- اواعدك ان آجي كل يوم خميس وابات هنا، بيبي !

قررت ان توافق مبدئياً، إذ كانت على ثقة انها ستقنعه في اول خميس بالانتقال.

جاء في الاسبوع الاول، ووعدتها ان يهيء نفسه للانتقال في الخميس التالي

يوم الاربعاء جاءه الى دار البعثات احد الاقارب، وبطريقة باردة، اقرب الى الحياد، ابلغه ان الجدة ماتت في الليلة الفائتة، وانه سيجري دفنها ظهر ذلك اليوم !

كان المشيعون قليلين، لا يتجاوزون العشرة . ويتواضع، وفي جو من الادعية المتفرقة، وقد تخللها صمت، دفنت الجدة في مقبرة الشيخ معروف .

قال احد الاقرباء للحفيد، وهم يتحركون، وكانت اللهجة لاتخلو من مباهاة :

- هذي القبور ...

واشار الى عدد من القبور المجاورة :

- قرايبنا ... هذي بنت خال بيبي، وهذا اخوها كريم، وهذا اخوها رحيم، وهذا قبر خالك هوبي، وهذا

وخرج الحفيد من المقبرة الى دوي المدينة، خرج الى بغداد القاسية والحنونة، ليبدأ مشواراً جديداً في هذي الحياة !

فهرست الأعلام

«سيرة مدينة»

أبو قورة، عبد المجيد: ١٩٢	أبراهيم باشا: ٢٥٥
الأستاذ أبو كلام: ٥٩	ابن كلمات: ١٠٥
أبو الهدى، توفيق: ١٥١، ٢١٨	أبو جابر: ١٣٥
أبو الهدى، سعاد: ٩٦	أبو حسن الحلاق: ٨٨، ١٨
اتاتورك، كمال: ٥٥	أبو الذهب، مهدي: ٢١٥
الأردكاني، محمد علي: ١٩١	أبو شام، سليمان: ١٢، ٢١، ١١١،
ارشيدات، شفيق: ٢١٢	١١٨، ١٥٢، ١٧٨، ١٧٩،
ارشيدات، نبيه: ١٨، ٩٦، ٢١٢	١٨٠، ٢٥٠
اسماعيل، أحمد: ٣٢، ٥٧	أبو شوارب، راضي: ١٤٣، ١٧٧،
مس اليس: ٩٣	٢٠٢، ٢٠٣، ٢٠٤، ٢٠٥
أم الطاهر: ١٤	أبو غربية، بهجت: ٢٣٠
أم عيسى: ٢٠، ٢١، ٢٣	أبو غربية، صبحي: ٢٣٠
أمين، أحمد: ٢١٩	أبو غربية، محمد: ٨٩، ١٩٤
الحاج أمين: ٢٣٠	أبو فؤاد: ١٧٧
أنوبيه، جال: ٩	أبو قورة، رزق: ١٩٢
الحجة أنيسة: ١٢، ١٣، ١٤	أبو قورة، عبدالله: ٩١، ١١١، ١٢٢،
اوليفانت، لورنس: ٢٤٧	١٩٢، ١٩٧، ٢٣٠
الإيراني، سيف الدين: ٢٢٠	أبو قورة، عبد الغني: ١٩٢، ١٩٧
أيوب، كامل: ٢١٥	

- ب -

- باكثير، علي أحمد: ٢١٨
 بدير، محمد علي: ٩١
 بحري، يونس: ٧٣، ٩٦، ١٧٨
 الدكتور برنابا: ١٧
 الكونت برنادوت: ٢٤١
 بسيسو، صالح: ٢٤٩
 البشارات: ٢٥١
 بشناق، أحمد: ١٩٥
 البرقاوي، يوسف: ٩٣، ٢١١
 البطيخي: ١٨
 البلبيسي: ١١٨، ٢٥٢
 البيشي، نورة: ٣٤
 البيطار: ٩١

- البيطار، الشيخ صالح: ٢٠، ٢١،
 ٢٢، ٢٣
 البيطار، مأمون: ٢٣٠
 بيركهارت: ٢٤٧

- ت -

- تريسترام: ٢٤٧
 التل، مصطفى وهبي: ٢٢٠
 التلي، أحمد: ١٢٣
 التنير، سمير: ٥٣، ٥٤، ٦٧
 التنير، عبد القادر: ٥٣، ٦٧
 التوتونجي، الدكتور جميل: ١٨، ٣٣

- ج -

- جيران خليل جبران: ٢١٩
 جبري، صبحي: ٢١٣

جردانة، باسل: ٢١٥

- الحقة، هاني: ٣٢
 جقمان، يوسف: ١٩٨
 الجمعان، محمد: ٨٩
 الجمعاني، مجلي: ١٢٣
 الجندي، محمد سعيد: ٢٢٠
 جواد بك: ١١١، ١١٣، ١١٨، ١٢٨
 جوير: ١٥٩، ١٦٠
 جيد، أندريه: ٢١٩
 الجيوسي: ١٥٢، ٢٤٩
 الجيوسي، يوسف: ٥٢، ٥٤، ٦١،
 ٦٧، ٦٩، ٨٧، ١٢٩

- ح -

- حبش، جورج: ١٨، ٢١٢
 حداد، وديع: ١٨، ٢١٢
 حدادين، عارف: ١٩٥
 الحديدي، سليمان: ٢١٢
 حربي، فريدون: ٢١٥
 الأستاذ حسيب: ٩٣، ١٨٥
 حسين، طه: ١٩٣، ٢١٩
 الملك حسين: ٩٣
 الحسيني، عبد القادر: ٢٣٠، ٢٣٣،
 ٢٣٩
 حقي، بديع: ٢١٨
 حكمت، طلال: ١٢٣
 حكمت، فريدون: ١٢٣
 حكمت، ينال: ١٢٣
 الحكيم، توفيق: ١٩٣

الحكيم، نزيه: ٢١٩

حمزة، محمد: ٢٤٩

الحموي، ياقوت: ٢٤٦

الحמיד، أحمد: ١٢٣

الحنيطي، راشد: ١٠٤

الهوراني: ٧٧

الهوراني، أكرم: ٢٣٠

- خ -

خليفة، الدكتور مصطفى: ١٧

خورشيد، عصام: ٢١٤

خير، غالب: ٢١٣

خير، مظهر: ٢٣١

- د -

الأستاذ داود: ٣٢، ٥٧، ١١١، ١١٢

الدباس، عبد الكريم: ٢١٣

الدباس، محمد: ٢١٣

الدرة، أبي محمود: ١٤٩

الدرة، سعيد: ١٨٥

- ر -

رينسون: ٢٤٧

الرزاز، منيف: ١٨، ٢١٢

رزيق: ١٥٩

الركبي، فيصل: ٢٣٠

رمضان، سعيد: ٢١٤

الشيخ رويضق: ١٥٢، ١٥٣، ١٥٤

رومل: ٧٣

الرويلي، عوض: ١٨٥

- ز -

الأستاذ زخريان: ١٩٤، ١٩٧

زويقات، ثيودور: ١٤

الأستاذ زغلول: ٥٩

الشيخ زكي: ٤٢، ٤٣، ٤٤، ٤٥

٩١، ٩٢

الزيات، محمد حسن: ٢١٩

- س -

المستر ساتن: ١٢١، ١٩٢، ٢٢٩

٢٣٠

الساكت، خالد: ٢١٩

ستالين: ٩٣

السعودي: ٧٧

المفتي، سعيد: ٨٥

سلامة - حسن: ٢٣٩

السلطي، يعقوب: ١٤٩

الشيخ سليم: ٤٢، ٤٣، ٤٤، ٤٥

٤٦، ٤٧، ٩١

السمان، نوري: ٧٧، ٩٨، ٩٩، ١١٦

سنجر، كاظم: ١٤٦، ١٦٦

الدكتور سوران: ١٣، ١٥

- ش -

شاهين، قدری: ٩٣

شحاتيت، فريخ: ٢١٥

الشخشير، راضي: ٢١٢

شرق، عبد الحميد: ٩٦

الشریف، زيد: ١١٦، ١٢١، ١٥٩

الشرقي، محمد: ١٩٧

٢٠٧، ٢٠٦

- ٥ -

العابدي، محمود: ٩٠، ١٩٤، ٢٤٦
العابد، مسلم: ٢٣١
عباس، عبد الحليم: ٢٢٠
الشيخ عبد: ٤٨
الملك عبدالله: ٢٥٠
عبد الرحمن، الدكتور اسعد: ٨
عبد العزيز، عمر: ٢٣٠
العنويني، عبد الرحيم: ١٠٤
عبيدان: ٢٤، ١٨٦، ٢٠٢، ٢٠٣،
٢٠٧، ٢٠٤

العجلوني، مازن: ١٢٣
العجيلي، عبد السلام: ٢٣٠
العدوان: ١٤٩
العدوان، ماجد: ٣٣، ٣٤
عرار: ١٨٦، ٢٢٠
العرموطي، نزال: ٢٤٩
عز الدين، هشام: ٢١٥
عز الدين، الدكتور يوسف: ١٨،
٢٥٠

العزيزي، روكس بن زائد: ٨٩
عصفور، فريد: ٥٥
عطور، سليمان: ٥٤، ٥٥، ٥٦، ٦١،
٦٧، ١١٣، ١١٧
عفلق، ميشيل: ١٩٥
عماري، نبيه: ٦٧
العماري، أحمد: ١١٢

شعبان: ١٣٥

شعشاعة، جودت: ١٩٦
شكير، أمين: ٢١٢، ٢١٣
شكير، الدكتور عبد الرحمن: ١٨،
١٩٨، ٢١٢، ٢٢٨
شكير، معاذ: ١١
شكير، منير: ٩١
شنانة، بدر الدين: ٢٥٢
الشنقيطي، أمين: ٢٥٠
شوقي، أحمد: ١٩٤
الشيشكلي، أديب: ٢٣٠

- ٥ -

الصباغ، أديب: ١٩٨، ٢٥٢
الصباغ، بشير: ٨٩، ١٩٦
الصبيحي: ٧٦، ٨٣
الصبيحي، أبو ابراهيم: ١٤٠، ١٤١
الصويص، سليم: ٢١٥، ٢١٦
الأستاذ الصياغ: ١٩٥

- ط -

الطاهر، محمد حمدي: ٩٠، ٢١١
الطباع: ٩١
الطباع، صبري: ٨٩، ١٣٥
الطيل، سليمان: ١٢٣
الطراونة، أحمد: ٨٨
الامير طلال: ٦٥
الطلياني، الدكتور تيزيو: ١٥، ١٦
الطيّان، أبو تيسير: ١٤٣
الطيّان، أبي حاتم: ١٧، ١٨، ١٤٣،

العنتباوي: ١١٨

- خ -

الملك غازي: ١١، ١٢، ٣١

الغريب، أم محيي الدين: ١١٧، ١١٨

الغريب، محيي الدين: ١١١، ١١٦

١٧٨، ١١٨

- ف -

الدكتور فرعون، عبد الرحمن: ١٥

الأستاذ فريد: ١٩٥

فريز، حسني: ٢٢٠

الفقيير: ٢٠

الفقيه، عبد الجبار: ١٩٣، ٢١٨

فهمي، يوسف: ٩٦

فهمي، وليم: ٦٧

الملك فيصل: ١٢

- ق -

قاقيش: ١٠٥

القاقوجي، فوزي: ٢٣٠، ٢٣٣

القبيسي: ١١١

القحص، عبيدان: ١٧، ٣٧، ٣٨، ٧٧

٨٤

القسام عز الدين: ٢٣٠

القسوس، فريد: ٢١٢

قطان، ابراهيم: ١٨٥، ٢٥٠

القطب، صبحي: ٢١٢

قعوار: ١٠٥، ١٨٦

- ك -

كابتي، ابراهيم: ١٨

الكباريتي، صالح: ٦٧

الكباريتي، عزيز: ٢٢٨، ٢٣١

كحالة، زهير: ١٩٦

الكحيمي، عبد العزيز: ١٩١

الكردي، علي سيدو: ٨٩

كلوب باشا: ٥١، ٨١، ٨٢، ٨٣، ٨٥

٩٥، ١٧٨، ٢٠٦، ٢١٨، ٢٢٢

٢٢٩

الكيلاني، رشيد عالي: ٨٠، ٨٥

الكيلاني، صبحي زيد: ٢٢٠

- ل -

اللوزي، أحمد: ٨٨

- م -

مس مارغو: ٩٣

متري: ٧٩، ١٧٧

متري، بولس: ٧٩

محمود، عبد الرحيم: ٢٣٠، ٢٣٩

المدانحة، فلاح: ٨٨

المصري، عزيز: ٢٣٠

المصري، محمد: ٢٦٩

معاوية: ١٣

الأستاذ معتوق الأسمر: ١٩٤

الشيخ معروف: ٢٠٨

المفتي، الدكتور شوكت: ١٧

المفتي، سعيد: ١٣٥، ١٩٨

المفتي، عزمي سعيد: ٩٦، ١٤٢

- ذ -

الناعوري، عيسى: ٢٢٠
النبهاني، الشيخ تقي الدين: ٢١١،
٢١٣، ٢١٤، ٢١٥، ٢١٧، ٢٢٧
النجار، محمود: ١٩٥، ٢٣٢
نفاع، آمال: ٢٣٢
النمر، عبد الحليم: ٢١٢
النهار، عبد موسى: ٢٣٢
النوباني، الشيخ حافظ: ٢٠، ٢٣،
٣٥، ٣٨، ٤٠، ٤١، ٤٢، ٤٤،
٤٧، ١٤٨

- ه -

هاشم، ابراهيم: ١٥١، ١٨٤
هاشم، يعقوب: ٨٩، ١٨٤
الهاشمي، طه: ٢٣٣
هتتر: ٧٣، ١٧٨، ٢٠٢
هل، جراي: ٢٤٧
الاستاذ هلال: ١٢٢، ١٩٣
هلسا، غالب: ٢٣٢

- و -

الاستاذ وهيب: ٩٣، ١٨٥

المفلح، رياض: ٨٨

الملائكة، نازك: ٢١٨

ملحس، الدكتور قاسم: ١٣، ١٥،
١٦، ١٩٨، ٢٠٦، ٢٥٠

ملحس، الاستاذ لطفي: ١٩٤، ٢١٥

الملقي، فوزي: ١٩٦، ١٩٧

المنفلوطي، لطفي: ٢١٩

منكو: ١١٨

منكو، حسان: ١٩٧

منكو، حمدي: ٣٢، ٣٣

منكو، زياد: ١٩٧

منكو، عبد الرؤوف: ٨٩، ١٤٥،

١٤٦، ١٤٧، ١٦٠، ١٨٨، ٢٤٩

منكو، عبد الرحمن: ٢١٥، ٢٣٢

منيف، علي: ١٠٤

الاستاذ موافي: ١٩٦

الاستاذ مولود: ٥٧، ٥٨، ٥٩، ٦١،

٦٧، ١٣٥، ١٦٧

مهيار، حكمت: ٨٥، ١٧٨

موسى، سليمان: ٢٤٧

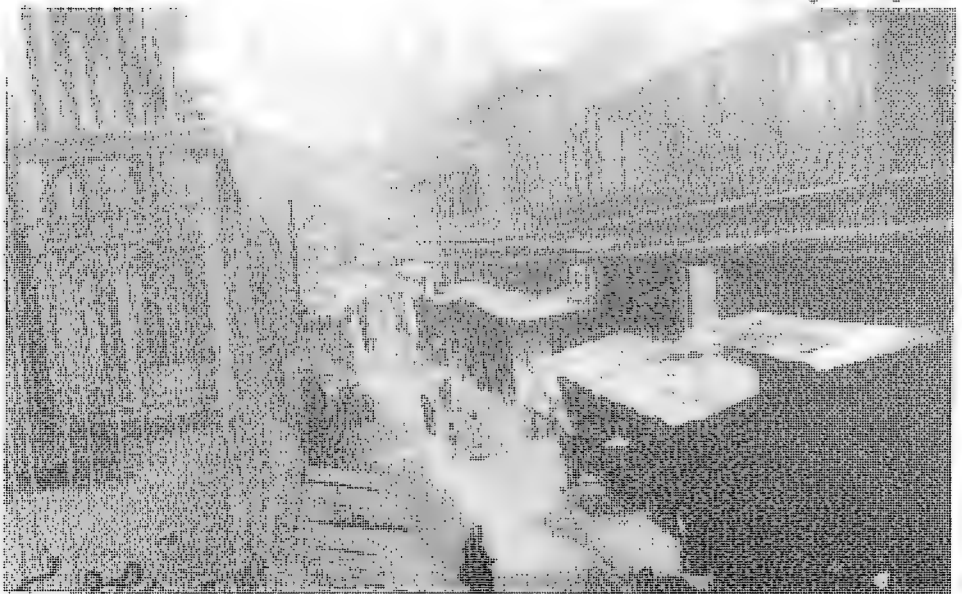
الست ميسر: ٦٥

ملحق الصور

* تمت الإستعانة بأرشيف صور السيد ارسلان رمضان جزئياً وكذلك مديرية المكتبات والوثائق الوطنية



الملك كسور الطلياني تزيير



شارع تجاري





فرسان حرس الشرف الشراكسة



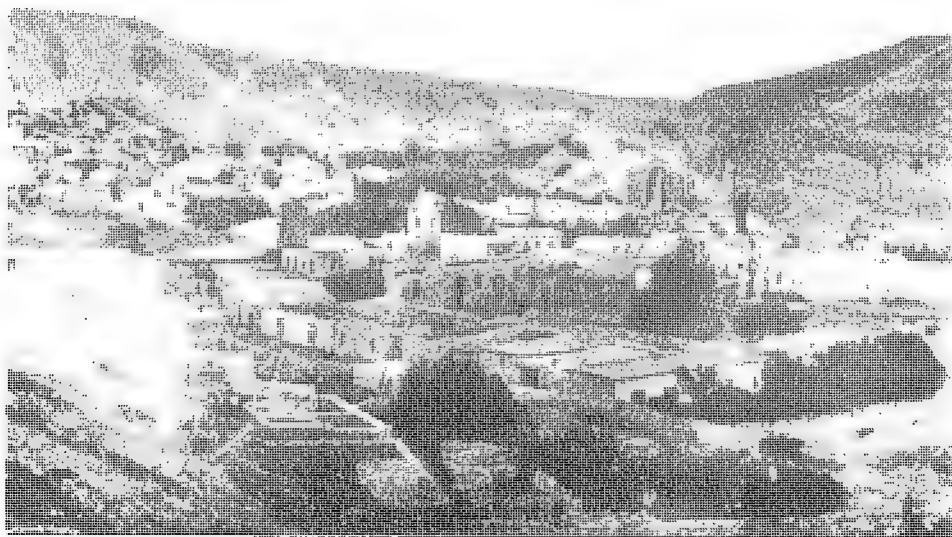
عربة الشركس



مبنى الصحية



القطار بين عمان والزرقاء



منظر لعمان



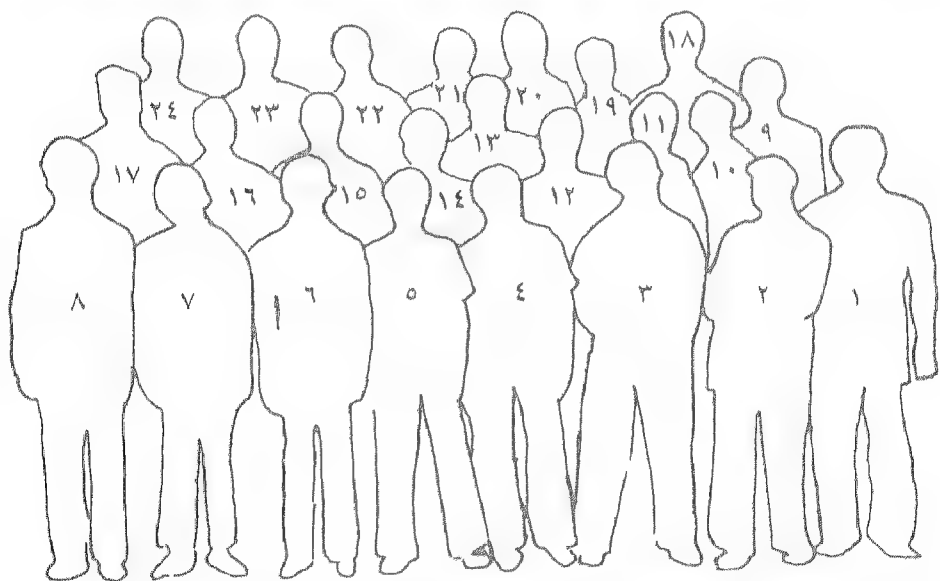
الكلية الإسلامية قبل إخمدة الميناء وتسوية الأرض



منظر من حي المهاجرين



صورة الطلبة :



- ١ - سامي السعيد ، ٢ - حسين كريشان ، ٣ - فؤاد المفتي ، ٤ - محمد فيومي ، ٥ - سميح خرما ،
 ٦ - فريدون حربي ، ٧ - هشام عز الدين ، ٨ - عبد المجيد أبو قورة ،
 ٩ - عصام خورشيد ، ١٠ - نديم (...) ، ١١ - زهير عوض ، ١٢ - (...) ، ١٣ - عز الدين الطيل ،
 ١٤ - جمال (...) ، ١٥ - محمد بلقز ، ١٦ - محمد الناصر ، ١٧ - نبيه عماري ،
 ١٨ - صموئيل حداد ، ١٩ - عبد الرحمن منكو ، ٢٠ - نبيل ملحس ، ٢١ - مهدي أبو الذهب ،
 ٢٢ - عبد الرحمن منيف ، ٢٣ - فريخ شحاتيت ، ٢٤ - محمد أحمد محمود





الطوفان في عُمان



المدرج الروماني



السيل



الحصاد

لا ريب في أن عمان مدينة محظوظة إذ أتبع لها قلم مثل قلم الروائي الكبير عبد الرحمن منيف، إذ هو يتميز بذاكرة غير متحيّزة لا تنسى شيئاً من تفاصيل أية ظاهرة لا يستها، فمن شاء أن يلم بشيء من حياة عمان الاجتماعية حينئذ، بشيء من تاريخ الطب والاطباء ونظام الكتاتيب والمدارس الحديثة والأزياء، ونشأة فرق كرة القدم، وما فعله السيل بعُمان سنة ١٩٤٢، وعودة الحياة إلى طبيعتها إثر توقف المطر وبداية صحوة الطبيعة في الربيع، بأشياء أخرى كثيرة، وجد هذا الكتاب مصدراً مهماً لكل ذلك وغيره.

شخصية الجدة في الكتاب رئيسية ومهمة لأنها بحكم تجربتها وحكاياتها وتعليقاتها تكمل بعض ما كان ينقص «الصغير» في تلك الأيام. وقد رسمت بمحبة وتقدير، لا يستطيع شخص أن يضع هذا الكتاب جانباً قبل أن يبلغ آخر فقرة فيه إنه على استرساله مليء بالتحويلات والكشوف والصور المرسومة بحنكة روائي متمرس.

الدكتور احسان عباس



«سيرة مدينة، عَمَّان في الاربعينات» تفوق في تأثيرها السجل التاريخي الذي يتوقف عند مجرد رصد الاحداث وملاحظتها وتسجيلها، لأنها صوت ينفذ إلى داخل الحدث، ليحرره من سجن التاريخ وقيود سجلاته، وهي سيرة الامس والحاضر والمستقبل، سيرة تتحدى الاقليمية وواضعي حدودها، سيرة تحفظ للأجيال صورة عمان وهي تتحول من بلدة بسيطة وادعة فيها كل مقومات الريف والبداوة إلى مدينة اتسعت جبالها وتلالها وسهولها حديثاً لاكثر مما اتسع مسرحها الروماني في القديم.

الدكتور محمد شاو



قد يدهش القارئ العربي العادي حين يقرأ «عمل» عبد الرحمن منيف عن عمان، وقد تشبهت المدينة بالحميمة، وقد يتساءل:

ترى ما الذي دفع روائياً كبيراً مثل منيف، «العربي النحوي» إلى الكتابة عن عمان، الحجاب بسيط جداً ومركب بسيط جداً، عَمَّان مدينة العربية الوحيدة، فلا يحجز من لها إلى عمان أن يزعم أنه «عماني»، وأن اللاند بعده بعُمان غريب أو طائر.

مؤنس الرزاز

يكتب الروائي سيرة مدينة تجربة ربما لم يعرفها، بعد، أدبياً العربي الحديث. عبد الرحمن منيف يروي سيرة المدينة، سيرة مدينة معيشة في عمان، خلال فترة زمنية معينة هي الاربعينات - سيرة مدينة عاش الروائي إحدى فترات تكيفها ونمو لانها، في تلك السنوات والشوارع والأحياء، وتكثر جمعيات البشر، والعلاقات بين سكان الناس والزمن....

(عدد الطريق - مارس ١٩٩٤)



المؤسسة
مركز البحوث، ص.ب. ٥٤١٠-٧
الدراسات
العلوم، الحق، بركاي، ٨٩٤٠
والفنانين، بركاي، LE/DIRKAY ٤.٦٧
أفنان، زمير، بركاي

تصوير: رمزي
معالجة الصور: هراير سركيسيان
تصميم الغلاف: ياسر منيف